الفصل
في
الملل والأهواء والنحل

تأليف

الإمام أبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري

المتوفى سنة ٤٥٦هـ

الجزء الخامس

تحقيق

الدكتور محمد إبراهيم نصر

كلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الدكتور عبد الرحمن عميرة

عميد كلية أصول الدين

جامعة الأزهر - فرع أسيوط

دار الجيل

بيروت

ط ٢ / ١٩٩٦م

الطبعة الثانية
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

« الكلام فى إمامة المفضول »

قال أبو محمد : ذهبت طوائف من الخوارج ، وطوائف من المعتزلة ، وطوائف من المرجئة ، منهم محمد بن الطيّب الباقلانى[1]، ومن اتبعه ، وجميع الرافضة من الشيعة إلى أنه لا يجوز إمامة من يوجد فى الناس أفضل منه . وذهبت طائفة من الخوارج وطائفة من المعتزلة ، وطائفة من المرجئة ، وجميع الزيدية من الشيعة ، وجميع أهل السنة إلى أن الإمامة جائزة لمن غيرُه أفضل منه .

قال أبو محمد : وأمّا الرافضة فقالوا إن الإمام واحد معروف بعينه فى العالم على ما ذكرنا من أقوالهم التى[2] تقدّم إفسادنا لها ، والحمد لله رب العالمين .

وما نعلم لمن قال إنَّ الإمامة لا تجوز إلّا لأفضل من يوجد حجةً أصلًا لا من قرآنٍ ولا من سنة ، ولا من إجماع ، ولا من صحة عقلٍ ولا من قياس ، ولا قولِ صاحب ، وما كان هكذا فهو أحق قولٍ بالاطراح . وقد قال أبو بكر رضى الله عنه يوم السقيفة قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين يعنى أبا عبيدة وعمر ، وأبو بكر أفضل منهما بلا شك ، فما قال أحد من المسلمين إنه قال : من ذلك بما لا يحل فى الدين ، ودعت الأنصار إلى بيعة سعد[3] بن عبادة ، وفى المسلمين عدد كثير كلهم أفضل منه بلا شك — فصحّ بما ذكرنا إجماع جميع الصحابة رضى الله عنهم على جواز إمامة المفضول ، ثم عَهِدَ[4] عمر رضى الله عنه إلى ستة

---

(١) هو : محمد بن الطيب بن محمد محمد أبو جعفر ، قاضٍ من كبار علماء الكلام ، انتهت إليه الرياسة فى مذهب الأشاعرة ، ولد فى البصرة عام ٣٣٨ هـ ، وسكن بغداد وتوفى فيها عام ٤٠٣ هـ وجهه المعتضد سفيرًا إلى ملك الروم ، فجرت له فى القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدى مليكها ، من كتبه : إعجاز القرآن ، والملل والنحل ، وكشف أسرار الباطنية (الأعلام ٤٦/٧) .

(٢) فى (أ) : الذى قد .

(٣) هو : سعد بن عبادة بن دُلَيْم ، بن حارثة الخزرجى ، صحابى من أهل المدينة ، كان سيّد الخزرج ، وأحد الأمراء الأشراف فى الجاهلية والإسلام ، كان يلقب فى الجاهلية بالكامل لمعرفته الكتابة والرمى والسباحة ، شهد العقبة مع السبعين من الأنصار ، وكان أحد النقباء الاثنى عشر وشهد أحدًا والخندق وغيرهما ، خرج فى أخريات أيامه إلى الشام مهاجرًا فمات بحوران عام ١٤ هـ (الأعلام) .

(٤) فى (أ) : (عهدهم)

رجال ولابدَّ أن لبعضهم على بعض فضلا . وقد أجمع أهل الإسلام حينئذ على أنه إن بويع أحدهم فهو الإمام الواجبة طاعته ، وفى هذا إطباق منهم على جواز إمامة المفضول . ثم مات على رضى الله عنه فبويع الحسن[٥] ثم سلم الأمر إلى معاوية ، وفى بقايا الصحابة من هو أفضل منهما بلا خلاف ممن أنفق قبل الفتح وقاتل فكلهم أوَّلُهم عن آخرهم بايع معاوية ، ورأى إمامته ، وهذا إجماع متيقن بعد إجماعٍ على جوازِ إمامة مَنْ غَيْرُه أفضلُ منه[٦] بيقين لا شك فيه ، إلى أن حدث من لا وزن له عند الله تعالى فخرقوا الإجماع بآرائهم الفاسدة بلا دليل ، ونعوذ بالله من الخذلان .

قال أبو محمد : والعجب كله كيف يجتمع قول الباقلانى أنه لا تجوز الإمامة لمن غيرهُ من الناس أفضل منه ، وهو قد جوَّز النبوة والرسالة لمن غيره من الناس أفضل منه ، فإنه صرّح فيما ذكره عنه صاحبه أبو جعفر[٧] السمنانى الأعمى قاضى الموصل بأنه جائز أن يكون فى الأمة من هو أفضل من رسول الله ﷺ من حين بعث إلى أن مات .

قال أبو محمد : ما فى خذلان الله عز وجل أحمق[٨] من هاتين القضيتين[٩] لاسيما إذا اقترنتا ، والحمد لله على السلامة[١٠].

فإن قال قائل : كيف تحتجون هنا بقول الأنصار رضى الله عنهم فى دعائهم إلى سعد ابن عبادة وهو عندكم خطأ وخلاف للنص من رسول الله ﷺ ، وكيف تحتجون فى هذا أيضًا بقول أبى بكر : رضيت لكم أحد هذين ، وخلافة أبى بكر رضى الله عنه عندكم نص من رسول الله ﷺ فمن أين له أن يترك ما نصَّ عليه رسول الله ﷺ ؟

قلنا وبالله تعالى التوفيق : إن فعل الأنصار رضى الله عنهم انتظم حكمين ، أحدهما : تقديم من ليس قرشيًا ، وهذا خطأ قد[١١] خالفهم فيه المهاجرون فسقطت هذه القضية .

---

(٥) هو : الحسن بن على بن أبى طالب الهاشمى ، القرشى ، أبو محمد خامس الخلفاء الراشدين وآخرهم ، وثانى الأئمة الإثنى عشر عند الإمامية ، ولد فى المدينة المنورة ، وأمه فاطمه الزهراء بنت رسول الله ﷺ ، وهو أكبر أولادها وأولهم ، حج عشرين حجة ماشيا ، بايعه أهل العراق بالخلافة بعد مقتل أبيه سنة ٤٠ هـ ، ورفض محاربة معاوية ، وخلع نفسه من الخلافة وسلم الأمر لمعاوية فى بيت المقدس سنة ٤١ هـ . وسمى هذا العام عام الجماعة لاجتماع كلمة المسلمين فيه ، وانصرف إلى المدينة حيث أقام إلى أن توفى مسموما سنة ٥٠ هـ (الأعلام : ٢/٢١٤) .

(٦) فى (أ) : سقطت (منه) .

(٧) هو : محمد بن أحمد بن محمد السمنانى ، أبو جعفر ، قاض حنفى أصله من سمنان العراق ، نشأ ببغداد ، وولى القضاء بالموصل إلى أن توفى بها عام ٤٤٤ هـ ، وكان مقدّم الأشعرية فى وقته ، وشنع عليه ابن حزم ، له تصانيف فى الفقه ، منها : تبيين كذب المفترى ، والجواهر المضيئة ، ونكت الهميان . (الأعلام : ٦/٢٠٦) .

(٨) فى (أ) : (أحق) وهو تحريف .

(٩) (القضيتين) هكذا فى الأصل وعليه فربما كان المقصود أصحاب هاتين القضيتين لأنهم آثاروا ما أثاروه حول قضية المفضول – وقضية من هو أفضل من الرسول ، ويحتمل أن تكون الكلمة (العصبتين) .

(١٠) فى (أ) : (الإسلام) .

(١١) فى (أ) : (وقد) .

والثانى : جواز تقديم من غيره أفضل منه ، وهذا صواب وافقهم عليه أبو بكر وغيره ، فصار إجماعًا فقامت به الحجة ، وليس خطأ من أخطأ فى قول وخالفه فيه من أصاب الحق بموجب ألَّا يُحتَجَّ بصوابه الذى وافقه فيه أهل الحق ، وهذا ما لا خلاف فيه وبالله تعالى التوفيق .

وأمّا أمر أبى بكر فإن الحق كان له بالنص ، وللمرء أن يترك حقّه إذا رأى فى تركه إصلاح ذات بين المسلمين ، ولا فرق بين عطية أعطاها رسول الله ﷺ إنسانًا من المسلمين فكان للمعطى أن يعطىَ غيره ما أعطاه رسول الله ﷺ(١٢)، وبين منزلة صيَّرها(١٣) رسول الله ﷺ لإنسان فكان له أن يتجافى عنها لغيره إذ لم يمنعه من ذلك نصٌّ ولا إجماع وبالله تعالى التوفيق .

* * *

قال أبو محمد : وبرهان صحة قول من قال بأن الإمامة جائزة لمن غيره أفضل منه وبطلان قول من خالف ذلك : أنه لا سبيل إلى أن يعرف الأفضل إلَّا بنص أو إجماع أو معجزة تظهر ، فالمعجزة ممتنعة هاهنا بلا خلاف ، وكذلك الإجماع وكذلك النص .

وبرهان آخر : وهو أن الذى كلفوا به من معرفة جهة(١٤) الأفضل ممتنع محال لأن قريشا مفترقون فى البلاد من أقصى السند إلى أقصى الأندلس ، إلى أقصى اليمن ، وصحارى البربر إلى أقصى **أرمينية**(١٥) **وأذربيجان**(١٦)، **وخراسان**(١٧) فما بين ذلك من البلاد ، فمعرفة أسمائهم ممتنع ، فكيف معرفة أحوالهم ؟ فكيف معرفة أفضلهم ؟ .

---

(١٢) فى (أ) : سقط الكلام من قوله [إنسانا من المسلمين إلى وسلم] .

(١٣) فى (أ) : (صبرها) بالباء المفردة وهو تحريف .

(١٤) فى (أ) : سقطت كلمة (جهة) .

(١٥) أرمينية : إسم لصقع عظيم واسع ، سمى باسم « أرْمينا بن لَنْطابن أومر بن يافث بن نوح عليه السلام . وقد ترجمنا لها فى الجزء الأول (معجم البلدان ١/١٦٠) .

(١٦) أذربيجان : قالَ ابن المقفع سميت باسم : باذر بن إيران بن الأسود بن سام بن نوح عليه السلام . وقيل : أذرباذ بن بيوراسف . وقيل « أذرا » : اسم النار بالفهلوية . و« بايكان » : معناه الحافظ والخازن فكأن معناه : بيت النار ، أو خازن النار . وأذربيجان : إقليم واسع من مدنها « خوى » و« سلماس » و« تبريز » وهى أكبر مدنها . وقد فتحت أولًا فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان قد أنفذ المغيرة بن شعبة الثقفى واليا على الكوفه ، ومعه كتاب إلى حذيفة بن اليمان بولاية أذربيجان ، فذهب إليها حذيفة بجيش كثيف فالتقى بجيش مرزبانها واقتتلوا قتالا شديدًا ، وفتحت عنوة سنة ٢٢ هـ وقيل : إن فتحها كان سنة ٢٠ هـ .. وفى معجم البلدان تفاصيل وافيه عنها (معجم البلدان ١/١٢٨) طبع دار بيروت للطباعة والنشر .

(١٧) خراسان : بلاد واسعة ، أول حدودها مما يلى العراق (أزاذوار) ، وآخر حدودها مما يلى الهند (طخارستان) و« غزنه وسجستان ، وكرمان » (معجم البلدان) .

وبرهان آخر : وهو أنا بالحسّ والمشاهدة ندرى أنه لا يدرى أحد فضل إنسان على غيره ممن بعد الصحابة رضى الله عنهم إلّا بالظنّ ، والحكم بالظن لا يحل . قال الله تعالى ذامًّا لقوم : « إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين[١٨] » .

وقال تعالى : « ما لهم بذلك من علم إن هم الا يخرصون[١٩] » .

وقال تعالى : « قتل الخراصون[٢٠] » .

وقال تعالى : « إن يتبعون الا الظن ، وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى ، أم للانسان ما تمنى[٢١] » .

وقال تعالى : « إن يتبعون الا الظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا[٢٢] » .

وقال رسول الله ﷺ : « إيّاكم والظّن فإنَّ الظَّنَّ أكذبُ الحديث[٢٣] » .

وأيضا : فإننا وجدنا الناس يتباينون فى الفضائل ، فيكون الواحد أزهد ، ويكون الآخر أورع[٢٤]، ويكون الآخر أسوس ، ويكون الرابع أشجع ، ويكون الخامس أعلم ، وقد يكونون متقاربين فى التفاضل لا يبين التفاوت بينهم ، فبطل معرفة الأفضل ، وصحَّ أنَّ هذا القول فاسد ، وتكليف ما لا يطاق ، وإلزام ما لا يستطاع ، وهذا باطل لا يحل ، والحمد لله رب العالمين .

ثم قد وجدنا أنَّ رسول الله ﷺ قد قلّد النواحى ، وصيَّر[٢٥] فيها تنفيذ جميع الأحكام التى تنفذها الأئمة إلى قوم كان غيرهم بلا شك أفضل منهم ، فاستعمل على أعمال اليمن معاذ[٢٦] ابن جبل ، وأبا موسى ، وخالد بن سعيد[٢٧]، وعلى عمان : عمرو بن العاص ، وعلى نجران

(١٨) الجاثية : ٣٢

(١٩) الزخرف : ٢٠

(٢٠) الذاريات : ١٠

(٢١) النجم : ٢٣

(٢٢) النجم : ٢٨ . وقد جاءت الآية محرفة فى (خ) فكتبها (تتبعون) .

(٢٣) رواه البخارى فى الوصايا : ٨ ، والنكاح : ٤٥ ، والفرائض : ٣ . ورواه مسلم فى البر : ٣٨ . والترمذى فى البر : ٥٦ ، والموطأ فى حسن الخلق : ١٥ ، وأحمد بن حنبل فى المسند : حـ ٣ ص ٢٤٥) .

(٢٤) فى (أ) : ويكون الواحد « أروع » بتقديم الراء على الواو . وهو تحريف . ويؤخذ على أبى محمد أنه استعمل كلمة الآخر مكان الثانى والثالث ، والأفصح فى استعمالها أنها تستعمل مقابلة للعدد الذى قبلها ، ولا يكون عدد بعدها .

(٢٥) فى (أ) : (وصرَّف تنفيذ) .

(٢٦) لما جاءت رسل ملوك اليمن إلى رسول الله ﷺ تعلن إسلامها ، وتسأله أن يبعث معها من أصحابه من يعلمهم أمور دينهم انتدب لهذه المهمة خمسة رجال من أصحابه هم : خالد بن سعيد ولاه على صنعاء ، و« المهاجر بن أمية » ولاه على كندة ، و« زياد بن لبيد » ولاه على حضرموت ، و« معاذ بن جبل » على الجند وعلى جمع الصدقات من العمال ، و« أبو موسى الأشعرى » على زبيد وعون والساحل (سيرة ابن هشام) .

(٢٧) فى الأصل : (خالد بن الوليد) ، وهو خطأ ، فلم يكن خالد بن الوليد من بين هؤلاء الولاة ، وإنما هو خالد بن سعيد .

أبا سفيان[٢٨]، وعلى مكة عتّاب[٢٩] بن أسيد وعلى الطائف : عثمان بن أبى العاص[٣٠]، وعلى البحرين : العلاء بن الحضرمى[٣١]. ولا خلاف فى أن أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وطلحة والزبير وعمّار بن ياسر وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبا عبيدة ، وابن مسعود وبلالًا ، وأبا ذر أفضل ممن ذكرنا – فصح يقينا أنَّ الصفات التى تُستَحقُّ بها الإمامةُ والخلافة ليس منها التقدّم فى الفضل .

وأيضًا : فإنَّ الفضائل كثيرة جدًّا ، منها الورع ، والزهد ، والعلم ، والشجاعة ، والسخاء ، والحلم ، والعفة ، والصَّبر ، والصّرامة ، وغير ذلك ولا يوجد أحدٌ يبين فى جميعها ، بل يكون بائنا فى بعضها ومتأخرًا فى بعضها ، ففى أيِّها يراعِى الفضلَ من لا يجيز إمامة المفضول ؟!

فإن اقتصر على بعضها كان مدَّعيًا بلا دليل ، وإن عم جميعها كلف ما لا سبيل إلى وجوده أبدًا فى أحد بعد رسول الله ﷺ ، فإذ لا شك فى ذلك ، فقد صح القول فى إمامة المفضول ، وبطل قول من قال غير ذلك ، وبالله تعالى التوفيق .

* * *

(٢٨) أبو سفيان : هو عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان الأنصارى ، أبو الضّحاك ، والٍ من الصحابة ، شهد الخندق وما بعدها – وهو الذى استعمله النبى ﷺ على نجران ، وكتب له عهدًا مطولًا فيه توجيه وتشريع . ترجمته فى الإصابة ، وفى مجموعة الوثائق السياسية ١٠٤ – ١٠٩ ، وفيها نصّ عهد النبى ﷺ له ، وفى فتوح البلدان للبلاذرى ٧٧ ، والكامل لابن الأثير ١٩٦/٣ . (الأعلام/٥ : ٢٤٤) وكنيته أبو الضحاك .

(٢٩) عتاب بن أسيد : هو عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس – أبو عبد الرحمن وال أموى قرشى مكى ، من الصحابة ، كان شجاعا عاقلا ، من أشراف العرب فى صدر الإسلام أسلم يوم فتح مكة ، واستعمله النبى ﷺ عند مخرجه إلى حنين سنة ٨ هـ ، وكان عمره ٢١ سنة ، وأقره أبو بكر ، وفى المؤرخين من يذكر أنه عاش واليا على مكة إلى أواخر أيام عمر فتكون وفاته فى أوائل سنة ٢٣ هـ (الأعلام : ٣٥٨/٤) .

(٣٠) هو : عثمان بن أبى العاص بن بشر بن عبد بن دهمان ، من ثقيف ، صحابى ، من أهل الطائف ، أسلم فى وفد ثقيف ، فاستعمله النبى ﷺ على الطائف ، فبقى فى عمله إلى أيام عمر ، ثم ولّاه عمر (عمان) و« البحرين » سنة ١٥ هـ ، وكتب له أن يستخلف على الطائف من أحب فاستخلف أخاه الحكم ، واستمر فى البحرين إلى أن آلت الخلافة لعثمان بن عفان ، فعز له ، فسكن البصرة إلى أن توفى . وهو الذى منع ثقيفا عن الرِّدة ، وخطبهم فقال : كنتم آخر الناس إسلاما ، فلا تكونوا أولهم ارتدادًا . ترجمته فى الاصابة وابن سعد ، وجمهرة الأنساب . (الأعلام : ٣٦٨/٤) .

(٣١) هو : العلاء بن عبد الله الحضرمى ، صحابى من رجال الفتوح فى صدر الإسلام ، أصله من حضرموت ، سكن أبوه مكة ، فولد بها العلاء ونشأ . ولاه رسول الله ﷺ البحرين سنة ٨ هـ ، وجعل له جباية الصدقة وأعطاه كتابا فيه فرائض الصدقة فى الإبل والبقر والغنم والثمار والأموال ، وأمره أن يأخذ الصدقة من أغنيائهم ويردّها على فقرائهم ، وبعد وفاة النبى ﷺ أقرّه أبو بكر ، ثم عمر ، ووجهّه عمر إلى البصر فمات فى الطريق فى قرية من أرض تميم اسمها « لياس » وقيل مات فى البحرين ، وهو الذى سيَّر عرفجة بن هرثمة إلى شواطىء فارس سنة ١٤ هـ بالسفن ، فكان أول من فتح جزيرة بأرض فارس فى الإسلام ، ويقال إن العلاء أول مسلم ركب البحر للغزو . توفى سنة ٢١ هـ . (الأعلام : ٤٤/٥) .

قال أبو محمد : وذكر الباقِلَّانى فى شروط الإمامة أنها أحد عشر شرطا وهذا أيضًا دعوى بلا برهان ، وما كان هكذا فهو باطل ، فوجب أن يُنظر فى شروط الإمامة التى لا تجوز الإمامة لغير من هى[٣٢] فيه . فوجدناها أن يكون صلبيه من قريش لإخبار رسول الله ﷺ : أن الإمامة فيهم .

وأن يكون بالغًا مميزًا لقول رسول الله ﷺ : « رفع القلم عن ثلاثة[٣٣] » ، فذكر الصبى حتى يحتلم ، والمجنون حتى يفيق ، وأن يكون رجلًا : لقول رسول الله ﷺ : « لا يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة[٣٤] » .

وأن يكون مسلما : لأن الله تعالى يقول : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا[٣٥] » .

والخلافة أعظم السبل[٣٦] ، ولأمره تعالى بإصغار أهل الكتاب ، وأخذهم بأداء الجزية ، وقتل من لم يؤمن[٣٧] من أهل الكتاب حتى يسلموا .

وأن يكون منفذًا[٣٨] لأمره ، عالما بما يلزمه من فرائض الدين ، متَّقيا لله تعالى بالجملة ، غير معلن بالفساد فى الأرض لقول الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان[٣٩] » .

لأنّ من قدَّم من لا يتّقى الله عزَّ وجل ، ولا فى شئ من الأشياء ، أو معلنًا بالفسادِ فى الأرض غير مأمون ، أو من لا ينفّذ أمرًا ، أو من لا يدرى شيئًا من دينه ، فقد أعان على الإثم والعدوان ، ولم يُعن على البرّ والتقوى وقد قال رسول الله ﷺ : « من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ[٤٠] » .

---

(٣٢) فى (أ) : (من هن) .

(٣٣) جاء هذا الحديث فى سنن ابن ماجه ، باب طلاق المعتوه والصغير والنائم رقم ٢٠٤١ ، ولفظه من طريق أبى بكر بن شيبة مسندًا إلى عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصغير حتى يكبر ، وعن المجنون حتى يعقل أو يفيق » ، قال أبو بكر فى حديثه : « وعن المبتلى حتى يبرأ » .

(٣٤) رواه البخارى ولفظه : عن أبى بكرة قال : لقد نفعنى الله بكلمة أيام الجمل ، لما بلغ النبىَّ ﷺ أن فارسًا ملَّكوا ابنة كسرى قال : لن يُفلح قومٌ ولَّوا أمرهم امرأة . (البخارى : كتاب الفتن) .

(٣٥) سورة النساء : ١٤١

(٣٦) فى (أ) : (أعظم السبيل) .

(٣٧) فى (أ) : (من لم يكن) .

(٣٨) فى (أ) : (متقدما) وهو تحريف ظاهر .

(٣٩) المائدة : ٢

(٤٠) رواه مسلم ، وهذا الحديث من مرويات عائشة ، فى كتاب الأقضية ، باب نقض الأحكام الباطلة ، ورد محدثات الأمور .

وقال عليه السلام : « يا أبا ذر إنَّك ضعيف فلا تؤمَّرَنَّ على اثنين ، ولا تولَّين مالَ يتيم[٤١] » . وقال تعالى : « فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا [٤٢] » .

فصحَّ أنَّ السفيه والضعيف ، ومن لا يقدر على شيء فلا بدَّ له من ولى ، ومَن لا بدَّ له من ولى – فلا يجوز أن يكون وليا للمسلمين . فصح أن ولاية من لا[٤٣] يستكمل هذه الشروط الثمانية باطل لا يجوز ، ولا ينعقد أصلًا .

ثم يستحبُ أن يكون عالما بما يخصه من أمور الدين ، من العبادات والسياسة والأحكام ، مؤدِّيا للفرائض كلها لا يخل بشيءٍ منها ، مجتنبًا لجميع الكبائر سرًّا وجهرًا ، مستترًا بالصغائر إن كانت منه .

فهذه أربع صفات يكره أن يلى الأمر[٤٤] من لم ينتظمها ، فإنْ وَلى فولايته صحيحة ونكرهها ، وطاعته فيما أطاع الله فيه واجبة ، ومنعه مما[٤٥] لم يطع الله فيه واجب والغاية المأمولة فيه : أن يكون رفيقًا بالنّاس غير[٤٦] ضعيف ، شديدًا فى إنكار المنكر من غير عنف ، ولا يجاوز للواجب ، متيقظا[٤٧] غير غافل ، شجاع النفس غير مانع للمال فى حقه ، ولا مبذرًا له فى غير حقه .

ويجمع هذا كله : أن يكون الإمام قائمًا بأحكام القرآن ، وسنن رسول الله ﷺ . فهذا يجمع كل فضيلة .

قال أبو محمد : ولا يضر الإمام أن يكون فى خلقه عيب ، كالأعمى والأصم والأجدع ، والأجذم ، والأحدب ، والذى لا يدان له ، ولا رجلان ، ومن بلغ الهرم مادام يعقل ، ولو أنه ابن مائة عام ، ومن يعرض له الصَّرع ثم يفيق ، ومن بويع إثر بلوغه الحلم وهو مستوف لشروط الإمامة ، فكل هؤلاء إمامتهم جائزة إذ لم يمنع منها نص قرآن ، ولا سنة ، ولا إجماع ، ولا نظر ، ولا دليل أصلًا .

---

(٤١) رواه مسلم فى كتاب الإمارة بلفظ : يا أبا ذر إنى أراك ضعيفًا ، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى ، لا تأمَّرن على اثنين ، ولا تَوَلَّيَنَّ مال يتيم .
(٤٢) البقرة : ٢٨٢
(٤٣) فى (أ) : (من لم) .
(٤٤) فى (أ) : (الأمة) .
(٤٥) فى (أ) : (وبمّا) وهو تحريف ظاهر .
(٤٦) فى (أ) : (فى غير ضعف) .
(٤٧) فى (أ) : مستيقظا .

فلا يجوز التوارث فى الإمامة لأنه لم يوجب ذلك أيضًا نص قرآن ولا سنة ولا إجماع ولا دليل(٤٨)، بل قال تعالى : « كُونُوا قَوَّامِينَ بالقِسْطِ(٤٩)» .

فمن قام بالقسط فقد أدّى ما أُمر به ، ولا خلاف بين أحدٍ من أهل الإسلام فى أنه لا يجوز التوارث فيها ، ولا فى أنها لا تجوز لمن لم يبلغ حاش الروافض فإنهم أجازوا كلا الأمرين ، ولا خلاف بين أحد فى أنها لا تجوز لامرأة ، وبالله تعالى نتأيّد .

* * *

(٤٨) فى (أ) : سقط الكلام من أول (فلا يجوز التوارث إلى دليل) .
(٤٩) النساء : ١٣٥

« الكلام فى عقد الإمامة بماذا يصح[١] »

قال أبو محمد : ذهب قوم إلى أن الإمامة لا تصح إلَّا بإجماع فضلاء الأمة فى أقطار البلاد .

وذهب آخرون إلى أن الإمامة إنما تصح بعقد أهل حضرة الإمام والموضع الذى فيه قرار الأئمة .

وذهب أبو على محمد بن عبد الوهاب[٢] الجبائى إلى أن الإمامة لا تصح بأقل من عقد خمسة رجال ، ولم يختلفوا فى أن عقد الإمامة يصح بعهد من الإمام الميت إذا قصد فيه حسن الاختيار للأمة عند موته ولم يحاب[٣] بذلك بهوى ، وقد ذكرنا[٤] فساد قول الروافض وقول الكيسانية ، ومن ادّعى إمامة رجل بعينه ، وأنبأ أن كل ذلك دعاوى لا يعجز عنها ذو لسان ، إذا لم يتق الله ، ولا استحيا[٥] من الناس إذ لا دليل على شىء منها .

قال أبو محمد : أمّا من قال إنَّ الإمامة لا تصحُّ إلا بعقد فضلاء الأمة فى أقطار البلاد فباطل لأنه تكليف ما لا يطاق وما ليس فى الوسع ، وما هو أعظم الحرج ، والله تعالى لا يكلف نفسا إلَّا وسعها . وقال تعالى : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج[٦] » .

---

(١) فى (أ) : (تصح) .

(٢) هو : أبو على محمد بن عبد الوهاب ، له نحو أربعين ورقة فى الكلام ، كان إمامًا فى علم الكلام أخذه عن أبى يوسف يعقوب بن عبد الله الشحّام رئيس معتزلة البصرة فى عصره وعنه أخذ أبو الحسن الأشعرى شيخ السنة ، كانت ولادته سنة ٢٣٥ هـ وتوفى سنة ٣٠٣ هـ (وفيات الأعيان : ٣٩٨/٣) وأقرأ عنه فى فرق وطبقات المعتزلة من ٨٥ - ٩٠) .

(٣) فى (أ) : (ولم يقصد) .

(٤) فى (أ) : (ذكر فى) .

(٥) فى (أ) : ولا استحياء) .

(٦) الحج : ٧٨ . وقد جاءت هذه الآية محرفة فى (أ) حيث حذف (عليكم) .

قال أبو محمد : ولا حرج ولا تعجيز أكثر من تعرف إجماع فضلاء من فى **المولتان والمنصورة**(٧) إلى **بلاد مِهْرَة**(٨) إلى **عدن** إلى أقاصى **بلاد المصَامِدة**(١٠) إلى **طنجة**(١١) إلى **الأشْبُونة**(١٢) إلى جزائر البحر إلى سواحل الشام إلى **أرمينية وجبل الفتح**(١٣) إلى **أسمار**(١٤)، **وفرعانه**(١٥) **وأُسْرُوشَنه**(١٦) إلى **أقاصى خراسان**(١٧) إلى **الجورجان**(١٨) إلى **كابل**(١٩) إلى **المولتان** فما بين ذلك من المدن والقرى ، ولا بدَّ من ضياع أمور المسلمين قبل أن يجمع جزء من مائة جزء من فضلاء أهل هذه البلاد فبطل هذا القول الفاسد مع أنه لو كان ممكنا لما لزم لأنه دعوى بلا برهان ، وإنما قال تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى(٢٠)» « كونوا قوامين بالقسط(٢١)» .

فهذان الأمران متوجهان أحدهما : إلى كل إنسان فى ذاته ، ولا يسقط عنه وجوب القيام بالقسط انتظار غيره فى ذلك .

---

(٧) المنصورة : بأرض السند ، وهى مدينة كبيرة كثيرة الخيرات ، قال المسعودى سميت بذلك نسبة إلى منصور بن جمهور عامل بنى أمية ، وقال الحسن بن أحمد المهلبى : سميت بذلك لأن عمر بن حفص الهزار بناها فى أيام المنصور من بنى العباس ، وهناك (المنصورة) مدينة كانت بالبطيحة عمرها مهذب الدولة فى أيام بهاء الدولة بن عضد الدولة ، ومنها : المنصورة : مدينة خوارزم القديمة ، وهناك مدينة قرب القيروان تسمى بهذا الاسم . (معجم البلدان : ٣١١/٥) .

(٨) مهرة : بكسر الميم وسكون الهاء ، والمهر بالفارس له معنيان أحدهما الشمس ، وثانيهما : المحبة والشفقة وهى قرية من قرى « مرو » وتنسب إلى مِهْران « وهو موضع لنهر السند يصب فى بحر فارس ، وهو نهر عظيم بقدر دجله تجرى فيه السفن ، ويسقى بلادًا كثيرة ، قال الاصطخرى : بلغنى أن مخرج مِهْران من ظهر جبل يخرج منه بعض أنهار جيحون فيظهر مهران بناحية الملتان . (معجم البلدان : بتصرف) .

(٩) عدن : مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ، قال أبو محمد الحسن بن أحمد الهمذانى اليمنى ، « عدن » جنوبية تهامية ، وهى أقدم أسواق العرب ، وبين عدن وصنعاء ثمانية وستون فرسخا ، وهى أول موضع ظهرت فيه دعوة العلوية باليمن بعد مصر . (معجم البلدان : ٨٩/٤) بتصرف .

(١٠) المصامدة : نسبة إلى مصمودة ، وهى قبيلة بالمغرب ، فيه موضع يعرف بهم ، ونشأ من بينهم محمد بن تومرت صاحب دعوة بنى عبد المؤمن ، الذى تم له بالمغرب ما تم من الاستيلاء على البدو ، والعلية . (معجم البلدان : ١٣٦/٥) .

(١١) طنجة : بلد على ساحل بحر المغرب ، مقابل الجزيرة الخضراء وبلاد البربر ، قال ابن حوقل : « طنجة مدينة أزلية ، آثارها ظاهرة ، بناؤها بالحجارة ، قائمة على البحر ، آخر حدود أفريقية » (المرجع السابق) .

(١٢) لشبونة : مدينة بالأندلس ، قريبة من البحر ، غرب قرطبة ، فى جبالها تبر خالص ، ولعسلها فضل على كل عسل الأندلس بحيث يلف فى خرقة فلا يلوثها ، وبساحلها العنبر الفائق . (معجم البلدان ١٦/٥) .

(١٣) فى (أ) : (القبج) .

(١٤) فى (أ) : (أسبنجاب) .

(١٥) فى (أ) : (فرغانة) .

(١٦) أُسْروشنه : بالفتح ثم السكون ، وضم الراء ، وفتح السين المعجمة والنون المهملة ، وهى مدينة مما وراء النهر (كتاب البلدان لأبى الحسن على بن جعفر الشيذرلى) .

(١٧) خراسان : بلاد واسعة أول حدودها مما يلى العراق ، وتشتمل على أمهات من البلاد منها : نيسابور وهراه ، ومرو ، وبلخ وغيرها ، وقد فتحت أكثر هذه البلاد عنوة وصلحا فى سنة ٣٠ هـ فى أيام عثمان رضى الله عنه بإمارة عبد الله بن عامر . (معجم البلدان : ٣٥٠/٢) .

(١٨) جورجان : بالضم ، وهى مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان ، قيل أن أول من بناها يزيد بن المهلب بن أبى صفرة ، وقد خرج منها مجموعة من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين ، ولها تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمى . (معجم البلدان) .

(١٩) كابُل : بضم الباء الموحدة ، قال الاصطخرى : الخلْج : صنف من الأتراك وقعوا فى قديم الزمان على أرض كابُل التى بين الهند ونواحى سجستان ، وهم أصحاب نعم على الأتراك فى زيهم ولسانهم . وكابل : ولاية ذات مروج كبيرة بين الهند وغزنه .. (معجم البلدان) وهى الآن عاصمة (أفغانستان) .

(٢٠) المائدة : ٢

(٢١) النساء : ١٣٥ ، وقد جاءت هذه الآية محرفة فى (أ) حيث كتبت (وكونوا) .

وأمّا التعاون على البرّ والتقوى فمتوجه إلى كل اثنين فصاعدًا لأن التعاون فعل من فاعلين ، وليس فعل واحد ، ولا يسقط عن الاثنين فرض تعاونهما على البرّ والتقوى انتظار ثالث ، إذ لو كان ذلك لما لزم أحدًا قيامٌ بقسط ، ولا تعاون على برٍّ وتقوى ، إذ لا سبيل إلى اجتماع أهل الأرض على ذلك أبدًا لتباعد أقطارهم ولتخلف من تخلف عن ذلك لعذر أو على وجه المعصية ، ولو كان هذا لكان أمر الله تعالى بالقيام بالقسط ، وبالتعاون على البرّ والتقوى باطلًا فارغًا ، وهذا خروج عن الإسلام ، فسقط القول المذكور وبالله تعالى التوفيق .

وأما قول من قال إن عقد الإمام[٢٢] لا يصح إلّا بعقد أهل حضرة الإمام وأهل الموضع الذى فيه قرار الأئمة ، فإنّ أهل الشام كانوا قد ادّعوا ذلك لأنفسهم حتى حملهم ذلك على بيعة مروان[٢٣] وابنه عبد الملك ، وايستحلوا بذلك دماء أهل الإسلام .

قال أبو محمد : وهو قول فاسد لا حجة لأهله ، وكل قول فى الدِّين عرى عن دليل[٢٤] من القرآن أو من سنة رسول الله ﷺ أو من إجماع الأمة المتيقن فهو باطل بيقين . قال الله تعالى : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين[٢٥] » . فصح أن من لا برهان له على صحّة قوله فليس صادقا فيه فسقط هذا القول أيضًا .

وأمّا قول الجبّائى : فإنه تعلق فيه بفعل عمر رضى الله عنه فى الشورى ، إذ قلدها ستة رجال ، وأمرهم أن يختاروا واحدًا منهم ، فصار الاختيار منهم بخمسة فقط .

قال أبو محمد : وهذا ليس شيئًا لوجوه :

أولها : أن عمر لم يقل إن تقليد الاختيار أقل من خمسة لا يجوز بل قد جاء عنه أنه قال : إن مال ثلاثة منهم إلى واحد وثلاثة إلى واحد ، فاتبعوا الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن[٢٦] بن عوف فقد أجاز عقد ثلاثة .

ووجه ثان : وهو أن فعل عمر رضى الله عنه لا يلزم الأمة حتى يوافق نص قرآن

---

(٢٢) فى (أ) : (الإمامة) .

(٢٣) هو : مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموى ، أبو عبد الملك ، ويعرف بالجعدى نسبة إلى مؤدبه « الجعد بن درهم » كما يعرف بالحمار لجرأته فى الحروب . آخر ملوك بنى أمية فى الشام . لما قتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦ هـ ، وظهر ضعف الدولة فى الشام دعا الناس وهو بأرمينية إلى البيعة له فبايعوه فيها ، وزحف بجيش كثيف فى أيام إبراهيم بن الوليد قاصدًا الشام ، فخلع إبراهيم واستولى على عرش بنى مروان سنة ١٢٧ هـ . وهو آخر خلفاء بنى أمية ، قتل سنة ١٣٢ هـ وهو فار إلى مصر فى بلدة تسمى (بوصير) . (الكامل : لابن الأثير : جـ ٥ /١١٩ بتصرف) .

(٢٤) فى (أ) : (ذلك) وهو تحريف .

(٢٥) البقرة : ١١١

(٢٦) راجع ترجمته فى الجزء الرابع من هذا الكتاب ص .

أو سنة ، وعمر كسائر الصحابة رضى الله عنهم لا يجوز أن يخصه بوجوب اتباعه دون غيره من الصحابة رضى الله عنهم .

والثالث : أن أولئك الخمسة رضى الله عنهم قد تبرءوا من الاختيار وجعلوه إلى واحدٍ منهم يختار لهم وللمسلمين من رآه أهلًا للإمامة وهو عبد الرحمن بن عوف ، وما أنكر ذلك أحدٌ من الصحابة الحاضرين ولا الغائبين إذ بلغهم ذلك ، فقد صحّ إجماعهم على أن الإمامة تنعقد بعقد[٢٧] واحد .

فإن قال قائل : إنما جاز ذلك لأن خمسة من فضلاء المسلمين قلّدوه ، قيل له : إن كان هذا عندك اعتراضا فالتزم مثله سواء سواء ممن قال لك إنما صح عقد أولئك الخمسة لأن الإمام الميت قلّدهم ذلك ، ولولا ذلك لم يجز عقدهم ، وبرهان ذلك أنه إنما عقد لهم الاختيار منهم لا من غيرهم ، فلو اختاروا من غيرهم لما لزم الانقياد لهم ، فلا يجوز عقد خمسة أو أكثر إلّا إذا قلدهم الإمام ذلك أو ممن قال لك إنما صحَّ عقد أولئك الخمسة لإجماع فضلاء أهل ذلك العصر على الرضا ممن اختاروه ، ولو لم يجمعوا على الرضا به لما جاز عقدهم ، وهذا مما لا مخلص منه أصلا فبطل هذا القول بيقين لا إشكال فيه ، والحمد لله رب العالمين . وإذ[٢٨] قد بطلت هذه الأقوال كلها فالواجب النظر فى ذلك على ما أوجبه الله تعالى فى القرآن والسنة وإجماع المسلمين كما افترض علينا عزّ وجل إذ يقول : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر[٢٩]» .

فوجدنا عقد الإمامة يصح بوجوه :

أولها وأفضلها وأصحها أن يعهد الإمام الميت إلى إنسان يختاره إمامًا بعد موته وسواء فعل ذلك فى صحته أو فى مرضه أو[٣٠] عند موته إذ لا نص ولا إجماع على المنع من أحد هذه الوجوه كما فعل رسول الله ﷺ بأبى بكر ، وكما فعل أبو بكر بعمر ، وكما فعل سليمان[٣١] ابن عبد الملك بعمر بن[٣٢] عبد العزيز ، وهذا هو الوجه الذى نختاره ونكره غيره ، لما فى هذا الوجه من اتصال الإمامة ، وانتظام أمر الإسلام وأهله ، ورفع ما يتخوف من الاختلاف والشغب مما يتوقع فى غيره من بقاء الأمة فوضى ومن انتشار الأمر ، وارتفاع النفوس وحدوث الأطماع .

---

(٢٧) فى (أ) : لم يذكر كلمة (بعقد) .

(٢٨) فى (أ) : (فإذ) .

(٢٩) النساء : ٥٩ . وقد جاءت هذه الآية محرفة فى الأصل حيث ذكرت (وأطيعوا الله) .

(٣٠) فى (أ) : (وعند) بواو العطف .

(٣١) هو : سليمان بن عبد الملك : خليفة أموى ، أسس مدينة الرملة بفلسطين ، اشتبك فى معارك كثيرة مع البيزنطيين ، وحاصرت جيوشه عمورية دون جدوى ، وفى عهده فتحت جرجان ، وطبرستان وكانت فى أيدى الترك ، وتوفى فى دابق من أرض قنسرين بين حلب ، ومعرة النعمان ، ومدة خلافته سنتان وثمانية أشهر . توفى سنة ٩٩ هـ . (الطبرى : ١٢٦/٨ بتصرف) .

(٣٢) هو : عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموى ، أبو حفص ، الخليفة الصالح وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين . ولد ونشأ بالمدينة . وولى الخلافة بعهد من سليمان سنة ٩٩ هـ . دَسّ له السم وهو بدير سمعان من أرض المعرّة فتوفى به سنة ١٠١ هـ . ولعبد العزيز سيد الأهل : الخليفة الزاهد . (راجع تهذيب التهذيب : ٤٧٥/٧ بتصرف) .

قال أبو محمد : إنما أنكر من الصحابة رضى الله عنهم ومن التابعين بيعة يزيد ابن معاوية[٣٣]، والوليد[٣٤] وسليمان لأنهم كانوا غير مرضيين ، لا لأن الإمام عهد إليهم فى حياته .

والوجه الثانى : إن مات الإمام ولم يعهد إلى أحد أن يبادر رجل مستحق للإمامة فيدعو إلى نفسه ولا منازع له ففرض على أتباعه[٣٥] الانقياد لبيعته ، والتزام إمامته وطاعته كما فعل عَلِيٌّ إذ قُتل عثمان[٣٦] رضى الله عنهما ، وكما فعل ابن الزبير[٣٧] رضى الله عنهما وقد فعل ذلك خالد ابن الوليد[٣٨] إذ قُتل الأمراء زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة فأخذ خالد الراية عن غير أمره ، وصوّب ذلك رسول الله ﷺ إذ بلغه فعله ، وساعد خالدًا فى ذلك[٣٩] جميع المسلمين رضى الله عنهم[٤٠]، أو أن يقوم كذلك عند ظهور منكر يراه فتلزم معاونته على البر والتقوى ، ولا يجوز التأخر عنه ، لأن ذلك معاونة على الإثم والعدوان ، وقد قال عزّ وجل : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان[٤١]» .

كما فعل زيد بن الوليد ، ومحمد بن هارون[٤٢] المهدى رحمهما الله .

والوجه الثالث : أن يُصَيِّرَ الإمام عند وفاته اختيار خليفة للمسلمين إلى رجل ثقة أو إلى

---

(٣٣) هو : يزيد بن معاوية بن أبى سفيان الأموى ، ثانى ملوك الدولة الأموية فى الشام ، ولد بالماطرون ونشأ بدمشق ، وولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٠ هـ ، وفى زمنه فتح المغرب الأقصى على يد الأمير عقبة بن نافع ، وفتح « سَلْم بن زياد » بُخارى وخوارزم . توفى بحوارين من أرض حمص سنة ٦٤ هـ . (راجع تاريخ الطبرى : ٣٠٠/٢ بتصرف) .

(٣٤) هو : الوليد بن عبد الملك بن مروان ، أبو العباس من ملوك الدولة الأموية فى الشام ، ولى بعد وفاة أبيه سنة ٨٦ هـ ، اتسعت الدولة الإسلامية فى عهده ، وكان من رجاله موسى بن نصير ، وطارق بن زياد عمل على توسعه المسجد النبوى بالمدينة ، وبنى المسجد الأقصى فى القدس ، كانت وفاته بدمشق عام ٩٦ هـ . (الطبرى : ٨ /٩٧) .

(٣٥) فى الأصل : (ففرض اتباعه والانقياد لبيعته) .

(٣٦) عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية ، ثالث الخلفاء الراشدين ، قتل سنة ٣٥ هـ (راجع حوادث سنة ٣٥ فى ابن الأثير) .

(٣٧) هو : عبد الله بن الزبير بن العوّام ، بويع له بالخلافة سنة ٦٤ هـ ، وقتل سنة ٧٣ هـ (راجع حوادث سنة ٧٣ هـ فى الكامل لابن الأثير) .

(٣٨) هو : خالد بن الوليد بن المغيرة ، سيف الله . مات سنة ٢١ هـ فى خلافة عمر بن الخطاب بحمص . (راجع ترجمة وافية له فى الإصابة : ٤١٣/١) .

(٣٩) فى (أ) : لم تذكر كلمة (فى ذلك) .

(٤٠) فى غزوة مؤتة ، أوصى النبى ﷺ أن يحمل الراية ، ويقود الجيش زيد بن حارثة فإن قتل جعفر بن أبى طالب ، فإن قتل فعبد الله ابن رواحة ، ولقب جعفر بذى الجناحين لأن الرسول ﷺ حين سمع باستشهاده وقطع ذراعيه قال : إن الله أبدله بذراعيه جناحين يطير بهما فى الجنة حيث شاء . روى البخارى عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ، وعيناه تذرفان حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم . (راجع صحيح البخارى : غزوة مؤتة) .

(٤١) المائدة : ٢

(٤٢) هو : محمد بن هارون الرشيد بن المهدى ، بن المنصور ، يكنى أبا عبد الله ، ويقال : أبا موسى ولد فى رصافة بغداد ، وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة ١٩٣ هـ بعهد منه ، فولّى أخاه المأمون خراسان وأطرافها ، وكان المأمون ولى العهد من بعده ، فلما كانت سنة ١٩٥ هـ أعلن الأمين خلع أخيه المأمون من ولاية العهد ، فنادى المأمون بخلع الأمين فى خراسان ، وتسمّى بأمير المؤمنين وجهّز الأمين وزيره « ابن ماهان » لحربه . وجهّز المأمون طاهر بن الحسين ، فالتقى الجيشان فقتل ابن « ماهان » وانهزم جيش الأمين ، فتتبعه طاهر بن الحسين وحاصر بغداد حصارًا طويلًا انتهى بقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ . (الوافى بالوفيات ، الجزء الخامس ص ١٣٥ ط ببيروت سنة ١٩٧٠) .

أكثر من واحد كما فعل عمر رضى الله عنه عند موته ، وليس عندنا فى هذا الوجه إلّا التسليم لما أجمع عليه المسلمون حينئذ ، ولا يجوز التردّد فى الاختيار أكثر من ثلاث ليالٍ للثابت عن رسول الله ﷺ من قوله : « مَنْ بات ليلة ليس فى عنقة بيعة[٤٣]» .

ولأن المسلمين لم يجمعوا[٤٤] على ذلك أكثر من ثلاث والزيادة على ذلك باطل لا يحل ، على أن المسلمين يومئذ من حين موت عمر رضى الله عنه قد اعتقدوا بيعة لازمة فى أعناقهم لأحد أولئك الستة بلا شك ، فهم وإن لم يعرفوه بعينه فهو بلا شك واحد من أولئك الستة ، فبأحد هذه الوجوه تصح الإمامة ، ولا تصح بغير هذه الوجوه ألبتة .

قال أبو محمد : فإن مات الإمام ولم يعهد إلى إنسانٍ بعينه فوثب رجلٌ يصلح للإمامة فبايعه واحد فأكثر ، ثم قام آخر ينازعه ولو بطرفة عين بعده ، فالحق حق الأول وسواء كان الثانى أفضل منه أو مثله أو دونه ، لقول رسول الله ﷺ : « فوا ببيعة الأول فالأول فمن جاء ينازعه فاضربوا عنقه كائنًا من كان[٤٥]» .

فلو قام اثنان فصاعدًا معا فى وقت واحد أو يئس من معرفة أيهما سبقت بيعته نظر أفضلهما وأسوسهما فالحق له ، ووجب نزع الآخر لقول الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان »[٤٦].

ومن البر تقليد الأسوس ، وليس هذا بيعة متقدمة يجب الوفاء بها ومحاربة من نازع صاحبها ، فإن استويا فى الفضل قدّم الأسوس ، نعم وإن كان أقل فضلًا إذا كان مؤديًا للفرائض والسنن مجتنبا للكبائر ، مستترا بالصغائر لأن الغرض من الإمامة حسن السياسة ، والقوة على القيام بالأمور ، فإن استويا فى الفضل والسياسة أقرع بينهما ، أو نظر فى غيرهما ، والله عزَّ وجل لا يُضَيِّق على عباده هذا الضيق ، ولا يوقفهم على هذا الحرج لقوله تعالى : « ومَا جَعَل عَلَيْكُم فى الدِّينِ مِنْ حَرَج »[٤٧].

وهذا أعظم الحرج وبالله تعالى التوفيق .

* * *

---

(٤٣) الذى رواه مسلم فى باب الامارة لفظه : « حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبرى ، حدثنا أبى ، حدّثنا عاصم عن زيد بن محمد عن نافع قال : جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع ، حين كان من أمر الحرَّة ما كان ، زمن زيد بن معاوية ، فقال : اطرحوا لأبى عبد الرحمن وسادة فقال : إنى لم آتك لأجلس ، أتيتك لأحدثك حديثًا سمعت رسول الله ﷺ يقوله : « من خلع يدًا من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » . (صحيح مسلم - كتاب الامارة - باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين) .

(٤٤) فى (أ) : (لم يجتمعوا) .

(٤٥) رواه مسلم عن أبى هريرة بلفظ : « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبىٌّ خلفه نبى ، وإنه لا نبى بعدى ، وستكون خلفاء فتكثر قالوا فما تأمُرنا ؟ قال : فُوا بِبَيْعةِ الأول فالأوّل ، وأعطوهم حقهم ، فإن الله سائلهم عما استرعاهم » . (مسلم . كتاب الإمارة : باب الأمر بالوفاء ببيعة الخليفة الأول) .

(٤٦) المائدة : ٢

(٤٧) الحج : ٧٨

« الأمْرُ بالمعروف والنَّهى عن المنكر »

قال أبو محمد : اتفقت الأمة كلها على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بلا خلاف من أحد منها[1] لقول الله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »[2].

ثم اختلفوا فى كيفيته ، فذهب أهل السنة من القدماء من الصحابة رضى الله عنهم فمن بعدهم ، وهو قول أحمد بن حنبل[3] وغيره ، وهو قول سعد[4] بن أبى وقاص وأسامة[5] ابن زيد ، وابن عمر[6]، ومحمد بن[7] مسلمة وغيرهم - إلى أن الغرض من ذلك إنما هو بالقلب فقط ، ولابدّ أو باللسان إن قدر على ذلك ، ولا يكون باليد ولا بسلّ السيوف ، ووضع السلاح أصلا ، وهو قول أبى بكر بن كيسان[8] الأصم . وبه[9] قالت الروافض كلهم ، ولو قتلوا كلهم إلَّا أنها لم تر ذلك الإمام يُخْرِجُ الناطق فإذا خرج وجب سل السيوف ولابد حينئذ معه ، وإلا فلا .

---

(١) فى (أ) : (منهم)

(٢) آل عمران : ١٠٤

(٣) هو : أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله الشيبانى ، أحد الأئمة الأربعة . توفى سنة ٢٤١ هـ . (راجع ترجمة كاملة له فى وفيات الأعيان : ١ /١٧) .

(٤) هو : سعد بن مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشى ، فاتح العراق ، أحد الستة الذين عيّنهم عمر للخلافة . توفى سنة ٥٥ هـ . (راجع ترجمة وافيه له فى الإصابة : ٣١٨٧) .

(٥) هو : أسامة بن زيد بن حارثة أبو محمد صحابى جليل ، له فى كتب الحديث ١٢٨ حديثا . توفى سنة ٥٤ هـ . (راجع طبقات ابن سعد : ٤/٤٣) .

(٦) هو : عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوى ، أبو عبد الرحمن ، صحابى ، نشأ فى الإسلام وهاجر إلى المدينة مع أبيه ، وشهد فتح مكة ، له فى كتب الحديث ٢٦٣٠ حديثا . توفى سنة ٧٣ هـ . (راجع الإصابة - رقم ترجمته ٤٨٢٥) .

(٧) هو : محمد بن مسلمة الأوس ، الأنصارى ، صحابى من أهل المدينة شهد بدرًا وما بعدها إلَّا غزوة تبوك . توفى بالمدينة سنة ٤٣ هـ . (راجع الإصابة - ترجمة ٧٨٠٨) .

(٨) راجع ترجمته فى الجزء الثالث من هذا الكتاب ص ٣٧ .

(٩) الضمير فى (به) يعود على سل السيوف ووضع السلاح ، أى أن الروافض ترى سلَّ السيف فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

واقتدى أهل السنة فى هذا بعثمان رضى الله عنه ، وبمن[10] ذكرنا من الصحابة رضى الله عنهم ، وبمن رأى القعود منهم .

إلّا أنَّ جميع القائلين بهذه المقالة من أهل السنة إنما رأوا ذلك، ما لم يكن عدلًا فإن كان عدلًا وقام عليه فاسق وجب عندهم بلا خلاف سلّ السيوف مع الإمام العدل ، وقد روينا عن ابن عمر أنه قال : لا أدرى من هى الفئة الباغية ؟ ولو علمتها[11] ما سبقتنى أنت ولا غيرك إلى قتالها .

قال أبو محمد : وهذا الذى لا يظن بأولئك الصحابة رضى الله عنهم غيره . وذهبت طوائف من أهل السنة ، وجميع المعتزلة ، وجميع الخوارج والزيدية ، إلى أنَّ سلّ السيوف فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب إذا لم يمكن دفع المنكر إلا بذلك . قالوا : فإذا كان أهل الحق فى عصابة يمكنهم الدفع ، ولم[12] ييأسوا من الظفر ، ففرض عليهم ذلك . وإن كانوا فى عدد لا يرجون لقلتهم وضعفهم بظفر كانوا فى سعة من ترك التغيير باليد ، وهذا قول علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وكل من معه من الصحابة ، وقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وطلحة[13]، والزبير[14]، وكل من كان معهم من الصحابة . وقول معاوية[15] وعمرو[16]، والنعمان[17] بن بشير ، وغيرهم ممن معهم من الصحابة ، رضى الله عنهم أجمعين ، وهو قول عبد الله بن الزبير ، ومحمد[18] والحسن بن على ، وبقية الصحابة من المهاجرين ، والأنصار القائمين يوم الحرة[19]، رضى الله عنهم أجمعين ، وقول كل

---

(١٠) فى (أ) : (وممن) .

(١١) فى (أ) : (ولو علمنا) .

(١٢) فى (أ) : (ولا ييأسون) .

(١٣) راجع ترجمته : طلحة بن عبيد الله بن عثمان فى طبقات ابن سعد حـ ٣ ص ١٥٢ . وقد ترجمنا له فى الجزء الرابع من هذا الكتاب ص

(١٤) هو : الزبير بن العوّام بن خويلد الأسدى ، أحد العشرة المبشرين بالجنة . توفى سنة ٣٦ هـ له ترجمة وافية فى وفيات الأعيان : ١ /١٨٩ ، وقد ترجمنا له فى الجزء الرابع ص

(١٥) هو : معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب ، مؤسس الدولة الأموية فى الشام ، ومن كتاب الوحى لرسول الله ﷺ . راجع ترجمته وافيه فى تاريخ الطبرى : ٦/١٨٠ . وقد ترجمنا له فى الجزء الرابع ص

(١٦) هو : عمرو بن العاص بن وائل ، القرشى أبو عبد الله ، فاتح مصر ، ولاه النبى ﷺ إمرة جيش ذات السلاسل ، وأمده بأبى بكر وعمر . توفى سنة ٤٣ هـ . (راجع ترجمة وافية له فى الإصابة رقم ٥٨٨٤) وقد ترجمنا له فى الجزء الرابع ص

(١٧) هو : النعمان بن بشير بن سعد ، الخزرجى ، الأنصارى ، أبو عبد الله من أجلّاء الصحابة له ١٢٤ حديثا . ولى اليمن لمعاوية بعد أن اشترك معه فى حرب صفين ، وهو الذى تنسب إليه « معرّة النعمان » بلد أبى العلاء المعرى . (راجع أسد الغابة : ٥/٢٢) .

(١٨) هو : محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفيفة – راجع ترجمته فى الجزء الرابع من هذا الكتاب ص . وله ترجمة وافية فى طبقات ابن سعد حـ ٥/٦٦) .

(١٩) يوم الحرَّة : سببه سخط جماعة عظيمة من المسلمين على سيرة يزيد بن معاوية ، وقد اشترك فى هذا السخط فريق من الأنصار وعلى رأسهم عبد الله بن حنظلة الأنصارى ، وفريق من القرشيين وعلى رأسهم عبد الله بن مطيع بن الأسود القرشى العدوى ، وكان قائد جيش يزيد مسلم ابن عقبة وقد أرهق أهل المدينة ، إذ أتاهم من قبل الحرَّة واستباح المدينة ثلاثة أيام ، ولم يميزبين قرشى وأنصارى ، وأمر هذه الوقعة تفصيلًا فى (أيام العرب فى الإسلام : ٤٠٩ تأليف : محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى البجاوى – دار إحياء الكتب العربية) .

من أقام على الفاسق الحجاج ، ومن والاه من الصحابة رضى الله عن جميعهم كأنس[٢٠] بن مالك ، وكل من كان مع من ذكرنا من أفاضل التابعين ، كعبد الرحمن[٢١] بن أبى ليلى ، وسعيد[٢٢] بن جبير ، وأبى البُخْتُرى[٢٣] الطّائى ، وعطاء السلمى الأزدى ، والحسن[٢٤]. البصرى ، ومالك[٢٥] بن دينار ، ومسلم[٢٦] بن يسار ، وأبى الجوزاء[٢٧] ، والشعبى[٢٨] ، وعبد الله بن غالب ، وعقبة بن وشاج[٢٩] ، وعقبة[٣٠] بن عبد الغافر ، وعقبة[٣١] بن مهان ، وماهان والمطرف بن المغيرة بن شعبة ، وأبى المعدل[٣٢] حنظلة بن عبد الله ، وأبى شيخ[٣٣] الهَنَّائى وطَلْق بن[٣٤] حبيب ، والمطرِّف بن عبد

---

(٢٠) أنس بن مالك : ترجم لى فى الجزء الرابع ص

(٢١) عبد الرحمن بن أبى ليلى : تابعى مشهور ، أدرك النبى ﷺ - هكذا قال عنه ابن البرق فى رجال الموطأ - وكأنه اشتبه عليه بأبيه ، وإلا فقد صرح غيره بأنه ولد فى عهد عمر رضى الله عنه - واختلف فى صحة سماعه منه . وله مراسيل ، ومات فى الحمام سنة ثلاث وثمانين من الهجرة . (الإصابة : ٨١/٤ طبع كلكتا سنة ٨٥٣) .

(٢٢) سعيد بن جبير : ترجم له فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ص

(٢٣) هو : سعيد بن فيروز ابن عمران أبو البُخترى الطائى ، مولاهم الكوفى . روى عن أبيه وعن كثير غيره . قال عبد الله بن شعيب عن ابن معين : أبو البخترى الطائى : اسمه سعيد وهو ثبت . وقال ابن أبى خثيمة عن ابن معين : ثقة . وقال هلال بن خباب : كان من أفاضل أهل الكوفة . قال أبو نعيم : مات فى الجماجم سنة ٨٣ هـ . (تهذيب التهذيب جزء ١٢ - الكنى ص ١٧ ، ٧٣/٤) بتصرف .

(٢٤) راجع ترجمته فى الجزء الثالث ص .

(٢٥) هو مالك بن دينار البصرى ، الزاهد ، أبو يحيى ، من رواه الحديث كان ورعًا يأكل من كسبه ، ويكتب المصاحف بالأجرة . توفى فى البصرة قبل سنة ١٣١ هـ وفى تهذيب التهذيب خلاف فى تاريخ وفاته (تهذيب التهذيب : ١٤/١٠ ، ١٥ وتقريب التهذيب ٢٢٢/٢) . طبع دار المعرفة ببيروت .

(٢٦) هو : مسلم بن يسار ، الأموى بالولاء ، أبو عبد الله ، فقيه ناسك من رجال الحديث ، أصله من مكة ، سكن البصرة ، فكان فقيها ، وتوفى فيها سنة ١٠٨ هـ (راجع تهذيب التهذيب : ١٤٠/١٠) .

(٢٧) هو : أوس بن عبد الله أبو الجوزاء الرَّبعى البصرى . وثَّقوه ، وقال البخارى قال يحيى بن سعيد : قتل فى الجماجم . فى إسناده نظر ، ويختلفون فيه . وذكره صاحب ميزان الاعتدال فى الكنى تحت عنوان (أبو الجوزاء) وقال : تابعى مشهور (ميزان الاعتدال : ٢٧٨/١ - الترجمة رقم ١٠٤٥ ، وحـ ٥١٢/٤) . وجاء فى (أ) : (أبو الحوراء) .

(٢٨) الشعبى : انظر ترجمته ص ٨٩ من هذا الجزء .

(٢٩) هو : عقبة بن وشاج الأزدى ، بصرى نزل بالشام . ثقة من الثالثة قتل بعد ثمانين بالراية أو الجماجم . (تقريب التهذيب : ٢ /٢٨ تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف) وقد سقط من (أ) .

(٣٠) هو : عقبة بن عبد الغافر الأزدى أبو نهار البصرى . مات سنة ٨٣ هـ (تقريب التهذيب ٢٨/٢ تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف) .

(٣١) وفى (أ) : (عقبة بن صَهْبان) .

(٣٢) أبو المعدل : حنظلة . وفى (أ) : « أبو المعدّ وحنظلة » .

(٣٣) أبو شيخ الهَنَّائى الهَمْدَلى : بصرى ، قرأ على أبى موسى ، وروى عن معاوية ، وعنه بيهن بن فهدان ، وقيادة ومطر الوراق . ثقة (الكاشف : للذهبى حـ ٣ طبع ببيروت) قال عنه ابن سعد ، كان ثقة وله أحاديث ، مات قبل الحسن . (تهذيب التهذيب : ١٢٩/١٢) . وفى (أ) : « سح » .

(٣٤) هو : طلْق (بسكون اللام) ابن حبيب العنَزى بفتح المهملة والنون ، بصرى صدوق ، عابد ، رُمى بالإرجاء ، من الثالثة - مات بعد التسعين للهجرة (تقريب التهذيب : ٣٨٠/١ طبع بيروت) .

الله ابن الشِّخِّير(٣٥)، والنَّضْر(٣٦) بن أنس ، وعطاء بن السائب(٣٧)، وإبراهيم بن(٣٨) يزيد التيمى ، وابن الجوساء(٣٩)، وجَبَلة بن زَحْر(٤٠) وغيرهم ، ثم بعد هؤلاء من تابعى التابعين ومن بعدهم كعبد الله بن عبد(٤١) العزيز بن عبد الله بن عمر ، وكعبيد الله بن عمر ، ومحمد بن(٤٢) عجلان ، ومن خرج مع محمد بن عبد(٤٣) الله بن الحسن وهُشَيم(٤٤) بن بَشير ، ومطر(٤٥) الوراق ، ومن خرج

---

(٣٥) هو : مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير العامرى ، أبو عبد الله البصرى ، ذكره ابن سعد فى الطبقة الثالثة من أهل البصرة . وقال : روى عن أبى بن كعب ، وكان ثقة ذا فضل وورع وأدب . وقال العجلى : كان ثقة ، ولم ينج بالبصرة من حسد بن الأشعث إلا مطرف – من كبار التابعين ، رجل صالح . وقال ابن سعد : توفى فى أول ولاية الحجاج – وقال عمرو بن على والترمذى : مات سنة خمس وتسعين . وقال ابن حبان فى الثقات : ولد فى حياة النبى ﷺ ، ومات فى طاعون الجارف سنة سبع وثمانين (تهذيب التهذيب : ١٧٣/١٠ ، ١٧٤ بتصرف) . وقد ذكر محرفا فى (أ) .

(٣٦) هو : النَّضْر بن أنس مالك الأنصارى ، أبو مالك البصرى . قال النسائى : ثقة وذكره ابن حبان فى الثقات . وقال الآجرى عن أبى داود : كان فيمن خرج إلى الجماجم يقال : مات قبل أخيه موسى . وذكر الطبرى : أنه كان فيمن خرج مع زيد بن المهلب أيام خروجه على يزيد ابن عبد الملك . وقال ابن سعد : كان ثقة له أحاديث . ومات قبل الحسن . وقال سليمان حرب ثنا الأسود – يعنى ابن شيبان – كان الحسن فى جنازة النضر . قال : وصلى موسى بن أنس يومئذ فى قبر النضر ، وكان واسعا مطروحًا . وقال العجلى : بصرى تابعى ثقة . (تهذيب التهذيب : ٤٣٥/١٠ ، ٤٣٦ بتصرف) . وجاء فى (أ) (والنَّصر) بالصاد المهملة .

(٣٧) هو : عَطَاء بن السائب بن مالك ، ويقال : زيد ، ويقال : يزيد أبو السائب ، ويقال : أبو زيد ، ويقال : أبو محمد الكوفى . روى عن أبيه وأنس قال عبد الله بن أحمد عن أبيه ثقة ، رجل صالح . وقال أبو طالب عن أحمد من سمع منه قديمًا فسماعه صحيح ، ومن سمع منه حديثا لم يكن بشىء . سمع منه قديما سفيان وشعبة ، وسمع منه حديثا جرير وخالد ، واسماعيل وعلى بن عاصم . وكان يرفع عن سعيد بن جبير أشياء لم يكن يرفعها . قال ابن سعد وغيره مات سنة ١٣٧ هـ أو نحوها . (تهذيب التهذيب : ٢٠٣/٧ ، ٢٠٤ – ٢٠٦ بتصرف) .

(٣٨) هو : إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمى ، تيم الرباب الكوفى العالم العامل روى عن أبيه والحارث بن سويد ، وعمرو بن ميمون وطائفة ، وعنه : بيان بن بشر ويونس بن عبيد والأعمش وجماعة . وكان من الثقات . قتله الحجاج ، وقيل مات فى حبسه ولم يبلغ الأربعين . قال الأعمش : سمعته يقول : ربما أتى على شهران لا أطعم فيهما – لا يسمعنَّ هذا منك أحد . يكنى : أبا أسماء . مات قبل أنس بن مالك فى سنة اثنتين وتسعين رحمه الله تعالى . (تذكرة الحفاظ للذهبى : ٧٣/١) .

(٣٩) فى (أ) : (أبو الحوساء) بالحاء المهملة .

(٤٠) هو : جَبَلَة بن زَحْر بن قيس الجعفى : قائد من الأشراف الشجعان المقدمين فى العصر المروانى . ثار على الحجاج الثقفى ، ونادى بخلع عبد الملك بن مروان ، وقاد كتيبة القرّاء فى جيش بن الأشعث ، فشهد معه الوقائع ، وقتل فى وقعة دير الجماجم عام ٨٣ هجرية (ابن الأثير : ١٨٢/٤ وما بعدها بتصرف) .

(٤١) هو : عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوى العمرانى الزاهد المدنى . روى عن النبى ﷺ مرسلا . قال النسائى : ثقة . وذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : كان من أزهد أهل زمانه ، وأشدّهم تخليا للعبادة توفى سنة ١٨٤ هـ . وكان فضل ابن عياض يقول : ما أحبُّ أن يستأذن علىَّ أحد إلَّا العمرى » . (تهذيب التهذيب ٣٠٢/٥ وما بعدها بتصرف) .

(٤٢) هو : محمد بن عجلان ، إمام صدوق مشهور ، روى عن أبيه والمقبرى وطائفة وعنه : مالك وشعبة ويحيى القطان . وثّقه أحمد وابن يعيش . قال الحاكم أخرج له مسلم فى كتابه ثلاثة عشر حديثا كلها شواهد . توفى ابن عجلان سنة ١٤٨ هـ (ميزان الاعتدال : حـ ٣ باب الميم) بتصرف .

(٤٣) هو : محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب ، أبو عبيد الله الملقب بالأرقط ، وبالمهدى ، وبالنفس الزكية ، أحد الأمراء الأشراف من الطالبيين ، ولد ونشأ بالمدينة (الأعلام : ٩٠/٤) .

(٤٤) هو : هُشَيم بن بَشير بن أبى خازم قاسم بن دينار السّلمى ، أبو معاوية أحد الأعلام ، سمع الزهرى وحصين بن عبد الرحمن ، وعنه يحيى القطان وأحمد ويعقوب الدورقى وخلق كثير . قال أحمد : لم يسمع من يزيد بن أبى زياد ولا من عاصم بن كليب ، ولا من الحسن ابن عبد الله ، ولا من أبى خلدة .. وسمّى جماعة قال وقد حدَّث عنهم . قلت : كان مذهبه جواز التدليس . توفى سنة ١٨٣ هـ (ميزان الاعتدال فى نقد الرجال : ٤/٣٠٦ بتصرف) .

(٤٥) هو : قطر – بفتحتين بن طهمان الورّاق ، أبو رجاء السُّلّمى ، ومولاهم الخرسانى سكن البصرة ، صدوق ، كثير الخطأ ، وحديثه عن عطاء ضعيف . (تقريب التهذيب : ٢٥٢/٢ طبع بيروت) بتصرف .

مع إبراهيم بن[٤٦] عبد الله ، وهو الذى تدل عليه أقوال الفقهاء كأبى حنيفة ، والحسن بن[٤٧] حى ، وشريك[٤٨] ، ومالك ، والشافعى وداود ، وأصحابهم .

فأن كل من ذكرنا من قديم وحديث ، إمَّا ناطق بذلك فى فتاواه وإما فاعل لذلك ، بسلّ سيفه فى إنكار ما رأوه منكرًا .

قال أبو محمد : احتجت الطائفة المذكورة أولًا بأحاديث فمنَها : « أنقاتلهم يا رسول الله ؟ قال : لا . ما صلوا[٤٩] » . وفى بعضها : « إلَّا أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان[٥٠] » .

وفى بعضها وجوب الصبر وإن ضرب ظهر أحدنا وأخذ ماله[٥١].

وفى بعضها : فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فاطرح ثوبك على وجهك وقل : إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار[٥٢] » .

---

(٤٦) هو : إبراهيم بن عبد الله بن معبد بن عباس بن عبد المطلب الهاشمى المدنى . روى عن أبيه ، وعن عمّ أبيه عبد الله بن عباس . روى عن ميمونه . روى عنه نافع وأخوه عباس بن عبد الله ، وابن جريج . قلت ذكره ابن حبان فى الثقات فى طبقة أتباع التابعين . وقال : قيل إنه سمع من ميمونة وليس ذلك بصحيح عندنا (تهذيب التهذيب : ١٣٧/١ بتصرف) . ط دار صادر .

(٤٧) هو : الحسن بن صالح بن حى الهمدانى الثورى الكوفى . أبو عبد الله . من زعماء الفرقة « البُتْرِيّة » من الزيدية . كان فقيها مجتهدًا متكلما ، أصله من ثغور همذان . وتوفى متخفيا فى الكوفة . قال الطبرى : كان اختفاؤه مع عيسى بن زيد فى موضع واحد سبع سنين والمهدى جاد فى طلبهما . له كتب منها (التوحيد) و (إمامة ولد على من فاطمة) و (الجامع) فى الفقه – وهو من أقران سفيان الثورى . ومن رجال الحديث الثقات . توفى سنة ١٦٨ هـ (تهذيب التهذيب : ٢٨٥/٢ ، الفرق بين الفرق : ٣٣) بتصرف .

(٤٨) هو : شريك بن عبد الله بن أبى شريك النخعى أبو عبد الله ، الكوفى ، القاضى . روى عن زياد ، وأبى إسحاق السبيعى ، وعبد الملك ابن عمير ، والعباس بن ذريح وإبراهيم بن جرير العجلى وغيرهم . وعنه : ابن مهدى ، ووكيع ، ويحيى بن آدم ، ويونس بن محمد المؤدب وغيرهم وقال يزيد بن الهيثم عن ابن معين : شريك ثقة وهو أحبّ إلىّ من أبى الأحوص وجرير توفى سنة ١٧٧ هـ (تهذيب التهذيب : ٣٣٣/٤) بتصرف .

(٤٩) وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث ، الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة ، أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود والنسائى .

(٥٠) الحديث رواه البخارى فى كتاب الفتن رقم ٣ ، ورواه مسلم فى الإمارة ، ولفظه كما جاء فى البخارى عن عبادة بن الصامت : قال دعانا النبى ﷺ فبايعنا فقال فيما أخذ علينا أنْ بايَعَنَا على السَّمْع والطاعة فى مَنْشَطِنا ومَكْرَهِنا ، وعُسْرِنا ويُسْرِنا وأَثْرَةٍ عَلَيْنا ، وأن لا نُنَازِع الأَمْر أَهْلَه إلَّا أَنْ تَرَوْا كُفرًا بَوَاحًا عندكم من الله فيه بُرهانٌ » .

(٥١) هذا الحديث رواه مسلم ، ولفظه عنده : « قال حُذيفةُ بن اليمان : قلت يا رسول الله إنّا كنَّا بشرٍّ فجاء الله بخير فنحن فيه ، فهل مِن وراءِ هذا الخير شرٌّ ؟ قال : نعم . قلت : هل وراء ذلك الشرّ خير ؟ قال : نعم . قلت : فهل وراء ذلك الخير شرّ ؟ قال : نعم . قلت : كيف ؟ قال : يكون بعدى أئمة لا يهتدون بهداى ، ولا يستنّون بسنّتى . وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين فى جثمان إنس – قال : قلت : كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك ؟ قال : تسمع وتطيع للأمير ، وإن ضربَ ظهرك ، وأخذ مالك . فاسمع وأطع . (كتاب الإمارة : حديث رقم ٥٢٠ – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى – دار إحياء التراث العربى) وجاء هذا الحديث محرفا فى (أ) .

(٥٢) الحديث رواه أبو داود فى كتاب الفتن والملاحم رقم ٥٢٦١ ، وأخرجه أيضًا ابن ماجه فى الفتن رقم ٣٩٥٨ باب التثبت فى الفتنة ، ولفظة عند أبى داود عن أبى ذر قال لى رسول الله ﷺ : « يا أبا ذرٍّ كيفَ أنْت إذا أصاب الناسَ مَوْتٌ يكونُ البيت فيه بالوصَيف – يعنى « القبر » – قلتُ : الله ورسوله أعلم . قال : عليك بالصَّبر . ثم قال لى : يا أبا ذرٌّ . قلت : لبيك وسعديك قال : كيف أنت إذا رأيت أحجار الزّيت قد غرقت بالدّم . قلت : ما خار الله لى ورسوله . قال : عليك بِمَنْ أنْتَ منه . قلت : يا رسول الله أفلا آخذ سيفى وأضعه على عاتقى ؟. قال : شاركت القوم اذن قلت : فما تأمرنى قال : تلزم بيتك قلت : فإن دُخِلَ عَلَىَّ بيتى قال : فإن خشِيتَ أنْ يَبْهَرَكَ شُعَاع السَّيف ، فألق ثوبك على وجهك ، يبوءُ بإثمك وإثمه » .

وفى بعضها : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل[٥٣]. وبقول الله تعالى : « واتل عليهم نبأ ابنى ادم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الاخر[٥٤] » الآية .

قال أبو محمد : كل هذا لا حجة لهم فيه لما قد تقصيناه غاية التقصى خبرًا خبرًا بأسانيدها ومعانيها فى كتابنا الموسوم بالإيصال إلى فهم معرفة[٥٥] الخصال ، ونذكر منه إن شاء الله هاهنا جملا كافية وبالله تعالى نتأيّد .

أمّا أمره عليه السلام بالصّبر على أخذ المال ، وضرب الظهر فإنما ذلك بلا شك إذا تولى الإمامُ ذلك بحق ، وهذا ما لا شك فيه أنه فرض علينا الصبر له . فإن[٥٦] امتنع من ذلك – بل من ضرب رقبته إن وجب عليه – فهو فاسق عاص لله عزَّ وجل وأمّا إن كان ذلك بباطل فمعاذ الله أن يأمر رسولُ الله ﷺ بالصّبر على ذلك ، برهان هذا قول الله عزَّ وجل : « وَتَعاوَنُوا عَلى البِرِّ والتَّقْوى ، ولَا تَعَاوَنُوا على الْإِثْمِ والعُدْوان[٥٧] » .

وقد علمنا أن كلام رسول الله ﷺ لا يخالف كلام ربه تعالى قال الله تعالى : « وما ينطق عن الهوى ، إن هو الا وحى يوحى[٥٨] » .

وقال تعالى : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا[٥٩] » .

فصح أن كل ما قاله رسول الله ﷺ فإنه[٦٠] وحى من عند الله عزَّ وجل لا اختلاف فيه ولا تعارض ولا تناقض ، فإذ[٦١] هو كذلك فبيقين لا شك فيه يدرى كل مسلم أن أخذ مال مسلم أوذمى بغير حق ، وضرب ظهره بغير حق إثم وعدون وحرام ، قال رسول الله ﷺ : « إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم ، وأبشاركم حرام عليكم[٦٢] » .

---

(٥٣) جاء هذا الحديث فى مسند الإمام أحمد ولفظه عن حميد بن هلال عن رجل من عبد القيس كان مع الخوارج ثم فارقهم قال : دخلوا قرية فخرج عبد الله بن خباب ذعرًا يجر رداءه فقالوا : لِمَ ترع ، قال : والله لقد رعتمونى . قالوا : أأنت عبد الله بن خباب صاحب رسول الله ﷺ قال : نعم . قال : فهل سمعت من أبيك حديثا يحدثه عن رسول الله ﷺ تحدثناه ..؟ قال نعم : سمعته يحدث عن رسول الله – ﷺ أنه ذكر فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشى ، والماشى فيها خير من الساعى . قال : فإن أدركت ذلك فكن عبد الله المقتول . قال أيوب الذى حدث عن حميد – ولا أعلمه إلا قال : ولا تكن عبد الله القائل . قال فقدموه على ضفة النهر فضربوا عنقه فسال دمه كأنه شراك نعل ، وبقروا أم ولده عما فى بطنها (٥/١١٠ دار صادر بيروت) .

(٥٤) سورة المائدة : ٢٧

(٥٥) سبق الحديث عن هذا الكتاب بين آثار ابن حزم ومؤلفاته .

(٥٦) فى الأصل (وإن) .

(٥٧) المائدة : ٢

(٥٨) النجم : ٢ ، ٣

(٥٩) النساء : ٨٢

(٦٠) فى (أ) : (فهو) .

(٦١) فى (أ) : (فإذا كان هذا) .

(٦٢) هذا الحديث رواه البخارى فى كتاب الفتن – (راجع فتح البارى : ٣ /٢٦ ٠ ، وهو جزء من حديث طويل .

فإذ لا شك فى هذا ، ولا اختلاف من أحد من المسلمين فالْمُسَلِّمُ ماله للأخذ ظلما ، وظهره للضرب ظلما ، وهو يقدر على الامتناع من ذلك بأىِّ وجهٍ أمكنه معاون لظالمه على الإثم والعدوان ، وهذا حرام بنصّ القرآن .

وأما سائر الأحاديث التى ذكرنا ، وقصة ابنى آدم فلا حجة فى شىء منها ، أمّا قصّة ابنى آدم فتلك شريعة أخرى غير شريعتنا ، قال الله عزّ وجل : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا[٦٣] » .

وأما الأحاديث : فقد صحّ عن رسول الله ﷺ : « من رأى منكم منكرًا فليغيّره بيده إن استطاع ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان ، ليس وراء ذلك من الإيمان شىء[٦٤] » .

وصحّ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا طاعة فى معصية إنما الطاعة فى الطاعة ، وعلى أحدكم السمع والطاعة ما لم يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة[٦٥] » ، وأنه عليه السلام قال : « مَنْ قتل دونَ ماله فهو شهيد ، والمقتول دون دينه شهيد ، والمقتول دون مظلمة شهيد[٦٦] » .

وقال عليه السلام : « لَتَأْمُرُنَّ بالمعْرُوف ، ولَتَنْهَوُنَّ عن المنكرِ أو لَيَعُمَّنكم الله بعذابٍ مِنْ عِنْدِه[٦٧] » .

فكان ظاهر هذه الأخبار معارضا للآخر ، فصحَّ أن إحدى هاتين الجملتين ناسخة للأخرى ، لا يمكن غير ذلك ، فوجب النظر فى أيهما هو الناسخ ، فوجدنا تلك الأحاديث التى فيها[٦٨] النهى عن القتال موافقة لمعهود الأصل ، ولِماَ كانت الحال عليه فى أول الإسلام بلا شك ، وكانت هذه الأحاديث الأخر واردة بشريعة زائدة وهى القتال ، هذا ما لا يُشَكّ[٦٩] فيه ، فقد صحّ

---

(٦٣) المائدة : ٤٨

(٦٤) رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب الإيمان – باب بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان ، وأن الإيمان يزيد وينقص ، وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان .

(٦٥) رواه البخارى فى باب الأحكام ، ورواه الترمذى فى الجهاد : ٢٩ ، وابن ماجه فى الجهاد : ولفظه عند البخارى : عن نافع عن عبد الله عن النبى ﷺ : قال : السَّمْع والطاعةُ على المرء المسلم فيما أحبَّ وكره ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة .

(٦٦) رواه مسلم فى الإيمان : ٢٢٦ ، وأبو داود فى السنة رقم ٤٧٧٢ باب فى قتال اللصوص ولفظه عند أبى داود : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله أو دون دمه ، أو دون دينه فهو شهيد » .

(٦٧) رواه أبو داود فى كتاب الملاحم رقم ١٧ ، باب الأمر والنهى ، ورواه الترمذى فى الفتن رقم ٩ وأحمد بن حنبل : ٣٨٨/٥ ، ولفظه عند أبى داود : « كلّا والله لتأمُرن بالمعروف ، ولتنهونّ عن المنكر ، ولتأخذُنّ على أيدى الظالم ، ولتأطرنّه على الحق أطرًا ، ولتقصرنّه على الحقّ قصرًا » .

(٦٨) فى (أ) : (منها) .

(٦٩) فى (أ) : (ما لا شك) .

نسخ معنى تلك الأحاديث ورفع حكمها حين نطقه عليه السلام بهذه الأخر بلا شك ، فمن المحال المحرم أن يؤخذ بالمنسوخ ويترك الناسخ ، وأن يؤخذ الشك ويترك اليقين . ومن ادَّعى أن هذه الأخبار بعد أن كانت هى الناسخة فعادت منسوخة فقد ادَّعى الباطل . وقَفَا ما لا علم له به وقال[٧٠] على الله عزّ وجل ما لم يعلم ، وهذا لا يحل . ولو كان هذا لما أخلى الله عزَّ وجل هذا الحكم عن دليل وبرهان يبيِّن به رجوع المنسوخ ناسخًا ، لقوله تعالى فى القرآن : « تبيانا لكل شئ[٧١]» .

وبرهان آخر : وهو أن الله عزّ وجل قال : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله[٧٢]» .

ولم يختلف مسلمان فى أن هذه الآية التى فيها فرض قتال الفئة الباغية محكمة غير منسوخة ، فصحَّ أنها الحاكمة فى تلك الأحاديث ، فما كان موافقا لهذه الآية فهو الناسخ الثابت ، وما كان مخالفا لها فهو المنسوخ المرفوع .

وقد ادّعى قوم أنَّ هذه الآية وهذه الأحاديث فى اللصوص دون[٧٣] السلطان .

قال أبو محمد : وهذا باطل متيقن ، لأنه قول بلا برهان ، وما يعجز مدّع عن أن يدعى فى تلك الأحاديث أنها فى قوم دون قوم ، وفى زمان دون زمان ، والدَّعوى دون برهان لا تصح ، وتخصيص اللصوص[٧٤] بالدَّعوى لا يجوز ، لأنه قول على الله تعالى بلا علم ، وقد جاء عن رسول الله ﷺ أن سائلًا سأله عمن طلب ماله بغير حق فقال عليه السلام : لا تعطه ، قال : فإن قاتلنى ؟ قال : قاتله ، قال : فإن قتلته . قال : إلى النار ، قال : فإن قتلنى ؟ قال : فأنت فى الجنة[٧٥]» .

أو كلامًا هذا معناه .

وصحّ عنه عليه السلام أنه قال : « المسلم أخو المسلم ، لا يسلمه ، ولا يظلمه[٧٦]» .

---

(٧٠) فى (أ) : (فقال) .
(٧١) النحل : ٨٩
(٧٢) الحجرات : ٩
(٧٣) فى (خ) : (دون) سقطت .
(٧٤) فى (أ) : (النصوص) وهو تحريف .
(٧٥) هذا الحديث رواه مسلم فى كتاب الإيمان عن أبى هريرة ولفظه : « قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : « يا رسول الله : أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالى قال : فلا تعطه مالك ، قال : أرأيت إن قاتلنى . قال : قاتله . قال : أرأيت إنْ قَتلنى . قال : فأنت شهيد . قال : أرأيت إنْ قتلتُه ؟ قال : هو فى النار » .
(٧٦) رواه البخارى باب : لا يظلم المسلمُ ولا يسلمه : ولفظه : « المسلم أخو المسلِم لا يَظْلمه ، ولا يُسْلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ... الخ » .

وقد صح أنه عليه السلام قال فى الزكاة : « من سئلها على وجهها فليعطها ، ومن سئلها على غير وجهها فلا يعطها[٧٧] » . وهذا خبر ثابت رويناه عن طريق الثقات عن أنس بن مالك ، عن أبى بكر الصديق ، عن رسول الله ﷺ . وهذا يبطل تأويل من تأوّل أحاديث القتال عن المال على اللصوص ، لأن اللصوص[٧٨] لا يطلبون الزكاة . وإنما يطلبها السلطان ، فافترض[٧٩] عليه السلام منعها إذا سئلها على غير ما أمر به عليه السلام ، ولو اجتمع أهل الحق ما قاومهم[٨٠] أهل الباطل ، نسأل الله المغفرة والتوفيق .

قال أبو محمد : وأمّا[٨١] ما اعترضوا به من فعل عثمان فما علم قط أنه يقتل ، وإنما كان يراهم يحاصرونه فقط ، وهم لا يرون هذا اليوم للإمام العدل ، بل يرون القتال معه ودونه فرضا ، فلا حجة لهم فى أمر عثمان رضى الله عنه .

وقال بعضهم : إنّ فى القتال إباحة الحريم وسفك الدماء ، وأخذ الأموال ، وهتك الأستار ، وانتشار الأمر .

فقال لهم الآخرون : كلّا لأنه لا يحل لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن يهتك حريما ، ولا أن يأخذ مالًا بغير حق ، ولا أن يتعرض لمن[٨٢] لا يقاتله ، فإن فعل شيئًا من هذا فهو الذى فعل ما ينبغى أن يغير عليه ، وأمّا قتله أهل المنكر قلّوا أو كثُروا فهذا فرض عليه .

وأمّا قتل أهل المنكر للناس ، وأخذهم أموالهم ، وهتكهم حريمهم فهذا كلّه من المنكر الذى يلزم الناسَ تغييرُه .

وأيضًا : فلو كان خوف ما ذكروا مانعًا من تغيير المنكر ، ومن الأمر بالمعروف لكان[٨٣] هذا بعينه مانعًا من جهاد أهل الحرب ، وهذا ما لا يقوله مسلم ، وإن أدّى[٨٤] ذلك إلى سبى النّصارى نساءَ المسلمين وأولادهم ، وأخذ أموالهم ، وسفك دمائهم ، وهتك حريمهم .

ولا خلاف بين المسلمين فى أنَّ الجهاد واجب مع وجود هذا كله ، ولا فرق بين الأمرين . كل ذلك جهاد ودعاء إلى القرآن والسنة .

---

(٧٧) رواه البخارى فى كتاب الزكاة ، باب زكاة الغنم ، ولفظه : « هذه فريضة الصدقة التى فرض رسول الله ﷺ على المسلمين ، والتى أمر بها رسوله ، فمن سُئِلَها من المسلمين على وجهها فليعطها ، ومن سئل فوقها فلا يعطها » .

(٧٨) فى (أ) : سقطت كلمة (لأن اللصوص) .

(٧٩) فى (أ) : جاءت العبارة محرفة هكذا (فاقتصر عليه السلام معها إذا سألها) .

(٨٠) فى (أ) : (ما قواهم) وهو تحريف يخل بالمعنى .

(٨١) فى (أ) : (وما) .

(٨٢) فى الأصل (مَنْ لا) .

(٨٣) فى (خ) : لكل .

(٨٤) فى (أ) : (ادّعى) .

قال أبو محمد : ويقال لهم ما تقولون فى سلطانٍ جعل اليهود أصحاب أمره ، والنصارى جنَده ، وألزم المسلمين الجزية ، وحمل السيف على أطفال المسلمين ، وأباح المسلمات للزنا ، وحمل السيف على كل من وُجد من المسلمين ، وملك نساءهم وأطفالهم ، وأعلن العبث بهم ، وهو فى كل ذلك مقرٌّ بالإسلام ، معلن به ، لا يدع الصلاة ؟

فإن قالوا : لا يجوز القيامُ عليه . قيل لهم : إنه لا يدع مسلما إلا قتله جملة وهذا إن ترك أوجب ضرورة ألا يبقى إلّا هو وحده ، وأهل الكفر معه .

فإن أجازوا الصّبر على هذا خالفوا الإسلام جملة ، وانسلخوا منه .

وإن قالوا : بل يقام عليه ويُقاتَل وهو قولهم . قلنا لهم : فإن قتل تسعة أعشار المسلمين أو جميعهم إلّا واحدًا ، وسبى من نسائهم كذلك ، وأخذ من أموالهم كذلك ، فإن منعوا من القيام عليه تناقضوا . وإن أوجبوا سألناهم عن أقل من ذلك ، ولا نزال نحطهم إلى أن نقف بهم على قتل مسلم واحد ، أو على الغلبة[٨٥] على امرأة واحدة ، أو على أخذ مال أو على انتهاك نسوة[٨٦] بظلم ، فإن فرقوا بين شيءٍ من ذلك تناقضوا ، وتحكّموا بلا دليل ، وهذا ما لا يجوز وإن أوجبوا إنكار كل ذلك رجعوا إلى الحق .

ونسألهم عمن قصد[٨٧] سلطانُه الجائرُ الفاجرُ زوجته ، وابنته ، وابنه ، ليفسق بهم ، أو ليفسق به بنفسه ، أهو فى سعة من إسلام نفسه ، وامرأته ، وولده ، وابنته ، للفاحشة ، أم فرض عليه أن يدفع من أراد ذلك منهم ؟

فإن قالوا : فَرْضٌ عليه إسلام نفسه وأهله ، أتوا بعظيمة لا يقولها مسلم .

وإن قالوا : بل فرض عليه أن يمتنع من ذلك ويقاتل رجعوا إلى الحق ، ولزم ذلك كل مسلم فى كل مسلم وفى المال كذلك .

قال أبو محمد : والواجب إن وقع شيء من الجور ، وإن قلَّ أن يكلَّمَ الإمامُ فى ذلك ويمنع منه ، فإن امتنع وراجع الحق ، وأذعن للقود من البشرة ، أو من الأعضاء ، ولإقامة حدّ الزنا والقذف والخمر عليه فلا سبيل إلى خلعه وهو إمام كما كان لا يحل خلعه .

فإن امتنع من إنفاذ شيء من هذه الواجبات عليه ولم يراجع وجب خلعه وإقامة غيره ، ممن يقوم بالحق لقول الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان[٨٨] » .

ولا يجوز تضييع شيءٍ من واجبات الشرائع . وبالله تعالى التوفيق .

---

(٨٥) فى (أ) : سقطت كلمة (الغلبة) .
(٨٦) فى (أ) : (بشرة) .
(٨٧) فى (أ) : (غصب) .
(٨٨) المائدة : ٢

الكلام فى الصَّلاة خلف الفاسق والجهاد معه ، والحج معه[1]، ودفع الزكاة إليه ، ونفاذ أحكامه من الأقضية والحدود وغير ذلك

قال أبو محمد : ذهبت طائفة إلى أنه لا تجوز الصلاة إلَّا خلف الفاضل ، وهو قول الخوارج والزيدية ، والروافض ، وجمهور المعتزلة ، وبعض أهل السنة . وقال آخرون : إلا الجمعة والعيدين وهو قول بعض أهل السنة .

وذهبت[2] الصحابة كلهم دون خلاف من أحد منهم ، وجميع فقهاء التابعين كلهم دون خلاف من أحد منهم ، وأكثر مَنْ بعدهم ، وجمهور أصحاب الحديث ، وهو قول أحمد ، والشافعى ، وأبى حنيفة ، وداود ، وغيرهم إلى جواز الصلاة خلف الفاسق الجمعة وغيرها . وبهذا نقول . وخلاف هذا القول بدعة محدثة ، فما تأخر قط أحد من الصحابة الذين أدركوا المختار ابن[3] عبيد ، والحجاج[4]، وعبيد الله[5] بن زياد وحُبَيْش[6] بن دَلَجَة وغيرهم – عن الصلاة خلفهم ، وهؤلاء أفسق الفساق . وأمّا المختار فكان متَّهمًا فى دينه ، مظنونا به الكفر .

قال أبو محمد : احتجّ من يقول بمنع الصلاة خلفهم بقول الله تعالى : « إنما يتقبل الله من المتقين[7]» .

---

(١) فى (أ) : سقطت : (معه) .

(٢) فى (أ) : (طائفة الصحابة) .

(٣) هو : المختار بن أبى عبيد بن مسعود الثقفى ، من زعماء الثائرين على بنى أمية ، لما قتل الحسين سنة ٦١ هـ طالب المختار بثأره ، ودعا إلى إمامة محمد بن الحنفية فبايعه سبعة عشر ألف رجل سرًّا ، وتتبع قتلة الحسين فقتل منهم : شمر بن الجوشن ، وقوى أمره ، وشاع فى الناس أخبار عنه بادعائه النبوة التقى مع جيش « مصعب بن الزبير » فقتل المختار عام ٦٧ هـ (الإصابة ترجمة ٨٥٤٧ بتصرف) .

(٤) سبقت ترجمته فى الجزء الثالث ص

(٥) هو : عبيد الله بن زياد بن أبيه ، ولّاه معاوية خراسان سنة ٥٣ هـ ، فتح « راميثند » ونصف « بيكند » ثم ولّاه على البصرة سنة ٥٥ هـ ، فقاتل الخوارج واشتد عليهم ، قتله ابن الأشتر فى (خازر) من أرض الموصل سنة ٦٧ هـ (الطبرى : ١٦٦/٦) .

(٦) هو : حُبَيْشٌ بن دَلَجة القِينى ، من قادة الجيوش الأمويين ، وهو من أهل الأردن ولّاه القيادةَ مروان بن الحكم ، فاستولى على المدينة ، وجدَّد البيعة فيها لمروان ، ثم تقدَّم إلى البصرة لحرب الحارث بن أبى ربيعة ، والتقى معه فى « الرَّبَذَة » ، فرماه يزيد بن سنان بسهم فقتله عام ٦٥ هـ . (راجع الكامل لابن الأثير : ٣ /٧٤ وما بعدها) .

(٧) المائدة : ٢٧

قال أبو محمد : فيقال لهم : كل فاسق إذا نوى بصلاته وجه[٨] الله عزَّ وجل فهو فى ذلك من المتقين ، فصلاته متقبلة . ولو لم يكن من المتقين إلَّا من لا ذنب له ما استحق أحد هذا الاسم بعد رسول الله ﷺ . قال الله عزَّ وجل : « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة[٩]» .

ولا يجوز القطع على الفاسق بأنه لم يرد بصلاته وجه الله تعالى ، ومن قطع بهذا فقد قفا ما لا علم له به ، وقال ما لا يعلم ، وهذا حرام . وقال تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم[١٠]» .

وقال عزّ وجل : « وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم[١١]» .

وقال بعضهم : إنّ صلاة المأموم مرتبطة بصلاة الإمام .

قال أبو محمد : وهذا غاية الفساد ، لأنه قول بلا دليل ، بل البرهان يبطله لقول الله عزَّ وجل : « ولا تكسب كل نفس إلا عليها[١٢]» .

وقوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى[١٣]» .

ودعوى الارتباط هاهنا قول بلا برهان ، لا من قرآن ، ولا من سنة ، ولا من إجماع ، ولا من معقول ، وهم قد أجمعوا على أنَّ طهارة الإمام لا تنوب عن طهارة المأموم ، ولا قيامة عن قيامة ، ولا قعوده عن قعوده ، ولا سجوده عن سجوده ، ولا ركوعه عن ركوعه ، ولا نيّته عن نيته ، فما معنى هذا الارتباط الذى تدّعونه إذن ؟

وأيضًا : فإن القطع على[١٤] سريرة الذى ظاهره الفضل لا يجوز ، وإنما هو ظن فاستوى الأمر فى ذلك فى الفاضل والفاسق . وصحَّ أنه لا يصلّى أحد عن أحد ، وأن كل أحدٍ يصلى عن نفسه , وقال تعالى : « أجيبوا داعى الله[١٥]» . فوجب بذلك ضرورة أن كل داعٍ دعى إلى خير من

(٨) فى (أ) : (رحمه الله) .
(٩) النحل : ٦١
(١٠) الإسراء : ٣٦
(١١) النور : ١٥
(١٢) الأنعام : ١٦٤
(١٣) الأنعام : ١٦٤
(١٤) فى (أ) : (عن)
(١٥) الأحقاف : ٣١

صلاة أو حج أو جهاد أو تعاونٍ على بر وتقوى ففرضٌ إجابته وعمل ذلك الخير معه ، لقول الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان[١٦] » .

ومن دعا إلى منكر لم يحل لأحد إجابته إلى الإثم والعدوان[١٧]، بل فرض دفاعه ومنعه . وبالله تعالى نتأيد .

* * *

قال أبو محمد : وأيضًا فإن الفسق منزلة نقص عمن هو أفضل منه ، والذى لا شكّ فيه أن النسبة بين أفجر فاجر من المسلمين ، وبين أفضل الصحابة رضى الله عنهم أقرب من النسبة بين أفضل الصحابة رضى الله عنهم ، وبين رسول الله ﷺ وما عرى أحدٌ من تعمُّد ذنب وتقصير بعد رسول الله ﷺ ، وإنّما يتفاضل[١٨] المسلمون فى كثرة الذنوب وقلتها ، وفى اجتناب الكبائر ومواقعتها . وأما الصغائر فما نجا منها أحد بعد الأنبياء عليهم السلام ، وقد صلى رسول الله ﷺ خلف أبى بكر وعبد الرحمن بن عوف ، وبهذا صحّ أن أمر رسول الله ﷺ أن يؤُمّ القومَ أقرأُهُمْ فإن استوَوْا فَأَفْقَهُهُمْ[١٩]» ندب لا فرض ، فليس لفاضل بعد هذا أن يمتنع من الصلاة خلف من هو دونه فى القصوى من الغايات .

* * *

قال أبو محمد : وأما دفع الزكاة إلى الإمام ، فإن كان الإمام القرشى الفاضل ، أو الفاسق ، لم ينازعه فاضل فهى جائزة[٢٠]، لقول رسول الله ﷺ : « أَرْضُوا مُصَدِّقِيكُمْ[٢١] » .

---

(١٦) المائدة : ٢

(١٧) فى (أ) : جاءت هذه العبارة كالتالى : « وأن كل داع دعى إلى شر فلا يجوز إجابته بل فرض الخ » .

(١٨) فى (أ) : (تفاضل) .

(١٩) روى هذا الحديث مسلم فى كتاب الصلاة ، باب : « من أحق بالإمامة » ولفظه « عن أبى مسعود الأنصارى قال قال رسول الله ﷺ : « يؤمُّ القومَ أقرؤُهم لكتاب الله ، فإن كانوا فى القراءة سواءً فأعلمُهم بالسُّنّة ، فإن كانوا فى السُّنّة سواءً فأقدمُهم هجرةً ، فإن كانوا فى الهجرة سواءً فأقدمُهم سِلْمًا ، ولا يَؤُمَنَّ الرَّجُلُ الرَّجلَ فى سُلْطانِه ، ولا يقعدْ فى بيته على تَكْرِمَتِه إلّا بإذنه » قال الأشج فى روايته مكان (سِلْمًا) : (سِنًّا) .

(٢٠) فى (أ) : (فهى جارية) .

(٢١) هذا الحديث رواه النسائى – باب « إذا جاوز فى الصدقة » ولفظه : قال جرير : أتى النبىَّ ﷺ ناسٌ من الأعراب فقالوا : يا رسول الله يأتينا ناسٌ مِنْ مصدِّقيك يظلمون . قال : أَرْضُوا مصدِّقيكم ، قالوا : وإن ظَلَم . قال : أرضَوا مصدّقيكم ، ثم قالوا وإن ظَلَم ، قال : أَرْضُوا مُصدِّقيكم » . قال جرير : فما صدر عنّى مصدِّق منذ سمعتُ من رسول الله ﷺ إلّا وهو راض » . (مسند النسائى : ٣١/٥) .

ولا يكون مصدقًا كل من سمى نفسه مصدقًا ، لكن من قام البرهان بأنه مصدق بإرسال الإمام الواجبة طاعته له . وأما من سألها من هو غير الإمام المذكور ، أو غير مصدقه فهو عابر سبيل لا حق له فى قبضها ، ولا يجزى(٢٢) دفعها إليه ، لأنه دفعها إلى غير من أمر بدفعها إليه ، وقد قال رسول الله ﷺ : « من عَمِل عَمَلا ليس عليه أمْرُنا فهو رَد(٢٣)» .

وهكذا القول فى الأحكام كلها عن الحدود وغيرها إن أقامها الإمام الواجبة طاعته والذى لابدّ منه فإن وافقت القرآن والسنة نفذت ، وإلّا فهى مردودة لما ذكرنا .

وإن أقامها غير الإمام أو واليه فهى كلها مردودة ، ولا تحتسب بها لأنه أقامها من لم يؤمر بإقامتها ، فإن لم يقدر عليها الإمام فكل من قام بشىء من الحق حينئذ نفذ لأمر الله تعالى لنا بأن نكون قوّامين بالقسط ، ولا خلاف بين أحد من الأئمة(٢٤) إذا كان الإمام حاضرًا متمكنا(٢٥)، أو أميره أو واليه ، فإنَّ من بادر إلى تنفيذ حكم هو إلى الإمام فإنه إما مظلمة تردّ ، وإما لغو(٢٦) لا ينفذ . على هذا جرى عمل رسول الله ﷺ وجميع عمّاله فى البلاد بنقل جميع المسلمين عصرًا بعد عصر ، ثم عمل جميع الصحابة رضى الله عنهم .

وأما الجهاد : فهو واجب مع كل إمام ، وكل متغلب ، وكل باغ ، وكل محارب من المسلمين ، لأنه تعاون على البر والتقوى ، وفرض على كل أحد الدعاء(٢٧) إلى الله تعالى وإلى دين الإسلام ، ومنع المسلمين ممن أرادهم . قال تعالى : « فاقتلوا المشركين حيث وجد تموهم ، وخذوهم واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد(٢٨)» الآية .

فهذا عموم لكل مسلم بنص الآية فى كل مكان ، وكل زمان ، وبالله تعالى التوفيق تم كتاب الإمامة والمفاضلة بحمد الله تعالى وشكره .

* * *

---

(٢٢) فى (أ) : (فلا يجزى) .
(٢٣) سبق تخريجه ص .
(٢٤) فى (أ) : (الأمة) .
(٢٥) فى (خ) : (مُمَكَّنًا) .
(٢٦) فى (أ) : (عزل) .
(٢٧) فى (خ) : (دعا) .
(٢٨) التوبة : ٥

ذكر العظائم المخرجة إلى الكفر
أو إلى المحال من أقوال أهل البدع ، المعتزلة والخوارج والمرجئة والشيع

قال أبو محمد : قد كتبنا فى ديواننا هذا من فضائخ الملل المخالفة لدين الإسلام الذى فى كتبهم من اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، ما لا بقية لهم بعدها ، ولا يمترى أحد وقف عليها ، أنهم فى ضلال وباطل ، ونكتب إن شاء الله على هذه الفرق الأربع من فواحش أقوالهم ، ما لا يخفى على أحدٍ قرأه أنهم فى ضلال وباطل ، ليكون ذلك زاجرًا لمن أراد الله توفيقه عن مضامنهم ، والتمادى فيهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وليعلم من قرأ كتابنا هذا أننا لا نستحل ما يستحله من لا خير فيه من تقويل أحدٍ ما لم يقله نصًّا ، وإن آل قوله إليه ، إذ قد لا يلزم ما ينتجه قوله فيتناقض . فاعلموا أن تقويل القائل كافرًا كان أو مبتدعا ، أو مخطئا ما لا يقوله نصًّا كذب عليه ، ولا يحلّ الكذب على أحد ، لكن ربما دلّسوا المعنى الفاحش بلفظ ملتبس ، ليسهلوه على أهل الجهل ، ويحسن الظن[1] بهم من أتباعهم ، وليبعد فهم تلك العظيمة على العامة من مخالفتهم كقول طوائف من أهل البدعة والضلالة : لا يوصف الله تعالى بالقدرة على المحال ولا على الظلم ، ولا على الكذب ، ولا على غير ما علم أنه[2] يكون ، فأخفوا عظيم[3] الكفر فى هذه القضية لما ذكرنا من تلبيس[4] الأغمار من أتباعهم ، وتسكين الدهماء من مخالفتهم[5] فرارًا عن كشف معتقدهم صراحًا الذى هو أنه تعالى لا يقدر على الظلم ولا قوة له على الكذب ، ولا به طاقة على المحال ، فلابدَّ لنا من أيضاح ما موهوه هكذا ، وإيراده بأظهر عباراته كشفا لتمويههم ، وتقربا إلى الله بهتك أستارهم ، وكشف أسرارهم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

---

(١) فى (أ) : (النظر) .
(٢) فى (أ) : (أن يكون) .
(٣) فى (أ) : (أعظم) .
(٤) فى (أ) : (تأنيس) .
(٥) فى (أ) : (مخالفيهم) .

« ذكر شنع الشيعة »

قال أبو محمد : أهل الشنع من هذه الفرقة ثلاث طوائف :

أولها : الجاروديَّة من الزيدية ، ثم الإمامية من الرافضة ، ثم الغالية .

فأمّا الجارودية : فإن طائفة منهم قالت : إن محمد بن عبد الله ، بن الحسن ، بن الحسين ابن على بن أبى طالب ، القائم بالمدينة على أبى جعفر المنصور ، فوجّه إليه المنصور عيسى ابن موسى ، بن محمد ، بن على ، بن عبد الله بن العباس ، فقتل محمد بن عبد الله بن الحسن رحمه الله ، فقالت هذه الطائفة : إن محمدًا المذكور حى لم يقتل ، ولا مات ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا .

وقالت طائفة أخرى منهم : إن[1] يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن على ابن الحسن[2] بن على بن أبى طالب القائم بالكوفة أيام المستعين ، فوجه إليه محمد بن عبد الله ، ابن طاهر بن الحسين ، بأمر المستعين ابن عمه الحسن بن اسماعيل ، بن الحسين وهو ابن أخى طاهر بن الحسين ، فقتل يحيى بن عمر رحمه الله . فقالت الطائفة المذكورة : إن يحيى بن عمر هذا حى لم يقتل ، ولا مات ، ولا يموت ، حتى يملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا .

وقالت طائفة منهم : إن محمدَ بن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب ، القائم بالطالقان ، أيام المعتصم حىٌّ لم يمت ، ولا قتل ، ولا يموت ، حتى يملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا .

وقالت الكيسانية : وهم أصحاب المختار بن أبى عبيد ، وهم عندنا شعبة من الزيدية وفى

---

(١) فى (أ) : (إنه) وهو تحريف) .
(٢) فى (أ) : (الحسين) .

سبيلهم : أن محمد بن على بن أبى طالب ، وهو ابن الحنفية حىٌّ بجبل[٣] رضوى عن يمينه أسد ، وعن يساره نمر تحدثه الملائكة ، يأتيه رزقه غدوًّا وعشيا لم يمت ، ولا يموت ، حتى يملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا .

وقال بعض الروافض الإمامية : وهى الفرقة التى تدعى الممطورة : إنَّ موسى بن جعفر ابن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب حىٌّ لم يمت ، ولا يموت ، حتى يملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا .

وقالت طائفة منهم : وهم الناووسية[٤] أصحاب بن ناووس المصرى ، مثل ذلك فى أبيه جعفر بن محمد .

وقالت طائفة منهم : مثل ذلك فى أخيه إسماعيل بن جعفر .

وقالت السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ الحميرى ، اليهودى ، مثل ذلك فى على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وزادوا : أنه فى السحاب .

فليت شعرى !! فى أى سحابة هو من السحاب ؟ والسحاب كثير فى أقطار الهواء مسخرين السماء والأرض ، كما قال الله عزَّ وجل .

وقال عبد الله بن سبأ إذ بلغه قتل على رضى الله عنه : لو أتيتمونا بدماغه فى سبعين[٥] صرَّة ما صدَّقنا موته ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا .

وقال بعض الكيسانية : بأن أبا مسلم السرّاج حىٌّ لم يمت ، وسيظهر ولابدَّ .

وقال بعض الكيسانية : بأن عبد الله بن[٦] معاوية ، بن عبد الله ، بن جعفر بن أبى طالب ، حىٌّ بجبال أصبهان إلى اليوم ، ولابدَّ له من أن يظهر ، وعبد الله هذا هو القائم بفارس أيام

---

(٣) فى (أ) : (جبال) .
(٤) ذكرهم الأشعرى فى كتابه مقالات الإسلاميين ، وعنده أنهم الصنف السادس عشر من الرافضة ، يسوقون الإمامة إلى أبى جعفر محمد ابن على ، وأن أبا جعفر نصّ على إمامة جعفر بن محمد وأن جعفر بن محمد حىٌّ لم يمت . وذكر أنهم أتباع رجل يقال له (ناوُس) ، وقيل نسبوا إلى قرية (ناووسا) . وفى ياقوت (ناووس) : الظبية موضع قرب همذان . ذكره ابن الفقيه وفيه (المناووسة) من قرى « هيث » لما ذكر فى الفتوح . (راجع مقالات الإسلاميين : ١/١٠٠) .
(٥) فى (أ) : (سبعين مرة) .
(٦) هو : عبد الله بن معاوية بن جعفر الطيار بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، كان قد خرج على الأمويين بالكوفة فى عهد مروان ابن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، واجتمع حوله خلائق ، فبرز إليهم يومئذ أمير الكوفة ، فقاتلهم ، ثم طلبوا الأمان لأنفسهم ولعبد الله فأعطاهم الأمان ، فتوجه عبد الله إلى المدائن ، وعبر دجلة ، وغلب على حلوان وما يقاربها ، ثم توجه إلى بلاد العجم فغلب على همذان والرى وأصبهان ، وبقى على ذلك مدة ، وكان أبو مسلم الخراسانى داعية العباسيين قد قويت شوكته ، وظهر أمره ، فسار إلى عبد الله بن معاوية وشيعته ، فقتله ، ثم أظهر الدعوة العباسية . (الفرق بين الفرق : ٢٤٥ ، ٢٤٦) .

مروان[٧] بن محمد ، وقتله أبو مسلم[٨] بعد أن سجنه دهرًا . وكان عبد الله هذا ردئ الدين معطّلا ، مستصحبًا للدّهرية .

* * *

قال أبو محمد : فصار هؤلاء فى سبيل اليهود القائلين بأن ملكيصيدق[٩] بن عامر ابن أرفخشذى، بن سام بن نوح ، والعبد الذى وجه إبراهيم عليه السلام ليخطب ربقا بنت نتوال ابن ناحور ، بن تارح ، على إسحاق[١٠] ابنه عليه السلام ، وإلياس[١١] عليه السلام وفنحاس ابن العازار بن هارون عليه السلام ، أحياء إلى اليوم ، وسلك هذا السبيل بعض نوكى الصوفية فزعموا أن الخضر[١٢]، وإلياس ، عليهما السلام حيَّان إلى اليوم .

وادّعى بعضهم أنه يلقى إلياس فى الفلوات ، والخِضْر فى المروج والرياض ، وأنه متى ذكر خطر[١٣] على ذاكره .

* * *

قال أبو محمد : فإن ذكر فى شرق الأرض وغربها ، وشمالها وجنوبها ، وفى ألف موضع فى دقيقة واحدة كيف يصنع ؟

وقد لقينا من يذهب إلى هذا خلقًا ، وكلمناهم ، منهم المعروف بابن نفق[١٤] الليل المحدث « بطلبيرة[١٥]» وهو مع ذلك من أهل العناية وسعة الرواية .

---

(٧) سبقت ترجمته ص

(٨) هو : عبد الرحمن بن مسلم ، وقيل : عثمان الخراسانى ، القائم بالدعوة إلى العباسيين ويقال هو : إبراهيم بن يسار بن سدوس ، من ولد بزرجمر بن البختكان ، الفارسى يقال : إن إبراهيم الإمام قال له : غيِّر اسمك فما يتم لنا هذا الأمر حتى تغيِّر اسمك ، فسمّى نفسه عبد الرحمن ، وقد بذل الجهد فى إقامة دولة بنى العباس فلما توطدت أركانها ، وأقيمت دعائمها قتله أبو جعفر المنصور فى شعبان من سنة ١٣٧ هـ ويقال سنة ١٣٦ هـ ، ويقال من سنة ١٤٠ هـ . (وفيات الأعيان – الترجمة ٣٤٥) .

(٩) ورد ذكره فى سفر التكوين ، وفيه أنه خرج لاستقبال إبراهيم عليه السلام بعد أن رجع من كَسْرِهِ « كَدَرْ لَعَومر » حين اعتدى على « لوط » ابن أخيه عليه السلام ، واستولى على أمواله ، وفيه أن « مَلِكِى صَادِق ملك شاليم أخرج خبزًا وخمرًا لإبراهيم ، وكان كاهنا لله العلى وباركه ، وقال : مبارك أبرام من الله العلى ، مالك السماوات والأرض (سفر التكوين : ١٤ – فقره ١٩ ، ٢٠) ، والتوراة حافلة بمثل هذه النقائص للأنبياء مما يدل على وضاعة واضعيها .

(١٠) اسمها : « رِفْقة بنت بَتُوئيل بن مِلْكَة الذى ولدته لنَاحُور » هكذا أورد فى سفر التكوين – الاصحاح ٢٤ الفقرة : ٢٥) .

(١١) الياس : (ترجمنا له فى الجزء الأول ص ١٠٠) .

(١٢) الخضر : (ترجمنا له فى الجزء الثالث ص ٥٧) .

(١٣) فى (أ) : (حضر) .

(١٤) فى (أ) : (شق) .

(١٥) ترجمنا له فى الجزء الأول ص ٢١٨ .

ومنهم : محمد بن عبد الله[١٦] الكاتب ، وأخبرنى أنه جالس الخضر وكلمه مرارًا ، وغيره كثير هذا مع سماعهم قول الله تعالى : « ولكن رسول الله وخاتم النبيين[١٧] » .

وقول رسول الله ﷺ : « لا نبىَّ بعدى[١٨] » .

فكيف يستجيز مسلم أن يثبت بعده عليه السلام نبيًا فى الأرض حاشا ما استثناه رسول الله ﷺ فى الآثار المسندة الثابتة من[١٩] نزول عيسى بن مريم عليه السلام فى آخر الزمان ، وكفار بُرْغواطه إلى اليوم ينتظرون صالح بن طريف[٢٠]، الذى شرع لهم دينهم .

وقالت القطيعية[٢١] من الإمامية من الرَّافضة كلهم وهم جمهور الشيعة ومنهم المتكلمون ، والنظارون ، والعدد العظيم ، بأن محمد بن الحسن بن على ، بن محمد بن على ، بن موسى ابن جعفر ، بن محمد[٢٢] بن على ، بن الحسين بن على ، بن أبى طالب ، حىٌّ لم يمت ، ولا يموت حتى يخرج ويملأ[٢٣] الأرض عدلًا كما ملئت جورًا ، وهو عندهم المهدى المنتظر .

وتقول[٢٤] طائفة منهم : إن مولد هذا الذى لم تخلق قط فى سنة ستين ومائتين سنة موت أبيه .

وقالت طائفة منهم : بل بعد موت أبيه بمدة .

وقالت طائفة منهم : بل فى حياة أبيه ، ورووا ذلك عن حكيمة بنت محمد بن على ابن موسى ، وأنها شهدت ولادته ، وسمعته يتكلم حين سقط من بطن أمه ، ويقرأ القرآن وأن أمه نرجس ، وأنها هى كانت القابلة .

وقالت جمهورهم : بل أمه « صقيل » .

وقالت طائفة : بل أمه سوسن . وكل هذا هوس . ولم يعقب الحسن المذكور لا ذكرًا ولا أنثى . فهذا أول نوك الشيعة ، ومفتاح عظيماتهم وأخفها[٢٥] إن كانت مهلكة .

(١٦) لم نعثر له على ترجمة وافية .
(١٧) الأحزاب : ٤٠
(١٨)
(١٩) فى (أ) : (فى) .
(٢٠) هو : صالح بن طَرِيف البَرْغُواطى ، من قبيلة بُرغواطة من المصامدة بالمغرب الأقصى ، كان أبوه من قادة الصُّفرية فى المغرب ، وقد انتحل صالح دينًا وشرَّع للناس صلاة وصيامًا وزعم أنه أوحى إليه ومات نحو سنة ١٧٥ هـ (الأعلام : ٢٧٦/٣) .
(٢١) فى الفرق بين الفرق : (القَطْعِيَّة) . وهم فى مقالات الإسلاميين أيضا (القطعية) لأنهم قطعوا على موت « موسى بن جعفر ابن محمد بن على » . (الفرق بين الفرق : ٦٤ ، ومقالات الإسلاميين : ٩٠) .
(٢٢) فى (أ) : (جعفر بن على) وسقطت كلمة (ابن محمد) .
(٢٣) فى (أ) : (فيملأ) .
(٢٤) فى (أ) : (ويقول) وهو تحريف .
(٢٥) فى (خ) : (وحقها) .

ثم قالوا كلهم إذ سئلوا عن الحجة فيما يقولون : حجتنا الإلهام ، وأن من خالفنا ليس لرشده ، فكان هذا طريفا[٢٦] جدًّا .

وليت شعرى !! ما الفرق بينهم وبين عيّار مثلهم ، يدعى فى إبطال قولهم الإلهام ؟ وإن الشيعة ليسوا رشدةً ، أو أنهم نوكى[٢٧]، أو أنهم جملة ذوو شعبة من جنون[٢٨] فى رءوسهم وما قولهم فيمن كان منهم ثم صار فى غيرهم ؟ أو من كان فى غيرهم ثم صار[٢٩] منهم ؟ أتراه ينتقل من ولادة الغيّة إلى ولادة الرشدة ، ومن ولادة الرشدة إلى ولادة الغيَّة ؟

فإن قالوا : حكمه لِماَ يَمُوتُ عليه . قيل لهم : فلعلكم أولاد غية إذ لا يؤمن رجوع الواحد فالواحد منكم إلى خلاف ما هو عليه اليوم .

والقوم بالجملة ذووا أديان فاسدة ، وعقول مدخولة ، وعديمو حياء ونعوذ بالله من الضلال .

وذكر عمرو بن[٣٠] بحر الجاحظ ، وهو إن كان أحد المجان ، ومن غلب عليه الهزل وأحد الضلّال المضلين . قال الله تعالى : « ولا تمش فى الأرض مرحا[٣١]» — فإننا ما رأينا له فى كتبه تعمد كذبة يوردها مثبتا لها ، وإن كان كثير الإيراد لكذب[٣٢] غيره .

قال أخبرنى أبو إسحاق[٣٣] إبراهيم النظام ، وبشر بن خالد أنهما قالا لمحمد بن جعفر الرافضى المعروف بشيطان[٣٤] الطاق : ويحك أما استحييت ؟ أما[٣٥] اتقيت الله أن تقول فى كتابك فى الإمامة إن الله تعالى لم يقل قط فى القرآن « ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا[٣٦]» .

قالا : فضحك والله شيطان الطاق ، ضحكًا طويلًا ، حتى كأن نحن الذين أذنبنا .

قال النظّام : وكنا نكلم على بن متيّم الصابونى ، وكان[٣٧] من شيوخ الرافضة ومتكلميهم

---

(٢٦) فى (أ) : (طريقا) بالقاف المثناة وهو تحريف .
(٢٧) فى (خ) : (ينكحون) .
(٢٨) فى (خ) : (ذو شعب) .
(٢٩) فى (أ) : (فصار فيهم) .
(٣٠) ترجم له فى الجزء الثالث ص ٨٧ .
(٣١) سقطت الآية من (أ) . والآية رقم ٣٧ من سورة الإسراء .
(٣٢) فى (أ) : (كذب) .
(٣٣) ترجم له فى الجزء الثانى .
(٣٤) ترجمنا له فى الجزء الثانى .
(٣٥) فى (أ) : سقطت (أما اتقيت) .
(٣٦) سورة التوبة : ٤٠
(٣٧) فى (أ) : (وكل) .

فنسأله : أرأى أم سماع عن الأئمة فينكر أن يقوله برأى ، فنخبره بقوله فيها قبل ذلك . قال فوالله ما رأيته خجل من ذلك ، ولا استحيا لفعله هذا قط .

ومن قول الإمامية كلها قديمًا وحديثًا أن القرآن مبدّل زيد فيه ما ليس منه ، ونقص منه كثير ، وبدّل منه كثير حاشا على بن الحسن بن موسى ، بن محمد ، بن ابراهيم بن موسى ابن جعفر ، ابن محمد بن على بن الحسن ، بن على بن أبى طالب ، وكان إماميا فيهم[٣٨] يظاهر بالاعتزال ، ومع[٣٩] ذلك كان ينكر هذا القول ، ويكفر من قاله ، وكذلك صاحباه أبو يعلى ميلاد الطوسى ، وأبو القاسم الرازى .

قال أبو محمد : القول بأن بين اللوحين تبديلًا كفر صحيح ، وتكذيب لرسول الله ﷺ .

وقالت طائفة من الكيسانية بتناسخ الأرواح ، وبهذا كان يقول السيد الحميرى[٤٠] الشاعر لعنه الله ، ويبلغ الأمر . بمن ذهب إلى هذا أن يأخذ أحدهم البغل ، والحمار ، فيعذبه ، ويضربه ، ويعطشه ويجيعه ، على أن روح أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فيه ، فاعجبوا لهذا الحمق الذى لا نظير له . وما الذى خص هذا البغل الشقىَّ والحمار المسكين بنقله الروح إليه دون سائر البغال والحمير ، وكذلك يفعلون بالعنز على أنَّ روح أم المؤمنين رضى الله عنها فيها .

وجمهور متكلميهم كهشام بن[٤١] الحكم الكوفى ، وتلميذه أبى على الصّكاك[٤٢]، وغيرهما يقول بأن علم الله تعالى محدث ، وأنه لم يكن يعلم شيئًا حتى أحدث لنفسه علما ، وهذا كفر صريح[٤٣]، وقد قال هشام هذا فى حين مناظرته لأبى الهذيل[٤٤] العلاف : إنّ ربه سبعة أشبار بشبر نفسه ، وهذا كفر صحيح .

وكان داود الجواربى[٤٥] من كبار متكلميهم ، يزعم أن ربه لحم ودم ، على صورة الإنسان .

ولا يختلفون فى أن الشمس ردَّت على علىّ بن أبى طالب مرتين.، أفيكون فى صفاقة الوجه ، وصلابة الخدّ ، وعدم الحياء ، والجرأة على الكذب أكثر من هذا على قرب العهد وكثرة الخلق .

وطائفة منهم تقول : إنّ الله تعالى يريد الشيء ويعزم عليه ، ثم يبدو له فلا يفعله ، وهذا

---

(٣٨) فى (أ) : لم تذكر كلمة (فيهم) .
(٣٩) فى الأصل (مع) بغير (واو العطف) .
(٤٠) ترجم له فى الجزء الثانى ص
(٤١) راجع ترجمته فى الجزء الثانى ص
(٤٢) لم نعثر له على ترجمة .
(٤٣) فى (أ) : (صحيح) .
(٤٤) راجع ترجمته فى الجزء الثانى ص
(٤٥) فى (أ) : (الجوازى) وهو تحريف . وقد ترجمنا له فى الجزء الثانى ص

مشهور للكيسانية ، ومن الإمامية من يجيز نكاح تسع نسوة . ومنهم من يحرّم الكرنب ، لأنه إنما نبت على دم الحسين ، ولم يكن قبل ذلك ، وهذا فى قلة الحياء قريب مما قبله ، وكما يزعم كثير منهم أنّ عليا لم يكن له سميٌّ قبله ، وهذا جهل عظيم ، بل كان فى العرب كثير يسمون هذا الاسم ، كعلى[٤٦] بن بكر بن وائل إليه يرجع كل بكرى فى العالم فى نسبه ، وفى الأزد عَلِيٌّ ، وفى بُجَيْلة علىٌّ ، وغيرها ، كل ذلك فى الجاهلية مشهور . وأقرب من ذلك عامر بن الطفيل[٤٧] يكنى أبا على ، ومجاهراتهم أكثر مما ذكرنا .

ومنهم طائفة تقول بفناء الجنة والنار .

وفى الكيسانية من يقول : إن الدنيا لا تفنى أبدًا . ومنهم طائفة تسمَّى النحلية[٤٨] نسبوا إلى الحسن بن على بن ورصند النحلى ، كان من أهل نَفْطة[٤٩] من عمل قَفْصَة[٥٠] وقسطيلية من كور إفريقية ثم نهض هذا الكافر إلى السوس فى أقاصى بلاد المصامدة[٥١]، فأضلهم وأضل أمير السوس أحمد بن إدريس ، بن يحيى بن إدريس ، بن إدريس[٥٢] بن عبد الله ، بن الحسين ابن الحسن ، ابن على بن أبى طالب ، فهم هنالك كثير سكان فى ربض مدينة السوس ، معلنون بكفرهم ، وصلاتهم خلاف صلاة المسلمين ، لا يأكلون شيئًا من الثمار ذبل أصله ، ويقولون إن الإمامة فى ولد الحسن دون ولد الحسين .

ومنهم أصحاب أبى كامل : ومن قولهم : إن جميع الصحابة رضى الله عنهم كفروا بعد موت النبى ﷺ ، إذ جحدوا إمامة على ، وأن عليا كفر إذ أسلم الأمر إلى أبى بكر ، ثم عمر ، ثم

---

(٤٦) هو : على بن بكر بن وائل من العدنانية جدٌّ جاهلى ، كان له من الولد : صَعْب ، ومنه نسله ، وهو قبائل وبطون . (جمهرة الأنساب : ٢٩١) .

(٤٧) هو : عامر بن الطفيل بن مالك من بنى عامر بن صعصعة ، أحد فتّاك العرب وشعرائهم كنيته : أبو على . ولد ونشأ بنجد ، أراد الغدر بالرسول ﷺ وهدّده بقوله : لأملأنها عليك خيلًا جردًا ، ورجالًا مُردًا ، ولأربطن بكل نخلة فرسًا ، فمات فى طريقه قبل أن يبلغ قومه . (راجع الشعر والشعراء : ٣٣٤ تحقيق أحمد شاكر والبيان والتبيين ٣٢/١) .

(٤٨) لم يرد لهذه الطائفة ذكر فى مقالات الإسلاميين ، فقد عدَّ الأشعرى إحدى عشرة فرقة من فرق الكيسانية سمى بعضها ، ولم يسمّ بعضها الآخر ، كما لم يرد لها ذكر فى الفرق بين الفرق للبغدادى . (راجع مقالات الإسلاميين من ٩١ – ٩٧ ، والفرق بين الفرق ٣٨ وما بعدها) .

(٤٩) نفطه : بالفتح ثم السكون والطاء : مدينة بإفريقية من أعمال الزاب الكبير ، أهلها شراة إباضية متمردون ، وبين نقطة وقفصه مرحلتان ، ومن نفطه : عبد الرحمن بن محمد بن أحمد أبو القاسم النفطى يعرف بابن الصائغ . (معجم البلدان : ٢٩٦/٥ دار صادر بيروت) .

(٥٠) قفْصة : بالفتح ثم السكون ، والصاد المهملة . وهى بلد صغير فى طرف إفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير ، مختطة فى أرض سبخة لا تنبت إلّا الشيخ ، ومع ذلك ففيها عدة عيون ينبت حولها الفستق الذى يحمل إلى جميع نواحى افريقية . وقال ابن حوقل : قفصة : مدينة حسنة ذات سور ونهر أطيب من ماء قسطيليه ، وأهلها وأهل قسطيله ، والحمه ، ونفطة وسماطه شراة متمردون . وينسب إلى قفصه جميل ابن طارق الأفريقى . تلك حال هذه البلدة فى عصر الشيخ الإمام شهاب الدين الحموى الرومى البغدادى . (راجع معجم البلدان : ٣٨٢/٥) . وهى الآن تابعة لتونس .

(٥١) المصامدة : مثل المهالبة نسبة إلى مصمودة . سبق التعريف بها ص ٢٢ .

(٥٢) فى (أ) : لم يذكر (ابن إدريس) .

عثمان . ثم قال جمهورهم : إن عليا ومن اتبعه رجعوا إلى الإسلام إذ دعا إلى نفسه بعد قتل عثمان ، وإذ كشف وجهه وسل سيفه وإنّه وإيّاهم كانوا قبل ذلك مرتدين عن الإسلام ، كفارًا مشركين .

ومنهم من يردّ الذنب فى ذلك إلى النبى ﷺ إذ لم يبين الأمر بيانًا رافعًا للإشكال .

قال أبو محمد : وكل هذا كفر صريح لا خفاء به فهذه مذاهب الإمامية ، وهى المتوسطة فى الغلوّ من فرق الشيعة .

وأمّا الغالية من الشيعة فهم قسمان :

قسم أوجبت النبوة بعد رسول الله ﷺ لغيره .

والقسم الثانى : أوجبوا الإلاهية لغير الله عزّ وجل فلحقوا بالنصارى واليهود وكفروا أشنع الكفر .

فالطائفة التى أوجبت النبوة بعد النبى ﷺ فرق ، فمنهم الغرابية[٥٣] وقولهم إن محمدًا ﷺ كان أشبه بعلى من الغراب بالغراب ، وأن الله عزّ وجل بعث جبريل عليه السلام بالوحى إلى على ، فغلط جبريل عليه السلام بمحمد ، ولا لوم على جبريل فى ذلك لأنه غلط .

وقالت طائفة منهم : بل تعمّد ذلك جبريل ، وكفرّوه ولعنوه لعنهم الله .

قال أبو محمد : فهل سمع بأضعف عقولًا ، وأتمّ رقاعة من قومٍ يقولون إنَّ محمدًا ﷺ كان يشبه عليَّ بن أبى طالب فياللناس !! أين يقع شبه ابن أربعين سنة من صبىٍّ ابن إحدى عشرة سنة ، حتى يغلط به جبريل عليه السلام ، ثم محمد عليه السلام فوق الرّبعة إلى الطول ، قويم القناة ، كثُّ اللحية ، أدعج[٥٤] العينين ، ممتلىء السّاقين ، قليل شعر الجسد ، أفرع ، وعلىٌّ دون الرّبعة إلى القصر ، مُنكبٌّ شديد الانكباب كأنه كسر ثم جبر ، عظيم اللحية ، قد ملئت صدره من مَنْكِبٍ إلى مَنْكِب إذا التحى ثقيل العينين ، دقيق السّاقين ، أصلع ، عظيم الصلع ، ليس فى رأسه شعر إلّا فى مؤخره ، يسير كثير شعر اللحية ، فاعجبوا لحمق هذه الطبقة .

ثم لو جاز أن يغلط جبريل – وحاشا لروح القدس الأمين – كيف غفل الله عزّ وجل عن تقويمه وتنبيه فتركه[٥٥] على غلطه ثلاثا وعشرين سنة ، ثم أظرف من هذا كله : من أخبرهم بهذا الخبر ؟ ومن خرفهم بهذه الخرافة ؟ وهذا لا يعرفه إلّا من شاهد أمر الله تعالى لجبريل عليه السلام ثم

(٥٣) راجع تفاصيل عن هذه الفرقة فى (الفرق بين الفرق : ٢٥٠) .
(٥٤) فى (أ) : (أدلج) .
(٥٥) فى (أ) : (وتركه) .

شاهد خلافه ، فعلى هؤلاء لعنة الله ولعنة اللاعنين ، والملائكة[٥٦] والناس أجمعين ، مادام الله فى عالمه خلق .

وفرقة قالت بأن[٥٧] علىّ بن أبى طالب والحسن والحسين رضى الله عنهم وعلى بن الحسين ، ومحمد بن على ، وجعفر بن محمد ، وموسى بن جعفر ، وعلى بن موسى ، ومحمد بن على ، والحسن ابن محمد ، والمنتظر بن الحسن – أنبياء كلهم .

وفرقة قالت بنبوة محمد بن إسماعيل بن جعفر[٥٨] فقط ، وهم طائفة من القرامطة[٥٩].

وفرقة قالت بنبوة على وبنيه الثلاثة ، الحسن والحسين ، ومحمد بن الحنفية فقط وهم طائفة من الكيسانية .

وقد حوّم[٦٠] المختار حول أن يدّعى النبوة لنفسه ، وسجع أسجاعًا وأنذر بالغيوب عن الله عزَّ وجل ، واتبعه على ذلك طوائف من الشيعة الملعونة ، وقال بإمامة محمد بن الحنفية .

وفرقة قالت بنبوة المغيرة بن سعيد[٦١] مولى بجيلة بالكوفة ، وهو الذى أحرقه خالد ابن عبد الله[٦٢] القَسْرِىّ بالنّار ، وكان لعنه الله يقول : إنَّ معبوده صورة رجل على رأسه تاج ، وأن أعضاءه على عدد حروف الهجاء ، الألف للسّاقين ونحو ذلك مما لا ينطلق لسانُ ذى شُعْبةٍ من دينٍ به ، تعالى الله عمّا يقول الكافرون علوًّا كبيرا ، وكان لعنه الله يقول : إنَّ معبوده لما أراد أن يخلق الخلق تكلم باسمه الأكبر فطار[٦٣] فوقع على تاجه ، ثم كتب بإصبعه أعمال العباد من المعاصى والطاعات فلما رأى المعاصى ارفضَّ[٦٤] عرقا ، فاجتمع من عرقه بحران ، أحدهما ملح مظلم ، والثانى نيّر عذب ، ثم اطلع فى البحر فرأى ظله[٦٥] فذهب ليأخده فطار فأخذه فقلع عينى ذلك الظل ومحقه فخلق من عينيه الشمس وشمسًا أخرى ، وخلق الكفار من البحر المالح ، وخلق المؤمنين[٦٦] من البحر العذب فى تخليط لهم كثير .

---

(٥٦) فى (أ) : سقطت كلمة (الملائكة) .

(٥٧) فى (خ) : (بنبوة) .

(٥٨) هو : محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق إمام عند القرامطة ترى الاسماعيلية أنه قام بالإمامة بعد أبيه سنة ١٣٨ هـ ، وأنه كان يكنى عنه بالمكتوم حذرًا عليه من بطش العباسيين توفى سنة ١٩٨ هـ . (اتعاظ الحنفا : ١٦ ، ١٨ بتصرف) .

(٥٩) راجع ترجمة لها فى ص الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٦٠) فى (أ) : (حام) .

(٦١) راجع ترجمته فى الجزء الأول ص ، وتفاصيل عنه فى هامش ٦٩ من مقالات الإسلاميين .

(٦٢) هو : خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القَسْرِى من بجيلة ، أمير العراقيين ، يمنى الأصل من أهل دمشق . ولى مكه سنة ٨٩ للوليد ابن عبد الملك ، ثم ولّاه هشام الكوفة والبصرة سنة ١٠٥ هـ وعزله سنة ١٢٠ هـ . قتل سنة ١٢٩ هـ أيام الوليد بن يزيد (الوفيات ١٦٩/١) .

(٦٣) فى (أ) : كلمة (فطار) غير مذكورة .

(٦٤) فى (أ) : زاد كلمة (به) .

(٦٥) فى (أ) : (ظلمة) .

(٦٦) فى الفرق بين الفرق ص ٢٤٠ (وخلق الشيعة من البحر العذب النير فهم المؤمنون) .

وكان ما[٦٧] يقول : إن الأنبياء لم يختلفوا قط فى شىء من الشرائع .

وقد قيل إن جابر بن يزيد[٦٨] الجُعْفِى الذى يروى عن الشعبى[٦٩] كان خليفة المغيرة ابن سعيد إذ أحرقه خالد بن عبد الله القَسْرِىّ ، فلما مات جابر خلفه بكر الأعور الهَجَرى[٧٠]، فلما مات فوضوا أمرهم إلى عبد الله بن المغيرة رئيسهم المذكور ، وكان لهم عدد ضخم بالكوفة ، وآخر ما وقف عليه المغيرة بن سعيد القول بإمامة محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين ، وتحريم ماء الفرات ، وكل ماء نهر أو عين أو بئر ، وقعت فيه نجاسة فبرئت منه عند ذلك القائلون بالإمامة فى ولد الحسين .

وفرقة قالت بنبوة بيان بن سمعان[٧١] التميمى ، صلبه وأحرقه خالد بن عبد الله القسرى مع المغيرة بن سعيد فى يوم واحد ، وجبن المغيرة بن سعيد عن اعتناق حزمة الحطب[٧٢] جبنا شديدًا حتى ضم إليها قهرًا ، وبادر بيان بن سمعان إلى الحزمة فاحتضنها[٧٣] من غير إكراه ، ولم يظهر منه جزع ، فقال خالد لأصحابهما فى كل شىءٍ أنتم مجانين ، هذا كان ينبغى أن يكون رئيسكم لا هذا الفسل . وكان بيان لعنه الله يقول : إن الله تعالى يفنى كله حاشا وجهه فقط ، وظن المجنون أنه تعلق فى كفره هذا بقول الله تعالى : « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك[٧٤]» .

ولو كان له أدنى عقل أو فهم لعلم أن الله تعالى إنما أخبر بالفناء عمّا على الأرض فقط بنص قوله الصادق : كل من عليها فان » .

ولم يصف عزَّ وجلَّ بالفناء غير ما على الأرض ، ووجه الله تعالى هو الله ، وليس هو شيئًا غيره ، وحاشا لله من أن يوصف بالتبعيض والتجزىء ، هذه صفة المخلوقين المحدودين ، لا صفة من لا يحدُّ ولا له مثل ، وكان لعنه الله يقول : إنه المعنىُّ بقول الله تعالى : « هذا بيان للناس[٧٥]» .

---

(٦٧) فى (أ) : (مما) .

(٦٨) هو : جابر بن يزيد بن الحارث الجعفى ، أبو عبد الله تابعى من فقهاء الشيعة من أهل الكوفة ، أثنى عليه بعض رجال الحديث ، واتهمه آخرون بالقول بالرَّجعة ، وكان واسع الرواية ، غزير العلم بالدين ، مات بالكوفة سنة ١٢٨ هـ (تهذيب التهذيب ٤٦/٢) .

(٦٩) هو : عامر بن شراحيل بن عبد ذى كبار الشّعبى الحميرى ، راوية من التابعين ، ولد بالكوفة سنة ١٩ هـ . اتصل بعبد الملك ابن مروان فكان نديمه وسميره ورسوله إلى ملك الروم ، استقضاه عمر بن عبد العزيز ، مات فجأة بالكوفة سنة ١٠٣ هـ (تهذيب التهذيب : ٦٥/٥ بتصرف) .

(٧٠) راجع ترجمته فى الجزء الأول ص

(٧١) بيان بن سمعان التميمى : ترجمنا له فى ص من الجزء الأول والجزء الثانى .

(٧٢) فى (خ) : القصب .

(٧٣) فى (أ) : (فاعتنقها) .

(٧٤) الرحمن : ٢٧

(٧٥) آل عمران : ١٣٨

وكان يذهب إلى أن الإمام هو « أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية(٧٦) ثم هى فى سائر ولد علىٍّ كلهم .

وقالت فرقة منهم بنبوة أبى منصور المستنير العجلى(٧٧) وهو الملقب بالكِسْف ، وكان يقال إنه المراد بقول الله عزَّ وجل : « وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا من السَّمَاءِ ساقِطًا(٧٨) » .

وصلبه يوسف بن عمر(٧٩) بالكوفة ، وكان لعنه الله يقول : إنه عرج به إلى السماوات ، وأن الله تعالى مسح رأسه بيده ، وقال له أى بنى(٨٠) ، اذهب فبلّغ عنى ، وكان يَمينُ أصحابِهِ « لا والكلمة(٨١) » ، وكان لعنة الله يقول : بأن أول من خلق الله تعالى فعيسى ابن مريم ثم على بن أبى طالب ، وكان يقول بتواتر الرسل ، وأباح المحرّمات من الزنا ، والخمر ، والميتة ، والخنزير ، والدّم ، وقال إنما هم أسماء رجال ، وجمهور الرّافضة اليوم على هذا ، وأسقط الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وأصحابه كلهم خناقون رضّاخون ، وكذلك أصحاب المغيرة بن سعيد ومعناهم فى ذلك أنهم لا يستحلون حمل السلاح حتى يخرج الذى ينتظرونه فهم يقتلون الناس بالخنق وبالحجارة والخشبية(٨١) بالخشب فقط . وذكر هشام بن الحكم الرافضى فى كتابه المعروف بالميزان ، وهو أعلم الناس بهم لأنه جارهم بالكوفة ، وجارهم فى المذهب : أن الكِسْفية خاصة يقتلون من كان منهم ومن خالفهم ، ويقولون نعجل المؤمن إلى الجنة ، والكافر إلى النار ، وكانوا بعد موت أبى منصور يؤدون الخمس مما يأخذون ممن خنقوه إلى الحسن بن(٨٢) أبى المنصور . وأصحابه فرقتان فرقة قالت : إنَّ الإمامة(٨٣) بعد محمد بن على بن الحسن ، صارت إلى محمد بن عبد الله بن الحسن ابن الحسين .

وفرقة قالت : بل إلى أبى منصور الكِسْف ، ولا تعود فى ولد علىٍّ أبدًا .

---

(٧٦) هو : أبو هاشم ، عبد الله بن على بن أبى طالب ، أبوه : محمد بن الحنفية ، قال الزبير : كان أبو هاشم صاحب الشيعة فأوصى إلى محمد بن على بن عبد الوهاب بن العباس ، وصرف الشيعة إليه ، ودفع إليه كتبه ومات عنده ، ومات فى أيام سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨ هـ ، وقيل فى سنة ٩٩ (تهذيب التهذيب ١٦/٦ ، ومشاهير علماء الأمصار : ١٩٤ ، العبر : ١٦٦/١) .

(٧٧) (راجع ترجمته فى الجزء الثانى) وقد ورد ذكره فى مقالات الإسلاميين : ٧٤/١ ، ٧٥ ، وفى (الفرق بين الفرق : ٢٤٣) .

(٧٨) الطور : ٤٤

(٧٩) هو : يوسف بن عمر بن الحكم أبو يعقوب الثقفى ، أمير من جبابرة الولاة فى العهد الأموى . ولى اليمن لهشام بن عبد الملك ، ثم نقل إلى ولاية العراق وأضاف إليه هشام إمرة « خراسان » ، واستمر فى الولاية إلى أيام يزيد بن الوليد فقبض عليه وحبسه فى دمشق ، وأرسل إليه من قتله عام سنة ١٢٧ هـ . (وفيات الأعيان : ٣٦٠/٢ بتصرف) .

(٨٠) فى (أ) : (ابنى) .

(٨١) فى (أ) : (والكلة) وهو تحريف . والمعنى : أن أصحابه إذا حلفوا كانوا يقولون (لا ،والكلمة) .

(٨٢) فى (خ) : (والخشبة) .

(٨٣) هو : ابن أبى منصور العجلى من عبد القيس ، كان يسكن الكوفة مع أبيه ، وقد ادعى النبوة بعد مقتل أبيه ، ودفع له أتباعه الخمس ، فأخذوا ما أتى به إلى المهدى العباسى فأقر أمامه بما نسب إليه فقتله وصلبه ، وأخذ منه مالاً عظيما ، وطلب أصحابه فقتل منهم جماعة وصلبهم . (اقرأ عن نحل هذه الفرقة فى الفرق بين الفرق : ٢٤٣ وما بعدها) .

وقالت فرقة بنبوة بُزَيغ الحائك بالكوفة(٨٤) وإن وقوع(٨٥) هذه الدعوى(٨٦) لهم فى حائك لطريفه(٨٧).

وفرقة قالت بنبوة معمر(٨٨) بائع الحنطة بالكوفة .

وقالت فرقة بنبوة عمير التّبان(٨٩) بالكوفة ، وكان لعنة الله يقول لأصحابه لو شئت أن أعيد هذا التبن تبرًا لفعلت ، وقدم إلى خالد بن عبد الله القَسْرِىّ بالكوفة فتجلّد وسبّ خالدًا ، فأمر خالد بضرب عنقه فقتل إلى لعنة الله .

وهذه الفرق الخمس كلها من فرق الخطابية(٩٠).

وقالت فرقة من أوائل(٩١) شيعة بنى العباس بنبوّة عمار(٩٢) الملقب بخداش فظفر به أسد ابن عبد(٩٣) الله أخو خالد بن عبد الله القسرى فقتله إلى لعنة الله .

والقسم الثانى من فرق الغالية الذين يقولون بالإلاهية لغير الله عزّ وجل فأولهم قوم من أصحاب عبد الله بن سبأ الحميرى لعنه الله : أتوا إلى علىّ بن أبى طالب فقالوا مشافهة : أنت هو . فقال لهم : ومن هو ؟ قالوا : أنت الله . فاستعظم الأمر ، وأمر بنار فأججت فأحرقهم

---

(٨٤) بُزيغ الحائك : (راجع ترجمته فى الجزء الأول ص ١٩٦) .

(٨٥) فى (أ) : (وقع) .

(٨٦) فى (أ) : (الدعوة) .

(٨٧) فى (أ) : (لظريفة) بالظاء .

(٨٨) ذكر الأشعرى هذه الفرقة تحت اسم (المعمرية) وقال إنها الفرقة الثانية من الخطابية ، وهى الفرقة السابعة من الغالية ، يزعمون أن الإمام بعد أبى الخطاب رجل يقال له « معمر » وعبدوه كما عبدوا أبا الخطاب ، واستحلواسائر المحرّمات وهم يسمّون « المعمرية » ويقال إنهم يسمّون « اليعمرية » (مقالات الإسلاميين : ٧٨/١) .

(٨٩) ذكر الأشعرى هذه الفرقة تحت اسم (العُمَيْرِيّة) : وهى الفرقة الرابعة من الخطابية ، والتاسعة من الغالية ، وهم منسوبون إلى (عُمَير ابن بَيّان العجلى) ، ولم يذكر وصفه بالتّبان ، وكان هؤلاء قد ضربوا خيمة فى كُناسة الكوفة ثم اجتمعوا إلى عبادة جعفر ، فأخذ يزيد بن عمرو ابن هبيرة « عمير بن البيان » فقتله فى الكناسة . (مقالات الإسلاميين : ٧٩/١) .

(٩٠) تنسب هذه الفرقة إلى أبى الخطاب الأسدى « محمد بن أبى زينب المكنى أبا اسماعيل ، وأبا الظبيان وكان مولى لبنى أسد ، وقد ظل على ضلالته حتى قتله عيسى بن موسى والى الكوفة من قبل العباسيين سنة ١٤٣ هـ . واقرأ عن هذه الفرقة فى (الفرق بين الفرق : ٢٤٧ ، ومقالات الإسلاميين : ٧٦/١ ، والتبصير ٧٣) .

(٩١) فى (أ) : (أولئك) .

(٩٢) ذكر الأشعرى أصحاب هذه الفرقة تحت اسم (العمّارية) ونسبهم إلى رئيسهم (عمّار) ويدعون (الفُطْحِيَّة) لأنّ عبد الله ابن جعفر « الإمام فى نظرهم كان أفطح الرجلين . وذكرهم فى الفرق بين الفرق (الأفطَحِيَّة) (راجع مقالات الإسلاميين : ١٠٢/١ ، والفرق بين الفرق : ٦٢) .

(٩٣) هو : أسد بن عبد الله القَسْرِى البجلى ، أمير من الأجواد الشجعان . ولد ونشأ فى دمشق ولّاه أخوه (خالد بن عبد الله) خراسان سنة ١٠٨ هـ فأقام فيها زمنا ، وجدّد بناء بلخ وأنزل بها جيشه ، ثم اختارها لإقامته ، وكان دهاقنة الفرس راضين عن حكمه ، وأسلم على يديه « سامان » جد السامانيين ، وسمّى ابنه أسدًا على اسمه ، وفى أيامه جاشت الترك بخراسان سنة ١١٧ هـ ، وأغاروا حتى أتوا مرو الروذ ، فسار إليهم أسد فكانت له معهم وقائع ، انتهت بهزيمتهم ، توفى فى بلخ سنة ١٢٠ هـ . (الأعلام : ٢٩٠/١) .

بالنار ، فجعلوا يقولون وهم يرمون فى النار : الآن صح عندنا أنك[٩٤] الله لأنه لا يعذِّب بالنار إلّا الله ، وفى ذلك يقول علىّ رضى الله عنه :

لما رأيت الأمر أمراً منكرًا   أججت نارًا ودعوت قنبرا

يريد قنبرًا[٩٥] مولاه ، وهو الذى تولّى طرحهم فى النار ، نعوذ بالله من أن نفتتن بمخلوق ، أو يفتتن بنا مخلوق فيما جلَّ أو دقَّ ، فإنَّ محنة أبى الحسن رضى الله عنه من بين أصحابه رضى الله عنهم كمحنة عيسى ﷺ بين أصحابه من الرسل عليهم السلام ، وهذه الفرقة باقية إلى اليوم فاشية عظيمة العدد يسمُّون العَلْيانية[٩٦] ، منهم كان اسحاق بن[٩٧] محمد النخعى الأحمر الكوفى ، وكان من متكلميهم ، وله فى ذلك كتاب سماه « الصراط » نقضه[٩٨] عليه البهنكى والفياض بما ذكرنا ، ويقولون : إن محمدًا رسول على .

وقالت طائفة من الشيعة يعرفون بالمحمّدية : إنَّ محمدًا عليه السلام هو الله . تعالى الله عن كفرهم ، ومن هؤلاء كان البهنكىُّ والفياض بن على وله فى هذا المعنى كتاب سمّاه « القسطاس » . وأبوه الكاتب المشهور الذى كتب لإسحاق بن كنداج أيام ولايته ، ثم لأمير المؤمنين المعتضد[٩٩] ، وفيه يقول البحترى القصيدة المشهورة التى أولها :

شط من ساكن الغوير مزاره   وطوته البلاد والله جارُه[١٠٠]

---

(٩٤) فى (أ) : (أنه) .

(٩٥) هو : قنبر مولى على رضى الله عنه ، لم يثبت حديثه . قال الأزدى : يقال كبر حتى كان لا يدرى ما يقول أو يروى . والأزدى لم يقل ذلك من قبله وإنما رواه من طريق القاسم بن اسحاق بن عبد الله بن جعفر ، وأخرج الخطيب فى المؤتلف من طريق عثمان بن واقد بن قرة الأعين قالت : كنت عند عبد الله بن أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فجاء قنبر فسلم عليه فقال له : لا سلّم الله عليك فقلت له : تقول هذا المولى عمك قال : إن هذا يأتى الكوفة يتنقص عثمان ، وأنا سمعت عليا رضى الله عنه يقول : قاتل الله هؤلاء إنى أرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى فيهم : « إخوانا على سرر متقابلين » . (لسان الميزان : ٤٧٥/٤ ترجمة رقم ١٤٩٧) .

(٩٦) ذكر الأشعرى هذه الفرقة فى الصنف الثانى عشر من أصناف الغالية ولم يطلق عليهم هذه التسمية . (مقالات الإسلاميين : ٨٣/١) .

(٩٧) هو : إسحاق بن محمد النخعى الأحمر ، كذاب مارق من الغلاة ، قال الخطيب : سمعت عبد الواحد بن على الأسدى يقول : اسحاق بن محمد النخعى كان خبيث المذهب ، يقول إن عليا هو الله ، وكان يطلى برصه بما يغيره فسمى الأحمر . قال وبالمدائن جماعة ينسبون إليه يعرفون بالاسحافية ، وهو من أهل الكوفة مات سنة ٢٨٦ هـ (لسان الميزان ٣٧٠/١ الترجمة رقم ١١٥٦ بتصرف) .

(٩٨) فى (أ) : (نقض) .

(٩٩) المعتضد : هو أحمد بن طلحة بن جعفر أبو العباس المعتضد بالله ابن الموفق بالله ابن المتوكل ، خليفة عباسى ، ولد ونشأ ومات فى بغداد ، كان عون أبيه فى حياته أيام خلافة المعتمد ، وأظهر بسالة ودراية فى حروب الزنج والأعراب وهو فى سنّ الشباب ، بويع له بالخلافة بعد وفاة عمه المعتمد سنة ٢٧٩ هـ . قال عنه ابن دحية : هو أحد رجال بنى العباس الخمسة ، أقام العدل ، وبذل المال ، وأصلح الحال وحج ، وغزا ، وجالس المحدثين ، وأهل الفضل والدين ، كان عارفا بالأدب ، موصوفا بالحلم إلا فى مواضع الشدة توفى سنة ٢٨٩ هـ . (فوات الوفيات : ٤٥/١) . بتصرف .

(١٠٠) هذا البيت من قصيدة قالها البحترى فى مدح على بن محمد بن الفياض ، والبيت كما ورد فى الديوان :

شط من ساكن الغوير مزاره   وطوته البلاد ، فالله جاره

(ديوان البحترى : ٢/٣٦٣ ط دار المعارف ببيروت) .

والفياض هذا لعنه الله قتله القاسم بن عبد الله بن سليمان بن[١٠١] وهب ، لكونه من جملة من سعى به أيام المعتضد ، والقصة مشهورة .

وفرقة ثالثة بالإلهية آدم عليه السلام والنبيين بعده نبيا نبيا إلى محمد عليه السلام ثم بالإلهية[١٠٢] علىّ ثم بالإلهية الحسن ثم الحسين ، ثم محمد بن على ، ثم جعفر بن[١٠٣] محمد ، ووقفوا هاهنا ، وأعلنت الخطابية بذلك نهارًا بالكوفة ، فى ولاية عيسى بن موسى ، بن محمد بن على ابن عبد الله[١٠٤] بن العباس ، فخرجوا صدر النهار فى جموع عظيمة فى أزرٍ وأردية محرمين ينادون بأعلى أصواتهم : لبيك جعفر لبيك جعفر قال ابن عياش وغيره كأننى أنظر إليهم يومئذ فخرج إليهم عيسى بن موسى فقاتلوه فقتلهم ، واصطلمهم ، ثم زادت فرقة على ما ذكرنا فقالوا بالإلهية محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد ، وهم القرامطة[١٠٥]. وفيهم من قال بالإلهية أبى سعيد الحسن ابن بَهْرام الجَنَّابِى[١٠٦] وأبنائه بعده .

ومنهم من قال بالإلهية أبى القاسم النجار القائم باليمن ، فى بلاد همدان المسمى بالمنصور .

وقالت طائفة منهم : بالإلهية عبيد الله ثم الولاة من ولده إلى يومنا هذا .

وقالت طائفة بالإلهية أبى الخطاب محمد بن أبى زينب[١٠٧] مولى بنى أسد بالكوفة ، وكثر عددهم بها حتى تجاوزوا الألوف ، وقالوا هو إله ، وجعفر بن محمد إله ، إلا أن أبا الخطاب أكبر منه ، وكانوا يقولون : جميع أولاد الحسن أبناء الله وأحباؤه وكانوا يقولون : إنهم لا يموتون ، ولكنهم يرفعون إلى السماء ، وأشبه على الناس بهذا الشيخ الذى ترون[١٠٨].

---

(١٠١) هو : القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب الحارثى ، وزير من الكتاب الشعراء ، له غزل رقيق ، استوزره المعتضد العباسى بعد أبيه عبيد الله سنة ٢٨٨ هـ ، ولما مات المعتضد سنة ٢٨٩ هـ قام القاسم بأعباء الخلافة ، وعقد البيعة للمكتفى فى غيبته بالرقة ، وزرله . توفى سنة ٢٩١ هـ (الأعلام : ١١/٦) .

(١٠٢) فى (أ) : لم تذكر (ثم بالإلهية على) .

(١٠٣) هو : أبو عبد الله جعفر الصادق بن أبى جعفر محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وكان سيد بنى هاشم فى زمانه توفى فى آخر سنة ١٤٨ هـ عن ثمان وستين سنة (العبر : ٢٠٨/١) .

(١٠٤) هو : عيسى بن موسى بن محمد العباسى ، أبو موسى ابن أخى السفاح ، كان يقال له « شيخ الدولة » ولد ونشأ فى الحميمة ، ولّاة عمه الكوفة وسوادها سنة ١٣٢ هـ ، وجعله ولى عهد المنصور ، فاستنزله المنصور عن ولاية عهده سنة ١٤٧ هـ وعزله عن الكوفة ، وجعل له ولاية عهد ابنه المهدى ، فلما ولى المهدى خلعه سنة ١٦٠ هـ ، فأقام بالكوفة إلى أن توفى سنة ١٦٧ هـ (الكامل لابن الأثير : ٢٥/٦) بتصرف .

(١٠٥) ذكرهم الأشعرى فى مقالات الإسلاميين ١٠٠/١) ، وذكرهم البغدادى فى الفرق بين الفرق حين تحدث عن الاسماعيلية : ٦٢) . وكان محمد بن اسماعيل هذا يكنى بالمكتوم حذرًا عليه من بطش العباسيين ، وهو عندهم أول الأئمة المكتومين ، ويليه ابنه جعفر المصدّق . ثم محمد الحبيب ، ويقول الفاطميون إن محمدًا الحبيب هو والد عبيد الله القائم بالمغرب الملقب بالمهدى ، ولد المكتوم بالمدينة ، وتوفى ببغداد سنة ١٩٨ هـ . (اتعاظ الحنفا : ١٦ – ١٨ بتصرف) .

(١٠٦) هو : الحسن بنى بهرام الجنابى ، أبو سعيد ، كبير القرامطة ، كان دقاقا من أهل (جنابة) بفارس ، ونفى منها ، فأقام فى البحرين تاجرًا ، وجعل يدعو إلى نحلته فعظم أمره ، وكان أصحابه يسمّونه (السيد) استولى على « هجر » والأحساء والقطيف ، وسائر بلاد البحرين ، قتله خادم له صقلبى فى الحمام بهجر سنة٣٠١ هـ (الكامل لابن الأثير : ٢٧/٨ بتصرف) .

(١٠٧) هو : أبو الخطاب الأسدى الذى تنسب إليه فرقة الخطابيه واسمه محمد ابن أبى زينب ، ويكنى أيضًا أبا إسماعيل ، وأبا الظَّبْيان ، وكان مولى لبنى أسد ، وقد كان يقول : إن لكل شيء من العبادات باطنا ، وقد ظل على ضلالته ومخرقته حتى قتله عيسى بن موسى والى الكوفة من قبل العباسيين سنة ١٤٣ هـ . (الفرق بين الفرق : ٢٤٧) .

(١٠٨) راجعنا مقالات الإسلاميين فوجدنا العبارة كالآتى : .. ولكن يرفعون بأبدانهم إلى الملكوت ، وتوضع للناس أجساد شبه أجسادهم » وذكر صاحب الفرق بين الفرق » وزعموا أيضا أنهم لا يموتون ، وأن الواحد منهم إذا بلغ النهاية فى دينه رفع إلى الملكوت وزعموا أنهم يرون المرفوعين =

ثم قالت طائفة منهم بالإلهية معمر بائع الحنطة بالكوفة ، وعبدوه ، وكان من أصحاب أبى الخطاب ، لعنهم الله أجمعين .

وقالت طائفة بالإلهية الحسين(١٠٩) بن منصور حلّاج القطن ، المصلوب ببغداد ، بسعى الوزير بن حامد بن العباس رحمه الله أيام المقتدر .

وقالت طائفة بالإلهية محمد بن على الشَّلْمَغَانىّ(١١٠) الكاتب المقتول ببغداد أيام الراضى(١١١)، وكان أمر أصحابه بأن يفسق الأرفع قدرًا منهم به ليولج فيه النور .

وكل هذه الفرق ترى الاشتراك فى النساء .

وقالت طائفة بالإلهية شباس المقيم فى وقتنا هذا حيًّا بالبصرة .

وقالت طائفة منهم بالإلهية أبى مسلم السرّاج(١١٢).

ثم قالت طائفة من هؤلاء بالإلهية المقنّع الأعور القَصَّار(١١٣) القائم بثأر أبى مسلم ، واسم هذا القصار هاشم ، وقتل لعنه الله أيام المنصور .

وقالت الراوندية(١١٤) بالإلهية أبى جعفر المنصور(١١٥)، وأعلنوا بذلك فخرج إليهم المنصور فقتلهم وأفناهم إلى لعنة الله .

=منهم غدوة وعشية » . وعلى ذلك تكون العبارة التى ذكرها أبو محمد وهى [وأشبه على الناس بهذا الشيخ الذى ترون] ناقصة أو محرفة ، وحقيقتها يدور حول المعنى الذى ذكرناه (راجع الفرق بين الفرق : ٢٤٩ ، ومقالات الإسلاميين : ٧٨/١) .

(١٠٩) فى (أ) : (الحسن) . وقد ترجمنا له فى الجزء الأول ص ، وفى الجزء الثانى :

(١١٠) هو : محمد بن على الشَّلْمَغانى ، ظهر أمره ببغداد سنة ٣٢٢ هـ ، وشاع أنه يدعى الإلاهية ، وكثر أتباعه فأحضره الوزير ابن مقلة عند الراضى بالله فسمع كلامه وقال له : أنت زعمت أنك لا تدّعى الربوبية فلماذا يناديك ابن أبى عون بإلهى وسيدى ورازقى . فقال : وما علىَّ من قول ابن أبى عون ؟ ثم أحضره غير مرة وأحضر الفقهاء والقضاة فأفتى الأئمة بإباحة دمه فأحرق فى ذى القعدة ، وضربت رقبة بن أبى عون . والسَّلْمغانى هذا هو المعروف بابن أبى العُذَافر ، وقد بسط القول فيه ابن الأثير . (الكامل : ٢٤١/٦) . وذكره فى الأصل (السَّلْعان) وهو تحريف .

(١١١) الراضى : هو أبو إسحاق ، أحمد ويقال : محمد بن المقتدر بالله جعفر ، ولد فى سنة ٢٩٧ هـ ، وأمه جارية رومية إسمها (ظلوم) . كان سمحا كريما محبا للعلماء والأدباء مات فى شهر ربيع الأول سنة ٣٢٩ هـ ، وله إحدى وثلاثون سنة ونصف سنة .

(١١٢) بحثنا فى كثير من المراجع عن أبى مسلم السرّاج فلم نجد من نسبت إليه الألوهيه إلا أبو مسلم الخراسانى ، وقد ذكره البغدادى حين تحدث عن فرقة الرِّزامية ، ص ٢٥٦ ، وذكره الأشعرى فى مقالات الإسلاميين تحت الرزاميه والأبو مسلميه : ٩٦/١) وهو : عبد الرحمن ابن مسلم ، وقيل عثمان الخراسانى ، والقائم بالدعوة العباسية ، قتله أبو جعفر المنصور سنة ١٣٧ هـ وقيل سنة ١٣٦ هـ وقيل سنة ١٤٠ هـ (ترجمته رقم ٣٤٥ من وفيات الأعيان) .

(١١٣) قال الذهبى فى حوادث سنة ١٦١ هـ : كان ظهور عطاء المقنّع الساحر الملعون الذى ادّعى الربوبية بناحية « مرو » ، واستغوى خلائق لا يحصون ، وأرى الناس قمرًا ثانيا فى السماء كان يرى إلى مسيرة شهرين » ويقول فى حوادث سنة ١٦٣ هـ « وفيها قتل المهدى جماعة من الزنادقة ، وصرف همته إلى تتبعهم ، وأتى بكتب من كتبهم فقطعت بحضرته بحلب ، وفيها بالغ سعيد الجرشى فى حصار عطاء المقنع ، فلما أحسَّ الملعون بالغلبة استعمل سما ، وسقى نساءه فأهلكهم الله ، ودخل المسلمون الحصن فقطعوا رأسه ووجهوا به إلى المهدى ، فوافاه بحلب ، وكان قد اتخذوجها من ذهب ، واستغوى الناس بالسحر . وترجمته رقم ٣٩٣ من وفيات الأعيان .

(١١٤) فى (أ) : تقديم وتأخير يخّل بالمعنى .

(١١٥) هو : أبو جعفر : عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، الهاشمى العباسى ، ثانى خلفاء بنى العباس ، ولقبه المنصور ، توفى فى مكة فى شهر ذى الحجة سنة ١٥٨ هـ عن ثلاث وستين سنة ، وكانت مدة خلافته اثنتين وعشرين سنة (العبر : ٢٣٠/١) .

وقالت طائفة منهم بالإلهية عبد الله ابن الحرب الكندى[١١٦] الكوفى ، وعبدوه وكان يقول بتناسخ الأرواح ، وفرض عليهم تسع عشرة صلاة فى اليوم ، والليلة ، فى كل صلاة خمس عشرة ركعة ، إلى أن ناظره رجل من متكلمى الصُّفّرية ، وأوضح له براهين الدين فأسلم وصحّ إسلامه ، وتبرأ من كل ما كان عليه ، وأعلم أصحابه بذلك ، وأظهر التوبة فتبرأ منه جميع أصحابه الذين كانوا يعبدونه ، ويقولون بالإهيته ولعنوه وفارقوه ، ورجعوا كلهم إلى القول بإمامة عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وبقى عبد الله بن الحرب من السبئية النصيرية على الإسلام ، وعلى مذهب الصُّفّرية إلى أن مات ، وطائفته إلى اليوم تعرف بالحربية[١١٧] ومن السبئية القائلين بالإهية على طائفة[١١٨] تدعى النُّصيرية ، وقد غَلبوا فى وقتنا هذا على جند الأردن بالشام ، وعلى مدينة الطبرية خاصة ، ومن قولهم : لعن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، ولعن الحسن والحسين ابنى على رضى الله عنهم ، وسبّهم بأقذع السب ، وقذفهم بكل بلية ، والقطع بأنها وابنيها رضى الله عنهم شياطين تصوروا فى صورة الإنسان . وقولهم فى عبد الرحمن بن ملجم المرادى قاتل على رضى الله[١١٩] عن على ولعنة الله على ابن مُلْجَم ، فيقول هؤلاء إن عبد الرحمن بن ملجم المرادى أفضل أهل الأرض وأكرمهم فى الآخرة لأنه خلّص روح اللاهوت مما كان يتشبّث فيه من ظلمة الجسد وكدره ، فاعجبوا لهذا الجنون ، واسألوا الله العافية من بلاء الدنيا والآخرة ، فهى بيده لا بيد أحد سواه ، جعل الله حظنا منها الأوفى ، واعلموا أن كل من كفر هذه الكفرات الفاحشة ممن ينتمى إلى الإسلام فإنما عنصرهم الشيعة والصوفية ، فإن من الصوفية من يقول : إنَّ من عرف الله تعالى سقطت عنه الأعمال الشرعية[١٢١]. وزاد بعضهم ، واتصل بالله تعالى .

وبلغنا أن بنيسابور اليوم فى عصرنا هذا رجلًا يكنى أبا سعيد أبى الخير هكذا معا من الصوفية مرة يلبس الصوف ، ومرّة يلبس الحرير المحرّم على الرجال ، ومرة يصلى فى اليوم ألف ركعة ، ومرة لا يصلى لا فريضة ولا نافلة وهذا كفر محض ، ونعوذ بالله من الضلال .

---

(١١٦) هو : عبد الله بن عمرو بن حرب الكندى ، كان أول أمره على مذهب البيانية أتباع بيان بن سمعان النهدى فى الحلول ، ثم زعم أنّ روح الإله انتقلت من أبى هاشم بن محمد بن الحنفية إلى عبد الله بن حرب هذا ، لعنه الله . (انظر الحديث عنه فى الفرق بين الفرق ص ٢٤٣) .

(١١٧) فى (أ) : (الحزبية) .

(١١٨) فى (أ) : (وطائفة) وهذه الواو الزائدة تفسد المعنى .

(١١٩) فى (أ) : بزيادة (عنه) .

(١٢٠) عن سكين بن عبد العزّى العبدى أنه سمع أباه يقول : جاء عبد الرحمن بن مُلْجَم يستحمل عليا فحمله ثم قال : هذا قاتلى . قال فما يمنعك منه ؟ قال : إنه لم يقتلنى بعد . وقيل له إن ابن ملجم سمّ سيفه ويقول : إنه سيقتلك به قتلة يتحدّث بها العرب ، فبعث إليه لِمَ تسمُّ سيفك . قال : لعدوّى وعدوّك فخلى عنه وقال : ما قتلنى بعد . أخرجه أبو عمرو . وقيل فى سبب حماسه لقتل على أنه رأى امرأة من بنى تيم الرباب فخطبها ، فقالت له : آليت ألا أتزوج إلا على مهر لا أريد سواه ، قال : ما هو ؟ قالت : قتل علىّ بن أبى طالب ، وكان على قتل أباها وأخاها بالنهروان ، فمضى لقتله (تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس : تأليف حسين بن محمد بن الحسن الديار : ٢٨٠/١) .

(١٢١) فى (أ) : (سقطت عنه الشرائع) .

« ذكر شنع الخوارج »

ذكر بعض من جمع مقالات المنتمين إلى الإسلام ، أن فرقة من الأباضية رئيسهم رجل يدعى زيد ابن أبى أُنَيْسه[1]– وهو غير المحدث المشهور ، كان يقول : إنَّ فى هذه الأمة شاهدين عليها هو أحدهما ، والآخر لا يدرى من هو ؟ ولا متى هو ؟ ولا يدرى لعله قد كان قبله ، وإنَّ من كان من اليهود والنصارى يقول : لا إله إلَّا الله محمد رسول الله إلى العرب لا إلينا ، كما تقول العيسوية من اليهود ، قال : فإنهم مؤمنون ، أولياء الله تعالى ، وإن ماتوا على هذا العقد وعلى التزام شرائع اليهود والنصارى ، وأن دين الإسلام سينسخ بنبى من العجم يأتى بدين الصابئين ، وبقرآن آخر ينزل عليه جملة واحدة .

قال أبو محمد : إلَّا أن جميع الأباضية يكفرون من قال بشىء من هذه المقالات ويبرءون منه ، ويستحلون دمه وماله .

وقالت طائفة من أصحاب[2] الحارث الأباضى : إن من زنى أو سرق أو قذف فإنه يقام عليه الحد ثم يستتاب مما فعل ، فإن تاب ترك ، وإن أبى التوبة قتل على الرِّدة .

قال أبو محمد : وشاهدنا الأباضية عندنا بالأندلس يحرمون طعام أهل الكتاب ، ويحرمون أكل قضيب التيس ، والثور والكبش ، ويوجبون القضاء على من نام نهارًا فى رمضان فاحتلم ، ويتيممون وهم على الآبار التى يشربون منها إلا قليلًا منهم .

وقال أبو إسماعيل البطيحى وأصحابه ، وهم من الخوارج : أن لا صلاة واجبة إلا ركعة

---

(١) ورد ذكره فى الفرق بين الفرق : « يزيدُ بن أبى أُنَيْسه » ، وكان من البصرة ثم انتقل إلى جور من أرض فارس ، وكان على رأى الإباضية من الخوارج ، ثم خرج على قول جميع الأمة (الفرق بين الفرق : ٢٧٩) . وفى مقالات الإسلاميين : « يزيد بن أُنيسه » (مقالات الإسلاميين : ١٨٤) .

(٢) فى الفرق بين الفرق : (حارث بن يزيد الإباضى) بغير تعريف (بأل) (راجع ص ١٠٥) وفى التبصير « الحارث بن مزيد الإباضى » ص ٣٥ .

واحدة بالغداة ، وركعة أخرى بالعشى فقط ، ويرون الحج فى جميع شهور السنة ، ويحرمون أكل السمك[٣] حتى يذبح ، ولا يرون أخذ الجزية من المجوس ويكفرون من خطب فى الفطر والأضحى ، ويقولون : إن أهل النار فى النار فى لذّة ونعيم ، وأهل الجنة كذلك .

قال أبو محمد : وأصل أبى إسماعيل هذا من الأزارقة إلّا أنه غلا[٤] عن سائر الأزارقة ، وزاد عليهم .

وقالت سائر الأزارقة ، وهم أصحاب نافع بن الأزرق بإبطال رجم من زنى وهو محصن وقطعوا يد السارق من المنكب ، وأوجبوا على الحائض الصلاة والصيام فى حيضها .

وقال بعضهم : لا ولكن تقضى الصلاة إذا طهرت كما تقتضى الصيام ، وأباحوا دم الأطفال ممن لم يكن فى عسكرهم ، وقتل النساء أيضًا ممن ليس فى عسكرهم وبرئت الأزارقة ممن قعد عن الخروج لضعف أو غيره ، وكفروا من خالف هذا القول بعد موت أول من قال به منهم ، ولم يكفروا من خالفه فيه فى حياته وقالوا باستعراض كل من لقوه من غير أهل عسكرهم ويقتلونه إذا قال أنا مسلم ، ويحرمون قتل من انتمى إلى اليهود أو إلى النصارى أو إلى المجوس ، وبهذا شهد عليهم[٥] رسول الله ﷺ بالمروق من الدين كما يمرق السهم من الرَّمية إذ قال عليه السلام : « إنهم يقتلون أهل الإسلام ويتركون أهل الأوثان[٦] » وهذا من إعلام نبوته ﷺ إذ أنذر بذلك ، وهو من جزئيات الغيب فخرج نصا كما قال .

قال أبو محمد : وقد بادت الأزارقة – إنما كانوا[٧] أهل عسكر واحد أولهم نافع ابن الأزرق[٨]، وآخرهم عُبَيْدَةُ بن[٩] هلال اليشكرى ، واتصل أمرهم بضعا وعشرين سنة إلّا أنى

---

(٣) فى (خ) : بزيادة (إلّا) .
(٤) فى (أ) : (علا) بالعين المهملة وهو تحريف .
(٥) فى (أ) : سقطت كلمة (عليهم) .
(٦) الحديث رواه البخارى فى كتاب التوحيد ، ولفظه مسندًا إلى أبى سعيد الخدرى قال : « بعث علىٌّ وهو باليمن إلى النبى ﷺ بذهبية فى ترتبها فقسمها بين الأقرع بن حابس الحنظلى ، ثم أحد مجاشع وبين عينيه بن بدر الفزارى وبين علقمه بن علاثه العامرى ثم أحد بنى كلاب ، وبين زيد الخيل الطائى ثم أحد بنى نبهان ، فتغضبت قريش والأنصار فقالوا : يعطيه صناديد أهل نجد ويدعنا قال : إنما تألفهم ، فأقبل رجل غائر العينين ، ناتّى الجبين ، كث اللحية ، مشرق الوجنتين ، محلوق الرأس فقال : يا محمد اتق الله . فقال النبى ﷺ فمن يطبع الله إذا عصيته ، فيأمننى على أهل الأرض ولا تأمنونى ، فسأل رجلٌ من القوم قتله – أراه خالد ابن الوليد – فمنعه النبى ﷺ فلما ولى قال النبى ﷺ : إن من ضئضئى هذا قوما يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرميّة ، يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان ، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد (البخارى – كتاب التوحيد رقم ٦٩٨١ ط مصر سنة ١٣٥٦ هـ) .
(٧) فى (خ) : بزيادة كلمة (دفعة) .
(٨) نافع بن الأزرق : هو أبو راشد نافع بن الأزق بن قيس بن نهار ، أحد بنى الدول بن حنيفة ، كان أول خروجه بالبصرة فى عهد عبد الله ابن الزبير ، وفى سنة ٦٥ هـ اشتدت شكونه وكثرت جموعه ، فبعث إليه عبد الله بن الحارث مسلم بن عبس بن كريز بن ربيعة على رأس جيش كثيف ، فاشتد بينهم القتال حتى قتل مسلم أمير الجيش ، وقتل نافع أمير الخوارج فى جمادى الآخرة . (خطط المقريزى : ٣٥٤/٢ وما بعدها ، والكامل لابن الأثير ٨١/٤ بتصرف) .
(٩) هو : عُبيدة بن هلال اليَشْكُرى : من رؤساء الأزارقه وشعرائهم وخطبائهم ، كان فى أول خروجه من المقدَّمين فيهم ، وأرادوا مبابعته ـ

أشك فى صبيح مولى سوار بن الأشعر المازنى مازن تميم أَخَرج برأى الأزارقة أيام هشام ابن عبد الملك ، أم برأى الصُّفْرية[١٠]؟ لأن أمره لم يطل [فقد] أسر إثر بخروجه وقتل .

وقالت النجدات : وهم أصحاب نَجْدَة بن عويمر[١١] الحنفى : ليس على الناس أن يتخذوا إمامًا إنما عليهم أن يتعاطوا الحق بينهم .

وقالوا : من ضعف عن الهجرة إلى عسكرهم فهو منافق ، واستحلوا دماء[١٢] القعدة وأموالهم ، وقالوا من كذب كذبة صغيرة أو عمل ذنبا[١٣] صغيرًا فأصرَّ على ذلك فهو كافر مشرك ، وكذلك أيضًا فى الكبائر ، وأن من عمل الكبائر[١٤] غير مُصرٍّ عليها فهو مسلم ، وقالوا : جائز أن يعذّب الله المؤمنين بذنوبهم لكن فى غير النار وأما النار فلا .

وقالوا : أصحاب الكبائر منهم ليسوا كفارًا ، وأصحاب الكبائر من غيرهم كفار . وقد بادت النجدات .

وقالت طائفة من الصُّفْريَّة بوجوب قتل كل من أمكن قتله من ؤمن عندهم أو كافر ، وكانوا يئوِّلون الحق بالباطل ، وقد بادت هذه الطائفة .

وقالت الميمونية[١٥]– وهم فرقة من العجاردة ، والعجاردة فرقة من الصُّفْرِية بإجازة نكاح بنات البنات ، وبنات البنين ، وبنات بنى الإخوة والأخوات . وذكر ذلك عنهم الحسين بن على الكرابيسى[١٦]، وهو[١٧] أحد الأئمة فى الدين والحديث ، ولم يبق اليوم من فرق الخوارج إلا الأباضية والصفرية فقط .

=فقال : أدلكم على من هو خير لكم منى ، قطرى بن فجاءة المازنى فبايعوا قطريا ، وظل عبيدة إلى جانبه زمنا ، ووقع الخلاف بين الأزارقة ففارقه وانحاز إلى حصن قُوْمَس (فى ذيل جبال طبرستان) وسيّر الحجاج سفيان بن الأبرد الكلبى فقتل قطريًا ، وحاصر حصن قومس إلى أن قتل عبيدة ، وقتل من معه عام ٧٧ هـ (الكامل : لابن الأثير حوادث سنة ٧٧ هـ) .

(١٠) انظر فى شأن هذه الفرقة ، الفرق بين الفرق : ٩٠ ، ومقالات الإسلاميين : ١٨٢/١ ، ويقال لهم (الصُّفْرِية) جمع صُفْرى بضم الصاد وسكون الفاء إما لنسبتهم إلى الصفرة إشارة إلى صفرة وجوههم من أثر ما تكلفوه من السهر والعبادة ، وإما لنسبتهم إلى زياد بن الأصفر رئيسهم ، وجاز النسب إلى الجمع لأنه أشبه المفرد بسبب كونه قد جعل علما (الفرق بين الفرق : ٩٠) .

(١١) اقرأ عن النجدات فى الفرق بين الفرق : ٨٧ ، ومقالات الإسلاميين : ١٧٤/١ ، وهم أتباع « نَجْدَة بن عامر الحنفى » هكذا ورد فى الفرق بين الفرق ، وفى مقالات الإسلاميين (عامر) لا عويمر . وقد عظم أمر نجدة « واستولى على اليمامة والبحرين فى سنة ٦٦ هـ وفى سنة ٦٩ هـ قتله أصحابه ، (العبر : ٧٤/١ وما بعدها) بتصرف .

(١٢) فى (أ) : (دم) .

(١٣) فى (أ) : (عملا) .

(١٤) فى (أ) : (من الكبائر) .

(١٥) وتزعم فرقة الميمونة أن الله سبحانة وتعالى فوّض الأعمال إلى العباد ، وجعل لهم الاستطاعة إلى كل ما كلفوا ، فهم يستطيعون الكفر والإيمان جميعا ، فيوافقون المعتزلة فى رأيهم (اقرأ تفاصيل عنهم فى مقالات الإسلاميين : ١٧٧/١) .

(١٦) هو : الحسين بن على بن يزيد : أبو على الكرابيسى ، فقيه من أصحاب الإمام الشافعى ، له تصانيف كثيرة فى أصول الفقه وفروعه ، والجرح والتعديل ، وكان متكلما ، عارفا بالحديث من أهل بغداد ، نسبته إلى الكرابيسى . (وهى الثياب الغليظة) كان يبيعها . (وفيات الأعيان : ١٤٥/١ بتصرف) .

(١٧) فى (خ) : (وهذا) .

وقالت طائفة من أصحاب البَيْهَسِيَّة وهم أصحاب أبى بَيْهَس[١٨]، وهم من فرق الصُّفْرِيَّة : إن كل[١٩] صاحب كبيرة فيها حد فإنه لا يكفر ، حتى يرفع إلى الإمام فإذا أقام عليه الحد فحينئذ يكفر .

وقالت الرشيدية – وهم من فرق الثعالبة ، والثعالبة من فرق الصفرية : إن الواجب فى الزكاة نصف العشر مما سقى بالأنهار والعيون .

وقالت العُوفِية[٢٠]: وهم طائفة من البيهسية التى ذكرنا آنفا أن الإمام إذا قضى قضية جور وهو بخراسان أو بغيرها حيث كان من البلاد ففى ذلك الحين نفسه يكفر هو وجميع رعيته حيث كانوا من شرق الأرض وغربها ، ولو بالأندلس واليمن فما بين ذلك من البلاد .

وقالوا أيضًا لو وقعت قطرة خمر فى جُبٍّ ماء بفلاة من الأرض ، فإن كل من حضر[٢١] على ذلك الجب فشرب منه وهو لا يدرى بما وقع فيه فهو[٢٢] كافر بالله تعالى . قالوا : إلَّا أن الله تعالى يوفق المؤمن لاجتنابه .

وقالت الفضيلية من الصُّفْرية من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله بلسانه ولم يعتقد ذلك بقلبه ، بل اعتقد الكفر أو الدهرية ، أو اليهودية ، أو النصرانية ، فهو مسلم عند الله ، مؤمن ، ولا يضره إذا قال الحق بلسانه ما اعتقد بقلبه .

وقالت طائفة من الصفرية إن النبى ﷺ إذا بعث ففى حين بعثه فى ذلك الوقت من ذلك اليوم لزم جميع أهل المشرق والمغرب الإيمان به ، وأن[٢٣] يعرفوا جميع ما جاء به من الشرائع ، فمن مات منهم قبل أن يبلغه شىء من ذلك مات كافرًا .

وقالت العجاردة – أصحاب عبد الكريم بن عَجْرَد[٢٤] من الصُّفْرِيّة إنَّ من بلغ الحلم من أولادهم ، ونباتهم ، فهم برآء منه ومن دينه ، حتى يقر بالإسلام فيتولوه حينئذ .

---

(١٨) هو : هَيْصَم بن جابر من بنى سعد بن ضُبيعَة بن قيس ، أبو بَيْهس ، وكان الحجاج بن يوسف الثقفى قد طلب أبا بيهس أيام الوليد فهرب إلى المدينة فطلبه بها عثمان بن حيان المرى فظفر به وحبسه ، وكان يسامره إلى أن ورد كتاب الوليد بأن يقطع يديه ورجليه ويقتله ، ففعل به ذلك . (الفرق بين الفرق : ١٠٨) .

(١٩) فى (أ) : (كان) .

(٢٠) فى (أ) : (العَوْنية) وهو تحريف وقد ورد ذكر هذه الفرقة فى الفرق بين الفرق : ١٠٩ ، وفى مقالات الإسلاميين : ١/١٩٦) .

(٢١) فى (أ) : (خطر) .

(٢٢) فى (أ) : لم تذكر كلمة (فهو) .

(٢٣) فى (أ) : (وإن لم يرفعوا) .

(٢٤) جاء فى لسان العرب : وعَجْرد اسم رجل من الحروريّة ، والعجردية من الحرورية : ضرب ينسبون إليه . وكان عبد الكريم من أتباع عطية ابن الأسود والحنفى ، وافترقت العجاردة إلى عشر فرق والكلام عليهم تفصيلا فى (الفرق بين الفرق : ٩٣ ، وفى مقالات الإسلاميين : ١٧٧) .

قال أبو محمد : فعلى هذا إن قتلة قاتل قبل أن يلفظ بالإسلام فلا قود[٢٥] عليه ولادية ، وإن مات لم يرث ولم يورث .

وقالت طائفة من العجاردة : لا نتولى أطفالنا[٢٦] قبل البلوغ ولا نبرأ منهم لكن نقف منهم[٢٧] حتى يلفظوا بالإسلام بعد البلوغ .

قال أبو محمد : والعجاردة هم الغالبون على خوارج خراسان ، كما أنَّ النكار من الأباضية هم الغالبون على خوارج الأندلس .

وقالت المُكْرَمِيَّة : وهم أصحاب أبى مُكْرَم[٢٨] وهم من الثعالبة أصحاب ثَعْلبة[٢٩] وهو من الصُّفْرية ، وإلى قول الثعالبة رجع عبد الله بن إباض[٣٠] فبرىء منه أصحابه ، فهم لا يعرفونه اليوم ، ولقد سألنا من هو مقدمهم فى علمهم ومذهبهم عنه[٣١] فما عرفه أحد منهم .

وكان من قول المكرمية هؤلاء : أن من أتى كبيرة فقد جهل الله تعالى ، فهو كافر ليس من أجل الكبيرة كفر ، لكن لأنه جهل الله عزَّ وجل ، فهو كافر بجهله بالله تعالى .

وقالت طائفة من الخوارج : ما كان من المعاصى فيه حدٌّ كالزنى والسرقة والقذف فليس فاعله كافرًا ، ولا مؤمنا ، ولا منافقا . وأمّا ما كان من المعاصى لا حدَّ فيه فهو كفر وفاعله كافر .

وقالت الحفصية – وهم أصحاب حفص بن أبى المقدام[٣٢] من الإباضية – من عرف الله تعالى وكفر بالنبى ﷺ – فهو كافر وليس بمشرك ، فإن[٣٣] جهل الله تعالى أو جحده فهو حينئذ مشرك .

---

(٢٥) فى (خ) : (فالقود) .
(٢٦) فى (أ) : الأطفال .
(٢٧) فى (أ) : (فيهم) .
(٢٨) هكذا ورد اسم صاحب هذه الفرقة فى الفرق بين الفرق ، وفى مقالات الإسلاميين : ١٨٢/١) وسماه الشهرستانى (مُكْرم ابن عبد الله العجلى) وقد زعم المكرمية أن تارك الصلاة كافر لا لأجل ترك الصلاة لكن لجهله بالله عزّ وجل (الفرق بين الفرق : ١٠٣) .
(٢٩) سماه صاحب الفرق بين الفرق : (ثَعْلَبة بن مِشْكان) ، والثعالبة تدَّعى إمامته بعد عبد الكريم بن عجرد ، وتزعم أن عبد الكريم كان إماما قبل أن يخالفه ثعلبة فى حكم الأطفال فلما اختلفا فى ذلك كفر ابن عجرد ، وصار ثعلبة إماما . وقد سمى فى الملل والنحل (ثعلبة ابن عامر) ، ولم يزد الأشعرى عن تسميته بـ (ثعلبة) (الفرق بين الفرق : ١٠٠ ، ومقالات الإسلاميين : ١٧٩/١ وما بعدها) .
(٣٠) هو : عبد الله بن إباض أحد بنى مرة ابن عبيد من بنى تميم رهط الأحنف ابن قيس وفى لسان العرب وأباض : اسم رجل ، والإباضية : قوم من الحرورية لهم هوى ينسبون إليه . وقيل الإباضية : فرقة من الخوارج أصحاب عبد الله بن إباض التميمى . وقد افترقت الإباضية فيما بينها فرقا يجمعها القول بكفر مخالفيهم . (الفرق بين الفرق : ١٠٣ ، ومقالات الإسلاميين : ١٨٣/١) .
(٣١) فى (أ) : (عنهم) .
(٣٢) جاء ذكره فى لسان الميزان : ٣٣٠/٢ ، وفى خطط المقريزى (حفص بن المقدام) (٣٥٥/٢) وتحدث البغدادى عن الحفصية وقال : هؤلاء قالوا بإمامة حفص بن أبى المقدام » ، والحفصية هى الفرقة الأولى من الخوارج الإباضية عند الأشعرى (مقالات الإسلاميين : ١٨٣/١) .
(٣٣) فى (أ) : (وإن) .

وقال بعض أصحاب الحارث الإباضى ، المنافقون على عهد رسول الله ﷺ إنما كانوا موحدين لله تعالى أصحاب كبائر ، ومن حماقاتهم قول بكر بن أخت عبد الواحد بن[٣٤] زيد ، فإنه كان يقول : كل ذنب صغير أو كبير ولو كان أخذ حبة خردل بغير حق أو كذبة خفيفة على سبيل المزاح فهى شرك بالله ، وفاعلها كافر مشرك مخلد فى النار ، إلّا أن يكون من أهل بدر فهو كافر مشرك من أهل الجنة ، وهذا حكم طلحة والزبير رضى الله عنهما عندهم .

ومن حماقاتهم قول عبد الله بن عيسى ، تلميذ بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد ، المذكور ، فإنه كان يقول : إن المجانين والبهائم والأطفال ما لم يبلغوا الحلم فإنهم لا يألمون ألبتة ، لشىء مما ينزل بهم من العلل ، وحجته فى ذلك أن الله تعالى لا يظلم أحدًا ، وهو اللطيف الرحمن الرحيم فلو آلمهم بغير ذنب لكان ظالما لهم[٣٥] .

* * *

قال أبو محمد : لعمرى لقد طرد أهل[٣٦] المعتزلة ، وإن من خالفه فى هذا لمتلوث[٣٧] فى الحماقة ، متسكع[٣٨] فى التناقض[٣٩].

* * *

(٣٤) ترجمنا له فى الجزء الثالث : ٢٦١ .
(٣٥) فى (أ) : سقط الكلام من أول (وهو اللطيف إلى كان ظالما لهم) .
(٣٦) فى (أ) : (أصل) .
(٣٧) فى (أ) : (المتلوث) .
(٣٨) فى (أ) : (متكسع) .
(٣٩) فى (خ) : (فى الحماقة) .

« ذكر شنع المعتزلة »

قال أبو محمد : قالت المعتزلة بأسرها حاشا ضِرار بن عبد الله[1] الغِطْفَانِيّ الكوفى ومن وافقه كحفص[2] الفرد ، وكلثوم وأصحابه : إن جميع أفعال العباد من حركاتهم وسكونهم فى أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم وعقودهم لم يخلقها الله عزَّ وجل ، ثم اختلفوا :

فقالت طائفة : يخلقها[3] فاعلوها دون الله تعالى .

وقالت طائفة : هى أفعال موجودة لا خالق لها أصلا .

وقالت طائفة : هى أفعال الطبيعة ، وهذا قول أهل الدّهر بلا تكلف .

وقالت المعتزلة كلها حاشا ضرار بن عمرو المذكور ، وحاشا أبا سهل بشر ابن المعتمر البغدادى[4] النخاس بالرقيق : إنَّ الله عزَّ وجل لا يقدر ألبتة على لطف يلطف به للكافر حتى يؤمن إيمانًا يستحق به الجنة ، والله عزَّ وجل ليس فى قوته أحسن مما فعل بنا ، وأنَّ هذا الذى فعل هو منتهى طاقته ، وآخر قدرته التى لا يمكنه ولا يقدر على أكثر .

قال أبو محمد : هذا تعجيز مجرد للبارى تعالى ، ووصف له بالنقص ، وكلهم لا نُحاشى أحدًا يقول : إنه لا يقدر على المحال ، ولا على أن يجعل الجسم ساكنا متحركا معًا فى حالٍ واحدة ، ولا على أن يجعل إنسانا واحدًا فى مكانين معا .

---

(١) هو : ضرار بن عمرو القاضى ، وذكره صاحب الفهرست قال : يكنى أبا عمرو ، وذكره صاحب لسان الميزان فى الترجمة رقم ٩١٢ حـ ٣ وقال عنه : له مقالات خبيثة ، وقال المروزى : قال أحمد بن حنبل شهدت على ضرار عند سعيد بن عبد الرحمن الجمحى القاضى فأمر بضرب عنقه فهرب . (لسان الميزان ٣/٢٠٣) .

(٢) إليه تنسب فرقة الحفصية ، وهو حَفْص بن أبى المِقْدَام ، ذكره الأشعرى فى مقالات الإسلاميين : ١/١٨٣ ، وذكره البغدادى فى الفرق بين الفرق : ١٠٤) .

(٣) فى (أ) : (خلقها) .

(٤) ترجمنا له فى الجزء الثانى ٤٦٨ والثالث : ٨٧ .

قال أبو محمد : وهذا تعجيز مجرد لله تعالى ، وإيجاب النهاية والانقضاء لقدرته تعالى الله عن ذلك .

وقال أبو الهذيل بن مكحول العلّاف مولى عبد القيس بصرى أحد رؤساء المعتزلة ومتقدميهم : إنَّ لما يقدر الله تعالى عليه آخرًا ، ولقدرته نهاية لو خرج إلى الفعل – ولن[٥] يخرج – لم يقدر الله تعالى بعد ذلك على شيء أصلًا ، ولا على خلق ذرَّة فما فوقها ، ولا على إحياء بعوضة ميتة ، ولا على تحريك ورقة فما فوقها ، ولا على أن يفعل شيئًا أصلا .

قال أبو محمد : وهذه حالة من الضعف والمهانة والعجز قد ارتفعت البق والبراغيث والدود مدة حياتها عنها ، وعن أن توصف بها ، وهذا كفر مجرد لا خفاء به .

وزعم أبو الهذيل أيضًا : أن أهل الجنة وأهل النار تفنى حركاتهم حتى يصيروا جمادًا لا يقدرون على تحريك شيءٍ من أعضائهم ، ولا على البراح من مواضعهم وهم فى تلك الحال متلذذون ومتألمون إلَّا أنهم لا يأكلون ولا يشربون ، ولا يطئون بعد هذا أبدًا ، وكان يزعم أيضًا أن لما يعلمه الله عزَّ وجل آخرًا ونهاية ، وكلًّا لا يعلم الله شيئًا سواه .

وادَّعى قوم من المعتزلة أنه تاب عن هذه الطوَّام الثلاث .

قال أبو محمد : وهذا لا يصح ، وإنما ادَّعوا ذلك حياء من هذه الكفرات الصلع لإمامهم إمام الضلالة .

وذكر عن أبى الهذيل أيضًا أنه قال : إنَّ الله تعالى ليس خلافًا لخلقه ، وكان يكفّر من قال إن الله تعالى خلاف لخلقه[٦]. والعجب أنه مع هذا الإقدام العظيم ينكر التشبيه ، وهذا عين التشبيه لأنه ليس ألَّا خلاف أو مثل أو ضدٌّ ، فإذا بطل أن يكون خلافًا أو[٧] ضدًّا فهو مثل ولابدّ تعالى الله عن هذا علوًّا كبيرًا .

وكان أبو الهذيل يقول : إنَّ الله لم يزل عليمًا ، وكان ينكر أن يقال : إن الله عزَّ وجل لم يزل سميعًا بصيرًا .

قال أبو محمد : وهذا خلاف القرآن لأن الله تعالى قال : « وَكَانَ الله سَميعًا بصيرًا[٨]» .

---

(٥) فى (أ) : لم يذكر (ولن يخرج) .
(٦) فى (أ) : سقط قوله (وكان يكفر من قال إن الله تعالى خلاف لخلقه) .
(٧) فى (أ) : (وضدًّا) .
(٨) النساء : ١٣٤

كما قال : « وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا[٩] » .

وكلهم قال إنَّ الله تعالى لم يزل يعلم أنَّ من مات كافرًا فإنه لا يؤمن أبدًا وأنه تعالى حكم وقال : إنَّ أبا لهب وامرأته سيصليان النار كافرين ، ثم قطعوا كلهم بأنَّ أبا لهب وامرأته كانا قادرين على الإيمان وعلى ألَّا تمسّهما النار ، وأنهما كان ممكنا لهما تكذيب الله عزَّ وجل ، وأنهما كانا قادرين على إبطال علم الله عزَّ وجل ، وعلى أن يجعلاه كاذبًا فى قوله ، هذا نصُّ قولهم بلا تطويل[١٠].

قال : وكان إبراهيم بن سيَّار النظام أبو[١١] إسحاق البصرى مولى بنى بحير بن الحارث ابن عباد الضبعى أكبر شيوخ المعتزلة ، ومقدمة علمائهم يقول : إن الله تعالى لا يقدر على ظلم أحدٍ أصلًا ، ولا على شىءٍ من الشر ، وأن النَّاس يقدرون على كل ذلك ، وأنه تعالى لو كان قادرًا على ذلك لكنا لا نأمن أن يفعله ، أو أنه قد فعله فكان الناس عنده أتم قدرة من الله تعالى ، وكان يصرّح بأن الله تعالى لا يقدر على إخراج أحدٍ من جهنم ، ولا إخراج أحدٍ من أهل الجنة عنها ، ولا على طرح طفل فى جهنم ، وأنَّ الناس وكل واحد من الجنّ والملائكة يقدرون على ذلك ، فكان الله عزَّ وجل عنده أعجز من كل ضعيف من خلقه ، وكان كل أحدٍ من الخلق أتم قدرة من الله تعالى وهذا الكفر المجرد الذى نعوذ بالله منه .

ومن العجب اتفاق النظام والعلَّاف شيخى المعتزلة على أنه ليس يقدر الله تعالى من الخير على أصلح ممّا عمل ، فاتفقا على أنَّ قدرته على الخير متناهية .

ثم قال النظام : إنه تعالى لا يقدر على الشَّر جملة ، فجعله عديم قدرة على الشر جملة[١٢]، عاجزًا عنه .

وقال العلَّاف : بل هو قادر على الشر جملة فجعل ربه متناهى القدرة على الخير و غير متناهى القدرة على الشر . فهل سمع بأخبث صفة من الصفة التى وصف بها العلَّاف ربه !!؟ وهل فى الموصوفين أخبث طبيعة من الموصوف الذى ادَّعى العلَّاف أنه ربّه ، ونعوذ بالله مما ابتلاهم به .

وأمَّا أبو المعتمر معمّر بن عمرو[١٣] العطار البصرى مولى بنى سليم أحد شيوخهم وأئمتهم

---

(٩) النساء : ١٠٤

(١٠) فى (أ) : (بلا تأويل) .

(١١) راجع ترجمته فى ٨٧/٣ من هذا المؤلف .

(١٢) فى (أ) : (لا توجد كلمة جملة) .

(١٣) لعله هو معمّر بن عبَّاد السُّلمى ، ذكره البغدادى فى الفرق بين الفرق صاحب فرقة المعمرية ، وبهذا الاسم ذكر فى طبقات المعتزلة ص ٦٣ ، وقال عنه يكنى أبا عمرو . وكان عالما عدلا ، وتفرَّد بمذاهب ، وكان بشر بن المعتمر وهشام بن عمر ، وأبو الحسين المدايني من تلامذته وما نسبه إليه ابن حزم من أقوال وآراء ينطبق على ما ذكره البغدادى ، وما جاء فى فرق وطبقات المعتزلة (راجع الفرق بين الفرق : ١٥١ ، وطبقات المعتزلة : ٦٣) وعليه فكنيته أبو عمرو لا أبو المعتمر .

فكان يقول بأن فى العالم أشياء موجودة لا نهاية لها ، ولا يحصيها البارى تعالى ولا أحد أيضًا غيره ، ولا لها عنده تعالى مقدار ولا عدد ، وذلك أنه كان يقول : إن الأشياء تختلف بمعانٍ فيها ، وأن تلك المعانى تختلف بمعان أخر فيها ، وتلك المعانى أيضًا تختلف بمعانٍ أخر فيها ، وهكذا أبدًا[١٤] بلا نهاية ، وهذا تكذيب واضح لله تعالى فى قوله : « وكل شىء عنده بمقدار[١٥] » .

وفى قوله تعالى : « وأحصى كل شىء عددا[١٦] » .

وتوافقه الدّهرية فى قولهم بوجود أشياء لا نهاية لها ، وعلى هذا طلبته المعتزلة بالبصرة عند السلطان حتى فرَّ إلى بغداد ومات بها مختفيًا عند إبراهيم بن السندى[١٧] بن شاهط ، وكان معمر أيضًا يزعم أن الله عزَّ وجل لم يخلق شيئًا من الألوان ولا طولًا ولا عرضًا ولا طعما ، ولا رائحة ولا خشونة ولأملاسًا ، ولا حسنًا ، ولا قبحًا ، ولا صوتًا ، ولا قوة ولا ضعفًا ، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ، ولا مرضًا ولا صحة ولا عافية ولا سقمًا ، ولا عمًى ولا بكمًا ولا بصرًا ولا سمعًا ولا فصاحًة ولا فسادًا للثمار ولا صلاحها ، وأنَّ كل ذلك فعل الأجسام التى وجدت فيها هذه الأعراض بطباعها .

فاعلموا أنَّ هذا الفاسق قد أخرج نصف العالم عن خلق الله تعالى لأنه ليس العالم[١٨] شيئا إلّا الجواهر الحاملة والأعراض المحمولة فقط ، فالنصف الواحد عنده غير مخلوق ، لعنه الله من مكذّب لله تعالى فى نصّ قوله تعالى : « خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا[١٩] » .

وقد عورض معمر بهذه الآية فقال : إنما أراد أنه خلق الإماتة والإحياء وذكر عنه أنه كان ينكر أن يكون الله عزَّ وجل عالمًا بنفسه ، وذلك لأنَّ العالم إنما يعلم غيره ، ولا يعلم نفسه ، وكان يزعم أنَّ النفس ليست جسما ولا عرضًا ، ولا هى فى مكان أصلًا ، ولا تماسُّ شيئا ولا تباينه ولا تتحرك ولا تسكن .

---

(١٤) فى (أ) : سقطت كلمة (أبدًا) .
(١٥) الرعد : ٨
(١٦) الجن : ٢٨
(١٧) فى (أ) : (السيد بن شاهك) . وقصتّه ليست على ما ذكرها ابن حزم ، وقد جاءت فى كتاب فرق وطبقات المعتزلة مفصلة واضحة ص ٦٣ وخلاصتها : « أن ملك السند أرسل إلى هارون الرشيد يطلب إليه أن يرسل له أحد علمائه ليجادلوه فى الدين فإن أقنعهم تبعوه ، وإن أقنعوه تبعهم هو والرشيد وأصحابه ، وكان ذلك الطلب بإيعاز من رجل من « السّمنية » فأرسل هارون الرشيد إلى ملك السند قاضيًا من قضاته فحاجّه السّمنى وانتصر عليه ، فاختار الرشيد معمّر بن عباد السلمى هذا ، فلما قرب من السند بلغ خبره ملك السند ، فخاف السمنى أن يفتضح على يديه ، وكان يعرف مقدرته من قبل ، فدسَّ من سمه فى الطريق فقتله (فرق وطبقات المعتزلة : ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ بتصرف) .
(١٨) فى (أ) : (للعالم) .
(١٩) الملك : ٢

قال أبو محمد : وهذا قول أهل الإلحاد محضًا بلا تأويل يعنى القائلين منهم بقدم النفس وأنها الخالقة للأشياء[٢٠]، نعوذ بالله من الضلال .

وكان يقول : إن الله تعالى لا يعلم نفسه ولا يجهلها ، لأنَّ العالم غير المعلوم ومحال أن يقدر على الموجودات أو أن يعلمها أو أن يجهلها .

وقال أبو العباس عبد الله بن محمد الأنبارى المعروف بالناشى ولقبه شرشير[٢١] فى كتابه فى المقالات : إن الله تعالى لا يقدر على أن يسوِّى بنان الإنسان بعد أن سبق فى علمه أنه لا يسويها .

قال أبو محمد : وهذا تكذيب محضٌ لله تعالى فى قوله : « أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوى بنانه[٢٢]» .

ورأيت للجاحظ[٢٣] فى كتابه « البرهان » لو أن سائلًا سأله وقال : أيقدر الله تعالى على أن يخلق قبل الدنيا دنيا أخرى فجوابه نعم ، بمعنى أنه يخلق تلك الدنيا حين خلق هذه فتكون مثل هذه .

قال أبو محمد : هذا تعجيز منه للبارى تعالى كما قدمنا إذ لم تحصل له تعالى قدرة على خلق دنيا قبل هذه إلَّا على الوجه الذى ذكره ، وأمَّا على غيره فلا فإن قيل كيف تجيبون ؟ قلنا : جوابنا : نعم . على الإطلاق .

فإن قيل لنا : كيف يصحّ هذا السؤال وأنتم تقولون إنه لا يجوز أن يقال إنَّ قبل العالم شيئًا لأن قبلُ وبعدُ من الزمان ولا زمان هنالك .

قلنا : معنى قولنا نعم . أى أنّه تعالى لم يزل قادرًا على أن يخلق عالما لو خلقه لكان له زمان قبل زمان هذا العالم . وهكذا أبدًا . وبالله تعالى التوفيق .

وأمَّا ضِرَار بن عمرو : فإنه كان يقول : إنَّ ممكنا أن يكون جميع من فى الأرض ممَّن يظهر الإسلام كفارًا كلهم فى باطن أمرهم لأن كل ذلك جائز على كل واحدٍ منهم فى ذاته .

ومن حماقات ضرار أنه كان يقول : إنَّ الأجسام إنما هى أعراض مجتمعة ، وأن النَّار ليس فيها حر ، ولا فى الثلج برد ، ولا فى العسل حلاوة ، ولا فى الصبر مرارة ، ولا فى العنب عصير ، ولا فى

---

(٢٠) فى (أ) : (للإنسان) .
(٢١) فى (أ) : (شرسير) بالسين المهملة . وقد ترجمنا له فى الجزء الثالث : ٣٧
(٢٢) القيامة : ٣
(٢٣) راجع ترجمته فى الجزء الثالث : ٨٧
(٢٤) فى (أ) : (القصرى) وهو تحريف .

الزّيتون زيت ، ولا فى العروق دم ، وأنّ كل ذلك إنما يخلقه الله عزّ وجل عند القطع والذّوق والعصر واللمس فقط .

وأمّا أبو عثمان عمرو بن الجاحظ البصرى الكنانى صليبة وقيل بل مولى ، وهو تلميذ النظام ، وأحد شيوخ المعتزلة – فإنه كان يقول : إنّ الله تعالى لا يقدر على إفناء الأجسام ألبتة إلّا أن يرققها ويفرق أجزاءها فقط ، وأمّا إعدامها فلا يقدر على ذلك أصلًا .

وأمّا أبو معن[٢٥] ثمامة بن أشرس النميرى صليبة بصرى أحد شيوخ المعتزلة وعلمائهم فذكر عنه أنه كان يقول : إن العالم فعل الله عزّ وجل بطباعه تعالى الله عن هذا الكفر الشنيع علوًّا كبيرا ، وكان يزعم أنّ المقلدين من اليهود والنّصارى والمجوس ، وعبّاد الأوثان لا يدخلون النّار يوم القيامة لكن يصيرون ترابًا . وأنّ كلّ من مات من أهل الإسلام والإيمان المحض والاجتهاد فى العبادة مصرًّا على كبيرة من الكبائر كشرب الخمر ونحوها ، وإن كان لم يواقع ذلك إلّا مرة فى الدّهر فإنه مخلّد بين أطباق النيران أبدًا مع فرعون وأبى لهب وأبى جهل .

قال أبو محمد : فأىُّ كفر أعجب من قول من يقول إنّ كثيرًا من الكفار لا يدخلون النار ، وأن كثيرًا من المسلمين لا يدخلون الجنة .

وكان ثمامة يقول : إن إبراهيم ابن رسول الله ﷺ ، وجميع أولاد المسلمين الذين يموتون قبل الحلم وجميع مجانين الإسلام لا يدخلون الجنة أبدًا ، ولكن يصيرون ترابًا .

وأمّا هشام بن عمرو الفوطى[٢٦] أحد شيوخ المعتزلة : فكان يقول إذا خلق الله تعالى شيئًا فإنه لا يقدر على أن يخلق مثل ذلك الشىء أبدًا لكن يقدر على أن يخلق غيره ، والغيران عنده لا يكونان مثلين ، وكان لا يجيز لأحد أن يقول حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا أنّ الله يعذب الكفار بالنار ، ولا أنه يحيى الأرض بالمطر ، ويرى هذا القول ، والقول بأن الله تعالى يضل من يشاء ويهدى من يشاء ضلالًا وإلحادًا .

قال أبو محمد : وهذا ردٌّ على الله تعالى جهارًا ، وكان يقول لا يحل القول بشىء من هذا إلّا عند قراءة القرآن فقط ، وكان يقول : قولوا حسبنا الله ونعم المتوكل عليه ، وكان يقول : قولوا إن الله يعذّب الكفار فى النار ، ويحيى الأرض عند نزول المطر ، وكان لا يجيز القول بأن الله ألّف بين قلوب المؤمنين ولا أن القرآن عمًّى على الكافرين ، وكان يقول : إنّ من هو الآن مؤمن عابد إلّا أن

---

(٢٥) فى (أ) : (وثمامة ، والأرجح أن يكون الاسم (أبو معن ، ثمامة بن أشرس) إذ أن هذه كنيته (راجع ١٧٢ الفرق بين الفرق) . وقد ترجمنا له فى الجزء الثالث ص ٨٧) .

(٢٦) راجع ترجمته فى ١٠٢/٣ .

فى علم الله أنه يموت كافرًا فإنه الآن عند الله كافر ، وأنَّ من كان الآن كافرًا مجوسيًا أو نصرانيًا أو دهريًا أو زنديقًا إلَّا أن فى علم الله عزَّ وجل أنه يموت مؤمنًا فإنه الآن عند الله تعالى مؤمن .

وأمّا عبّاد بن سليمان تلميذ هشام[٢٧] الفوطى المذكور فكان يزعم أن الله تعالى لا يقدر على غير ما فعل من الصلاح ، ولا يجوز أن يقال إنَّ الله خلق المؤمنين ، ولا أنه خلق الكافرين ، ولكن يقال خلق الناس ، وذلك زعم لأن المؤمن عنده إنسان وإيمان ، والكافر إنسان وكفر ، وأن الله تعالى إنما خلق عنده الإنسان فقط ولم يخلق الإيمان ولا الكفر .

وكان يقول : إنَّ الله تعالى لا يقدر على أن يخلق غير ما خلق ، وأنه تعالى لم يخلق المجاعة ولا القحط ، وكلهم يزعم أن الله تعالى لم يأمر الكفار قط بأن يؤمنوا فى حال كفرهم ، ولا نهى المؤمنين قط عن الكفر فى حال إيمانهم لأنه لا يقدر أحدٌ قط على الجمع بين الفعلين المتضادّين .

قال أبو محمد : وهم يقرون[٢٨] أن الله تعالى لم يزل يعلم أن من يؤمن بعد كفره فإنه لا يزال فى كفره إلى أن يؤمن ، وأن من يكفر بعد إيمانه فإنه لا يزال فى إيمانه حتى يكفر ، وأنَّ من لا يؤمن من الكفار أبدًا فإنه لا يزال فى كفره إلى أن يموت ، وأنَّ من لا يكفر من المؤمنين فإنه لا يزال فى إيمانه إلى أن يموت ، وليس أحد من المأمورين يخرج عن أحد هذه الوجوه الأربعة ضرورة ، فإذا كان عندهم لم يؤمر قط كافر بالإيمان فى حال كفره ، ولا نُهِى مؤمن عن الكفر فى حال إيمانه ، فإن من لم يزل مؤمنا إلى أن مات لم ينهه الله عزَّ وجل عن الكفر قط ، وأن من لم يزل كافرًا إلى أن مات فإنَّ الله لم يأمره قط بالإيمان ، وأن الله تعالى لم يأمر قط بالإيمان من آمن بعد كفره إلَّا[٢٩] حين آمن ، ولا نهى قط عن الكفر من كفر بعد إيمانه إلا حين كفر ، وهذا تكذيب مجرد لله تعالى فى أمره الكفار وأهل الكتاب بالإيمان ، ونهيه المؤمنين عن الكفر .

وكان بشر بن المعتمر أيضًا يقول : إن الله تعالى لم يخلق قط لونًا ولا طعمًا ولا رائحة ، ولا مجسَّة ، ولا شدة ولا ضعفًا ، ولا عمى ولا بصرًا ، ولا سمعًا ولا صممًا ولا جبنًا ولا شجاعةً ، ولا كيسًا[٣٠] ولا عجزًا ، ولا صحةً ولا مرضًا ، وأنَّ الناس يفعلون كل ذلك فقط .

وأمّا جعفر القصبى بائع القصب ، والأشج[٣١] وهما من رؤسائهم فكانا يقولان إن القرآن

---

(٢٧) راجع ترجمته فى ١٠٢/٣ ، والفرق بين الفرق : ١٦١ .
(٢٨) فى (أ) : (مقرون) .
(٢٩) فى (أ) : (إلى) .
(٣٠) فى (أ) : (كشفا) .
(٣١) لعلهما : جعفر بن حرب ، وجعفر بن مُبَشِّر ، اللذان تنسب إليهما فرقة الجعفريّة إحدى فرق المعتزلة ، وقد ذكرهما البغدادى فى الفرق بن الفرق : ١٦٧ ، وذكرهما صاحب فرق وطبقات المعتزلة : ٧٨ ، ولم يشيرا إلى أن الأول كان بائع قصب ولا إلى أن الثانى كان أشج . وأساويهما صاحب فرق وطبقات المعتزلة . وقال عنهما البغدادى : « كلاهما للضلالة رأس ، وللجهالة أساس » .

ليس هو الذى فى المصاحف ، إنما فى المصاحف شىء آخر وهو حكاية القرآن .

قال أبو محمد : وهذا كفر مجرد ، وخلاف جميع أهل الإسلام قديمًا وحديثًا .

وكان عليٌّ الأسوارى[٣٢] البصرى أحد شيوخ المعتزلة يقول : إن الله عزَّ وجل لا يقدر على غير ما فعل ، وأنَّ مَنْ علم الله تعالى أنه يموت ابن ثمانين سنة فإن الله تعالى لا يقدر على أن يميته قبل ذلك ، ولا أن يبقيه بعد ذلك طرفة عين ، وأنَّ من علم الله تعالى أنه يبرأ[٣٣] من مرضه يوم الخميس مع الزوال مثلا فإنَّ الله تعالى لا يقدر أن يبرئه قبل ذلك لا بما قرب ولا بما بعد ، ولا على أن يزيد فى مرضه طرفة عين فما فوقها ، وأن الناس يقدرون كل حين على إماتة من علم الله أنه لا يموت إلى[٣٤] إلى وقت كذا ، وأن الله لا يقدر على ذلك وهذا كفر ما سمع قط بأفظع منه .

وأمَّا أبو غفار أحد شيوخ المعتزلة : فكان يزعم أن شحم الخنزير ودماغه حلال .

قال أبو محمد : وهذا كفر صريح لا خفاء به ، وكان يزعم أن تفخيذ الرجال الذكور حلال ، وقد ذكر هذا عن ثمامة أيضًا ، وهذا[٣٥] كفر محض .

وأما أحمد بن خابط[٣٦] ، والفضل الحُدَثى[٣٧] البصريان ، وكانا تليمذين لإبراهيم[٣٨] النظام فكانا يزعمان أن للعالم خالقين ، أحدهما قديم وهو الله تعالى . والآخر محدث[٣٩] وهو كلمة الله عزَّ وجل المسيح عيسى بن مريم التى بها خلق العالم وكانا لعنهما الله يطعنان على رسول الله ﷺ بالتزويج .

وأن أبا ذر[٤٠] كان أزهد منه ، وكان أحمد بن خابط يزعم أن الذى يجىء[٤١] يوم القيامة مع الملائكة صفًا صفًا فى ظلل من الغمام إنما هو المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، وأن الذى خلق آدم على صورته إنما هو المسيح عيسى بن مريم وأن المسيح هو الذى يحاسب الناس يوم القيامة .

---

(٣٢) راجع ترجمته فى : ٣٧/٣ .
(٣٣) فى (أ) : لم يذكر (أنه يبرأ) .
(٣٤) فى (أ) : (إلَّا) .
(٣٥) فى (أ) : (وكل هذا) .
(٣٦) راجع ترجمته فى الجزء الثالث ص ٢٦٢ .
(٣٧) راجع ترجمته فى الجزء الثالث ص ٢٦٢ .
(٣٨) راجع ترجمته فى ٨٧/٣ .
(٣٩) فى (أ) : (حادث) .
(٤٠) هو : جندب بن جنادة على الصحيح أحد السابقين الأولين أسلم فى أول المبعث ، خامس خمسة ثم رجع إلى بلاد قومه ، ثم بعد حين هاجر إلى المدينة ، وكان له شأن عظيم فى العلم والزهد والجهاد وصدق اللهجة والإخلاص . توفى سنة ٣٢ هـ (تذكرة الحفاظ للذهبى : ١٧/١ نشر محمد أمين ببيروت) .
(٤١) فى (أ) : (يجىء به) .

وكان أحمد بن خابط لعنه الله يقول : إن فى كل نوع من أنواع الطير والسمك وسائر حيوان البر حتى البق والبراغيث والقمل والقرود والكلاب والفيران والتيوس والحمير ، والدود والوزع[٤٢] والجعلان أنبياء لله تعالى رسالة إلى أنواعهم مما ذكرنا ، ومن سائر الأنواع .

وكان لعنه الله يقول بالتناسخ والكرور ، وأن الله تعالى ابتدأ جميع الخلق فخلقهم كلهم جملة واحدة بصفة واحدة ، ثم أمرهم ونهاهم فمن عصى منهم نسخ روحه فى جسد بهيمة ، فالقتال[٤٣] يبتلى بالذبح[٤٤] كالغنم والإبل والبقر والدجاج وغير ذلك من البراغيث وكل ما يقتل فى الأغلب .

وأن من كان منهم مع[٤٥] فسقه وقتله للناس عفيفًا كوفىء بالقوة على السفاد كالتيس والعصفور والكبش وغير ذلك .

ومن كان زانيا أو زانية كوفئا بالمنع من الجماع كالبغال والبغلات .

ومن كان جبارًا كوفىء بالمهانة كالدود والقمل ، ولا يزالون كذلك حتى يُقتص منهم ثم يردون فمن عصى منهم كرر أيضًا كذلك هكذا أبدًا حتى يطيع طاعة لا معصية معها فينتقل إلى الجنة من وقته أو يعصى معصية لا طاعة معها فينتقل إلى جهنم من وقته ، وإنما حمله على القول بكل هذا لزومه أصل المعتزلة فى العدل وطرده إيّاه ، ومشيه معه .

واعلموا أن كل من لم يقل من المعتزلة بهذا القول فإنه متناقض تارك لأصلهم فى العدل . وكان لعنة الله يقول : إن للثواب دارين أحدهما لا أكل فيها ولا شرب ، وهى أرفع قدرًا من الثانية . والثانية فيها أكل وشرب وهى أنقص قدرًا .

قال أبو محمد : هذا كله كفر محض ، وكان لهذا الكافر أحمد بن خابط تلميذ على مذهبه يقال له أحمد بن باسوس[٤٦] كان يقول بقول معلمه فى التناسخ ثم ادَّعى النبوة وقال : إنه المراد بقول الله عزَّ وجل : « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد[٤٧] » .

وكان محمد بن عبد الله بن مسرة[٤٨] بن نجيح الأندلس يوافق المعتزلة فى القدر ، وكان يقول : إن علم الله تعالى وقدرته صفتان محدثتان مخلوقتان وأن لله تعالى علمين أحدهما أحدثه جملة وهو علم

(٤٢) الوزع : جمع الوازع : وهو الكلب (القاموس المحيط) .
(٤٣) فى (أ) : (فالعتال) وهو تحريف .
(٤٤) فى (أ) : (بالريح) وهو تحريف .
(٤٥) فى (أ) : (فى فسقه) .
(٤٦) راجع ترجمته فى ٢٥٨/٢ .
(٤٧) سورة الصنف : ٦
(٤٨) فى (أ) : (مرة) . وقد ترجمنا له فى ٢٩٣/٢ .

الكليات[٤٩] فهو علم الغيب كعلمه أنه سيكون كفار ومؤمنون ، والقيامة والجزاء ونحو ذلك . والثانى علم الجزئيات : وهو علم الشهادة وهو كفر زيد وإيمان عمرو ونحو ذلك فإنه لا يعلم الله تعالى من ذلك شيئا حتى يكون . وذكر قول الله عزَّ وجل « عالم الغيب والشهادة[٥٠] » .

قال أبو محمد : وهذا ليس كما ظنَّ بل على ظاهره أنه يعلم ما تفعلون وإن أخفيتم ، ويعلم ما غاب عنكم مما كان أو يكون ، أو هو كائن .

قال أبو محمد : وإنما حمله على هذا القول طرده لأصول المعتزلة حقا فإن من قال منهم إن الله تعالى لم يزل يعلم أن فلانًا لا يؤمن أبدًا ، وأن فلانًا لا يكفر أبدًا ، ثم جعل الناس قادرين على خلاف علم الله تعالى فيهم فقد قطع بأنهم قادرون[٥١] على تكذيب كلام ربهم ، وعلى إبطال ما لم يزل ، وهذا تناقض فاحش لا خفاء به ونعوذ بالله من الخذلان .

وكان من أصحابه الأكابر[٥٢] جماعة يكفرون من قال إنه عزَّ وجل لم يزل يعلم كل ما يكون قبل أن يكون .

وكان من أصحاب مذهبه رجل يقال له إسماعيل بن عبد الله الرعينى متأخر الوقت ، وكان من المجتهدين فى العبادة المنقطعين فى الزهد وأدركته إلَّا أنى لم ألقه ، ثم أحدث أقوالًا شنيعة[٥٣] فبرىء منه سائر المسريه وكفَّروه إلَّا من اتبعه منهم ممن أحدث قوله إن الأجساد لا تبعث أبدًا ، وإنما تبعث الأرواح صحَّ هذا عندنا عنه . وذكر عنه أنه كان يقول إنه حين موت الإنسان وفراق روحه لجسده تلقى روحه الحساب ويصير إمّا[٥٤] إلى الجنة أو إلى النار ، وأنه كان لا يقر بالبعث إلَّا على هذا الوجه ، وأنه كان يقول إنَّ العالم لا يفنى أبدًا بل هكذا يكون الأمر بلا نهاية .

وحدثنى الفقيه أبو أحمد المعافرى الطليطلى[٥٥] صاحبنا أحسن الله ذكره قال أخبرنى يحيى ابن أحمد الطبيب وهو ابن ابنة إسماعيل الرعينى المذكور قال إنَّ جدى كان يقول : إن العرش هو المدبِّر للعالم ، وأن الله تعالى أجل من أن يوصف بفعل شيءٍ أصلًا ، وكان ينسب هذا القول إلى محمد بن عبد الله بن مسرة ويحتج بألفاظ فى كتبه ليس فيها لعمرى دليل على هذا القول . وكان يقول لسائر المسرية : إنكم لم[٥٦] تفهموا عن الشيخ ، فبرئت منه المسرية أيضًا على هذا القول .

(٤٩) فى (أ) : (الكتاب) .
(٥٠) التوبة : ٩٤
(٥١) فى (أ) : سقط الكلام من قوله (على خلاف .. إلى قادرون) مما أفسد المعنى .
(٥٢) فى (أ) : سقطت (الأكابر) .
(٥٣) فى (أ) : (سبعة) .
(٥٤) فى (خ) : سقطت (إما) .
(٥٥) ترجمنا له فى ص ١٦٣ من هذا الجزء .
(٥٦) فى (أ) : (لن) .

وكان أحمد الطبيب صهره ممن برىء منه وثبتت ابنته على هذه الأقوال متبعة لأبيها مخالفة لزوجها وابنها ، وكانت متكلمة ناسكة مجتهدة ، ووافقت أبا هارون بن سماعيل الرّعينى على هذا القول فأنكره وبرىء من قائله ، وكذّب ابن أخيه فيما ذكر عن أبيه ، وكان مخالفوه من المسرية وكثير من موافقيه ينسبون إليه القول باكتساب النبوة ، وأن من بلغ الغاية من الصلاح وطهارة النفس أدرك النبوة وأنها ليست اختصاصا أصلًا ، وقد رأينا منهم من ينسب هذا القول إلى ابن مسرة ويستدل على ذلك بألفاظ كثيرة فى كتبه لعمرى أنها لتشير إلى ذلك ، ورأينا سائرهم ينكر هذا فالله أعلم ، ورأيت أنا من أصحاب إسماعيل الرعينى المذكور من يصفه بفهم منطق الطير ، وبأنه كان ينذر بأشياء قبل أن تكون فتكون .

وأمّا الذى لا شك فيه فإنه كان عند فرقته إمامًا واجبة طاعته يؤدون إليه زكاة أموالهم ، وكان يذهب إلى أنَّ الحرام قد عمَّ الأرض ، وأنه لا فرق بين ما يكسبه المرء من صناعة أو تجارة أو ميراث أو بين ما يسلبه(٥٧) من الرفاق ، وأن الذى يحل للمسلم من كل ذلك قوته كيفما أخذه .

هذا أمر صحيح عندنا عنه يقينًا ، وأخبرنا عنه بعض من عرف باطن أمورهم أنه كان يرى الدار دار كفر مباحة دماؤهم وأموالهم إلّا أصحابه فقط .

وصح عندنا عنه : أنه كان يقول بنكاح المتعة ، وهذا لا يقدح فى إيمانه ولا فى عدالته لو قاله مجتهدًا ، ولم تقم عليه الحجة بنسخه لو سلم من الكفرات الصلع التى ذكرنا ، وإنما ذكرنا ذلك(٥٨) عندما جرى لنا من ذكره ، ولغرابة هذا القول اليوم وقلة القائلين به من الناس .

ورأيت لأبى هاشم عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائى كبير المعتزلة وابن كبيرهم القطع بأن لله(٥٩) تعالى أحوالًا مختصة به ، وهذه عظيمة جدًّا إذ جعله حاملًا للأعراض – تعالى الله عن هذا الإفك .

ورأيت له القطع فى كتبه كثيرًا يردّد القول بأنه يجب على الله أن يزيح علل العباد فى كل ما أمرهم به ، ولا يزال يقول فى كتبه إن أمرَ كذا لم يزل واجبًا على الله تعالى .

قال أبو محمد : وهذا كلام تقشعر منه جلود(٦٠) المؤمنين ، ليت شعرى مَن الموجب ذلك على الله تعالى ، والحاكم عليه بذلك والملزم له ما ذكر هذا النذل لزومه للبارى تعالى ووجوبه عليه ؟ فيالله لمن قال إن الفعل أوجب ذلك على الله تعالى أو ذكر شيئًا دونه تعالى ليصرحنَّ بأن الله تعالى

(٥٧) فى (أ) : (يكتسبه) .
(٥٨) فى (أ) : (ذكرنا عنه ما جرى) .
(٥٩) فى (أ) : (بأن الله) .
(٦٠) (ذوائب المؤمن) .

متعبد للذى أوجب عليه ما أوجب محكوم عليه مدبر ، وأنه للكفر الصراح ، ولئن قال إنه تعالى هو الذى أوجب ذلك على نفسه فالإيجاب فعل فاعل لا شك ، فإن كان الله لم يزل موجبا ذلك على نفسه فلم يزل فاعلًا فالأفعال قديمة ولابدَّ لم تزل ، وهذه دهرية محضة وإن كان تعالى أوجب ذلك على نفسه بعد أن لم يكن موجبًا له فقد بطل انتفاعه(٦١) بهذا القول فى أصله الفاسد لأنه قد كان تعالى غير واجب عليه ما ذكر .

ورأيت لبعض المعتزلة سؤالًا سأل عنه أبا هاشم المذكور يقول فيه : ما بال كل من بعثه النبى ﷺ داعيًا إلى الإسلام إلى اليمن والبحرين وعمان والملوك وسائر البلاد ، وكل من يدعو إلى مثل ذلك إلى يوم البعث لا يسمّى رسول الله كما سمّى محمد عليه الصلاة والسلام ، إذ أمره الملك عن الله عزَّ وجل بالدعاء إلى الإسلام والأمر واحد ، والعمل سواء ؟

قال أبو محمد : فاعجبوا لتلاعب إبليس بهذه الفرقة الملعونة ، واسألوا الله العافية من أن يكلكم إلى أنفسكم ، فحُقَّ لمن دينه أن ربّه لا يقدر على أن يهديه ، ولا على أن يُضله أن يتمكن الشيطان منه هذا التمكن .

ولعمرى : إن هذا التشكيل(٦٢) لقد لزم أصل المعتزلة المضلّ لهم ، ولمن التزمه ، والمورد لجميعهم نار جهنم ، وهو قولهم : إنَّ التسمية موكولة إلينا لا إلى الله عزَّ وجل .

ورأيت لهذا الكافر أبى هاشم كلامًا ردَّ فيه بزعمه على من يقول : إنه ليس لأحد أن يسمى الله عزَّ وجل إلا بما سمَّى به نفسه ، فقال هذا النذل : لو كان هذا ولم يجز لأحد أن يسمّى الله تعالى إلَّا بما سمَّى به نفسه(٦٣) لكان غير جائز لله أن يسمى نفسه باسم حتى يسميه به غيره .

قال أبو محمد : فهل يأتى الممرور بأقبح من هذا الاستدلال ؟ وهل فى التسمية أكثر من هذا ؟ ولكن من يضلل الله فلا هادى له .

ونعوذ بالله من أن يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين فنهلك ، وكان أبو هاشم أيضًا يقول : إنه لو طال عمر المسلم المحسن لجاز أن يعمل من الحسنات والخير أكثر مما عمل النبى ﷺ .

قال أبو محمد : لا والله ولا كرامة ، ولو عمَّر أحدنا الدهر كلَّه فى طاعات متصلة ما وازى عملَ امرىء صحب رسول الله ﷺ من غير المناقين والكفار المجاهرين ساعة واحدة فما فوقها ،

---

(٦١) فى (أ) : (انتفاعه سؤالا) فزادت كلمة (سؤالًا) ولا معنى لهذه الزيادة .
(٦٢) فى (أ) : (السؤال) .
(٦٣) فى (خ) : (سماه به غيره) .

مع قوله ﷺ : إنه لو كان لأحدنا مثل أُحُدٍ ذَهَبًا فأنفقه ما بلغ مُد أحدّهم ولا نصيفه[٦٤]. فمتى يطمع ذو عقل أن يدرك أحدًا من الصحابة مع هذا البون الممتنع ادراكه قطعًا .. ؟ وكان أبو هاشم المذكور يقول : إنه لا يقبل توبة أحد من ذنب عمله أى ذنب كان ، حتى يتوب من جميع الذنوب .

قال أبو محمد : وحقا أقول لقد طرد أصل المعتزلة الذى أصفقوا[٦٥] عليه من إخراج المرء عن الإسلام جملة بذنب واحد عمله يصر عليه ، وإيجابهم الخلود فى النار عليه بذلك الذنب وحده ، فلو كان هذا لكان أبو هاشم صادقًا إذ لا منفعة له عندهم فى تركه كل ذنب ، وهو بذنب واحد يصر عليه خارج عن الإيمان مخلد بين أطباق النيران ، وما ينكر هذا عليه من المعتزلة إلّا جاهل بأصولهم أو عامد للتناقض ، وكان يقول : إن تارك الصلاة وتارك الزكاة عامدًا لكل ذلك لم يفعل شيئًا ولا أذنب ولا عصى ، وأنه مخلد بين أطباق النيران أبدًا على غير فعل فعله ولا على شيء ارتكبه .

قال أبو محمد : فهل فى التجوير لله على أصولهم وهل فى مخالفة الإسلام جهارًا أكثر من هذا القول السخيف ، وكان الذى حمله على قوله هذا أن ترك الفعل ليس فعلا ، وجميع المعتزلة إلا هشام ابن عمرو الفوطى ، يزعمون أن المعدومات أشياء على الحقيقة ، وأنها لم تزل وأنها لا نهاية لها .

قال أبو محمد : وهذه دهرية بلا مطل ، وأشياء لا نهاية لها لم تزل غير مخلوقة ، وكان عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط[٦٦] من أكابر المعتزلة ببغداد ممن يقول : إن الأجسام المعدومة لم تزل أجسامًا بلا نهاية لها ، لا فى عدد ولا فى زمان غير مخلوقة وقال محمد بن عبد الله الإسكافى[٦٧] أحد رؤساء المعتزلة ، إن الله تعالى لم يخلق الظنابير ولا المزامير ولا المعازف .

قال أبو محمد : كان تمام هذا الكفر أن يقول : إن الله لم يخلق الخمر ولا الخنازير ولا مردة الشياطين . وقالت المعتزلة بأسرها حاشي بشر بن المعتمر ، وضرار بن عمر إنه لا يحل لأحد تمنى الشهادة ولا أن يريدها ولا أن يرضاها لأنها تغلب كافر على مسلم ، وإنما يجب على المسلم أن يُحبَّ الصبر على ألم الجراح فقط إذا أصابته .

---

(٦٤) رواه البخارى فى فضائل الصحابة : (باب قول النبى ﷺ : « لو كنت متخذًا خليلًا .. الخ ، ومسلم فى فضائل الصحابة ، والترمذى فى المناقب ، وأبو داود فى السنة ، باب فى النَّهى عن سبِّ أصحاب رسول الله ﷺ ولفظه عنده : عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تسبُّوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أنْفَق أحدُكم مثلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ما بَلَغَ مُدَّ أَحَدِكم ولا نصيفه » .

(٦٥) فى (أ) : (أطبقوا) .

(٦٦) هو : أبو الحسين : عبد الرحمن بن محمد بن عثمان الخياط ، وهو أستاذ أبى القاسم عبد الله بن أحمد البلخى ، وكانوا يفضلون البلخى عليه ، قالوا : كان الخياط عالمًا فاضلًا وله كتب كثيرة ينقض بها مؤلفات ابن الراوندى الزنديق ، منها كتاب « الانتصار » نقض به كتابا تضمن « فضائح المعتزلة » لابن الراوندى (الفرق بين الفرق : ١٢٣) .

(٦٧) سبق أن ترجمنا له فى ١١٠/٣

قال أبو محمد : وهذا خلاف دين الإسلام والقرآن والسنن والإجماع المتيقن ، وقالوا كلهم حاشى ضرار ، وبشر إن الله لم يمت رسولًا ولا نبيًا ولا صاحب ، ولا أمهات المؤمنين وهو يدرى أنهم لو عاشوا فعلوا خيرًا ، لكن أمات كل من أمات منهم إذ علم أنه لو أبقاه طرفة عين لكفر ، أو فسق ولابد .

هذا قولهم فى أبى بكر وعمر وعلى رضى الله عنهم ، وفاطمة بنت النبى ﷺ ، وعائشة ، وخديجة لعنم وفى رسول الله ﷺ وموسى وعيسى ، وإبراهيم عليهم السلام : فاعجبوا لهذه الضّلالات الوحشية . وكان الجعد وهو من شيوخهم يقول : إذا كان الجماع يتولد منه الولد فأنا صانع ولدى ومدبره وفاعله ، ولا فاعل له غيرى ، وإنما يقال إن الله خلقه مجازًا لا حقيقة ، فأخذ أبو على محمد ابن عبد الوهاب الجبائى[٦٨] الطرف الثانى من الكفر ، فقال : إن الله تعالى خالق الحبل والولد فكل من فعل شيئًا فهو منسوب إليه ، فالله تعالى هو مُحْبِل ، وهو أحبل مريم بنت عمران .

قال أبو محمد : يلزمه ولابد إذا كان أولادنا خلقًا لله تعالى أن نضيفهم إليه ، فيقول : هم أبناء الله ، والمسيح ابن الله ، ولابدّ وقال أبو عمرو أحمد بن موسى بن حدير[٦٩] صاحب السكه وهو من شيوخ المعتزلة فى بعض رسائله التى جرت بينه وبين القاضى ، منذر بن سعيد[٧٠] رحمه الله : إن الله عاقل وأطلق عليه الإسم ، وقال بعض شيوخ المعتزلة : إن العبد إذا عصى الله عز وجل طبع على قلبه فيصير غير مأمور ولا منهى .

وأما حماقاتهم فإن أبا الهذيل العلاف قال : من سرق خمسة دراهم غير حبة أو قيمتها فهو مؤمن ، وليس فاسقًا ولا يعذب على ذلك ، فإن سرق خمسة دراهم أو قيمتها فهو فاسق منسلخ من الإسلام ، مخلد أبدًا فى النيران إلا أن يتوب . وقال بشر بن المعتمر : إن سرق عشرة دراهم غير حبة فلا إثم عليه ولا وعيد ، فإن سرق عشرة دراهم خرج عن الإسلام ، ووجب عليه الخلود إلا أن يتوب .

وقال النظام : إن سرق مائتى درهم غير حبة فلا إثم عليه ولا وعيد وإن سرق مائتى درهم خرج عن الإسلام ولزمه الخلود ، إلا أن يتوب .وقال أبو بكر أحمد بن على بن فيجور ابن الإخشيد[٧١] وهو من رؤسائهم الثلاثة الذين انتهت رياستهم إليهم وافترقت المعتزلة على

---

(٦٨) سبقت ترجمته راجع (٣/٣) .

(٦٩) هو : أبو عمرو بن موسى بن حدير .

(٧٠) راجع ترجمته فى (٢٢٨/٢) .

(٧١) هو : أبو بكر أحمد بن على الإخشيد . ذكره صاحب فرق وطبقات المعتزلة فى الطبقة التاسعة ، ونقل عن المرزبانى قوله : « أبو بكر وأبو الحسن بن المنجم كان هذان الشيخان آخر من شاهدنا من رؤساء من بقى من المتكلمين ، وعليهما فى مجالسهما كان اعتماد المتكلمين ببغداد ، وانتفع بهما خلق كثير ، إلّا أن أبا بكر زاد على غيره بما صنفه من الكتب وأودعه إياها ، ولم يطل عمره ، ولو طال أظهر علومًا كثيرة ،

مذاهبهم ، والثانى منهم أبو هاشم الجبائى[٧٢] والثالث عبد الله بن محمد بن محمود البلخى المعروف بالكعبى[٧٣]. وكان والد أحمد بن على المذكور أحد قواد الفراعنة ، وولى الثغور للمعتضد وللمكتفى فكان من قول أحمد المذكور : من ارتكب كل ذنب فى الدنيا[٧٤] من القتل فما دونه إلا أنه ندم إثر فعله له فقد صحت توبته وسقط عنه ذلك الذنب[٧٥]، وهكذا أبدًا متى عاد لذلك الذنب أو لغيره .

قال أبو محمد : هذا قول لم تبلغه جماهير المرجئة ، وهو مع ذلك يدعى القول بإنقاذ الوعد الوعيد ، وما على أديم الأرض مسلم لا يندم على ذنبه .

وقال أبو عبد الرحمن[٧٦] تلميذ أبى الهذيل : إن الحجة لا تقوم فى الأخبار إلا بنقل خمسة يكون فيهم ولى الله ، لا أعرفه بعينه وعن كل واحد من أولئك الخمسة خمسة مثلهم ، وهكذا أبدًا .

وقال صالح[٧٧] قبة تلميذ النظام : إن من رأى رؤيا أنه بالهند أو أنه قتل أو أى شىء رأى فإنه حق يقين ، كما رأى كما لو كان ذلك فى اليقظة . وقال عبّاد بن سليمان : الحواس سبع . وقال النظام الألوان جسم ، وقد يكون جسمان فى مكان واحد ، وكان النظام يقول لا تعرف الأجسام بالأخبار أصلًا لكن كل من رأى جسمًا سواء كان المرئىّ إنسانًا أو غير إنسان فإن الناظر إليه اقتطع منه قطعة اختلطت بجسم الرائى ، ثم كل من أخبره ذلك الرأى عن ذلك الجسم المخبر أيضًا ، أخذ من تلك الجسم قطعة وهكذا أبدًا .

قال أبو محمد : وهذه قصة لولا أنا وجدناها عنه من طريق تلاميذه المعظمين له ذكروها فى كتبهم عنه ، ما صدقناها على ذى مسكة من عقل ، فألزمه خصومه على هذا أن قِطعًا من جبريل وميكائل ومن النبى ﷺ ومن موسى وعيسى ، وإبراهيم عليهم السلام فى نار جهنم ، وأن قطعًا من فرعون وإبليس وأبى لهب وأبى جهل فى الجنة ، وكان يزعم أنه لا سكون فى شىء من العالم أصلًا وأن كل « سكون يعلم بتوسط البصر فهو حركة بلا شك . وكان معمر يزعم أنه لا حركة فى شىء من

لكنه توفى سنة ٣٢٠ هـ وكان عمره حينئذ ستا وخمسين سنة . (راجع فرق وطبقات المعتزلة : ١٠٦ ، وذكره البغدادى فى الفرق بين الفرق : ١٩٣) .

(٧٢) أبو هاشم الجبائى : راجع ترجمته (فى : ٣/٣) .

(٧٣) راجع ترجمته فى (٢٣٢/٣) .

(٧٤) فى (أ) : زاد (وهكذا أبدًا متى عاد لذلك الذنب أو لغيره) .

(٧٥) فى (أ) : زاد (أبدًا) .

(٧٦) فى (أ) : (عبد الرحمن) . وقد ترجمنا لأبى الهذيل فى الجزء الثانى ص ٢٥٧ .

(٧٧) هو : أبو جعفر بن محمد بن قبه : من متكلمى الشيعة ، وهو من الطبقة السابعة عند المعتزلة وله كتب كثيرة ، خالف الجمهور فى أمور منها : كون المتولدات فعل الله ابتداء ، وكون الإدراك معنى – هكذا ذكر عنه صاحب فرق وطبقات المعتزلة : ٧٨ .

العالم ، وأن كل ما يسميه الناس حركة فهو سكون ، وكان عباد بن سليمان يقول : إن الأمة إذا اجتمعت وصلحت ولم تتظالم احتاجت حينئذ إلى إمام يسرسها ويدبرها ، فإن عصت وفرجت وظلمت استغنت عن الإمام ، وكان أبو الهذيل يقول إن الإنسان لا يفعل شيئا فى حال استطاعته وإننا إنما نفعل الاستطاعة بعد ذهابها فألزمه خصومه أن الإنسان إنما يفعل إذا لم يكن مستطيعًا ، وأما إذا كان مستطيعًا فلا ، وألزموه أن الميت يفعل كلّ فعل فى العالم .

قال أبو محمد : وحماقاتهم أكثر من ذلك ونعوذ بالله من الخذلان .

« شِنَعُ المرجئة »

قال أبو محمد : غلاة المرجئة طائفتان إحداهما : الطائفة القائلة : بأن الإيمان قول باللسان وإن اعتقد الكفر بقلبه فهو مؤمن عند الله تعالى ، ولىٌّ لله عزَّ وجل ، من أهل الجنة ، وهذا قول محمد ابن كِرام السجستانى[1] وأصحابه وهم[2] « بخراسان » « وبيت المقدس » والثانية : الطائفة القائلة إن الإيمان عقد بالقلب ، وإن أعلن الكفر بلسانه بلا تقية ، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية أو النصرانية فى دار الإسلام ، وعبد الصليب وأعلن التثليث فى دار الإسلام ، ومات على ذلك فهو مؤمن ، كامل الإيمان عند الله عز وجل ، ولىٌّ لله تعالى ، من أهل الجنة ، وهذا قول « أبى محرز جهم[3] ابن صفوان السمرقندى » مولى بنى راسب كاتب الحارث بن سريج[4] التميمى ، أيام قيامه على نصر ابن[5] سيار بخراسان ، وقول أبى الحسن على بن إسماعيل بن أبى البشر الأشعرى[6] البصرى وأصحابهما . فأما الجهمّية فبخراسان ، وأما الأشعرية فكانوا ببغداد والبصرة ، ثم قامت لهم سُوق بصقلية والقيروان وبالأندلس ، ثم رق أمرهم . والحمد لله رب العالمين .

فمن فضائح الجهمية وشنعهم قولهم : بأن علمَ الله محدث مخلوق ، وأنه تعالى لم يكن يعلم شيئًا حتى أحدث لنفسه علمًا علم به ، وكذلك قولهم فى القدرة ، وقالوا أيضًا إن الجنةَ والنار تفنيان ، ويفنى كل من فيهما ، وهذا خلاف القرآن والثابت عن رسول الله ﷺ وخلاف إجماع أهل الإسلام المتيقن .

---

(١) راجع ترجمته فى (٣/٤٢٥) .
(٢) فى (أ) : (وهو) .
(٣) راجع ترجمته فى (٣/٤٢٥) .
(٤) راجع ترجمته فى (٢/٣٠٠) .
(٥) ترجمته فى (٢/٣٠٠) .
(٦) ترجمته فى (٣/٤٢٥) .

وقال بعض الكرَّامية : المنافقون : مؤمنون من أهل الجنة ، وقد أطلق ذلك بالمريّة[٧] محمد ابن عيسى[٨] الصوفى الألبيرى ، وكانت ألفاظه تدل عَلى أنَّه يذهب مذهبهم فى التجسيم وغيره ، وكان ناسكًا متقللًا من الدنيا واعظًا مفوَّهًا مهذارًا قليل الصواب كثير الخطأ ، رأيته مرة وسمعته يقول : إن النبى ﷺ كان لا يلزمه زكاة مال ، لأنه اختار أن يكون نبيًا عبدًا ، والعبد لا زكاة عليه ، ولذلك لم يُورث ولا ورث ، فأمسكت عن معارضته لعامة كانت بحضرته ، فخشيت لغطهم وتشنيعهم بالباطل ، ولم يكن معى أحد إلا يحيى بن عبد الكبير بن واقد ، كنت أبيت أنا وهو معى متنكرين لنسمع كلامه ، وبلغنى عنه شنع منها : القول بحلول الله فيما شاء من خلقه ، أخبرنى عنه بهذا أبو أحمد الفقيه المعافرى[٩] عن أبى على المقَّرى[١٠] وكان على بنت محمد بن عيسى المذكور ، وغير هذا أيضًا ، ونعوذ بالله من الضلال .

وقالت طائفة من الكرامية : المنافقون مؤمنون مشركون من أهل النار ، وقالت طائفة منهم أيضًا : من آمن بالله تعالى وكفر بالنبى ﷺ فهو مؤمن كافر معًا ، ليس مؤمنا على الإطلاق ولا كافرًا على الإطلاق . وقال « مقاتل بن سليمان[١١] » وكان من كبار المرجئة لا يضر مع الإيمان سيئة جلَّت أو قلت أصلًا ، ولا ينفع مع الشرك حسنة أصلًا ، وكان مقاتل هذا مع جهم بخراسان فى وقت واحد ، وكان يخالفه فى التجسيم ، كان جهم يقول ليس الله تعالى شيئا ، ولا هو أيضًا لا شىء ، لأنه تعالى خالق كل شىء فلا شىء إلا مخلوق . وكان مقاتل يقول : إن الله جسم لحم ودم على صورة الإنسان .

وقالت الكرَّامية : إن الأنبياء يجوز منهم الكبائر[١٢] والمعاصى كلها حاشى الكذب فى البلاغ فقط فإنهم معصومون منه . وذكر لى « سليمان بن[١٣] خلف الباجى » وهو من رووس الأشعرية ، أن منهم[١٤] من يقول أيضًا : إن الكذب فى البلاغ أيضًا جائز من الأنبياء والرسل عليهم السلام .

---

(٧) المرِيّة : مرفأ فى أسبانيا على البحر المتوسط ، عظم شأنها أيام عبد الرحمن الناصر .

(٨) لم نعثر له على ترجمة .

(٩) هو : أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبى عيسى المعافرى الأندلسى الطَّلَمنْكى ، أبو عمر ، أول من أدخل علم القراءات إلى الأندلس . ولد فى سنة ٣٤٠ هـ ، كان عالما بالتفسير والحديث ، أصله من طلمنكه من ثغر الأندلس الشرق ، سكن قرطبه ورحل إلى المشرق . من كتبه : الدليل إلى معرفة الجليل مائة جزء ، و« تفسير القرآن » نحو مائة جزء ، و« الوصول إلى معرفة الأصول » و« البيان فى إعراب القرآن » وفضائل مالك ، و« رجال الموطأ » و« الرَّوضة » : توفى فى طلمنكة فى سنة ٤٢٩ هـ . (الأعلام : ٢٠٦/١) .

(١٠) أبو على المقرى : لم نعثر له على الترجمة .

(١١) مقاتل بن سليمان : ترجمنا له فى حـ ٢ .

(١٢) فى (أ) : كبائر المعاصى .

(١٣) هو : سليمان بن خلف بن سعد التجيبى القرطبى ، أبو الوليد الباجى ، فقيه مالكى كبير ، من رجال الحديث ، أصله من بطليوس ، ومولده فى باجه بالأندلس ، رحل إلى الحجاز سنة ٤٢٦ هـ فمكث ثلاثة أعوام ، وأقام ببغداد ثلاثة أعوام ، وبالموصل عاما ، وفى دمشق وحلب مدة وعاد إلى الأندلس فولى القضاء فى بعض أنحائها ، وتوفى بالمرية . من كتبه : السَّراج فى علم الحجاج ، وأحكام الأُصول ، والتسديد إلى معرفة التوحيد . توفى سنة ٤٧٤ هـ . (الأعلام : ١٨٦/٣) .

(١٤) فى (أ) : (فيهم) .

قال أبو محمد : وكل هذا كفر محض وذكر عنهم « محمد بن الحسن[١٥] بن فورك الأشعرى » أنهم يقولون : إن الله تعالى يفعل كل ما يفعل فى ذاته ، وأنه لا يقدر على إفناء خلقه كلّهم حتى يبقى وحده ، كما كان قبل أن يَخْلُق ، وقالوا أيضًا : إن كلام الله تعالى أصوات وحروف هجاء مجتمعة كلها أبدًا لم تزل ولا تزال ، وقالوا أيضًا : لا يقدر الله تعالى على غير ما فعل ، وقالوا أيضًا إنه متحرك أبيض اللون . وذُكِر عنهم أنهم يقولون : إنه تعالى لا يقدر على إعادة الأجسام بعد بلائها لكن يقدر على أن يخلق مثلها . ومن حماقاتهم أنهم يجيزون كون إمامين وأكثر فى وقت واحد . وأما الأشعرية فقالوا : إن شتم من أظهر الإسلام لله تعالى ولرسوله بأفحش ما يكون من الشتم ، وإعلان التكذيب بهما باللسان بلا تقية ولا حكاية ، والإقرار بأنه يدين بذلك ليس شيء من ذلك كفرًا ، ثم خشوا مبادرة جميع أهل الإسلام لهم فقالوا : لكنه دليل على أن فى قلبه كفرًا . فقلنا لهم وتقطعون بصحة ما دلّ عليه هذا الدليل فقالوا : لا . وقالت الأشعرية : إن إبليس قد كفر ثم أعلن ذلك بعصيان الله تعالى فى السجود لآدم عليه السلام ، فإن إبليس من حينئذ لم يعرف قط أن الله تعالى حق ، ولا أنه خلقه من نار ، ولا أنه خلق آدم من تراب وطين ، ولا عرف أن الله أمره بالسجود لآدم بعدها قط ولا عرف بعد هذا قط أن الله كرم آدم . ومن قولهم بأجمعهم : إن إبليس لم يسأل الله قط أن يُنظِره إلى يوم البعث ، فقلنا لهم ويلكم إن هذا تكذيب لله عز وجل ، ولرسوله ﷺ ، ورد القرآن قالوا لنا : إن إبليس إنما قال كل ذلك هازلًا[١٦] مستهزئًا بلا معرفة ولا اعتقاد ، فكان هذا أشنع كفر وأبرده بعد كفر الغالية من الرافضة ، وقالوا : إن إبليس لم يكفر بمعصيته الله تعالى فى ترك السجود لآدم ولا بقوله عن آدم أنا خير منه وإنما كفر بجحدٍ لله تعالى كان فى قلبه .

قال أبو محمد : هذا خلاف للقرآن ، وتكهن لا يعرف صحته إلا من حدثه به إبليس عن نفسه ، على أن الشيخ غير ثقة فيما يُحدث به . وقالت الأشعرية أيضًا : إن فرعون لم يَعْرِف قط أن موسى إنما جاء بتلك الآيات من عند الله حقًا ، وأن اليهود والنصارى الذين كانوا فى عصر النبى ﷺ لم يعرفوا قط أن محمدًا رسول الله ﷺ حقًا ، ولا عرفوا أنه مكتوب فى التوراة والإنجيل ، وأن من عرف ذلك منهم وكتمه تمادى على إعلان الكفر ، ومحاربة النبى ﷺ لخيبر ومن بنى قريْظه ، وغيرهم فإنهم كانوا مؤمنين عند الله عز وجل ، أولياء لله من أهل الجنة .

فقلنا لهم : ويلكم هذا تكذيب لله عز وجل إذ يقول « يَجدُونَه مكتوبًا عْندَهُمْ فى التَّوراةِ

---

(١٥) راجع ترجمته فى ٢ من هذا الكتاب .

(١٦) فى (أ) : هازئا .

والإنجيل[١٧] « يَعْرِفُونَه كَما يعرفُونَ أبناءَهم[١٨] » ، فإنَّهُمْ لا يُكَذِّبونَك[١٩] » . فقالوا لنا معنى هذا[٢٠] أنهم وجدوا خطًّا مكتوبًا عندهم لم يفهموا معناه ، ولا دروا ما هو ، ونعم عرفوا صورته فقط ، ودروا أنه « محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب » كما يعرف الإنسان جاره فقط فكان هذا كفرًا باردا وتحريفًا[٢١] لكلام الله تعالى عن موضعه ، ومكابرة سمجة ، وحماقة ودفعا للضرورة ، وقد تقصَّينا الردّ على أهل هذه المقالة الملعونة فى كتاب لنا رسمه كتاب « اليقين فى النقض على الملحدين المحتجين عن إبليس اللعين وسائر الكافرين » تقصَّينا فيه كلام رجل من كبارهم من أهل القيروان ، اسمه عطاف[٢٢] بن دوناس فى كتاب ألفه فى نصر هذه المقالة ، وكان لشيخهم الأشعرى فى إعجاز القرآن قولان أحدهما : كما يقول المسلمون : إنه معجز النظم ، والآخر إنما هو المعجز الذى لم يفارق الله عز وجل قط والذى لم يزل غير مخلوق ، ولا أنزل إلينا ولا سمعناه قط ، ولا سمعه جبريل ولا محمد عليهما السلام قط ، وأما الذى يُقرأ فى المصاحف ، ونسمعه من القرآن ، فليس معجزًا بل مقدور على مثله ، وهذا كفر صحيح وخلاف لله تعالى ولجميع أهل الإسلام ، وقال كبيرهم وهو محمد بن الطيب الباقلانى[٢٣]: إن لله تعالى خمس عشرة صفة ، كلها قديمة لم تزل مع الله تعالى ، وكلها غير الله وخلاف الله تعالى ، وكل واحدة منهن غير الأخرى منها ، وخلاف لسائرها وأن الله تعالى غيرهن وخلافهن .

قال أبو محمد : هذا والله أعظم من قول النصارى ، وأدخل فى الكفر والشرك ، لأن النصارى لم يجعلوا مع الله تعالى إلا اثنين هو ثالثهما ، وهؤلاء جعلوا معه تعالى خمسة عشر هو السادس عشر لهم . وقد صرح الأشعرى فى كتابه المعروف بالمجالس بأن مع الله تعالى أشياء سواه ، لم تزل كما لم يزل .

قال أبو محمد : وهذا إبطال التوحيد علانية ، وإنما حملهم على هذا الضلال العظيم[٢٤] ظنهم أن إثبات علم الله وقدرته وعزته وكلامه لا يثبت إلا بهذه الطريقة الملعونة ، ومعاذ الله من هذا ، بل كل ذلك حق لم يزل غير مخلوق ، وليس شيء من ذلك غير الله تعالى ، ولا يقال فى شيء من ذلك

---

(١٧) الأعراف : ١٥٧
(١٨) البقرة : ١٤٦
(١٩) الأنعام : ٣٣
(٢٠) سقطت كلمة (هذا) من (أ) .
(٢١) فى (أ) : (أو تحريفا) .
(٢٢) لم نعثر له على ترجمة .
(٢٣) راجع ترجمته فى (٢) .
(٢٤) فى (أ) : سقطت كلمة (العظيم) .

هو الله تعالى ، لأن هذه تسمية له عز وجل ، وتسميته لا تجوز إلا بنصّ وقد تقصينا الكلام فى هذا ، فى صدر ديواننا هذا والحمد لله رب العالمين .

وإنما جعلنا هاهنا شنع أهل البدع تنفيرًا عنهم وإيحاشًا للأغمار من المسلمين من الأنس بهم ، ومن حسن الظن بكلامهم الفاسد . ولقد قلت لبعضهم إذا قلتم إن مع الله تعالى خمسَ عشرة صفة كلها غيره ، وكلها لم تزل ، فما الذى أنكرتم على النصارى إذ قالوا إن الله ثالث ثلاثة ؟ فقالوا لى : إنما أنكرنا عليهم إذ جعلوا معه شيئين فقط ولم يجعلوا معه أكثر ، ولقد قال لى بعضهم اسم الله تعالى وهو قولنا « الله » عبارة تقع على ذات البارى بجميع صفاته ، لا على ذاته دون صفاته فقلت له أتعبد الله تعالى أم لا ؟ فقال لى : نعم فقلت له : فإنما تعبد إذن بإقرارك الخالق وغيره معه فيكفيك فنفر نفرة ، وقال : معاذ الله من هذا ما أعبد إلا الخالق وحده . فقلت له : إنما تعبد إذن بإقرارك بعض ما يسمى به الله فنفر أخرى ، وقال معاذ الله من هذا ، وأنا واقف فى هذه المسألة . وقال شيخ لهم قديم وهو : « عبد الله بن سعيد بن كلاب البصرى » إن صفات الله تعالى ليست باقية ولا فانية ولا قديمة ، ولا حديثة ، لكنها لم تزل غير مخلوقة ، هذا مع تصريحه بأن الله تعالى قديم باق .

ومن حماقات الأشعرية قولهم : إن للناس أحوالا ومعانى لا معدومة ، ولا موجودة ، ولا معلومة ولا مجهولة ، ولا مخلوقة ولا غير مخلوقة ، ولا أزلية ولا محدثة ، ولا حق ولا باطل ، وهى علم العالم بأن له علما ، ووجود الواجد لوجوده كل ما يجد . هذا الذى(٢٥) سمعناه منهم نصًا ، ورأيناه فى كتبهم ، فهل فى الرعونة أكثر من هذا ..؟ وهل يمكن الموسوس والمُبرسَم أن يأتى بأكثر من هذا .. ؟ ولقد حاورنى « سليمان بن خلف الباجى كبيرهم فى هذه المسئلة فى مجلس حافل فقلت له : هذا كما يقول العّامة عندنا عتب لا من كرم ولا من دالية ، ومن هوسهم قولهم : إن الحق غير الحقيقة ولا ندرى فى أى لغة وجدوا هذا ، أم فى أى شرع وارد لقوه(٢٧) أم فى أى طبيعة ظفروا به فقالوا : إن الكفر حقيقة وليس بحق ، وقلت كلّا بل وجوده حق(٢٨) حقيقة ، ومعناه باطل ، لا حق ولا حقيقة . وقالوا كلهم ؛ إن الله حامل لصفاته فى ذاته ، وهذا نص قول « أبى جعفر السمنانى(٢٩) المكفوف وقاضى الموصل » وهو أكبر أصحاب الباقلانى مقدم الأشعرية فى وقتنا هذا وقال : هذا السّمنانى إن من سمّى الله تعالى جسما من أجل أنه حامل لصفاته فى ذاته فقد

---

(٢٥) فى (أ) : (أمر) بدلًا من (الذى) .

(٢٦) المبرسم : بفتح السين المصاب بعلة يهذى فيها . والفعل (بُرسم) (محيط) .

(٢٧) فى (أ) : سقطت كلمة (لقوه) .

(٢٨) فى (أ) : (عن حقيقة) .

(٢٩) راجع ترجمته فى (٣١٤/٢) من هذا المؤلف .

أصاب المعنى وأخطأ فى التسمية فقط ، وقال هذا السّمنانى : إن الله تعالى مشارك العالم فى الوجود ، وفى قيامه بنفسه كقيام الجواهر والأجسام ، وفى أنه ذو صفات قائمة به موجودة بذاته ، كما ثبت ذلك فيما هو موصوف بهذه الصفات ، من جملة أجسام العالم وجواهره وهذا نص كلام السمنانى حرفًا حرفًا .

قال أبو محمد : ما أعلم أحدًا من غلاة المشبهة أقدم على أن يطلق ما أطلق هذا المبتدع الجاهل ، الملحد المتهور ؛ من أن الله تعالى مشارك للعالم ، حاشى لله من هذا .

وقال السّمنانى عن شيوخه من الأشعرية : إن معنى قول النبى ﷺ إن الله خلق آدم على صورته إنما هو على صفة الرحمن ، من الحياة والعلم ، والاقتدار واجتماع صفات الكمال فيه ، وأسجد له ملائكته ، كما أسجدهم لنفسه ، وجعل له الأمر والنهى على ذريته ، كما كان لله تعالى كل ذلك .

قال أبو محمد : هذا نص كلامه حرفًا حرفًا ، وهذا كفر صريح ، وشرك بواح ، إذ صرح بأن آدم على صفة الرحمن من اجتماع صفات الكمال فيهما ، فالله تعالى وآدم عنده مثلان مشتبهان فى اجتماع صفات الكمال فيهما ، ثم لم يقنع بهذه السوءة حتى صرح بأن سجود الملائكة لآدم كسجودهم لله عز وجل ، وحاشى لله من هذا لأن سجود الملائكة لله تعالى سجود عبادة وديانة لخالقهم ، وسجودهم لآدم سجود سلام وتحية وتشريف منهم لآدم ، وإكرام له بذلك كسجود يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام فقط . ثم زاد اللّعين كفرًا على كفر بنصه أن الله تعالى جعل له الأمر والنهى على ذريته ، كما كان لله تعالى ذلك ، وهذا شرك لا خفاء به ، كشرك النصارى فى المسيح ولا فرق . ونسأل الله العافية ، وقال هذا السّمنانى : إن مذهب شيوخه أنهم لا يقولون إن الأمر بالشىء دالٌّ على كونه مرادًا للآمر قديمًا كان أو محدثًا ، ولا يدل النهى على كونه مكروهًا ، هذا نص كلامه ، وهذا خلاف للإسلام وللإجماع والمعقول ، وتصريح بأن الله تعالى إذا أمرنا[30] بالصَّلاة والزكاة والحج والصيام والجهاد وشهادة الإسلام ، فليس فى ذاك دليل على أنه يريد شيئًا من ذلك ، وإذ نهى عن الكفر والزنا والبغاء[31] والسرقة ، وقتل النفس ظلمًا ، فليس ذلك دليلا على أنه يكره شيئًا من ذلك ، وما فى الأقوال أنتن من هذا القول .

وقال هذا السمنانى إنه لا يصح القول بأن علم الله تعالى مخالف للعلوم كلها ولا أن قدرته مخالفة للقدرة كلها ، لأنها كلها داخلة تحت قولنا ووصفنا للقدرة والعلوم . هذا نص كلامه وهذا

---

(٣٠) فى (أ) : ([٣ أمر) .
(٣١) فى (أ) : (والبغى) .

بيان بأن دينهم أن علم الله تعالى وقدرته من نوع علمنا وقدرتنا ، وإذا الأمر كذلك عنده فعلمنا وقدرتنا عرضان فينا مخلوقان ، فوجب ضرورة أن علم الله تعالى وقدرته عرضان فى الله مخلوقان ؛ إذ من الممتنع وقوع ما لم يزل مع المحدث المخلوق ، تحت حدٍّ واحد ونوع واحد . ونص هذا السّمنانى ، ومحمد بن فورك فى صدر كلامه فى كتاب أظنه « الأصول » : أن الحدود لا تختلف فى قديم ولا محدث ، قالوا ذلك فى كلامهم فى علم الله تعالى فى تحديدهم لمعنى العلم بصفة يقع تحتها علم الله تعالى وعلوم الناس ، وهذا نص منهم على أن الله تعالى محدود واقع معنا تحت الحدود هو[٣٢] وعلمه وقدرته ، وهو شر من قول جَهم شيخهم فى الحقيقة ، وأبين من قول كل مشبه فى الأرض . ونص هذا السّمنانى على أن العالم والقادر والمريد من الله تعالى وخلقه ، إنما كان محتاجًا إلى هذه الصّفات ، لكونه موصوفًا بها لا لجوازها عليه . هذا نص كلامه ، وهذا تصريح منهم بلا تكلف ولا تأويل ، بأن الله تعالى عن كفر هذا الأرْعن محتاج إلى الصفات ، وهذا كفر ما ندرى أن أحدًا بلغه ، ونص هذا السّمنانى أيضًا على أن الله تعالى لما كان حيًا عالمًا ، كان موصُوفًا بالحياة والعلم والقدرة والإرادة ، حتى لا يختلف الحال فى ذلك فى الشّاهد والغائِب ، هذا نص كلامه وهذا تصريح منه على أن لله تعالى حالا لا يخالفه فيها خلقه ، بل هو وهم فيها سواء ، ونص هذا السّمنانى على أنه إذا كانت الصفات الواجبة لله تعالى فى كونه عالما قادرا لا يغنى وجوبها له عن ما هو مصحح لها من الحياة فيه ، كالا يوجب غناه عما يوجب كونه عالمًا قادرًا ، عن المقدرة والعلم .

قال أبو محمد : هذا نص جلى على أن الله تعالى غير غنى عن شىء هو غيره ، لأن الصفات عندهم هى غيره تعالى ، والله تعالى عندهم غير غنى عنها تعالى الله ، وإذا لم يكن غنيا عنها فهو فقير إليها – هكذا قالت اليهود إن الله فقير ، تعالى الله عن هذا بل هو الغنى جملة عن ما سواه ، وكل من دونه فقير إليه تعالى . وقال السّمنانى إن قال قائِل لم أنكرتم أن يكون الله مريدًا لنفسه حسب ما قاله النَّجار والجاحظ ؟ قيل له أنكرنا ذلك لما قدمنا ذكره ، من أن الواحد من الخلق مريد بإرادة ، ولا يخلو أن يكون حقيقة المريد من له الإرادة أو كونه مريدًا وجود الإرادة له ، وأى الأمرين كان وجبت مساواة الغائب الشاهد فى هذا الباب .

قال أبو محمد : وهذا نص جلى على مساواة الله تعالى لخلقه عند هذا الجاهل . وهذا أعظم فى الكفر من قول كلِّ مجسم لأن جميع المجسمين لم يقدم أحد منهم قط على القول بأن الله تعالى مساوٍ لخلقه ، قبل هذه الفرقة الملعونة ، ثم العجب قطعهم بأن الله عزّ وجلّ غائب غير شاهد

(٣٢) فى (أ) : (وهو) .

وحاشى لله عن هذا ، بل هو معنا وأقرب إلينا من حبل الوريد ، كما قال عز وجل إنه حاضر فى العقول غير غائب . وقال الباقلانى : ما وجد فى الله تعالى من التسميات فإنه يجوز إطلاقها عليه وإن لم يسمِّ بذلك نفسه ما لم يرد شرع يمنع من ذلك .

قال أبو محمد : هذا نصٌّ منه على أن هاهنا معانى توجد فى الله عز وجل مع الإلحاد فى أسمائه ، إذ جاز تسميته بما لم يسم به عز وجل نفسه ، تعالى الله عن هذا علوًّا كبيرًا ، وقالوا كلهم : إن الله تعالى ليس له إلا كلام واحد ، وليس له كلمات كثيرة .

قال أبو محمد : هذا كفر مجرد لخلافه القرآن ، وتكذيب لله تعالى فى قوله : « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا[٣٣] » .

وإذ يقول تعالى : « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله[٣٤] » . مع أن قولهم ليس لله إلا كلامٌ واحد ، قول أحمق لا يعقل ولا يقوم به برهان تشريعى ، ولا يتشكل فى هاجس ولا يوجبه عقل ، إنما هو هذيان محض ويقال لهم لا يخلو القرآن عندهم من أنه كلام الله تعالى أو ليس هو كلام الله تعالى ، فإن قالوا : ليس هو كلام الله تعالى كفروا من قرب وكفى الله تعالى مؤنتهم . وإن قالوا هو كلام الله فالقرآن مائة سورة وأربع عشرة سورة ، فيها ستة آلاف آية ونيف ، كل سورة منها عند أهل الإسلام غير الأخرى ، وكل آية غير الأخرى ، فكيف يقول هؤلاء النوكى أنه ليس لله تعالى إلّا كلام واحد .. ؟ أما هذا من الكفر البارد والقحة السمجة . ونعوذ بالله من الضلال ، وقالوا كلهم إن القرآن لم ينزل به قط جبريل على قلب محمد عليه الصلاة والسلام ، إنما نزل عليه بشىء آخر هو العبارة عن كلام الله وأن القرآن ليس عندنا ألبتة إلا على هذا المجاز ، وأن الذى نرى فى المصاحف ونسمع من القرآن ونقرأ فى الصلوات ، ونحفظ فى الصدور ليس هو القرآن ألبتة ، ولا شىء منه كلام الله تعالى ألبتة بل شىء آخر ، وأن كلام الله تعالى لا يفارق ذات الله تعالى .

قال أبو محمد : وهذا من أعظم الكفر لأن الله تعالى قال : « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ[٣٥] » وقال تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك[٣٦] » وقال تعالى : « فأجره حتى يسمع كلام الله[٣٧] » وقال تعالى : « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتو العلم[٣٨] ».

---

(٣٣) الكهف : ١٠٩
(٣٤) لقمان : ٢٧
(٣٥) البروج : ٢٢
(٣٦) الشعراء : ٩٣
(٣٧) التوبة : ٦
(٣٨) العنكبوت : ٤٩

وقال رسول الله ﷺ : « إنى أحِبُّ أن أسْمَعه مِنْ غَيْرِى[٣٩] » يعنى القرآن . وقال عليه السلام : « الذى يَقْرَأُ القُرآن مع السَّفَرَةِ الكِرَام البَرَرَة[٤٠] » . ونهيه ﷺ أن يُسافر بالقرآن إلى أرض العدو[٤١] ، إلى إجماع عامة المسلمين وخاصتهم وجاهلهم وعالمهم على القول : حفظ فلان القرآن ، وقرأ فلان القرآن ، وكتب فلان القرآن فى المصحف ، وسمعنا القرآن من فلان وهذا كلام الله تعالى ما فى المصحف من أول أم القرآن إلى آخر قل أعوذ برب الناس . وقال السّمنانى نصًا إن الباقلانى وشيوخه قالوا إن النبى ﷺ إنما أطلق القول بأن ما أنزل الله عليه هو القرآن ، وهو كلام الله تعالى إنما هو على معنى أنه عبارة عن كلام الله تعالى ، وأنه يفهم منه أمره ونهيه فقط .

قال أبو محمد : ويقال لهم أخبرونا عن قولكم إن الكتاب فى المصحف والقراءة المسموعة فى المحراب كل ذلك عبارة عن القرآن ماذا تعنون بذلك ؟ وهل هذا منكم إلا تمويه ضعيف وهل كلّ ما فى المصحف إلا عبارة عن معانيه التى أرادها الله تعالى فى شرع دينه من الصلاة والصيام والإيمان وغير ذلك ، وأخبار الأمم السالفة وصفة الجنة والنار والبعث وغير ذلك مما لا يَختلف من أهل الإسلام أحد فى أن المعبر عنه بذلك الكلام ليس هو كلام الله أصلا لأن ذات الجنة وذات النار وحركات المصلى وعمل الحاج وعمل الصائم ، وأجسام عاد وأشخاص ثمود ، ليس شىء من ذلك كلام الله عز وجل ولا قرآنا فمثبت أن ليس هو القرآن ولا هو كلام الله إلا العبارة المسموعة فقط ، والكلام المقروء والخط المكتوب فى المصحف بلا شك ، إذ لم يبق غير ذلك أو الكفر وتكذيب الله تعالى ، وتكذيب رسول الله ﷺ فى أن القرآن أنزل عليه ، وأننا نسمع كلام الله فأوهمتم الضعفاء أن الذى هو كلام الله والقرآن عند جميع أهل الإسلام ليس هو القرآن ولا هو كلام الله ، ثم أوهمتموهم باستخفافكم أن حركات المتحركين وذات الجنة وذات النار ، هى كلام الله تعالى ، وهى القرآن ، فهل فى الضلال والسخرية بضعفة المسلمين والهزء بآيات الله تعالى أكثر من هذا ؟ ولقد أخبرنى « علىّ بن حمزة المرادى الصقلى » الصوفى أنه رأى بعض الأشعرية يبطح المصحف برجله قال فأكبرت ذلك وقلت له : ويحك هكذا تصنع بالمصحف وفيه كلام الله تعالى ؟ فقال لى ويلك والله ما فيه إلا السخام والسواد ، وأما كلام الله فلا ، ونحو هذا من القول الذى هذا معناه وكتب إلىّ « أبو المرحى بن ندما المصرى » أن بعض ثقات أهل مصر أخبره من

---

(٣٩) هذا الحديث رواه البخارى فى تفسير سورة المائدة ، وفى فضائل القرآن ، ورواه مسلم فى المسافرين : ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ولفظه كما رواه ابن مسعود قال : قال النبى ﷺ : « اقرأ علىّ القرآن » فقلت يا رسول الله ، أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إنى أحبُّ أن أسمعه من غيرى » فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية : « فكيف إذا جئنا مِنْ كُلّ أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا » قال : حسبك الآن » فالتفتّ إليه فإذا عيناه تذرفان » متفق عليه .

(٤٠) الحديث : رواه مسلم فى باب المسافرين : ٣٤٤ ، وابن ماجه فى الأدب : ٥٢ ولفظه عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال : رسول الله ﷺ : (الذى يقرأ القرآن ، وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه ، وهو عليه شاقّ ، له أجران » متفق عليه .

(٤١) لفظ الحديث عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو » متفق عليه .

طلاب السنن أن رجلا من الأشعرية قال له مشافهة على من يقول إن الله تعالى قال : قل هو الله أحد الله الصمد ، ألف لعنة .

قال أبو محمد : بل على من يقول إن الله عز وجل لم يقلها ألف ألف لعنة تترى ، وعلى من ينكر أننا نسمع كلام الله ونقرأ كلام الله ونحفظ كلام الله ، ونكتب كلام الله ألف ألف لعنة تترى من الله عز وجل ، فإن قول هذه الفرقة فى هذه المسألة نهاية الكفر بالله تعالى ، ومخالفة للقرآن والنبى ﷺ ، ومخالفة جميع أهل الإسلام قبل حدوث هذه الطائفة الملعونة .

قال أبو محمد : وقالت الأشعرية كلها إن الله تعالى لم يزل قائلا لكل ما خلق أو يخلق فى المستأنف كُنْ ، إلا أن الأشياء لم تكن إلا حين كونها ، وهذا تكذيب منهم مكشوف لله عز وجل إذ يقول « إنما أمره أراد شيئا أن يقول له كن فيكون[٤٢]» فبين الله تعالى أنه لا يقول للشىء كن إلا إذا أراد تكوينه ، وأنه إذا قال له « كُنْ » كان الشىء فى الوقت بلا مُهلة ، لأن هذا هو مقتضى الفاء فى لغة العرب التى بها نزل القرآن ، فجمعوا إلى تكذيب الله عز وجل فى خبريه جميعًا إيجاب أزلية العالم ، لأن الله تعالى إذا كان لم يزل قائلًا لما يكون « كن » فإن التكوين لم يزل وهذه دهرية محضة ، ثم قال السّمنانى بعد أسطر : لأنه لو وجب وجود ما وجد فى الوقت الذى وجد فيه لأجل قول الله تعالى « كن » لوجب أن يوجد لأجل قول غيره له « كن » لأن صفة الاقتضاء لا تختلف فى ذلك بين القديم والمحدث .

قال أبو محمد : هذا نص كلام هذا الفاسق الملحد حرفًا حرفًا ، وهذا كفر محض ، وحماقة لا خفاء بها ، أما الكفر فإبطاله أن وجود الأشياء فى الأوقات التى وجدت فيها ، إنما وجدت لأجل قول الله تعالى لها كن ، وإيجابه أن الأشياء لم توجد فى أحيان وجودها لقول الله تعالى لها كن . وهذا تكذيب لله تعالى صرف ، وخروج عن إجماع أهل الإسلام ، وكلُّ من يصلى إلى القبلة قبلهم ، ومن الكفر الصريح أيضًا فى هذا الكلام الملعون قوله : إن صفة الاقتضاء لا تختلف فى ذلك بين القديم والمحدث ، فسوَّى بين الله تعالى وخلقه ، وأما الحماقة فقوله : لو وجدت الأشياء من أجل قول الله تعالى لها « كن » لوجب أن يوجد لأجل قول غيره لها « كن » فياللمسلمين هل سمع فى الحمق والرعونة وقلة الحياء أكثر من قول مَنْ سوَّى بين قول الله عز وجل (كن) إذا أراد تكوينه وبين قول غيره من الناس (كن) .. ؟؟؟ وهذا أخبث من قول الدُّهرية ونعوذ بالله من الضّلال ، فلولا الخذلان ما انطلق بهذا النوك لسان من يقذف بالحجارة فى الشوارع ، وما شبهت هذا الكلام

---

(٤٢) يس : ٨٢

إلا كلام النذل « أبى هاشم الجبائى » لو لم يجر لنا أن نُسمِّىَ الله عز وجل باسم حتى يأذن الله لنا فى ذلك لوجب أن لا يجوز الله أن يسمى نفسه حتى يأذن له غيره فى ذلك .

قال أبو محمد : وهذه أقوال لو قالها صبيان يسيل مخاطهم ليئس من فلاحهم ، وتالله لقد لعب الشيطان بهم كما شاء فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وقالت الأشعرية كلها : إن الله لا يقدر على ظلم أحد ألبتة ، ولا يقدر على الكذب ، ولا على أن يقول المسيح بن الله ، حتى يقول قبل ذلك . وقالت النصارى : وأنه لا يقدر على أن يقول عزيز ابن الله حتى يقول قبل ذلك وقالت اليهود ، وأنه لا يقدر على أن يتخذ لهوا ، وأنه لا يقدر على أن يتخذ ولدا ، وأنه لا يقدر ألبتة على إظهار معجزة على يدى كذاب يدّعى النبوة ، فإن ادعى الإلاهية كان الله تعالى حينئذ قادرًا على إظهار المعجزات على يديه ، وأنه تعالى لا يقدر على شىء من المحال ولا على إحالة الأمور عن حقائقها ، ولا على قلب الأجناس عن ماهيتها[٤٣] وأنه تعالى لا يقدر ألبتة على أن يقسم الجزء الذى لا يتجزأ ، ولا على أن يدعو أحدًا إلى غير التوحيد ، هذا نص كلامهم وحقيقة معتقدهم ، فجعلوه تعالى عاجزًا متناهى القوة محدود القدرة ، يقدر مرة ولا يقدر أخرى ، ويقدر على شىء ولا يقدر على آخر ، وهذه صفة النقص ، وهم مع هذا يقولون : إن الساحر يقدر على قلب الأعيان ، وعلى أن يمسخ إنسانًا فيجعله حمارًا على الحقيقة ، وعلى المشى فى الهواء ، وعلى الماء فكان الساحر عندهم أقوى من الله تعالى .

قال أبو محمد : وخشوا مبادرة أهل الإسلام لهم بالاصطلام فجبنوا[٤٤] أن يصرحوا بأن الله تعالى لا يقدر فقالوا لا يوصف بالقدرة على شىء مما ذكرنا .

قال أبو محمد : ولا راحة لهم فى هذا لأننا نقول لهم : ولِمَ لا نصفه بالقدرة على ذلك ؟ ألأنه يقدر على كلِّ ذلك ولأن له قدرة على ذلك ؟ أم لأنه لا يقدر على كل ذلك ، ولا له قدرة على شىء من ذلك ؟ ولابد من أحدهما بضرورة العقل وهنا ضلت حيلهم[٤٥] الضعيفة . ولابد لهم من القطع بأنه لا يقدر ، وبأنه لا قدرة له على ذلك وإذ قد صرحوا بذلك فبالضرورة بأول العقل ومسموع اللغة كلاهما يوجب أن من لا يقدر على شىء فهو عاجز عنه ، وأن من لا قدرة له على شىء فصفة العجز والضعف لاحقة به ، فلابد لهم ضرورة من إطلاق اسم العجز على الله تعالى ووصفه بأنه عاجز ، وهذا حقيقة مذهبهم يقينا إلا أنهم يخافون البوار إن أظهروه .

---

(٤٣) فى (خ) : (غايتها) .
(٤٤) فى (أ) : (غخنسوا) .
(٤٥) فى (أ) : (جبلتهم) .

وقال هذا الباقلانى : لا فرق بين النبى والسَّاحر الكذاب المتنبىء فيما يأتيان به إلا التحدى فقط ، وهو قول النبى لمن بحضرته : هات من يعمل كعملى ، وهذا إبطال للنبوة مجرد . وقال الباقلانى وابن فورك واتباعهما[٤٦] من أهل الضلالة والجهالة ليس لله تعالى أسماء ألبتة وإنما له تعالى إسم واحد فقط ليس له إسم غيره ، وأن قول الله تعالى : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه[٤٧] » .

إنما أراد أن يقول : لله التسميات الحسنى فذروا الذين يلحدون فى تسمياته قالوا : وكذلك قول رسول الله ﷺ « إن لله تِسْعَةً وتِسْعينَ اسمًا مائةً غير واحد[٤٨] » . وإنما أراد أن يقول تسعة وتسعين تسمية فقال تسعة وتسعين اسمًا مائةً غير واحد ، وإنما أراد أن يقول تسعة وتسعين تسمية فقال تسعة وتسعين اسمًا .

قال أبو محمد : ما فى البرهان على قلة الحياء وفساد الدين واستسهال الكذب أكثر من هذا « وليت شعرى من أخبرهم عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ بهذا الإفك ، ثم ليت شعرى إذ زعموا أن الله تعالى أراد أن يقول له التسميات الحسنى فقال له الأسماء الحسنى ، لأى شىء فعل ذلك اللكنةٍ أم غفلةٍ أم تعمد لإضلال عباده » ؟! ولا سبيل والله إلى رابع ، فاعجبوا لعظيم ما حل بهؤلاء القوم من الدعار والتبار والكذب على الله عز وجل جهارًا وعلى رسول الله ﷺ بلا رقبة[٤٩]، ونعوذ بالله من الضلال ، مع أن هذا قولٌ ما سبقهم إليه أحد . وقالوا كلهم : إن محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب ، ليس هو رسول الله ﷺ اليوم لكنه كان رسول الله .

قال أبو محمد : فكذبوا القرآن فى قول الله عز وجل « محمد رسول الله » وكذبوا الأذان وكذبوا الإقامة التى افترضها لله تعالى خمس مرات كل يوم وليلة على كل جماعة من المسلمين ، وكذبوا دعوة جميع المسلمين التى اتفقوا على دعاء الكفار إليها ، وعلى أنه لا نجاة من النار إلا بها ، وأكذبوا جميع أعصار المسلمين من الصحابة فمن بعدهم فى إطباق جميعهم ، بِّرهم وفاجرهم على الإعلان بلا إله إلا الله محمد رسول الله ، ووجب على قولهم هذا الملعون أنه يكذب المؤذنون والمقيمون ودعاة الإسلام فى قولهم : محمد رسول الله ، وأن الواجب أن يقولوا : محمد كان رسول الله ، وعلى هذه المسألة قتل الأمير محمود بن سيكتكين[٥٠] مولى أمير المؤمنين وصاحب خراسان رحمه الله ابن فورك شيخ الأشعرية ، فأحسن الله جزاء محمود على ذلك ولعن ابن فورك وأشياعه وأتباعه .

---

(٤٦) فى (أ) : (وأشياعهما) .
(٤٧) الأعراف : ١٨٠
(٤٨) رواه البخارى فى الدعوات : ٦٩ ، ومسلم فى الذكر : ٥ ، ٦ ، وابن ماجه فى الدعاء : ١٠
(٤٩) فى (أ) : (رهبة) .
(٥٠) راجع ترجمته فى الجزء الثانى .

قال أبو محمد : إنما حملهم على هذا الكفر الفاحش قولٌ لهم آخر فى نهاية الضلال والانسلاخ من الإسلام ، وهو قولهم إن الأرواح أعراض تفنى ، ولا تبقى وقتين ، لأن[٥١] روح كل واحد منا الآن هو غير روحه الذى كان له قبل ذلك بطرفة عين ، وأن كل واحد منا يبدل أزيد من ألف ألف روح فى كل ساعة زمانية ، وأن النفس إنما هو هذا الهواء الخارج بالتنفس حارًا بعد دخوله باردًا ، وأن الإنسان إذا مات فنى روحه وبطل ، وأنه ليس لمحمد ولا لأحد من الأنبياء عند الله تعالى روح ثابتة تنعم ، ولا نفس قائمة تكرّم ، وهذا خروج عن إجماع أهل[٥٢] الإسلام ، فما قال بهذا أحد ممن ينتمى إلى الإسلام قبل أبى الهذيل العلاف ، ثم تلاه هؤلاء ، وهذا خلاف مجرد للقرآن وتكذيب لله عز وجل إذ يقول « أخرجوا انفسكم اليوم تجزون عذاب الهون[٥٣]» وإذ يقول عز وجل فى آل فرعون : « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة[٥٤]» الآية .

وإذ يقول عز وجل « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون[٥٥]» وقال عز وجل : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما اتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون[٥٦]» ولقوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى[٥٧]» .

وخلاف للسنن الثابتة عن رسول الله ﷺ المنقولة نقل التواتر من رؤيته ﷺ الأنبياء عليهم السلام ليلة أسرى به فى السماء ، وما جرى له مع موسى عليه السلام فى عدد الصلوات المفروضات وأن أرواح الشهداء نسمة تعلق فى ثمار الجنة ، وما يلقى الروح عند خروجه من الفتنة والمساء له إخباره عليه السلام أنه رأى عن يمين آدم نسم بنيه من أهل الجنة وعن يساره نسم بنيه من أهل النار وسائر السنن المأثورة .

قال أبو محمد : ثم خجلوا من هذه العظيمة وتبرأ منهم إبليس الذى أورطهم[٥٨] فيها ، فشكوا[٥٩] فقالوا فى كتبهم فإن لم يكن هذا فإن الروح تنتقل عند خروجه من الجسم إلى جسم آخر . هكذا نص الباقلانى فى أحد كتبه وأظنه الرسالة المعروفة « بالحرة » وهذا مذهب التناسخ

---

(٥١) فى (أ) : (وأن) .
(٥٢) فى (أ).: سقطت كلمة (أهل) .
(٥٣) الأنعام : ٩٣
(٥٤) غافر : ٤٦ . وقد سقطت هذه الآية من (أ) .
(٥٥) البقرة : ١٥٤
(٥٦) آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠
(٥٧) الزمر : ٤٢
(٥٨) فى (أ) : (ورّطهم) .

بلا كلفة . وقال السِّمنانى فى كتابه : إن الباقلانى وأصحابه قالوا ، إن كل ما جاء فى الخبر من نقل أرواح الشهداء إلى حواصل طير خضر وأن روح الميت ترد إليه فى قبره ، وما جرى مجرى ذلك من وصف الروح بالقرب والبعد والحركة والانتقال والسكون والعذاب ، فكل ذلك محمول على أقل جزء من أجزاء الميت أو الشهيد أو الكافر ، وإعادة الحياة فى ذلك الجزء .

قال أبو محمد : وهذا طريق من الهوس جدا ، وتطايب بالدين ، ولقد أخبرنى ثقة من أصحابى أنه سمع بعض مقدميهم يقول إن الروح إنما تبقى فى عجب الذنب لقول رسول الله ﷺ : كُلُّ ابْن آدمَ يَأْكُلُه التُّرابُ إلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ مِنْه خُلِقَ وفيه يُرَكَّبُ[٦٠].

قال أبو محمد : وهذا التأويل أقرب إلى الهزل منه إلى أقوال أهل الإسلام ، ونعوذ بالله من الخذلان ، فإنما هذه ستائر دون مذهبهم الخبيث الذى ذكرنا آنفًا . وقالوا كلهم إن النظر فى دلائل الإسلام فرض وأنه لا يكون مسلمًا حتى ينظر فيها وأن من شروط الناظر فيها أن يكون ولابد شاكا فى الله عز وجل وفى صحة النبوة ، ولايصح النظر فى دلائل النبوة ودلائل التوحيد لمن يعتقد صحتها .

قال أبو محمد : والله ما سمع قط ، بأقبح فى الكفر من قول من أوجب الشك فى الله تعالى ، وفى صحة النبوة فرضا على كل متعلم ، ولا نجاة له إلا به ولا دين لأحد دونه ، وأن اعتقاد صحة التوحيد لله تعالى ، وصحة النبوة باطل لا يحل ، فحصل من كلامهم أن من لم يشك فى الله تعالى ولا فى صحة النبوة فهو كافر ، ومن شك فيهما فهو محسن مؤدٍّ ما وجب عليه ، وهذه فضيحة وحماقة اللهم إنا نبرأ إليك من هذا القول ومن كل قائل به ، ثم لم يجدوا فى أمد الاستدلال حدًا فليت شعرى على هذا القول الملعون هو معتقده والدَّاعى إليه كيف يكون حال من قَبِل وصيتهم هذه التى هى وصية الشيطان الرجيم فيدين[٦١] بالشك فى الله تعالى وفى النبوة ، وامتد به أمد الاستدلال أياما وأشهرا أو[٦٢] ساعات مات فيها أين مستقره ؟ ومصيره إلى النار والله خالدًا مخلدًا أبدا ، وبيقين ندرى أن قائل هذه الأقوال **مطالب** للإسلام كما يُدّله مرصد لأهله داعية إلى الكفر ، ونعوذ بالله من الضلال .

وقالوا كلهم : إن إطعام رسول الله ﷺ المئين والعشرات من صاع الشعير ، مرة بعد مرة ، وسقيه الألف والألوف من ماءٍ يسير ينبع من بين أصابعه ، وحنين الجذع ، ومجىء الشجرة ، وتكلم الذراع ، وشكوى البعير ، ومجىء الذئب[٦٣]، ليس فى شىء من ذلك دلالة على صدق رسول

(٥٩) فى (أ) : (فشلّوا) .
(٦٠) رواه البخارى فى التفسير ، ورواه مسلم فى الفتن : ١٤١ ، ١٤٣ ورواه ابن ماجه فى الزهد : ٣٢
(٦١) فى (أ) : (فتبيّن) .
(٦٢) فى (أ) : (وساعات) .
(٦٣) تحدثنا عن هذه المعجزات تفصيلا فى الجزء الأول من هذا الكتاب .

الله ﷺ فى نبوته لأنه عليه السلام لم يتحدَّ الناس بذلك ولا يكون عندهم آية إلا ما تحدّى به الكفار فقط ، وهذا تكذيب منهم للنبى ﷺ فى قوله إذ فعل ذلك أشهد أنى رسول الله ، وهذا أيضًا قول افتروه ، خالفوا فيه جميع أهل الإسلام .

وقالوا كلهم : ليس لشيء من الأشياء نصفٌ ، ولا ثلث ، ولا ربع ، ولا سُدُس ، ولا ثمن ، ولا عُشْر ولا بعضٌ ، وأنه لا يجوز أن يقال الفرد عُشْر العشرة ولا أنه بعض الخمسة ، وحجتهم فى ذلك أنه لو جاز أن يقال ذلك لكان عشرًا لنفسه وبعض نفسه .

قال أبو محمد : وهذا جهل شديد لأنه إنما هو بعض من جملة يكون سائرها غيره ، وعُشْر جملة يكون سائرها غيره ، ونسوا أنفسهم فقالوا بالجزء الذى لا يتجزأ ، ونسوا إلزام أنفسهم أن يكون جزء لنفسه ، وكل[٦٤] هذا تكذيب لله عز وجل إذ يقول فى القرآن « فلها النصف » « فلأمه الثلث » « فلأمه السدس » « فلكم الربع » « فلهن الثمن[٦٥] » « بعضهم أولياء بعض[٦٦] »، وهذا عن النبى ﷺ كبير مع مخالفتهم فى ذلك جميع أهل الأرض مؤمنهم وكافرهم ، ومخالفة كل لغة والمعقول والطبائع .

وقالوا كلهم : من قال إن النار تحرق أو تلفح ، أو أن الأرض تهتز أو تنبت شيئا ، أو أن الخمر تسكر ، أو أن الخبز يشبع ، أو أن الماء يروى أو أن الله تعالى ينبت الزرع والشجر بالماء ، فقد ألحد وافترى . وقال الباقلانى فى آخر السفر الرابع من كتابه المعروف « بالانتصار فى القرآن » : نحن ننكر فعل النار للتسخين والإحراق ، وننكر فعل الثلج للتبريد ، وفعل الطعام والشراب للشبع والرى ، والخمر للاسكار ، كل هذا عندنا باطل محال ننكره أشد الإنكار ، وكذلك فعل الحجر لجذب شيء أو رده أو حبسه أو إطلاقه من حديد أو غيره هذا نص كلامه .

قال أبو محمد : وهذا تكذيب منهم لله عز وجل إذ يقول « تلفح وجوههم النار[٦٧] » ولقوله تعالى : « ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد[٦٨] » وقوله تعالى : « أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم[٦٩] » الآية . وقوله تعالى : « فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج[٧٠] » .

---

(٦٤) فى (أ) : سقطت كلمة (كل) .
(٦٥) سورة النساء : (١١ ، ١٢) .
(٦٦) التوبة : ٧١
(٦٧) المؤمنون : ١٠٤
(٦٨) ق : ٩
(٦٩) السجدة : ٢٧
(٧٠) الحج : ٥

وقد صككت بهذا وجه بعض مقدميهم فى المناظرة فدهش وبلد ، وهو أيضًا تكذيب لقول رسول الله ﷺ إذ يقول : « كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ » « وكُلُّ شرابٍ أَسْكَرَ حَرَامٌ[٧١]» مع مخالفتهم لكل لغة ولكل ذى حس من مسلم وكافر ومكابرة العيان ، وإبطال المشاهدة ، ثم أطرف شىء إحتجاجهم فى هذه الطامة بأن الله عز وجل هو الذى خلق ذلك كله فقلنا لهم : أو ليس فعل كل حى مختار واختياره خلقًا لله تعالى ؟ فلابدَّ من قولهم نعم . فيقال لهم فمن أين نسبتم الفعل إلى الأحياء وهى خلق الله تعالى ، ومنعتم من نسبة الفعل إلى الجمادات لأنه خلق الله تعالى ولا فرق .. ؟ ولكنهم قوم لا يعقلون .

قال أبو محمد : وسمعت بعض مقدميهم يقول : إن من كان على معاصى خمسة من زنى وسرقة وترك صلاة وتضييع زكاة وغير ذلك ثم تاب عن بعضها دون بعض فإن توبته تلك لا تقبل ، وقد نص السِّمْنانى على أن هذا قول الباقلانى وهو قول أبى هاشم الجُبَّائى ، ثم قال السِّمنانى : هذا قول خارق للإجماع جملة ، وخلاف لدين الأمَّة . هذا نص قول السِّمْنانى فى شيخه وشهدوا على أنفسهم وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون .

قال أبو محمد : هذا قول مخالف للقرآن والسنن ، لأن الله تعالى يقول « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره[٧٢]» .

وقال تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا[٧٣]» الآية وقال تعالى : « أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى[٧٤]» . وبالضرورة يدرى كل ذى مسكة من عقل أن التوبة من الزنا خير كبير ، فهذا الجاهل يقول إنه لا يراه صاحبه ، وأنه عمل ضائع عند الله عزَّ وجل من مسلم مؤمن ، ومعاذ الله من هذا ، وسر هذا القول الملعون وحقيقته التى لابد لقابله منه أنه لا معنى لمن أصرَّ على الزنا أو شرب الخمر ، فى أن يصلىَ ولا فى أن يزكىَ فقد صار يأمر بترك الصلوات الخمس ، والزكاة ، وصوم رمضان والحج ، فعلى هذا القول وقائله لعائن الله تترى ما دار الليل والنَّهار . ونصَّ السِّمنانى عن الباقلانى شيخه أنه كان يقول : إن الله لا يغفر الصغائر باجتناب الكبائر .

قال أبو محمد : وأنا سمعت بعض مقدميهم ينكر أن يكون فى الذنوب صغائر ، وناظرته بقول

---

(٧١) رواه مسلم فى الأشربة : ٧٣ ، ٧٥ ، ورواه البخارى فى الأدب : ٨٠ ، ورواه أبو داود فى الأشربة : ٥ ، ولفظه عند أبى داود : كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام . وفى حديث آخر له : كل شراب أسكر فهو حرام .

(٧٢) الزلزلة : ٧ ، ٨

(٧٣) الأنبياء : ٤٧

(٧٤) آل عمران : ١٩٥

الله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم[٧٥]» وقلت بالضرورة يدرى كل ذى فهم أنه لا كبائر إلا بالإضافة إلى ما هو أصغر منها ، وهى السيئات المغفورة باجتناب الكبائر بنص كلام الله تعالى فقولك هذا خلاف للقرآن مجرد فخلط ولجأ إلى الحرد . وهذا منهم تكذيب لله تعالى ورد لحكمه بلا كلفة .

ومن شنعهم الممزوجة بالهوس وصفاقة الوجوه قولهم : إنه لا حرٌّ فى النار ، ولا فى الثَّلج برد ، ولا فى العسل حلاوة ، ولا فى الصبر مرارة وإنما خلق الله تعالى كلَّ ذلك عند اللمس والذوق ، وهذا حمق عظيم[٧٦] قادهم إليه إنكارهم الطبائع وقد ناظرناهم على ذلك . هذا مع قول شيخهم الباقلانى إن لقشور العنب رائحة ، وللزجاج والحصى طعما ورائحة ، وزادوا حتى بلغوا إلى أن قالوا إن للفلك طعما ورائحة ، فليت شعرى متى ذاقوه أو شموه أو من أخبرهم بهذا .. ؟ وهذا لا يعرفه إلا الله ثم الملائكة الذين هنالك ، ولكن من ذاق طعم الزجاج وشم رائحته فغير منكر أن يدعى مشاهدة الفلك ، ولمسه وشمه وذوقه .

ومن شنعهم قولهم إن من كان الآن على دين الإسلام مخلصا بقلبه ولسانه مجتهدًا فى العبادة إلا أن الله عز وجل يعلم أنه لا يموت إلا كافرا فهو الآن عند الله كافر ، وأنَّ من كان الآن كافرا يسجد للنار وللصليب ، أو يهوديا أو زنديقا ، مصرحين بتكذيب رسول الله ﷺ إلا أن فى علم الله تعالى أنه لا يموت إلا مسلمًا ، فإنه الآن عند الله مسلم .

قال أبو محمد : ما قال هذا مسلم قط قبل هشام الفوطى ، وهذه مكابرة للعيان وتكذيب لله عز وجل مجرد ، كأنهم ما سمعوا قط قول الله تعالى « ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا[٧٧]» .

فسماهم مؤمنين ثم أخبر تعالى بأنهم كفروا وقوله تعالى : « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر[٧٨]» .

فجعل الإسلام دينًا لمن كان عليه إذ كان عليه ، وإن ارتد معه ومات كافرًا ، وقوله تعالى مخاطبًا للمسلمين من أصحاب النبى ﷺ : « ولا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْغُوْن عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ الله مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فمنَّ الله عَلَكُمْ[٧٩]» ويلزمهم أن الذى يسلم أبوه ولا يسلم هو لأنه كان بالغًا ثم مات أبوه فلم يرثه لكفره ، ثم أسلم لأن

---

(٧٥) النساء : ٣١
(٧٦) فى (أ) : (عتيق) .
(٧٧) المنافقون : ٢
(٧٨) البقرة : ٢١٧
(٧٩) النساء : ٩٤

يَفسخوا حكمهم ويورثوه من أبيه ، لأنه عندهم كان إذ مات أبوه مؤمنا عند الله تعالى ، ويلزمهم أن من كان صبيًا ثم عاش حتى شاخ أنه لم يكن عند الله قط إلا شيخا ، ولو جمع ما يدخل علمهم لقام منه سفر ضخم ، وقالوا كلهم إنه ليس على ظهر الأرض يهودى ولا نصرانى يقر بقلبه أن الله تعالى حق .

قال أبو محمد : هذا تكذيب للقرآن على ما بينا قبل ومكابرة للعيان لأنا لا نحصى كم دخل فى الإسلام منهم ، وصلح إيمانه وصار عدلا ، وكلهم لا يختلف فى أنه كان قبل إسلامه مقرًا بالله عز وجل عالمًا به ، كما هو بعد إسلامه لم يزد فى توحيده شىء ، فكابروا العيان وكذبوا الكواف بحمق وقلة حياء ، لا نظير له .

وقال الباقلانى فى كتابه المعروف « بالانتصار فى القرآن » : معنى قول الله تعالى : « ولا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكُفر(٨٠) » وقوله تعالى : « لا يُحِبُّ الفَسَاد(٨١) » إنّما معناه لا يحب الفساد لأهل الصلاح ، ولا يرضى لعباده المؤمنين أن يكفروا ، ولم يرد أنه لا يرضاه لأحد من خلقه ولا يحبه لأحد منهم ثم قال وإن كان قد أحب ذلك ورضيه لأهل الكفر والفساد .

قال أبو محمد : وهذا تكذيب لله تعالى مجرد ، ثم أيضًا أخبر بأن الكفار فعلوا من الكفر أمرًا رضيه الله تعالى منهم ، وأحبه منهم فكيف يدخل هذا فى عقل مسلم مع قوله تعالى : « اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم(٨٢) » .. ؟ واعجبوا لظلمه جهله إذ لم يفرق بين إرادة الكفر والمشيئة والخلق له وبين الرضى والمحبة . وقال أيضًا فيه إن أقل من سورة من القرآن ليس معجزًا أصلًا ، بل هو مقدور على مثله . وقال أيضًا فى السفر الخامس من الديوان المذكور إن قيل كيف تقولون أكان يجوز من الله تعالى أن يؤلف القرآن تأليفا آخر غير هذا يعجز الخلق عن مقابلته ؟ قلنا : نعم هو تعالى قادر على ذلك ، وعلى ما لا غاية له من هذا الباب وعلى أقدار كثيرة وأعداد لا يحصيها غيره ، إلا إن كان تأليف الكلام ونظم الألفاظ لابد أن يبلغ إلى غاية وحد لا يحتمل الكلام أكثر منه ، ولا أوسع ولا يبقى وراء تلك الأعداد والأوزان شىء تتناوله القدرة . قال ولنا فى هذه المسئلة نظر فى تأليف الكلام ونظم الأجسام ، وتصوير الأشخاص ، هل يجب أن يكون لا غاية لها(٨٣) أو ذات نهاية لا يحتمل المؤلف والمنظموم فوقها ولا ما هو أكثر منها أم لا .. ؟

---

(٨٠) الزمر : ٧
(٨١) البقرة : ٢٠٥
(٨٢) محمد : ٢٨
(٨٣) فى (أ) : سقط قوله (لا غاية لها أو ذات) وهذا السقط يخل بالمعنى .

قال أبو محمد : هنا صرح بالشك فى قدرة الله تعالى ألها نهاية كما يقول أبو الهذيل أخوه فى الضلالة والكفر أم لا نهاية كما يقول أهل الإسلام .. ؟ ونعوذ بالله من الضلال .

قال أبو محمد : ولقد أخبرنى بعض من كان يداخلهم ، وكان له فيهم سبب قوى ، وكان من أهل الفهم والذكاء ، وكان يرى فى باطن أمره عليهم ، أنهم يقولون إن الله تعالى مذ خلق الأرض فإنه خلق جسما عظيما ، يمسكها عن أن تهوى هابطة ، فلما خلق ذلك الجسم أفناه فى الوقت بلا زمان ، وخلق آخر مثله يمسكها أيضًا ، فلما خلقه أفناه إثر خلقه بلا زمان أيضًا ، وخلق آخر وهكذا أبدا بلا نهاية .

قال لى وحجتهم فى هذا الوسواس والكذب على الله تعالى ، فيه مما لم يقله أحد قبلهم مما يكذبه الحس والمشاهدة ، أنه لابد للأرض من جسم ممسك وإلا هوت ، فلو كان ذلك الممسك فى(٨٤) وقتين أو مقدار طرفة عين لسقط هو أيضًا معها ، فهو إذًا خلق ثم أفنى إثر خلقه ، ولم يقع لأن الجسم عندهم فى ابتداء خلقه لا ساكن ولا متحرك .

قال أبو محمد : وهذا احتجاج للحمق بالحمق ، وما عقل أحد قط جسمًا لا ساكنًا ولا متحركًا ، بل الجسم فى ابتداء خلق الله تعالى له فى مكان محيط به من جهاته ولا شك ، ساكن فى مكانه ثم تحرك ، وكأنهم لم يسمعوا لقول الله تعالى : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا(٨٥) » فأخبر تعالى أنه ممسكها كما يشاء دون تكلف [خلق آخر إذ] لم يخبرنا الله تعالى به ولا جعل فى العقول دليلا عليه ، ولو أن قائل هذا الحمق وقف على الحق وطالع شيئا من براهين الهيئة ، لخجل مما أتى به من الهوس . ومن شنعهم قول هذا الباقلانى فى كتابه المعروف « بالانتصار فى القرآن » إن تقسيم آيات القرآن وترتيب مواضع سوره شيء فعله الناس وليس هو من عند الله تعالى ، ولا من أمور رسول الله ﷺ .

قال أبو محمد : قد كذب هذا الجاهل وأفك ، أتراه ما سمع قول الله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها(٨٦) » وقول رسول الله ﷺ فى آية الكرسى(٨٧) وآية الكلالة والخبر أنه عليه السلام كان يأمر إذا نزلت الآية أن تجعل فى سورة كذا فى موضع كذا ، ولو أن الناس رتبوا سورة لما تعدُّو أحد وجوه ثلاثة ، إما : ان يرتبوها على الأول فالأول نزولًا ، أو الأطول

---

(٨٤) فى (أ) : (يبقى) .

(٨٥) فاطر : ٤١

(٨٦) البقرة : ١٠٦

(٨٧) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لكل شيء سنام ، وأن سنام القرآن سورة البقرة ، وفيها آية هى سيدة آى القرآن آية الكرسى (أخرجه الترمذى ورقمه ٢٨٨١ فى ثواب القرآن ، وإسناده ضعيف ، ولكن شواهد بمعناه يقوى بها .

فما دونه ، أو الأقصر فما فوقه ، فإذ ليس ذلك كذلك فقد صح أنه أَمْرُ رسولِ الله ﷺ الذى لا يُعَارَضْ عن الله تعالى ، لا يجوز غير ذلك أصلًا . ومن شنعهم قول الباقلانى فى كتابه فى مذاهب القرامطة قرب آخر الكتاب فى بابٍ ترجمته « ذكر جمل مقالات الدهرية والفلاسفة والثنوية » قال الباقلانى : فأما ما يستحيل بقاؤه من أجناس الحوادث وهى الأعراض ، فإنما يجب عدمها فى الثانى من حال حدوثها من غير مُعَدِم ولا شىء يفنيها . هذا نص كلامه . وقال متصلًا بهذا الفصل : وأما نحن فنقول إنها تفنى الجواهر ، تفنى بقطع الأكوان عنها من حيث لا يصح لها وجود لا فى مكان ولا فيما يقدَّر تقدير المكان ، فإذا لم يلحق فيها شىء من الأكوان فعدم ما كان يخلق فيها منها أوجب عدمها . هذا نص كلامه وهذا قول الدهرية نصًّا ، إذ قالت بأفعال لا فاعل لها ، وهو يقول بأن[٨٨] فناء الجواهر والأعراض هو فناء وإعدام لا فاعل لهما ، وأن الله تعالى لم يفن الفانى ونعوذ بالله من هذا الضلال والإلحاد المحض . وقالوا بأجمعهم : ليس لله تعالى على الكفار نعمة دينية أصلًا . وقال الأشعرى شيخهم : ولا له عز وجل على الكفار نعمة دينوية أصلًا ، وهذا تكذيب منه ومن أتباعه الضلال لله عز وجل إذ يقول : « بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار[٨٩]» وإذ يقول عز وجل : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين[٩٠]» . وإنما خاطب تعالى بهذا كفارا جحدوا نعمة الله تعالى تبكيتا لهم وأما الدنيوية فكثير قال تعالى : « قتل الإنسان ما أكفره من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره إلى قوله فلينظر الإنسان إلى طعامه[٩١]» الآية ومثله فى القرآن كثير . وقال الباقلانى فى كتابه المعروف بالانتصار فى القرآن فى باب مترجم « باب الدلالة على أن القرآن معجزة للنبى ﷺ » وذكر سؤال الملحدين عن الدليل على صحة ما ادعاه المسلمون من أن القرآن معجز ، فقال الباقلانى : يقال لهم : أما معنى وصف القرآن وغيره من آيات الرسول ﷺ بأنه معجز فإنما معناه أنه مما لا يقدر العباد عليه ، وإن لم يكونوا عاجزين على الحقيقة ، وإنما صار وصف القرآن وغيره من آيات الرسل عليهم السلام كعصى موسى ، وخروج الناقة من الصخرة ، وإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى ، بأنه معجز وإن لم يتعلق به عجز عاجز – على وجه التشبيه[٩٢] بما يعجز عنه العاجز من الأمور التى يصح عجزهم عنها ، وقدرتهم عليها ، لأنهم لما لم يقدروا على معارضات آيات الرسل عبر عن عدم قدرتهم على ذلك بالعجز عنه تشبيهها بالمعجوز

(٨٨) سقط الكلام فى (أ) : من قوله (الدهرية إلى بأن فناء الجواهر) .

(٨٩) إبراهيم : ٢٨

(٩٠) البقرة : ٤٧

(٩١) عبس : ١٧ – ٢٤

(٩٢) فى (أ) : (التسمية) وهو تحريف .

عنه . قال الباقلانى ومما يدل على أن العرب لا يجوز أن تعجز عن مثل القرآن أنه قد صح وثبت أن العجز لا يكون عجزا إلا عن موجود ، فلو كانوا على هذا الأصل عاجزين عن مثل القرآن وعصا موسى ، وإحياء الموتى ، وخلق الأجسام والأسماع والأبصار ، وكشف البؤس[٩٣] والعَاهات لوجب أن يكون ذلك المثل موجودًا فيهم ومنهم كما أنهم لو كانوا قادرين على ذلك لوجب أن يكون ذلك منهم ولمّا لم يكن ذلك.كذلك ثبت أنه لا يجوز عجز العباد على الحقيقة عن مثل القرآن مع عدمه ، منهم ، وكونه غير موجود لهم ، ولا عن قلب عصا موسى حية ، ولا عن مثل ذلك .

قال أبو محمد : أينتظر كفرٌ بعد هذا الكفر فى تصريحه أن العباد والعرب لا يجوز أن يعجوزا عن مثل القرآن ، ولا عن قلب العصا حية ؟! ولا يغتر ضعيف بقوله إنهم غير قادرين على ذلك فإنما هو على قوله المعروف من أن الله لا يقدر على غير ما فعل ، وظهر منه فقط ، ومن عظيم المحال قوله فى هذا الفصل : إنه لا يجوز أن يعجز العاجز إلا عن ما يقدر عليه مع أن هذا الكلام منه موجب أنهم إن عجزوا عن مثل القرآن قدروا عليه ، وما يمترى فى أنه كان كايدًا للإسلام ملحدًا لا شك فيه فهذه الأقوال لا ينطلق بها لسان مسلم . ومن أعظم البراهين على كفر الباقلانى وكيده للدين قوله فى فصل آخر من الباب المذكور ، فى الكتاب المذكور ، إنه لا يجب على من سمع القرآن من محمد بن عبد المطلب أن يبادر إلى القطع على أنه له آية ، وأنه على يده ظهر ، ومن قِبَلِه نجم حتى يسأل أهل النواحى والأطراف ، ونقلة الأخبار ويتعرف حال المتكلمين بذلك اللسان فى الآفاق ، فإذا علم بعد التثبت والنظر ، أنه لم يسبقه إلى ذلك أحد لزمه حينئذ اعتقاد نبوته .

قال أبو محمد : وهذا إنسان خاف معاجلة الأمثلة بالرجم ، كما يرجم الكلب إن صرح بأن نبوة محمد ﷺ باطل ، فصرح لهم بما يؤدى إلى ذلك من قرب ، إذ أوجب بأن لا يُقرّ أحد بنبوة محمد ﷺ بن عبد الله بن عبد المطلب ولا بأنه أتى بالقرآن ، ولا بأنه آية من آياته تدل على صحة نبوته ، إلا حتى يسأل أهل النواحى والأطراف ، وينتظر الأخبار ويتعرف حال المتكلمين بالعربية فى الآفاق .

قال أبو محمد : فأحال والله على عمل لا نهاية له ولو عمر الإنسان عمر نوح عليه السلام ، لأن سؤال أهل النواحى والأطراف لا ينقضى فى ألف عام ، وانتظار الأخبار ليس له حدّ ، وليت شعرى متى يصل المحدود وطالب المعاش إلى طرف من هذا المجال .. ؟ لأن أهل النواحى هم من بين صدر الصين إلى آخر الأندلس ، إلى بلاد الزنج ، إلى بلاد الصقالبة فما بين ذلك ، فلاح كفر هذا الجاهل الملحد وكيده للإسلام لكل من له أدنى حس .

---

(٩٣) فى (أ) : (البلوى) .

قال أبو محمد : مع ضعف كيده فى ذلك قال الله تعالى : « إن كيد الشيطان كان ضعيفا[٩٤] » ويكفى من كل هذر أتى به فى هذا الفصل الملعون قائله أن من له علم قوى بالعربية والأخبار يكفيه تيقن عجز العرب عن معارضته ، فمن بعدهم إلى اليوم وأنه من عنده ضرورة لأنه لم ينزل القرآن جملة ، فيمكن فيه الدعوى من أحد وإنما نزل مقطعًا فى كل قصة تنزل يتنزل فيها قرآن ، وهذه ضرورة موجبة أنه من عنده عليه السلام ظهر بوحى الله تعالى إليه ، وبما فيه من الغيوب التى قد ظهر إنذاره بها ، وأما من لا علم له باللغة والأخبار فيكفيه إخبار من يقع له العلم بخبره ، بأن العرب عجزت عن مثله ، وأنه أتى به مفصلًا عند حلول القصص التى أنزل الله تعالى فيها الآية والآيتين ، والكلمة والكلمتين ، من القرآن والسورة ، حتى تَّم كما هو ، فهذا هو الحق ولا ذلك الإلحاد المحض ، والكلام الغثّ السخيف .

ومن كفرانهم الصُّلع قول السّمنانى إذ نصَّ على أن الباقلانى كان يقول : إن جميع المعاصى كلها لا نجد شيئا منها مما يجب أن يستغفر الله منه جائز وقوعها من النبى ﷺ حاشى الكذب فى البلاغ فقط . وقال الباقلانى : إذا نهى النبى ﷺ عن شىء ثم فعله فليس ذلك دليلا على أنه منسوخ ، إذ قد يفعله عاصيًا لله عز وجل . قال الباقلانى وليس على أصحابه فرضًا أن ينكروا ذلك عليه . قال السّمنانى فى كتاب الإمامة : لولا دلالة العقل على وجوب كون النبى ﷺ معصومًا فى البلاغ عن الله عز وجل لما وجب كونه معصوما فى البلاغ ، كما لا يجب فيما سواه من أفعاله وأقواله . وقال أيضًا فى مكان آخر منه وكذلك يجوز أن يكفر النبى بعد أداء الرسالة .

قال أبو محمد : بالله الذى لا إله إلا هو ما قال هذا القول ناصرًا له ، وداعيا إليه مسلم قط ، وما كان قائله إلا كافرًا ملحدًا ، فاعلموا أيها الناس أنه قد جوّز على النبى ﷺ الكفر والزنا ، واللياطة ، والبغاء ، والسرقة ، وجميع المعاصى فأى كيد للإسلام يا للناس أعظم من هذا .. ؟؟ وأما صاحبه بن فورك فإنه منع من هذا وأنكره ، وأجاز على النبى ﷺ صغار المعاصى كقُبِل النساء والتعريض لهن[٩٥]، وتفخيذ الصبيان ، ونحو ذلك ، وأما شيخهما بن مجاهد البصرى ليس بالمقّرى فإنه منع من كل ذلك وحاشى لله من أن يُجَوّز من النبى ﷺ ذنبا يعمد لا صغيرًا ولا كبيرًا ، لقول الله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة[٩٦] » ومن المحال أن يأمرنا الله تعالى أن نتأسّى بعاصى فى معصية صغرت أو كبرت ، واعجبوا لاستخفاف هذا الملحد بالدين وبالمسلمين ، إذ يقول هاهنا إنه ليس فرضًا على أصحاب النبى ﷺ أن ينكروا عليه عصيان ربه ،

---

(٩٤) النساء : ٧٦

(٩٥) أى إبداء الرغبة فى الزواج منهن لقوله تعالى : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء : ٢٢٥ البقرة » .

(٩٦) الأحزاب : ٢١

ومخالفة أمره الذى أمرهم به ، وهو يقول فى نصره للقياس إن قياس من قاس من الصحابة وسكوت من سكت منهم عن إنكاره دليل على وجوب الحكم بالقياس ، لأنهم لا يقرون على منكر فما وجب إقرارهم على المنكر من النبى ﷺ حاشى لله من هذا ، وأنكر إقرارهم على القياس لو كان منكرا ، فجمع فى هذا(٩٧) المناقضة والكذب فى دعوى القياس على الصحابة ، ودعوى معرفة جميعهم بقياس من قاس منهم ودعوى أنهم لم ينكروه ، وهذه صفات الكذّابين المتلاعبين بالدّين . ومن طوامّهم ما حكاه السّمنانى عن الباقلانى أنه قال : واختلفوا فى وجوب كون النبى ﷺ أفضل أهل وقته فى حال الرسالة . وما بعدها ، إلى حيّز(٩٨) موته فأوجب ذلك قائلون وأسقطه آخرون . قال الباقلانى وهذا هو الصحيح وبه نقول .

قال أبو محمد : هذا والله الكفر الذى لا خفاء به إذ جوز أن يكون أحد ممن فى عصر النبى ﷺ فما بعده أفضل من رسول الله ﷺ وما أنكرنا على أحمد بن خابط إلّا دون هذا ، إذا قال : إن أبا ذر كان أزهد من النبى ﷺ ؟ هذا مع قول هذا المستخف الباقلانى الذى ذكره عنه السّمنانى فى كتابه الكبير فى كتاب الإمامة ، منه أن من شرط الإمام أن يكون الإمام أفضل أهل زمانه .

قال أبو محمد : يا للعيارة بالدين يجوز عند هذا الكافر أن يكون فى الناس غير الرسل أفضل من رسول الله ﷺ ولا يجوز عنده أن يلى الإمامة أحد يوجد فى الناس أحد أفضل منه ؟! ثم حمقه أيضا فى هذا حمق عتيق ، لأنه تكليف ما لا يطاق ، ولا سبيل إلى القطع بفضل أحد على أحد الا بنص من الله تعالى ، فكيف يحاط بالأفضل من قريش وهم مبثوثون من أقصى السند وكابل ومكران إلى الأشبونة ، إلى سلا فسواحل البحر المحيط ومن سواحل بحر اليمن ، إلى ثغور أرمينية وأذربيجان فما بين ذلك ، اللهم العن من لا يستحى ومن العجب أن هذا النذل الباقلانى قطع بخلاف الإجماع وقد أجاز ما لك من قرأ عند أبى حنيفة فى إجازته القراءة بالفارسية ، وصرح بأن ترتيب الآيات فى القرآن إجماع ، وقد أجاز مالك لمن قرأ عند غروب الشمس وطلوعها فجاته آية سجدة أن يصل التى قبلها بالتى بعدها ، فمالك عنده مخالف للإجماع ، وقطع بأن الشافعى خالف الإجماع فى قوله بإبطال القياس ، أفلا يستحى هذا الجاهل من أن يصف فى قوله بأن بسم الله الرحمن الرحيم آية من أم القرآن ، وأن داود خالف الإجماع فى قوله بإبطال القياس . أفلا يستحى هذا الجاهل من أن يصف العلماء بصفته مع عظيم جهله بأن عاصمًا وابن كثير

(٩٧) فى (أ) : (بين هذه) .
(٩٨) فى (أ) : (حين) .

وغيرهما من القراء وطائفة من الصحابة تقول بقول الشافعى الذى جعله خلافا للإجماع ، وأنه لم يأت قط عن أحد من الصحابة إيجاب الحكم بالقياس ، من طريق تثبت ، وأنه قد قال بإنكاره ابن مسعود ومسروق والشعبى وغيرهم . ولكن من يضلل الله فلا هادى له ، ومن عجائبه قوله : إن العامى إذا نزلت به النازلة ففرضه أن يسأل أفقه أهل بلده ، فإذا أفتاه فهو فرضه فإن نزلت به تلك النازلة ثانية لم يجز له أن يعمل بتلك الفتيا . لكن يسأل ثانية . إما ذلك الفقيه وإما غيره ، ففرضه أن يعمل بالفتيا الثانية ، وهكذا أبدا .

قال أبو محمد : هذا تكليف ما لا يطاق إذ أوجب على كل واحد من العامة أن يسأل أبدًا عن كل ما ينوبه فى صلاته وصيامه وزكاته ونكاحه وبيوعه ، وتكرار السؤال عن كل ذلك كل يوم بل كل ساعة فهل فى الحماقة أكثر من هذا ؟ ونعوذ بالله من الخذلان .

* * *

« ذكر شنع لقوم لا تعرف فرقهم »

قال أبو محمد : ادعت طائفة من الصوفية أن فى أولياء الله تعالى من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل ، وقالوا من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها ، من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك ، وحلت له المحرمات كلها ، من الزّنا والخمر وغير ذلك ، واستباحوا بهذا نساء غيرهم ، وقالوا : إننا نرى الله ونكلمه ، وكل ما قذف فى نفوسنا فهو حق . ورأيت لرجل منهم يعرف « بابن شمعون » كلاما نصه أن لله تعالى مائة اسم ، وان الموفى مائة هو ستة وثلاثون حرفا ، ليس منها فى حروف الهجاء شىء إلا واحد فقط ، وبذلك الواحد يصل أهل المقامات إلى الحق . وقال أيضًا أخبرنى بعض من رسم لمجالسة الحق أنه مدَّ رجله يومًا فنودى ما هكذا يجالس الملوك ، فلم يمدّ رجله بعدها ، يعنى أنه كان مديمًا لمجالسة الله تعالى .

وقال أبو حاضر النُّصيبى من أهل نصيبين ، وأبو الصَّباح السمرقندى وأصحابهما : إن الخلق لم يزالوا مع الله ، وقال أبو الصَّباح لا تحل ذبائِح أهل الكتاب ، وخطّأ فعل أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى قتال أهل الردّة ، وصوَّب قول الصحابة الذين رجعوا عنه فى ترك[1] حربهم . وقال أبو شعيب القلال : إن ربه جسم فى صورة إنسان لحم ودم ، ويفرح ويحزن ويمرض ويفيق . وقال بعض الصوفية : إن ربَّه يمشى فى الأزقة حتى إنه يمشى فى صورة مجنون يتبعه الصبيان بالحجارة ، حتى يدموا عقبيه ، فاعلموا رحمكم الله أن هذه كلها كفرات صلع ، وأقوال أقوام يكيدون الإسلام وصدق القائل :

شهدت بأن ابن المعلم هازل ... بأصحابه والباقلانى أهزل
وما الجعل الملعون فى ذاك دونه ... وكلهم فى الإفك والكفر منزل

والله ما هم مع المغرورين بهم فى قولهم عنهم وحسن الظن بهم ، إلا كما قال الآخر :

وساع مع السلطان يبغى عليهم ... ومحترس من مثله وهو حارس

* * *

فاعلموا رحكمكم الله أن جميع فرق الضلالة لم يجر الله تعالى قط على أيديهم خيرًا ، ولا فتح بهم من بلاد الكفر قرية ولا رفع للإسلام راية ، ومازالوا يسعون فى قلب نظام المسلمين ، ويفرقون كلمة المؤمنين ، ويسلّون السيف على أهل الدين ، ويسعون فى الأرض مفسدين . أما الخوارِج والشيعة : فأمرهم فى هذا أشهر من أن يتكلف ذكره ، وما توصلت الباطنية إلى كيد الإسلام وإخراج الضعفاء عنه[٢] إلى الكفر إلا على ألسنة الشيعة ، وأما المرجئة فكذلك إلا أن الحارث بن سريج خرج بزعمه منكرًا للجور ، ثم لحق بالترك فقادهم إلى أرض الإسلام فأنهب الديار ، وهتك الأستار ، والمعتزلة فى سبيل ذلك إلا أنه ابتلى بتقليد بعضهم المعتصم والواثق جهلًا ، وظنا أنهم على شىء ، وكان للمعتصم فتوح محمودة كبابل[٣] والمازيار وغيرهم فالله الله أيها المسلمون تحفظوا بدينكم ، ونحن نجمع لكم بعون الله الكلام فى ذلك ، الزموا القرآن وسنن رسول الله ﷺ ، وما مضى عليه الصّحابة رضى الله عنهم والتابعون وأصحاب الحديث عصرًا عصرًا ، الذين طلبوا الأثر ، فلزموا الأثر ودعوا كل محدثة فكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار ، وبالله تعالى التوفيق .

تم الكلام فى شنع المبدعين من أهل الأهواء والنحل المضلة والحمد لله رب العالمين[٤] .

---

(١) فى (أ) : سقطت كلمة (ترك) .
(٢) فى (أ) : (منه) .
(٣) بابل : بكسر الباء : اسم ناحية منها الكوفة والحِلَّة ، ينسب إليها السِّحر ، والخمر ، قال المفسرون فى قوله تعالى : « وما أُنْزل على الملكين ببابل هاروت وماروت » قيل : بابل العراق ، وقيل بابل دُنْباوَنْد ، وقال أبو الحسن : بابل الكوفة . وقال أبو معشر : الكلدانيون : هم الذين كانوا ينزلون بابل فى الزمن الأول ، ويقال : إن أول من سكنها : نوح عليه السلام ، وهو أول من عمرها ، وكان قد نزلها عقب الطوفان ، فسار هو ومن خرج معه من السفينة إليها لطلب الدف ، فأقاموا بها وتناسلوا فيها ، وابتنوا بها المدائن ، واتصلت مساكنهم بدجلة والفرات إلى أن بلغوا من دجلة إلى أسفل كَسْكر ، ومن الفرات إلى ما وراء الكوفة . (معجم البلدان : الجزء الأول بيروت ١٣٨٨ هـ : ص ٣٠٩) .
(٤) فى (أ) : سقط الكلام من قوله : (تم الكلام إلى رب العالمين) .

« المعانى التى يسمّيها أهل الكلام اللطائف والكلام فى السحر ، وفى المعجزات التى فيها إحالة الطبائع أيجوز وجودها(١) لغير الأنبياء ﷺ أم لا »

قال أبو محمد : ذهب قوم إلى أن السحر قلب للأعيان ، وإحالة للطبائع وأنهم يُرون أعين الناس ما لا يُرى ، وأجازوا للصالحين على سبيل كرامة الله عزَّ وجل لهم اختراع الأجسام وقلب الأعيان ، وجميع إحالة الطبائع ، وكل معجز للأنبياء عليهم السلام ، ورأيت لمحمد بن الطيب الباقلانى : أن الساحر يمشى على الماء على الحقيقة ، وفى الهواء ، ويقلب الإنسان حمارًا على الحقيقة ، وأن كل هذا موجود من الصالحين على سبيل الكرامة ، وأنه لا فرق بين آيات الأنبياء وبين ما يظهر من الإنسان الفاضل ومن الساحر أصلًا إلا بالتحدى ، فإن النبى يتحدى الناس بأن يأتوا بمثل ما جاء هو به ، فلا يقدر أحد على ذلك فقط ، وأن كل ما لم يَتَحدّ به النبى الناس فليست آية له ، وقطع بأن الله تعالى لا يقدر على إظهار آية على لسان متنبىء كاذب . وذهب أهل الحق إلى أنه لا يقلب أحد عينا ، ولا يحيل طبيعة إلا الله عز وجل لأنبيائه فقط سواء تحدُّوا بذلك أو لم يتحدوا ، وكلّ ذلك آيات لهم عليهم السلام تحدَّوا بذلك أم لا . والتَّحدى لا معنى له وأنه لا يمكن وجود شيء من ذلك لا لصالح ، ولا لساحر ، ولا لأحد غير الأنبياء عليهم السلام ، والله تعالى قادر على إظهار الآيات على أيدى الكذابين المدعين للنبوة ، ولكنه تعالى لا يفعل ذلك كما لا يفعل ما لا يفعل ما لا يريد أن يفعله من سائر ما هو قادر عليه .

* * *

قال أبو محمد : وهذا هو الحق الذى لا يجوز غيره ، برهان ذلك قول الله عز وجل :

---

(١) فى (أ) : (واحدها) .

« وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته[٢]» . وقال تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها[٣]» . وقال تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون[٤]» .

فصح أن كل ما فى العالم وبما قد رتبه الله عز وجل الرتب[٥] التى لا تتبدل ، وصح أن الله عز وجل أوقع كل اسم على مسماه فلا يجوز أن يوقع اسم من تلك الأسماء على غير مسماه الذى أوقعه الله تعالى عليه ، لأنه كان يكون تبديلًا لكلمات الله تعالى التى أبطل عزَّ وجل أن تبدل ، ومنع من أن يكون لها مبد ، ولو جاز أن تحال صفات مسمًّى منها التى بوجودها فيه استحق وقوع ذلك الإسم عليه لوجب أن يسقط عنه ذلك الإسم الذى أوقعه الله تعالى عليه ، فإذ ذلك كذلك فقد وجب أن كل ما فى العالم مما قد رتبه الله تعالى على ما هو عليه من فصُوله الذاتية وأنواعه وأجناسه ، فلا يتبدل منه شيء قطعا إلا حيث قام البرهان على تبدله ، وليس ذلك إلا على أحد وجهين إما استحالة معهودة جارية على رتبة واحدة ، وعلى ما بنى الله تعالى عليه العالم من استحالة المنى حيوانًا ، والنوى والبذور شجرة ونباتًا وسائر الاستحالات المعهودات ، وإما استحالة لم تعهد قط ولا بنى الله تعالى العالم عليها ، وذلك[٦] قد صح للأنبياء عليهم السلام شواهد لهم على صحة نبوتهم ، وجد[٧] ذلك بالمشاهدة ممن شهدهم ، ونقل إلى من لم يشاهدهم بالتواتر الموجب للعلم الضرورى ، فوجب الإقرار بذلك وبقى ما عدا أمر الأنبياء عليهم السلام على الامتناع فلا يجوز ألبتة وجود ذلك لا من ساحر ولا من صالح بوجه من الوجوه ، لأنه لم يقم برهان بوجود ذلك ولا صح قط به نقل ، وهو ممتنع فى العقل كما قدمنا ولو كان ذلك ممكنًا لاستوى الممتنع والممكن والواجب ، وبطلت الحقائق كلها ، وأمكن كل ممتنع ومن لحق هاهنا لحق بالسوفسطائية على الحقيقة . ونسأل من جوَّز ذلك للساحر والفاضل هل يجوز لكل أحد غير هذين أم لا يجوز إلا لهذين فقط ؟ فإن قال إن ذلك لا يجوز[٨] إلا للساحر وللفاضل فقط ، وهذا هو قولهم ، سألناهم عن الفرق بين هذين ، وبين سائر الناس ، ولا سبيل لهم إلى الفرق بين هؤلاء وبين غيرهم إلا بالدعوى التى لا يعجز عنها أحد ، وإن قالوا : إن ذلك جائز أيضًا لغير الساحر والفاضل لحقوا بالسوفسطائية حقا ولم يثبتوا حقيقة ، وجاز تصديق من يدعى أنه يصعد إلى السماء ، ويرى الملائكة ، وأنه يكلم الطير ويجتنى من شجر الخروب التمر والعناب ، وأن رجالًا حملوا وولدوا وسائر

---

(٢) الأنعام : ١١٥
(٣) البقرة : ٣١
(٤) يس : ٨٢
(٥) فى (أ) : (الترتيب) .
(٦) فى (أ) : (ولذلك) .
(٧) فى (أ) : (وجود) .
(٨) فى (أ) : سقطت كلمة (لا يجوز) .

التخليط الذى من صار إليه وجب أن يعامل بما هو أهله إن أمكن أو أن يعرض عنه لجنونه وقلة حيائه .

قال أبو محمد : لا فرق بين من ادعى شيئًا مما ذكرنا لفاضل وبين دعوى الرافضة ، ردّ الشمس على علىّ بن أبى طالب مرتين حتى ادَّعى بعضهم أن حبيب ابن أوس قال :

فَرُدَّتْ عَلَيْنَا الشَّمْسُ واللَّيْلُ رَاغِمٌ بِشَمْسٍ لَهُم مِنْ جَانِبِ الْخِدْرَ تَطْلُع
فَضَاضوءهُا صِبْغِ الدُّجُنَّةِ فانطوى لِبَهْجَتِهِا ثَوبُ السَّمَاءِ المُجَزَّعُ
فوالله ما أدرى أأحلام نائم ألمت بنا أم كان فى الركب يُوشَعُ ؟[٩]

وكذلك دعوى النصارى لرهبانهم وقدمائهم فإنهم يدعون لهم من قلب الأعيان أضعاف ما يدعيه هؤلاء ، وكذلك دعوى اليهود لأحبارهم ، ورؤوس المثايب عندهم أن رجلًا منهم رحل من بغداد إلى قرطبة فى يوم واحد ، وأنه أنبت[١٠] قرنين فى رأس رجل مسلم من بنى الاسكندرانى ، كان يسكن بقرطبة عند باب اليهود . وهذا كله باطل موضوع وبنو الاسكندرانى كانوا أقوامًا أشرافًا معروفين لم يعرف لأحد منهم شىء من هذا ، والحماقة لا حَدَّ لها ، وهذا برهان كاف لمن نصح نفسه .

* * *

قال أبو محمد : وأما السحر فإنه ضروب منه ما هو من قبل الكواكب ، كالطابع المنقوش فيه صورة عقرب ، فى وقت كون القمر فى العقرب فينتفع إمساكه من لدغة العقرب ، ومن هذا الباب كانت الطلسمات ، وليست إحالة طبيعة ولا قلب عين ، ولكنها قوى ركبها الله عز وجل مدافعة لقوى أخرى كدفع الحر للبرد ، ودفع البرد للحر ، وكقتل القمر للدابة الدابرة الدبرة ، إذا

---

(٩) جاءت هذه الأبيات ضمن قصيدة مدح بها أبو تمام أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى ومطلعها :
أمــا إنّـــه لولا الخليـــط المودّع وَرَبْــعٌ عفــا منــه مَصيـــف ومَرْبَــع
لرُدَّت على أعقـــابها أرْيَحِيَّــــة من الشّوق واديها من الهَــمّ مُتــرعُ
وقد جاءت الأبيات محرفة فى الأصول وفى (أ) .
نضا : أى نزع . الدُّجنّة : ظلمة الليل ، أرد أن الشمس إذا طلعت غاب لون السماء الذى يظهر بالليل ، وجعله مجزّعا لأجل النجوم ، والتجزيع فى الشىء أن يكون فيه لونان مختلفان .
والبيت الثالث محمول على ما يحكيه أهل الكتاب أن الشمس ردَّت ليوشع بن نون ، وقد روى أن أبا تمام غيّر هذا البيت لما سمع أن الشيعة تزعم أن على بن أبى طالب ردَّت له الشمس فقال :
« فوالله ما أدْرِى عَلِـــىٌّ بدالنـــا » يريـد أعُلِـىٌّ فحـذف همزة الاستفهـام
(راجع ديوان أبى تمامن بشرح الخطيب التبريزى : ٣١٩/٢ ط دار المعارف مصر — الثانية) .
(١٠) فى (أ) : (أثبت) .

لاقى الدبرة ضوءه إذا كانت دبرتها مكشوفة للقمر ، ولا يمكن دفع الطلسمات لأننا قد شاهدنا آنفًا[١١] آثارها ظاهرة إلى الآن من قرى لا تدخلها جرادة ولا يقع فيها برد وكَسَرُقسطه التى لا يدخلها جَيْش إلا أن يدخلها كرها ، وغير ذلك كثير جدًّا لا ينكره إلا معاند ، وهى أعمال قد ذهب من كان يحسنها جملة ، وانقطع من العالم ، ولم يبق إلا آثار صناعاتهم فقط ، ومن هذا الباب كان ما تذكره الأوائل فى كتبهم فى الموسيقا ، وأنه كان يؤلف به بين الطبائِع ، وينافر به أيضًا بينها ، ونوع آخر من السحر يكون بالرُّقَى وهو كلام مجمع من حروف مقطعة فى طوالع معروفة أيضا ، فيحدث لذلك التركيب قوة تستثار بها الطبائِع وتدافع قوى أخرى وقد شاهدنا واختبرنا[١٢] من كان يرقى الدمل الحاد القوى الظهور فى أول ظهوره فييبس بدًّأ من يومه ذلك بالذبولى ويتم يُبسه فى اليوم الثالث ، ويقلع كما تُقلع قشرة القرحة ، إذا تم يُبسها ، جربنا من ذلك ما لا نحصيه ، وكانت هذه المرأة ترقى أحد دميلين قد دفعا على إنسان واحد ولا ترقى الثانى فييبس الذى رقت ويتم ظهور الذى لم ترق ، ويلقى حامله منه الأذى الشديد ، وشاهدنا من كان يرقى الورم المعروف بالخنازير فيندمل ما يفتح منها ويذبل ما لم ينفتح ويبرأ كل ذلك البرء التام ، كان لا يزال يفعل ذلك فى الناس والدواب ، ومثل هذا كثير جدًّا ، وقد أخبرنا من خبره عندنا كمشاهدتنا لثقته وتجربتنا لصدقه وفضله ، أنه شاهد ما لا يحصى ، نساء يتكلمن على الذين يمخضون الزبد من اللبن ، بكلام فلا يخرج من ذلك اللبن زبد ولا فرق بين هذين الوجهين وبين ملاقاة فضلة الصفراء بالسقمونيا ، وملاقاة ضعف القلب بالكندر ، وكل هذه المعانى جارية على رتبة واحدة ، من طلب علم كل ذلك أدركه ، ومنه ما يكون بالخاصة كالحجر الجاذب للحديد ، وما أشبه ذلك ومنه ما يكون لطف يد كحيل أبى العجائِب ، التى شاهدها الناس ، وهى أعمال لطيفة لا تحيل طبعًا أصلا .

* * *

قال أبو محمد : وكل هذه الوجوه التى ذكرنا ليست من باب معجزات الأنبياء عليهم السلام ، ولا من باب ما يدعيه أهل الكذب للسحرة وللصالحين لأن معجزات الأنبياء خارجة عن الرتب ، وعن طبائع كل ما فى العالم ، وعن بنية العالم ، لا يجرى شىء من ذلك على قانون ، ولا على سنن معلوم ، لكن قلب عين وإحالة صفات ذاتية كشق القمر ، وفلق البحر ، واختراع

---

(١١) فى (أ) : (أنفسنا) .
(١٢) فى (أ) : (وجربنا) .

طعام وماء ، وقلب العصا حية ، وإحياء ميت قد أرم ، وإخراج ناقة من صخرة ، ومنع الناس من أن يتكلموا بكلام مذكور ومن أن يأتوا بمثله ، وما أشبه هذا من إحالة الصفات الذاتية ، التى بوجودها تستحق الأسماء ، ومنها تقوم الحدود وهذا بعينه هو الذى يدعيه المبطلون للساحر وللفاضل .

قال أبو محمد : وإنما يلوح الفرق جدا بين هذين السبيلين[١٣] لأهل العلم بحدود الأسماء والمسميات ، وبطبائع العالم وانقسامه من مبدئه من أجناس أجناسه إلى أنواعه إلى أشخاصه وما هو من أعراضه ذاتى ، وما هو منها غيرى وما تسرع الاستحالة والزوال من الغيرى منها وما يبطىء زواله منها ، وما يثبت منها ثبات الذاتى ، وإن لم يكن ذاتيًا والفرق بين البرهان وبين ما يظن أنه برهان وليس برهانًا . والحمد لله على ما وهب وأنعم به علينا لا إله إلا هو .

حدثنا محمد بن سعيد بن نبات ، حدثنا أحمد بن عبد البصير ، قال ، ثنا قاسم بن أصبغ ، ثنا محمد بن عبد السلام الخشنى ، ثنا محمد ابن المثنى ، ثنا عبد الرحمن بن مهدى ، ثنا سفيان الثورى عن أبى إسحق الشيبانى ، عن بشير بن عمرو قال : ذكر الغيلان عند عمر بن الخطاب فقالوا إنهم يتحولون فقال عمر : إنه ليس أحد يتحول عن خلقه الذى خلق له لكن لهم سحرة كسحرتكم فإذا خشيتم شيئا من ذلك فأذّنوا . فهذا عمر رضى الله عنه يبطل إحالة الطبائع ، ويقول : إن السحر ليس فيه إحالة طبع[١٤]، وهذا نص قولنا . والحمد لله رب العالمين كثيرا . وقد نص الله عز وجل على ما قلنا فقال تعالى : « فإذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى[١٥]» .

فأخبر تعالى أن عمل أولئك السحرة إنما كان تخيلًا لا حقيقة له . وقال تعالى : « إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى[١٦]» .

فأخبر تعالى أنه كيد لا حقيقة له ، فإن قيل قد قال عز وجل : « سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم[١٧]» .

قلنا نعم إنها حيل عظيمة وإثم عظيم ، إذ قصدوا بها معارضة معجزات رسول الله ﷺ وأنهم كادوا عيون الناس إذ أوهموهم أن تلك الحبال والعصى تسعى ، واتفقت الآيات كلها والحمد لله رب العالمين وكان الذى قدر من لا يدرى حيلهم من أنها تسعى ظنا أصله اليقين وذلك لأنهم

(١٣) فى (أ) : (السببين) .
(١٤) فى (أ) : سقط الكلام من قوله (ويقول إلى طبع) .
(١٥) طه : ٦٦
(١٦) طه : ٦٩
(١٧) الأعراف : ١١٦

رأوا صفات حيّات رُقْط طوال تضطرب ، فسارعوا إلى الظن ، وقدروا أنها ذات حيات ، ولو أنعموا النظر وفتشوها لوقفوا على الحيلة فيها ، وأنها ملئت زئبقًا ولد فيها تلك الحركات ، كما يفعل العجائبى الذى يضرب بسكينه فى جسم إنسان ، فيظن من رآه ممن لا يدرى حيله أن السكين غاصت فى جسم المضروب ، وليس كذلك بل كان نصاب السكين مثقوبا فقط ، فغاصت السكين فى النصاب ، وكإدخاله خيطًا فى حلقة خاتم ، ثم يمسك إنسان غير متهم طرفى الخيط بيديه ، ثم يأخذ العجائبى الخاتم الذى فيه الخيط بفيه ، وفى ذلك المقام أدخله تحت يده وكان فى فيه خاتم آخر يرى من حضر حلقة الخاتم الذى فى فيه يوهمهم أنه قد أخرجه من الخيط ، ثم يرد فمه إلىٰ الخيط ويرفع يديه وفيه فينظر الخاتم الذى كان فيه الخيط ، وكذلك سائر حيلهم . وقد وقفنا على جميعها فهذا هو معنى قوله تعالى : « سحروا أعين الناس واسترهبوهم » .

أى أنهم أوهموا الناس فيما رأوه ظنونا متوهمة لا حقيقة لها ، ولو فتشوها للاح لهم الحق وكذلك قول الله عز وجل : « فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجة(١٨) » فهذا أمره ممكن يفعله النَّمام وكذلك ما روى عن أن رسول الله ﷺ سحره لبيد بن الأعصم ، فولَّد ذلك عليه مرضًا حتى كان يظن أنه فعل الشىء وهو لم يفعله ، فليس فى هذا أيضا إحالة طبيعة ، ولا قلب عين ، وإنما هو تأثير بقوة لتلك الصناعة ، كما قلنا فى الطلسمات والرقى ، ولا فرق ونحن نجد الإنسان يُسُبُّ أو يقابل بحركة يغضب منها ، فيستحيل من الحلم إلى الطيش وعن السكون إلى الحركة والنزق حتى يقارب حال المجانين ، وربما أمرضه ذلك وقد قال عليه السلام : « إنَّ مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا(١٩) » لأن من البيان ما يؤثر فى النفس فيثيرها أو يسكنها عن ثوراتها ، ويُحيلها عن عزماتها ، وعلى هذا المعنى استعملت الشعراء ذكر سحر العيون ، لاستمالتها للنفوس فقط .

* * *

قال أبو محمد : ويقال لمن قال إن السحر يحيل الأعيان ويقلب الطبائع أخبرونا إذا جاز هذا فأى فرق بين النبى والساحر ؟ ولعل جميع الأنبياء كانوا سحرة ، كما قال فرعون عن موسى عليه السلام « إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِى عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ(٢٠) » « وإنَّ هذا لمَكْرٌ مَكَرْتُمُوه فى الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا(٢١) » . وإذا جاز أن يقلب سحرة موسى عليه السلام عصيهم وحبالهم حيات ،

---

(١٨) البقرة : ١٠٢

(١٩) هذا حديث حسن صحيح ولفظه عن ابن عمر أن رجلين قد ما فى زمان رسول الله ﷺ فخطبا فعجب الناس من كلامهما فالتفت إلينا رسول الله ﷺ فقال : « إن من البيان سحرًا أو إن بعض البيان سحرًا » (سنن الترمذى – كتاب البر والصلة : ٢٣٠/٦) .

(٢٠) طه : ٧١

(٢١) الأعراف : ١٢٣

وقلب موسى عليه السلام عصاه حيّة ، وكان كلا الأمرين حقيقة ، فقد صدق فرعون بلا شك ، فى أنه ساحر مثلهم ، إلا أنه أعلم به منهم فقط ، وحاشا لله من هذا بل ما كان فعل السحرة إلا من حيل أبى العجائِب فقط . فإن لجئوا إلى ما ذكره الباقلانى من التحدّى قيل لهم : هذا باطل من وجوه : أحدها أن اشتراط التحدّى فى كون آية النبى آية دعوى كاذبة سخيفة لا دليل على صحتها ، لا من قرآن ولا من سنة صحيحة ولا سقيمة ، ولا من إجماع ولا من قول صاحب ، ولا من حجة عقل ولا قال بهذا أحد قط ، قول هذه الفرقة الضعيفة ، وما كان هكذا فهو فى غاية السقوط والهجنة . قال الله عز وجل : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين[٢٢] » .

فوجب ضرورة أن من لا برهان له على صحة قوله فهو كاذب فيها غير صادق . وثانيها : أنه لو كان ما قالوا : لسقطت أكثر آيات رسول الله ﷺ : كنبعان الماء من بين أصابعه ، وإطعامه المئين والعشرات من صاع شعير ، وعناق ، ومرة أخرى من كسر ملفوفة فى خمار ، وكتفله فى العين فجاشت بماء غزير إلى اليوم ، وحنين الجذع ، وتكلم الذراع وشكوى البعير والذئب ، والإخبار بالغيوب ، وتمر جابر ، وسائِر معجزاته العظام لأنه عليه السلام لم يتحدّ بذلك كله أحدًا ولا عمله إلا بحضرة أهل اليقين من أصحابه ، رضى الله عنهم ، ولم يبق له آية حاشى القرآن ، ودعاء اليهود إلى تمنى الموت ، وشق القمر فقط ، وكفى نحسًا بقول أدى إلى مثل هذا ، فإن ادَّعوا أنه عليه السلام تحدّى بها من حضر وغاب كذبوا واخترعوا هذه الدعوى لأنه لم يأت فى شيء من تلك الأخبار أنه تحدَّى بها أحدًا ، وإن تمادوا على أن كل هذه ليست معجزات ولا آيات أكذبهم رسول الله ﷺ بقوله إذ فعل بعض[٢٣] ذلك أشهد أنى رسول الله .

والثالث وهو البرهان الدامغ قول الله تعالى : وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون[٢٤] » . وقوله : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون[٢٥] » .

فسمى الله تعالى تلك المعجزات المطلوبة من الأنبياء عليهم السلام آيات ، ولم يشترط عز وجل فى ذلك تحديا من غيره ، فصح أن اشتراط التَّحدِّى باطل محض ، وصح أنها إذا ظهرت فهى آية كان هنالك تحدٍّ أو لم يكن ، وقد صح إجماع الأمة المتيقن على أن الآيات لا يأتى بها ساحر ، ولا غير نبى ، فصح أن المعجزات إذ هى آيات لا تكون لساحر ولا لأحد ليس نبيا .

---

(٢٢) النمل : ٦٤

(٢٣) فى (أ) : سقطت (بعض) .

(٢٤) الأنعام : ١٠٩

(٢٥) الإسراء : ٥٩

والرابع أنه لو صح حكم التحدى لكان حجة عليه ، لأن التحدى عندهم يوجب أن لا يقدر على شيء مثل ذلك أحد ، إذ لو أمكن أن يوجد مثل ذلك من أحد لكان قد بطل تحديه وقيل له قد وجد من يعمل مثل عملك ، هذا ، إما صالح وإما ساحر .

والخامس : أنه لو كان ما قالوا ، وجاز ظهور معجزة من ساحر لا يتحدى بها ، أو فاضل لا يتحدى بها ، لأمكن أن يتحدى لهما بها بعد موتهما ، من ضل فيهما كما فعلت الغلاة بعليٍّ رضى الله عنه فعلى كل حال قولهم ساقط والحمد لله رب العالمين .

قال أبو محمد : وأما من ادعى أنه يشبه الساحر على العيون فيريهم ما لا ترى فإن هذه الطائفة لم تكتف بالكفر بإبطال النبوات ، إذ لعل ما أتى به النبى كان تشبيها على العيون لا حقيقة له حتى رامت إبطال الحقائق كلِّها ، أوَّ لها عن آخرها ، ولحقت بالسوفسطائية لحاقا صحيحا بلا تكلف ، ويقال لهم إذا جاز أن يشبَّه على العيون حتى يريها(٢٦) المشبه عليها ما لا حقيقة له وما لا تراه ، فما يدريكم لعلكم كلكم الآن مشبَّه عليكم(٢٧)، ولعل بعض السحرة قد شبه عليكم فأراكم أنكم تتوضؤون وتصلون ، وأنتم لا تفعلون شيئا من ذلك ، ولعلكم تظنون أنكم تزوجتم وإنما فى بيوتكم ضأن ومعز وبقر ، ولعلكم الآن على ظهر البحر ، ولعل ما تعتقدون من الدين تشبيه عليكم ، وهذا كلُّه لا مخلص لهم منه ، وقد عاب الله عز وجل من ذهب إلى هذا فقال : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون(٢٨)» فلو جاز أن يكون للسحر حقيقة تشبه ما يأتى به الأنبياء عليهم السلام ، وأمكن أن يشبه على البصر ما ذمَّهم الله تعالى إن قالوا شيئًا يمكن كونه ، لكنهم لما قالوا ما لا يمكن ألبتة وتعلقوا بذلك فى دفع الحقائق ، عابهم الله تعالى بذلك وأنكر عليهم .

قال أبو محمد : وليس غلط الحواس فى بعض الأوقات من باب التشبيه عليها فى شيء ، لأن أحدنا قد يرى شخصًا على بعد لا يشك فيه إلا أنه تنازع(٢٩) فقطع أنه إنسان ، أو أنه فلان فقطع بظنه ولو أنه لم يعمل ظنه ولا قطع به لكان باقيًا على ما أدرك من الحقيقة ، وهكذا فى كل ما حكم فيه المرء بظنه ، وأما ذو الآفة كمن فيه ابتداء نزول الماء فيرى خيالات لا حقيقة لها ، فهو أيضًا كما ذكرنا دائما(٣٠) وإنما الماء المطل على حدقته يوهمه أنه رأى شيئًا وقطع بذلك ، فإذا ثبت فى كل ذلك لاح له الحق من الظن ، وكذلك من فسد مكان التخييل من دماغه ، فإن نفسه تظن

---

(٢٦) فى (أ) : (يرى) .
(٢٧) فى (أ) : (على عيونكم) .
(٢٨) الحجر : ١٥
(٢٩) فى (أ) : (شارع) .
(٣٠) فى (أ) : سقطت : (دائما) .

ما تتوهمه فتقطع به ، ولو قوى تمييزها لفرقت بين الحق والباطل ، وهكذا القول فى إدراك السمع والذوق وهذا كله يجرى على رتب مختلفة ممن[٣١] أعمل ظنه ، وعلى رتبٍ غير مختلفة فى حمل هذه الآفات ، بل هى ثابتة عند أهل التحقيق والمعرفة ، معروفة العلاج حتى يعود منها إلى صلاحه ما لم يستحكم فساده ، فلا[٣٢] يظن ظان أنه يمكن أن نكون فى مثل حال هؤلاء إذ لو كان هذا لم نعرف شيئًا من العلوم على رتبه وأحكامه الجارية على سنن واحد . وبالله تعالى التوفيق . ثم نسألهم بأى شىء تعرفون أنه لم يُشبه على عيونكم ؟ فقد عرفناكم نحن بماذا نعرف أن حواسنا سليمة مادامت سليمة ، وأن عقولنا سالمة مادامت سالمة ، وبماذا نعرف الحواس المدخولة والعقول المدخولة ، وغير المدخولة ؟ وهو جرى[٣٣] ما أدرك بالحواس السليمة والعقول السليمة ، على رتب محدودة معلومة لا تتبدل عن حدودها أبدًا ، وجرى ما أدرك بالحواس الفاسدة والعقول المدخولة على غير رتب محدودة فإنهم لا يقدرون على فرق أصلًا ، وبالله تعالى التوفيق .

قال أبو محمد : وكذلك ما ذكر عمن ليس نبيًا من قلب عَين أو إحالة طبيعة فهو كذب إلا ما وجد من ذلك فى عصر نبى فإنه آية لذلك النبى ، وذلك الذى ظهرت عليه آية بمنزلة الجذع الذى ظهر فيه الحنين ، والذراع الذى ظهر فيه النطق ، والعصا التى ظهرت فيها الحياة ، وسواء كان الذى ظهرت فيه الآية صالحًا أو فاسقًا ، وذلك كنحو النور الذى ظهر فى سوط عمرو[٣٤] ابن حمَمَة الدوسى وبرهان ذلك أنه لم يظهر بعد موت النبى ﷺ .

قال أبو محمد : فإن قيل إذا أجزتم أن تظهر المعجزة فى غير نبى لكن فى عصر نبى لتكون آية لذلك النبى ، فهلا أجزتموه كذلك بعد موت النبى ﷺ لتكون آية له أيضًا ، ولا فرق بين الأمرين ؟ قلنا : إنما أجزنا ذلك فى الجماد وسائِر الحيوان ، وفيمن شاء الله إظهار ذلك فيه من الناس لا يخصّ بذلك فاضل لفضله ، ولا يمنع ذلك فى فاسق لفسقه ، أو كافر ، وإنما ننكر على من خص بذلك الفاضل فجعلها كرامة له ، فلو جاز ذلك بعد موت النبى ﷺ لأشكل الأمر ، ولم نكن فى أمنٍ من دعوى من ادَّعى أنها آية لذلك الفاضل أو لذلك الفاسق ، أو لإنسان من الناس يدعيها آية له ، ولو كان ذلك لكان إشكالا فى الدّين وتلبيسا من الله تعالى على جميع عباده ، أو لهم عن آخرهم ، وهذا خلاف وعد الله تعالى لنا وإخباره بأنه قد بين علينا الرشد من الغبى ، وليس كذلك ما كان فى عصر النبى ﷺ لأنه لا يكون إلا من قبل النبى ﷺ وبإخباره وإنذاره ، فبدت بذلك أنها له لا للذى ظهرت منه ، وهذا فى غاية البيان والحمد لله رب العالمين .

---

(٣١) فى (أ) : (بمن) .
(٣٢) فى (أ) : (ولا) .
(٣٣) فى (أ) : (وإجراء) .
(٣٤) راجع ص ٢٠٠ من الجزء الثانى .

قال أبو محمد : وأما الذى روى فى الثلاثة أصحاب الغار ، وانفراج الصَّخرة ثلثا ثلثا عندما ذكروا من أعمالهم فلا تعلق لهم به ، لأن تكسير الصخرة ممكن فى كل وقت ، ولكل أحد بلا إعجاز وما كان هكذا فجائِز وجوده[٣٥] بالدعاء وبغير الدُّعاء ، لكن وقع وفاقا لتنميه كمن دعا فى موت عدوه ، أو تفريج غمّه أو بلوغ أمنيته فى دنياه ، ولقد حدثنى « حكم بن منذر بن سعيد ، أن أباه رحمه الله كان فى جماعة فى سفر فى صحراء فعطشوا وأيقنوا بالهلكة ، ونزلوا فى ظل جبل ينتظرون الموت . قال فأسندت رأسى إلى حجر ناتىء فتأذيت به فقعلته فاندفع الماء العذب من تحته ، فشربنا وتزودنا ، ومثل هذا كثير مما يفرج ، وحتى لو كانت معجزة لوجب بلا شك أن يكونوا أنبياء أو لنبى ممن فى زمن نبى ، ولابد مما قدمناه .

قال أبو محمد : ولا عجب أعجب من قول من يجيز قلب الأعيان للساحر ، وهو عندهم فاسق أو كافر ، ويجيز مثل ذلك للصالح وللنبى ، فقد جاز عندهم قلب الأعيان للنبى ، وللصالح ، وللفاسق ، وللكافر ، فوجب أن قلب الأعيان جائِز من كل أحد وتبًا لقول أدى إلى مثل هذا ، وهم يجيزون للمغيرة بن سعيد ، وبيان ومنصور الكِسْف قلب الأعيان ، على سبيل السحر ، وقد جاء بعدهم من يدعى لهم النبوة بها ، فاستوى عند هؤلاء المخذولين النبى والساحر ، نعوذ بالله من الضلال المبين .

* * *

قال أبو محمد : فإن اعترضوا بقول الله تعالى : « ادعونى أستجب لكم[٣٦] » وبقوله تعالى : « أجيب دعوة الداعى إذا دعان[٣٧] » . فهذا حق وإنما هو بلا شك فى الممكنات التى علم الله تعالى أنها تكون لا فيما علم الله تعالى أنه لا يكون ، ولا فى المحال ونسألهم عمن دعا إلى الله تعالى فى أن يجعله نبيا أو فى أن ينسخ دين الإسلام ، أو بأن يعجل[٣٨] القيامة قبل وقتها ، أو أن يمسخ الناس كلهم قردة أو بأن يجعل له عينا ثالثة ، أو بأن يدخل الكفار الجنة والمؤمنين النار ، أو ما أشبه هذا ، فإن أجازوا كل هذا كفروا ، ولحقوا مع كفرهم بالمجانين ، وإن منعوا من كل هذا تركوا استدلالهم بالآيات المذكورة ، وصَحَّ أن الإجابة إنما تكون فى خاصٍّ من الدعاء لا فى العموم وبالله تعالى التوفيق .

---

(٣٥) فى (أ) : (وقوعه) .
(٣٦) غافر : ٦٠
(٣٧) البقرة : ١٨٦
(٣٨) فى (أ) : (يجعل) .

قال أبو محمد : وصَح أن رسول الله ﷺ قال لأسامة وخالد : هلَّا شققت على قلبه لتعلم أقالها متعوذًا أم لا[٣٩].

قال أبو محمد : فلو جاز ظهور المعجزة على غير نبى على سبيل الكرامة ، لوجب القطع على ما فى قلبه وأنه ولى الله تعالى ، وهذا لا يعلم من أحد بعد الصحابة رضى الله عنهم الذين ورد فيهم النص .

وأما قول الباقلانى إن الله تعالى لا يقدر على إظهار آية على يد كذاب ، فهو داخل فى جملة تعجيزه البارى تعالى ، وهو أيضًا تعجيز سخيف داخل فى جملة المحال ، ذلك أنه جعل الله تعالى قادرًا على إظهار الآيات على كل ساحر ، فإن علم أنه يقول إنه نبى لم يقدر على أن يظهرها عليه ، وهذا قول فى غاية الفساد ، لأن من قدر على شىء لم يجز أن يبطل قوته عليه ، علمه بأن ذلك الذى يظهر فيه الفعل يقول أنا نبى ، ولا يتوهم هذا ولا يتشكل فى العقل ولا يمكن ألبتة ، وإنما هم قوم أهملوا حكم الله تعالى عليهم ، وأطلقوا حكمهم عليه تعالى ، وما فى الكفر أقبح من هذا ولا أطم ولا أبرد .

قال أبو محمد : ورأيت للباقلانى فى فصل من كلامه أن الناس ليسوا عاجزين عن مثل القرآن ولا قادرين عليه ، ولا هم عاجزون عن الصعود إلى السماء ، ولا عن إحياء الموتى ، ولا عن خلق الأجسام ولا اختراعها ولا قادرين على ذلك . هذا نص كلامه دون تأويل منا عليه ثم قال إن القدرة لا تقع إلا حيث يقع العجز .

قال أبو محمد : وكل هذا هوس لا يأتى به إلا[٤٠] الممرور ، وأطم من ذلك احتجاجه بأن العجز لا يقع إلا حيث تقع القدرة ، ولا ندرى فى أن لغة وجدوا هذا الكذب أم فى أى عقل وجدوا هذا السخف ، وما شك ذو علم باللغة من العامة والخاصة فى بطلان قوله ، وفى أن العجز ضد القدرة ، وأن ما قدر الإنسان عليه ، فلم يعجز عنه فى حين قدرته عليه وأن ما عجز عنه فلم يقدر عليه فى حين عجزه عنه ، وأنّ نفى القدرة إثبات للعجز وأنّ نفى العجز إثبات للقدرة ، ما يجهل هذا عامىٌّ أصلا ، وهو أيضًا معروف بأول العقل . والعجب أن يأتى بمثل هذه الدعاوى

(٣٩) رواه مسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه ، ولفظه عند مسلم عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال : بعثنا رسول الله ﷺ فى سريّة فصحبنا الحُرُوقات من جهينة ، فأدركت رجلا فقال : لا إله إلا الله فطعنته فوقع فى نفسي من ذلك فذكرته للنبى - ﷺ فقام رسول الله ﷺ قال : لا إله إلا الله . وقتلته ؟ قال : قلت يا رسول الله : إنما قالها خوفًا من السلاح ! قال : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ فمازال يكرّرها علىّ حتّى تمنيت أنى أسلمت يومئذ ، قال فقال سعد : وأنا والله لا أقتل مسلما حتى يقتله ذو البُطَين - يعنى - أسامة ، قال : قال رجل : ألم يقل الله تعالى : (وقاتلوهم حتّى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله) ؟ فقال سعد : قد قاتلنا حتّى لا تكون فتنة ، وأنت وأصحابُك تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة . (كتاب الإيمان - ١/٧) .

(٤٠) فى (أ) : سقطت (إلّا) .

السخيفة دون دليل أصلا ، لكن حماقات وضلالات يطلقها هذا الجاهل ، وأمثاله من الفسّاق فى دين الله تعالى فيتلقفها عنهم من أضله الله تعالى ، ونعوذ بالله من الخذلان . وقد قال الله تعالى : « واعلموا أنكم غير معجزى الله[٤١]» .

فاقتضى هذا أنَّهم مقدور عليهم لله تعالى . وقال تعالى : « فليس بمعجز فى الأرض[٤٢]» .

فوجب أنه مقدور عليه . وقال تعالى : « والله على كل شىء قدير[٤٣]» فصح أنه غير عاجز وبالله تعالى التوفيق .

* * *

---

(٤١) التوبة : ٢
(٤٢) الأحقاف : ٣٢
(٤٣) البقرة : ٢٨٤

« الكلام فى الجن ووسوسة الشيطان وفعله فى المصروع »

قال أبو محمد : لم ندرك بالحواس ولا علمنا وجوب كونهم ولا وجوب امتناع كونهم فى العالم أيضًا بضرورة العقل لكن علمنا بضرورة العقل إمكان كونهم ، لأن قدرة الله تعالى لا نهاية لها وهو عز وجل يخلق ما يشاء ، ولا فرق بين أن يخلق خلقًا عنصرهم التراب والماء ، فيسكنهم الأرض والهواء والماء ، وبين أن يخلق خلقا عنصرهم النار والهواء ، فيسكنهم الهواء والنار والأرض ، بل كل ذلك سواء ممكن فى قدرته ، لكن لما أخبرت الرسل الذين شهد الله عز وجل بصدقهم بما أبدى على أيديهم من المعجزات المحلية للطبائِع – بنص الله عز وجل على وجود الجن فى العالم ، وجب ضرورة العلم بخلقهم ووجودهم ، وقد جاء النص بذلك وبأنهم أمة عاقلة مميزة متعبدة ، موعودة متوعدة متناسلة يموتون ، وأجمع المسلمون كلهم على ذلك ، نعم والنصارى والمجوس والصّابئون وأكثر اليهود حاشى السامرة فقط ، فمن أنكر الجن أوتأوّل فيهم تأويلا يخرجهم به عن هذا الظاهر فهو كافر مشرك حلال الدم والمال ، قال الله تعالى : « أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى[1] » .

قال أبو محمد : وهم يروننا ولا نراهم . قال الله تعالى : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم[2] » .

فصح أن الجن قبيل إبليس قال تعالى : « إلا إبليس كان من الجن[3] » .

قال أبو محمد : وإذ أخبرنا الله عز وجل أننا لا نراهم فمن ادعى أنه يراهم أو رآهم فهو كاذب ، إلا أن يكون من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فذلك معجزة لهم كما نص رسول الله ﷺ أنه تفلّت عليه شيطان ليقطع عليه صلاته ، قال فأخذته فذكرت دعوة أخى سليمان ولولا

---

(١) الكهف : ٥٠
(٢) الأعراف : ٢٧
(٣) الكهف : ٥٠

ذلك لأصبح موثقا يراه أهل المدينة أو كما قال عليه السلام[٤]، وكذلك فى رواية عن أبى هريرة للذى رأى إنها هى معجزة لرسول الله ﷺ ولا سبيل إلى وجود خبر يصح برؤية حتى بعد موت النبى ﷺ وإنما هى منقطعات أو عمن لا خير فيه .

قال أبو محمد : وهم أجسام رقاق صافية هوائية لا ألوان لهم وعنصرهم النار ، كما أن عنصرنا التراب ، بذلك جاء القرآن قال عز وجل : « والجان خلقناه من قبل من نار السموم[٥]» . والنار والهواء عنصران لا لون لهما ، وإنَّما حدث اللون فى النار المشتعلة عندنا لامتزاجها برطوبات ما تشتعل فيه من الحطب ، والكتان والأدهان وغير ذلك ، ولو كانت لهم ألوان لرأيناهم بحاسة البصر ، ولو لم يكونوا أجسامًا صافية رقاقا هوائية لأدركناهم بحاسة اللَّمس . وصح النص بأنهم يوسوسون فى صدور الناس ، وأن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، فوجب التَّصديق بكل ذلك حقيقة ، وعلمنا أنَّ الله عز وجل جعل لهم قوة يتوصلون بها إلى قذف ما يوسوسون به فى النفوس ، برهان ذلك قول الله تعالى : « من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس[٦]» .

وأخبر عز وجل أن الجن والناس يوسوسون فى صدور الناس[٧] ونحن نشاهد الإنسان يرى من له عنده ثأر فيضطرب وتتبدل أعراضه وصورته وأخلاقه وتثور ناريته ، ويرى من يحب فيحدث[٨] له حال أخرى ويبتهج وينشط[٩]، ويرى من يخاف فتحدث له حال أخرى ، من صُفْرة ورعشة وضعف نفس ، ويُبشر إلى إنسان آخر بإشارات يُحيل بها طبائِعه فيغضبه مرة ، ويخجله أخرى ، ويفزعه ثالثة ، ويرضيه رابعة ، وكذلك يحيله أيضا بالكلام إلى جميع هذه الأحوال ، فعلمنا أن الله عز وجل جعل للجن قوى يتوصلون بها إلى تغيير النفوس ، والقذف فيها بما يستدعونها إليه ، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم ووسوسته ، ومن شرار الناس وعلى هذا جريه من ابن آدم مجرى الدم . كما قال الشاعر :

وقد كنت أجرى فى حشاهن مرة كجرى معين الماء فى قصب الآس

---

(٤) الحديث رواه أبو هريرة عن النبى ﷺ ولفظه : « قال رسول الله ﷺ إنَّ عفريتا من الجن تفلَّت علىَّ البارحة ليقطع علىَّ الصلاة ، فأمكننى الله منه ، وأردت أن أربطه إلى جنب سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا فتنظروا إليه كلكم أجمعون » قال : فذكرت دعوة أخى سليمان : « ربِّ هَبْ لى ملكا لا ينبغى لأحدٍ مِنْ بَعْدِى » . قال : فردَّه خاسئًا . (وروى بروايات متفاوتة) (مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٩٨/٢) .

(٥) الحجر : ٢٧

(٦) الناس : ٤

(٧) سقط الكلام فى (أ) من أول (وأخبر عزّ وجل إلى الناس) .

(٨) فى (أ) : (فيثور) .

(٩) فى (أ) : (وينبسط) .

قال أبو محمد : وأما الصرع فإن الله عز وجل قال : كالذى يتخبطه الشيطان من المس[١٠]» فذكر عز وجل تأثير الشيطان فى المصروع إنما هو بالمماسة . فلا يجوز لأحد أن يزيد على ذلك شيئًا ومن زاد على هذا شيئًا فقد قفا[١١] ما لا علم له به ، وهو حرام لا يحل قال عزَّ وجل : « ولا تقف ما ليس لك به علم[١٢]» .

وهذه أمور لا يمكن أن تعرف ألبتة إلا بخبر صحيح عن رسول الله ﷺ ولا خبر عنه عليه السلام بغير ما ذكرنا وبالله تعالى التوفيق . فصح أن الشيطان يمس الإنسان الذى يسلطه الله عز وجل عليه مسًّا ، كما جاء فى القرآن يثيريه من طبائِعه السوداء والأبخرة المتصاعدة إلى الدماغ كما يخبر به عن نفسه كل مصروع بلا خلاف ، فيحدث الله عز وجل له الصرع والتخبط حينئذ كما نشاهده ، وهذا هو نص القرآن وما توجبه المشاهدة ، وما زاد على هذا فخرافات من توليد العزّامين والكذابين وبالله تعالى نتأيد .

وأما قول رسول الله ﷺ : « إن الشَمْس تَطْلُعُ ومَعَها قَرْنُ الشَّيْطانِ ، فإذا ارتفعت فَارقها ، فإذا اسْتَوَتْ قَارَنَها ، فإذَا زَالَتْ فَارقَهَا وإذا جَنَحَتْ لِلغُروبِ قَارَنَهَا فإذَا غربت فارقها ونهى عن الصلاة فى هذْه الأوْقات[١٣]» .

أو كما قال عليه السلام مما هذا معناه بلا شك . فقد قلنا إنه عليه السلام لا يقول إلا الحق وأن كلامه كله على ظاهره ، إلا أن يأتى نص بأن هذا النص ليس على ظاهره فنسمع ونطيع ، أو يقوم بذلك برهان من ضرورة حِسٍّ ، أو أول عقل ، فنعلم أنه عليه السلام إنما أراد ما قد قام بصحته البرهان لا يجوز غير ذلك . وقد علمنا يقينا أن الشمس فى كل دقيقة طالعة على أفق من الآفاق ، مرتفعة على آخر ، مستوية على ثالث ، زائِلة عن رابع ، جانحة للغروب على خامس ، غاربة على سادس .

هذا ما لا شك فيه عند كل ذى علم بالهيئة ، فإذ ذلك كذلك فقد صح يقينا أنه عليه السلام إنما عنى بذلك أفقًا مَّا دون سائِر الآفاق لا يجوز غير ذلك ، إذ لو أراد كل أفق لكان الإخبار بأنه يفارقها كذبا ، وحاشى له من ذلك ، فإذ لا شك فى هذا كله فلا مرية فى أنه عليه

---

(١٠) البقرة : ٢٧٥

(١١) فى (أ) : (قال) .

(١٢) الإسراء : ٣٦

(١٣) روى هذا الحديث براويات مختلفة ، ولفظه كما أورده الإمام أحمد فى مسنده « قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الشَمس تطلع بين قرنى شيطان ، فإذا ارتفعت فارقها ، فإذا كانت فى وسط السماء قارنها ، فإذا دلكت أو قال – زالت – فارقها ، فإذا دنت للغروب قارنها ، فإذا غربت فارقها ، فلا تصلّوا هذه الثلاث ساعات . (مسند الإمام أحمد : ٣٤٨/٤) .

السلام إنما عنى به أفق المدينة ، وهو الأفق الذى أخبر أهله بهذا الخبر ، فأنبأهم بما يقارن الشمس فى تلك الأحوال وما يفارقها من الشيطان ، والله عز وجل أعلم بذلك القرن ما هو ؟ لا نزيد على هذا إذ لا بيان عندنا فيما بينه إلا أنه ليس شيء من ذلك بممتنع أصلا ، فصح بما ذكرنا أن أول الخبر خاص كما وصفنا ، وأن نهيه عليه السلام عن الصلاة فى تلك الأوقات قضية[١٤] أخرى وقضية ثانية وحكم غير الأول ، فهو على عمومه فى كل زمان وكل مكان ، إلا ما قام البرهان على تخصيصه من هذا الحكم بنص آخر كما بينا فى غير هذا الكتاب فى كتب الصلاة من تواليفنا والحمد لله رب العالمين كثيرًا .

(١٤) فى (أ) : (قصة) .

« الكلام فى الطبائع »

قال أبو محمد : ذهبت الأشعرية إلى إنكار الطبائع جملة ، وقالوا : ليس فى النار حرٌّ ولا فى الثلج برد ، ولا فى العالم طبيعة أصلًا ، وقالوا : إنما حدث حرّ النار جملة وبرد الثلج عند الملامسة . قالوا ولا فى الخمر طبيعة إسكار ، ولا فى المَنِيِّ قوة يحدث بها ما يحدث[1] منه ، ولكن الله تعالى يخلق منه ما شاء ، وقد كان ممكنا أن يحدث من منى الرجل جمل ، ومن منى الحمار إنسان ، ومن زريعة الكرم[2] نخل .

قال أبو محمد : ما نعلم لهم حجة شغبوا بها فى هذا الهوس أصلا ، وقد ناظرت بعضهم فى ذلك فقلت له : إن اللغة التى نزل بها القرآن تُبطل قولكم لأن من لغة العرب القديمة ذكر الطبيعة والخليقة والسليقة ، والنحيزة[3]، والغريزة والسجية والشيمة ، والجبلة ، ولا يشك ذو علم فى أن هذه الألفاظ استعلمت فى الجاهلية ، وسمعها النبى ﷺ فلم ينكرها قط ، ولا أنكرها أحد من الصحابة رضى الله عنهم ولا أحد ممن بعدهم ، حتى حدَّث من لا يعتد به .

وقد قال أمرؤ القيس :

وإنْ كنتِ قد ساءتك منّى خليقة
فَسُلّى ثِيــابى مِنْ ثِيــابِك تَنْسُلِ[4]

---

(١) فى (أ) : سقط (ما يحدث منه) .

(٢) فى (أ) : « الكزبر » .

(٣) فى (أ) : (البحيرة) وهو تحريف .

(٤) جاء هذا البيت ضمن قصيدة امرىء القيس المشهورة التى مطلعها :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللّوى بين الدَّخول فحومل

(راجع : ديوان امرىء القيس – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط ثالثة دار المعارف بمصر : ١٣) .

وقال حميد بن ثور الهلالى الكندى :

لكل امرىء يا أم عمرو طبيعة
وتفرق ما بين الرجال الطبائع(٥)

وقال النابغة :

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم
من الجود والأحلامُ غير عوازب(٦)

وقال رسول الله ﷺ للجارود إذ أخبره أن فيه الحلم والأناه ، فقال له الجارود الله جبلنى عليهما يا رسول الله ؟ أم هما كسب فقال له رسول الله ﷺ ، بل الله جبلك عليهما .

ومثل هذا كثير ، وكل هذه الألفاظ أسماء مترادفة لمعنى واحد عندهم ، وهو قوة فى الشّىء يوجد بها على ما هو عليه ، فاضطرب ولجأ إلى أن قال أقول بهذا فى الناس خاصة ، فقلت له : وأنّى لك بالتخصيص .. ؟ وهذا موجود بالحس وبديهة العقل فى كل مخلوق فى العالم . فلم يكن عنده تمويه .

قال أبو محمد : وهذا المذهب الفاسد حداهم على أن سمّوا ما يأتى به الأنبياء عليهم السلام من الآيات المعجزات خرق عادة ، لأنهم جعلوا امتناع شق القمر ، وشق البحر ، وامتناع إحياء الموتى ، وإخراج ناقة من صخرة وسائر معجزاتهم إنما هى عادات فقط .

قال أبو محمد : معاذ الله من هذا ولو كان ذلك عادة لما كان فيها إعجاز أصلا ؛ لأن العادة فى لغة العرب : الدأب والديدن والديدان ألفاظ مترادفة على معنى واحد ، وهى ما كثر استعمال الإنسان له مما لا يؤمن من تركه إياه ، ولا ينكر زواله عنه بل هو ممكن وجود غيره ومثله ، بخلاف الطبيعة التى الخروج عنها ممتنع ، فالعادة هى استعمال العرب للعمامة والتّلحى ، وحمل القناة ، وكحمل بعض الناس القلنسوة ، وكاستعمال بعضهم حلق الشعر ، وبعضهم توفيره . قال الشاعر :

---

(٥) هو : حُمَيْد بن ثور بن عبد الله بن عامر الهلالى ، يكنى كثيرًا أبا المثنى ، وقد يُكنى أبا الأخضر أو أبا خالد ، أو أبا لاحق ، وقد أدرك زمن عمر بن الخطاب وتوفى على الأرجح فى أيام عثمان . حقق ديوانه الأستاذ عبد العزيز الميمنى – رئيس قسم اللغة العربية بجامعة عليكره بالهند ، وعلق عليه الأستاذ عبد السلام هارون ، وطبعته الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة .

ولم أعثر على هذا البيت ضمن قصائد الديوان ، واتضح لى من استعراض الديوان أن ثمة كثير من شعر الشاعر لم يجمع ، وأن المحقق جمع منه ما وقع عليه متفرقا فى بعض كتب الأدب .

(٦) هذا البيت ورد ضمن قصيدته التى يمدح فيها عمرو بن الحارث المعروف بابن أبى شمر لما بلغه أنَّ مُرَّة بن قُرَيْع وشى به إلى النعمان فى أمر المتجردة . ومطلع القصيدة :

كِلينى لِهَمٍّ يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب

(ديوان النابغة الذبيانى – تحقيق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور – نشر الشركة التونسية : ص ٤٩) .

تَقُول وقد دَرَأْتُ لها وَضِينى أَهَـذا دِينُـه أبـدًا ودِينـى[٧]

وقال آخر : « ومن عاداته الخلق الكريم » .

وقال آخر :

قد عوَّد الطير عادات وثقن بها فهُنّ يصحبنه فى كُلِّ مُرْتحل

وقال آخر : عوَّدت نفسك عادة فاصبر لها .

وقال آخر : وشديدٌ عادة مُنتزعة .

فذكر أن انتزاع العادة يشتد ، إلَّا أنه ممكن غير ممتنع ، بخلاف إزالة الطبيعة التى لا سبيل إليها . وربما وضعت العرب لفظة العادة مكان لفظة الطبيعة كما قال حميد بن ثور الهلالى :

سل الرَّبع أَنَّى يمَّمَتْ أمُّ سالم وهـل عادةٌ للرَّبـع أن يتكلَّمـا[٨]

* * *

قال أبو محمد : وكل هذه الطبائع والعادات مخلوقة ، خلقها الله عزَّ وجل فرتَّب الطبيعة على أنها لا تستحيل أبدًا ، ولا يمكن تبدّلها عند كلِّ ذى عقل كطبيعة الإنسان بأن يكون له التصرف فى العلوم والصناعات إن لم تعترضه آفة ، وطبيعة الحمر والبغال ، بأن ذلك غير ممكن منها ، وكطبيعة البُرّ ألَّا ينبت شعيرًا ، ولا جوزًا ، وهكذا كل ما فى العالم ، والقوم مقرون بالصفات وهى الطبيعة نفسها ، لأن من الصفات المحوّلة فى الموصوف ما هو ذاتى لا يُتوهم زواله إلَّا بفساد حامله ، وسقوط الاسم عنه كصفات الخمر التى إن زالت عنها صارت خلًّا وبطل اسم الخمر عنها ، وكصفات الخبز واللحم التى إذا زالت عنهما صارت زبلا ، وسقط اسم الخبز واللحم عنهما ، وهكذا كل شيء له صفة ذاتية ، فهذه هى الطبيعة .

---

(٧) جاء هذا البيت محرفا فى (أ) .

(٨) راجع ديوان حميد بن ثور الهلالى تحقيق عبد العزيز الميمني – ط الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة .

ومن الصفات المحمولة فى الموصوف ما لو تُوهم زواله عنه لم يبطل حامله ، ولا فارقه اسمه ، وهذا القسم ينقسم أقسامًا ثلاثة ، فأحدهما ممتنع الزوال كالعطس ، والقصر ، والزّرق وسواد الزنجى ونحو ذلك ، إلا أنه لوتوهم زائلا لبقى الإنسان إنسانًا بحاله . وثانيها بطىء الزوال كالمردة وسواد الشعر ، وما أشبه ذلك ، وثالثها : سريع الزوال كحمرة الخجل وصفرة الوجل ، وكمدة الهم ونحو ذلك . فهذه هى حقيقة الكلام فى الصفات ، وما عدَا ذلك فطريق السوفَسطائية الذين لا يحققون حقيقة ونعوذ بالله من الخذلان .

« نبـوة النســاء »

قال أبو محمد : هذا فصل لا نعلمه حدث التنازع العظيم فيه إلا عندنا بقرطبة[1] فى زماننا ، فإن طائفة ذهبت إلى إبطال كون النبوة فى النساء جملة وبدَّعت من قال ذلك .

وذهبت طائفة إلى القول بأنه قد كانت فى النساء نبوة ، وذهبت طائفة إلى التوقف فى ذلك .

قالت أبو محمد : ما نعلم للمانعين من ذلك حجة أصلًا ، إلا أن بعضهم نزع فى ذلك بقول الله تعالى : « وما أرسلنا من قلبك إلا رجالًا نوحى إليهم[2] » .

قال أبو محمد : وهذا أمر لا ينازعون فيه ولم يدَّع أحد أن الله أرسل امرأة ، وإنما الكلام فى النبوة دون الرسالة ، فوجب طلب الحق فى ذلك بأن ننظر[3] فى معنى لفظة النبوة فى اللغة التى خاطبنا الله بها عز وجل ، فوجدنا هذه اللفظة مأخوذة من الإنباء وهو الإعلام ، فمن أعلمه الله عز وجل بما يكون قبل أن يكون أو أوحى إليه منبئًا له بأمر مًّا فهو نبى بلا شك ، وليس هذا من باب الإلهام الذى هو طبيعة لقول الله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل[4] » .

ولا من باب الظن والتوهم الذى لا يقطع بحقيقته إلا مجنون ، ولا من باب الكهانة التى هى من استراق الشياطين السمع من السماء فيرمون بالشهب الثواقب ، وفيه يقول الله تعالى : « شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا[5] » .

---

(١) فى (أ) : (وفى) .
(٢) النحل : ٤٣
(٣) فى (أ) : (ينظر) .
(٤) النحل : ٦٨
(٥) الأنعام : ١١٢

وقد انقطعت الكهانة بمجيء رسول الله ﷺ ، ولا من باب النجوم التى هى تجارب تُتعلم ، ولا من باب الرؤيا التى لا يدرى أصدقت أم كذبت ، بل الوحى الذى هو النبوة قصد من الله تعالى إلى إعلام من يُوحى إليه بما يُعلمه به ، ويكون عند الموحى به إليه حقيقة خارجه عن الوجوه المذكورة ، يُحدث الله عز وجل لمن أوحى به إليه علما ضروريا ، بصحة ما أوحى به كعلمه بما أدرك بحواسه وبديهة عقله سواء سواء ، لا مجال للشك فى شيء منه إما بمجيء الملك إليه به ، وإما بخطاب يخاطب به فى نفسه وهو تعليم من الله تعالى لمن يعلمه دون وساطة معلم ، فإن أنكروا أن يكون هذا هو معنى النبوة فليعروفونا ما معناها ، فإنهم لا يأتون بشيء أصلًا فإذ ذلك كذلك فقد جاء القرآن بأن الله تعالى عزَّ وجل أرسل ملائكة إلى نساء فأخبروهن بوحى حق ، من الله تعالى ، فبشروا أم إسحاق باسحاق عن الله تعالى قال عز وجل : « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب قالتِ يا وليتا أألدوأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت(٦) » .

فهذا خطاب الملائكة لأم إسحاق عن الله عز وجل بالبشارة لها بإسحاق ، ثم يعقوب ، ثم بقولهم لها : أتعجبين من أمر الله .. ؟ ولا يمكن ألبتة أن يكون هذا الخطاب من ملك لغير نبى بوجه من الوجوه ، ووجدناه تعالى قد أرسل جبريل إلى مريم أم عيسى عليهما السلام فخاطبها(٧) وقال لها : « إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا(٨) » .

فهذه نبوة صحيحة بوحى صحيح ورسالة من الله تعالى إليها . وكان زكريا عليه السلام يجد عندها من الله رزقا واردًا تمنى من أجله ولدًا فاضلا ، وَوجدنا أم موسى عليهما السلام قد أوحى الله إليها بإلقاء ولدها فى اليمِّ ، وأعلمها بأنه سيرده إليها ويجعله نبيا مرسلا ، فهذه نبوة صحيحة(٩) لا شك فيها . وبضرورة العقل يدرى كل ذى تمييز صحيح أنها لو لم تكن واثقة بنبوة الله عز وجل لها لكانت بإلقائها ولدها فى اليم برؤيا تَراها أو بما يَقع فى نفسها أو قام فى هاجسها فى غاية الجُنون والمراد الهائج ، ولو فعل ذلك أحدنا لكان فى غاية الفسق ، أو فى غاية الجنون مستحقًا لمعافاه دماغه فى المارستان لا يشك فى هذا أحد ، فصح يقينًا أن الوحى الذى ورد لها فى إلقاء ولدها فى اليم كالوحى الوارد على إبراهيم فى الرؤيا فى ذبح ولده ، فإن إبراهيم عليه السلام لو لم يكن نبيًا واثقًا بصحة الوحى والنبوة الواردة عليه فى(١٠) ذبح ولده ، لكنه ذبح ولده لرؤيا رآها أو ظن وقع فى

(٦) هود : ٧١ – ٧٣
(٧) فى (أ) : (بخطابها) .
(٨) مريم : ١٩
(٩) فى (أ) : سقطت (صحيحة) .
(١٠) فى (أ) : (من) .

نفسه ، لكان بلا شك فاعل ذلك من غير الأنبياء فاسقا فى نهاية الفسق ، أو مجنونًا فى غاية الجنون ، هذا ما لا يشك فيه أحد منَ الناس ، فصحَّت نبوتهن بيقين ووجدنا الله تعالى قد قال وقد ذكر من الأنبياء عليهم السلام فى سورة كهيعص ، وذكر مريم فى جملتهم ثم قال عز وجل : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وَممن حملنا مع نوح[11]» .

وهذا هو عموم لها معهم لا يجوز تخصيصها من جملتهم وليس قوله عز وجل : « وأمه صديقة[12]» بمانع من أن تكون نبية فقد قال تعالى : « يوسف أيها الصديق[13]» وهو مع ذلك نبى رسول الله وهذا ظاهر وبالله التوفيق ويلحق بهن عليهن السلام فى ذلك امرأة فرعون بقول رسول الله ﷺ : « كَمُلَ مِن الرِّجَالِ كَثيرٌ ولَمْ يَكْمُل مِنَ النِّسَاءِ إلَّا مَرْيَمَ بِنْتَ عمران وآسيةَ بِنْتَ مُزاحِم امرأة فرعون[14]» . أو كما قال عليه السلام . والكمال فى الرجال لا يكون إلا لبعض المرسلين عليهم السلام لأن من دونهم ناقص عنهم بلا شك ، وكان تخصيصه ﷺ بالكمال[15] مريم وامرأة فرعون تفضيلا لهما على سائر من أوتيت النبوة من النسَاء بلا شك إذ من نقص عن منزلة آخر ولو بدقيقة لم يكمل ، فصح بهذا الخبر أن هاتين المرأتين كملتا كمالًا لم يلحقهما معه امرأة غيرهن أصلًا ، وإن كن بنصوص القرآن نَبيَّات وقد قال تعالى : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض[16]» .

فالكامل فى نوعه هو الذى لا يلحقه أحد من أهل نوعه ، فهم من الرجال الرسل الذين فضلهم الله تعالى على سائر الرسل ، ومنهم نبينا محمَّدٌ ، وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام بلا شك للنصوص الواردة فيهما بذلك فى فضلهما على غيرهما ، وكل من النساء من ذكر عليه الصلاة والسلام .

(١١) مريم : ٥٨
(١٢) المائدة : ٧٥
(١٣) يوسف : ٤٦
(١٤) رواه مسلم فى الجزء الرابع فى كتاب فضائل الصحابة رقم ٧٠ ولفظه عنده عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام .
(١٥) فى (أ) : سقط (بالكمال) .
(١٦) البقرة : ٢٥٣

« الكـلام فـى الرؤيـا »

قال أبو محمد : ذهب صالح قبة تلميذ النظام ، إلى أن الذى يرى أحدنا فى الرؤيا حق كما هو ، وأنه من رأى أنه بالصين وهو بالأندلس ، فإن الله عز وجل اخترعه فى ذلك الوقت بالصّين .

قال أبو محمد : وهذا القول فى غاية الفساد ، لأن العيان والعقل يضطران إلى كذب هذا القول وبطلانه ، أما العيان فإننا نشاهد حينئذ هذا النائِم عندنا وهو يرى نفسه فى ذلك الوقت بالصين ، وأما من طريق العقل فهو معرفتنا بما يرى الحالم من المحلات من كونه مقطوع الرأس حيا وما أشبه ذلك ، وقد صح عن رسول الله ﷺ : أنَّ رَجُلًا قَصَّ عليه رؤيا فقال لا تخبر بتلاعب الشيطان بك[1] .

قال أبو محمد : والقول الصحيح فى الرؤيا هو أنها أنواع ، فمنها : ما يكون من قبل الشيطان وهو ما كان من الأضغاث والتخليط الذى لا ينضبط ، ومنها ما يكون من حديث النفس ، وهو ما يشتغل به المرء فى اليقظة فيراه فى النوم من خوف عَدُوٍّ أو لقاء حبيب ، أو خلاص من خوف أو نحو ذلك ، ومنها ما يكون من قبل[2] الطبع كرؤية من غلب عليه الدم للأنوار ، والزهور ، والخمرة والسرور ، ورؤية من غلبت عليه الصَّفراء للنيران ، ورؤية صاحب البلغم للثلوج والمياه ، وكرؤية من غلبت عليه السوداء للكهوف وللظلم ، والمخاوف ومنها ما يريه الله عز وجل نفس الحالم ، إذا صفت من أكدار الجسد[3] وخلصت من الأفكار الفاسدة ، فيشرف الله عز وجل به على كثير

---

(١) رواه مسلم بروايات مختلفة ، ورواية جابر قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله : رأيت فى المنام كأن رأسي ضرب فتدحرج فاشتدَدْت على أثره فقال رسول الله ﷺ للأعرابى : لا تحدّث الناس بتلعب الشيطان بك فى منامك » وقال : سمعت النبى ﷺ بعد يخطب فقال : « لا يحدّثن أحدكم بتلاعب الشيطان به فى منامه . (مسلم : ١٥/٤ كتاب الرؤيا) .

(٢) فى (أ) : (غلبة) .

(٣) فى (أ) : (الحسد) .

من المغيبات التى لم تأت بعد ، وعلى قدر تفاضل النفس فى النقاء والصفاء يكون تفاضل ما تراه فى الصدق ، وقد جاء عن النبى ﷺ أنَّه لَمْ يَبْقَ بَعْدَه مِنَ النُّبوَّة إلا المُبَشِّرات ، وَهِىَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاها الرَّجُل أَوْ تُرى له ، وأَنَّها جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَعشْرِينَ مِنَ النُّبُوةِ ، إلى جُزْء مِنْ سِتَّةٍ وأَرْبَعِينَ من النُّبوَّة إلى جُزْءٍ مِنْ سَبْعِين جُزءًا من النُّبوة[٤]. وهذا نص جلى على ما ذكرنا من تفاضلها فى الصدق والوضوح والصفاء من كل تخليط ، وقد تُخَرَّج هذه النسب والأقسام ، على أنه عليه السلام إنما أراد بذلك رؤيا الأنبياء عليهم السلام ، فمنهم من رؤياه جزء من ستة وعشرين جزءًا ، من أجزاء نبوته وخصائصه وفضائله ، ومنهم من رؤياه جزء من سبعين جزءًا من نبوته وخصائصه وفضائله ، وهذا هو الأظهر والله أعلم ، ويكون خارجًا على مقتضى ألفاظ الحديث بلا تأويل يتكلف . وأما رؤيا غير الأنبياء فقد تكذب وقد تصدق ، إلا أنه لا يقطع على صحة شىء منه إلا بعد ظهور صحته ، حاشى رؤيا الأنبياء فإنها كلها وحى مقطوع على صحته ، كرؤيا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ولو رأى ذلك غير نبى فى الرؤيا فأنفذه فى اليقظة لكان فاسقا عابثا ، أو مجنونا ذاهب التميز بلا شك ، وقد تصدق رؤيا الكافر ولا تكون حينئذ جزءًا من النبوة ، ولا مبشرات ولكن إنذارا له أو لغيره ووعظًا وبالله تعالى التوفيق .

---

(٤) رواه البخارى ، وأبو داود ، ولفظه عن عطاء بن يسار رحمه الله أن رسول الله ﷺ قال : لم يبق بعدى من النبوة إلا المبشرات ، قالوا وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم أو تُرى له ، جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة » . أخرجه الموطأ (جامع الأصول لابن الأثير الجزرى حـ ٢ ص ٥٢٥) .

« أيُّ الخلق أفضل »

قال أبو محمد : ذهب قوم إلى أن الأنبياء عليهم السلام أفضل من الملائكة ، وذهبت طائفة تنتسب إلى الإسلام أن الصالحين غير النبيين أفضل من الملائكة . وذهب بعضهم إلى أن الوليّ أفضل من النبى ، وأنه يكون فى هذه الأمة من هو أفضل من عيسى بن مريم ، ورأيت الباقلانى يقول : جائز أن يكون فى هذه الأمة من هو أفضل من رسول الله ﷺ من حين بعث إلى أن مات ، ورأيت لأبى هَاشِمٍ الجبائى : أنه لو طال عمر إنسان من المسلمين فى الأعمال الصالحة لأمكن أن يوازى عمل النبى ﷺ .

قال أبو محمد : ولولا أنه استحيا قليلا مما لم يستح منه نظيره الباقلانى لقال : ما يوجبه هذا القول من أنه كان يزيد فضلًا على رسول الله ﷺ .

قال أبو محمد : وهذه الأقوال كفر مجرد لا تردد فيه وحاشى لله تعالى من أن يكون أحد ولو عمر عمر الدهر يلحق فضل صاحب ، فكيف فضل رسول الله ﷺ أو نبى من الأنبياء عليهم السلام .. ؟ فكيف يكون أفضل من رسول الله ﷺ ؟ هذا ما لا تقبله نفس مسلم ، كأنهم ما سمعوا قول الله عز وجل : « لا يَسْتَوِى مِنكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا[1] » .

وقول النبى ﷺ : دَعُوا لى أَصْحَابِى فَلَوْ كَانَ لأَحَدِكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَه ما بَلَغ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَه[2].

---

(١) الحديد : ١٠

(٢) رواه البخارى وسلم ولفظه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « لا تسبُّوا أصحابى ، لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مدَّ أحدهم ولا نصيفه » (جـ ١٨٨/٧) باب النهى عن سب أصحاب النبى .

قال أبو محمد : فكيف يلحق أبدًا من إن تصدق هو بمثل جبل أحد من ذهب ، وتصدق الصاحب بنصف مُدٍّ من شعير كان نصف مد الشعير لا يلحقه فى الفضل جبل الذهب ، فكيف برسول الله ﷺ .. ؟

وقال أهل الحق : إن الملائكة أفضل من كل خلق خلقه الله تعالى ، ثم بعدهم الرسل من النبيين عليهم السلام ، ثم بعدهم الأنبياء غير الرسل عليهم السلام ، ثم أصحاب رسول الله ﷺ على ما رتبنا قبل .

قال أبو محمد : ومن صحب رسول الله ﷺ من الجن له من الفضل ما لسائر الصحابة بعموم قوله عليه السلام دعوا لى أصحابى ، وأفضل الرسل محمد ﷺ ، أما فضل الملائكة على الرسل من غير الملائكة ، فلبراهين منها قول الله عز وجل لرسول الله ﷺ إذ يقول : « قُلْ لَا أَقُولُ لَكَمْ عِنْدِى خَزَائِنُ الله وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقولُ لكم إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَىَّ(٣) » .

فلو كان الرسول أرفع من الملك أو مثله ما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول لهم هذا القول الذى إنما قاله منحطا عن الترفع ، بأن يظن أن عنده خزائن الله أو أنه يعلم الغيب ، أو أنه ملك منزل لنفسه المقدسة فى مرتبته التى هى دون هذه المراتب بلا شك ، إذ لا يمكن ألبتة أن يقول هذا عن مراتب هو أرفع منها ، وأيضًا فإن الله عز وجل ذكر محمدًا الذى هو أفضل الرسل بعد الملائكة وذكر جبريل عليهما السلام فكان التباين فى ثناء(٤) الله عز وجل عليهما تباينًا بعيدًا وهو أن الله عز وجل قال : إنه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطاعٍ ثَمَّ أمين(٥) » .

فهذه صفة جبريل عليه السلام ، ثم ذكر محمدًا عليه الصلاة والسلام فقال : « وَمَا صَاحُبكُمْ بمَجْنون(٦) » ثم زاد تعالى بيانا رافعا للإشكال فقال : « وَلَقَدْ رَآه بالأُفقِ المُبين(٧) » فعظم الله تعالى من شأن أكرم الأنبياء والرسل بأن رأى جبريل عليه الصلاة والسلام ثم قال تعالى : « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى(٨) » .

فامتن الله تعالى كما ترى على محمد المنَّة(٩) العظمى بأن أراه جبريل مرتين ، وإنما يتفاضل

(٣) الأنعام : ٥٠ . وقد جاءت هذه الآية محرفة فى (أ) .
(٤) فى (أ) : سقط (فى ثناء الله) .
(٥) التكوير : ٢٠
(٦) التكوير : ٢٢
(٧) التكوير : ٢٣
(٨) النجم : ١٣ – ١٨
(٩) فى (أ) : سقطت (المنة العظمى) .

الناس كما قدمنا بوجهين فقط ، أحدهما : الاختصاص المجرد ، وأعظم الاختصاص الرسالة والتعظيم ، فقد حصل ذلك للملائكة . قال تعالى : « جاعل الملائكة رسلا[١٠] » فهم كلهم رسل الله تعالى ثم اختصهم تعالى بأن ابتداهم فى الجنة وحوالى عرشه ، فى المكان الذى وعد رسله ومن اتبعهم بأن نهاية كرامتهم تُصَيِّرهم إليه ، وهو موضع خلق الملائكة ومحلهم بلا نهاية مذ خلقوا . وذكرهم عز وجل فى غير موضع من كتابه فأثنى على جميعهم ، ووصَفهم بأنهم لا يفترون ، ولا يسأمون ، ولا يَعْصُون الله ، فنفى عنهم الزلل والفترة والسآمة والسهو ، وهذا أمر لم ينفه عز وجل عن الرسل صلوات الله عليهم بل السهو جائز عليهم ، وبالضرورة نعلم من عُصِم من السهو أفضل ممن لم يعصم منه ، وأن من عصم من العمد كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام أفضل ممن لم يعصم منه ممن سواهم ، فإن اعترض معترض بقول الله عز وجل « الله يَصْطَفِى من الملائكة رُسُلًا ومِنَ النَّاسِ[١١] » .

قيل له ليس هذا معارضا لقوله تعالى « جاعل الملائكة رسلا » لأن كلَّ آية فإنما تحمل على مقتضاها ، وموجب لفظها ففى هذه الآية أن بعض الملائكة رسل وهذا حق لا شك فيه ، وليس إخبارا عن سائرهم بشىء لا بأنهم رسل ولا بأنهم ليسوا رسلًا ، فلا يحل لأحد أن يزيد فى الآية ما ليس فيها ، ثم فى الآية الأخرى زيادة على ما فى هذه الآية ، وإخبار بأن جميع الملائكة رسل ففى تلك الآية بعض ما فى هذه الآية ، وفى هذه الآية كل ما فى تلك وزيادة ففرض قبول كل ذلك كما أن الله عز وجل إذ ذكر فى كهيعص من ذكر من النبيين فقال : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين[١٢] » وقد قال تعالى : « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك[١٣] » .

أفترى الرسل الذين لم يقصصهم تعالى عليه جملة ، أو فى هذه السورة خاصة لم ينعم عليهم . معاذ الله من هذا فما يقوله مسلم .

والوجه الثانى من أوجه الفضل : هو تفاضل العاملين بتفاضل منازلهم فى أعمال الطاعة والعصمة من المعاصى والدنيات وقد نص الله تعالى على أن الملائكة لا يفترون من الطاعة ولا يسأمون منها ، ولا يعصون ألبتة فى شىء أُمِروا به ، فقد صح أن الله عز وجل عصمهم من الطبائِع الناقصة الداعية إلى الفتور والكسل ، كالطعام والتغوط وشهوة الجماع ، والنوم فصح يقينا أنهم أفضل من الرسل الذين لم يعصموا من الفتور والكسل ودواعيهما .

(١٠) فاطر : ١
(١١) الحج : ٧٥
(١٢) مريم : ٥٨
(١٣) النساء : ١٦٤

قال أبو محمد : واحتج بعض المخالفين بأن قال : قال الله عز وجل : « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين[١٤] » . قالوا فدخل فى العالمين الملائكة . وغيرهم .

قال أبو محمد : هذه الآية قد صح البرهان بأنها ليست على عمومها ، لأنه تعالى لم يذكر فيها آل[١٥] محمد ﷺ ولا خلاف فى أنهم أفضل الناس قال الله عز وجل : « كنتم خير أمة أخرجت للناس[١٦] » .

فإن قال : إن آل إبراهيم هم آل محمد قيل له فنحن إذن أفضل من جميع الأنبياء حاشى آل عمران وآدم ونوحًا فقط ، وهذا لا يقوله مسلم ، فصح يقينًا أن هذه الآية ليست على عمومها فإذ لا شك فى ذلك فقد صح أن الله عز وجل إنما أراد بها عالمى زمانهم من الناس لا من الرسل ولا من النبيين ، نعم ولا من عالمى غير زمانهم ، لأننا بلا شك أفضل من آل عمران فبطل تعلقهم بهذه الآية جملة وبالله تعالى التوفيق . وصح أنها مثل قوله تعالى : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين[١٧] » .

ولا شك فى أنهم لم يفضلوا على الرسل ولا على النبيين ، ولا على أمتنا ولا على الصالحين ، من غيرهم ، فكيف على الملائكة ؟ ونحن لا ننكر إزالة النص عن ظاهره وعمومه ببرهان من نص آخر ، أو من إجماع متيقن ، أو ضرورة حس وإنما ننكر ونمنع من إزالة النص عن ظاهره وعمومه بالدعوى ، فهذا هو الباطل الذى لا يحلُّ فى دين ولا يصح فى إمكان العقل وبالله تعالى التوفيق .

* * *

قال أبو محمد : وذكر بعضهم قول الله عز وجل : « الذين امنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية[١٨] » .

قال أبو محمد : وهذا مما لا حجة لهم فيه أصلًا ، لأن هذه الصفة تعم كل مؤمن صالح من الإنس ومن الجن ، وتعم جميع الملائكة عموما مستويا ، فإنما هذه الآية تفضل الملائكة والصالحين من الإنس والجن ، على سائر البرية وبالله تعالى التوفيق .

---

(١٤) آل عمران : ٣٤
(١٥) ف (أ) : سقطت (آل)
(١٦) آل عمران : ١١٠
(١٧) البقرة : ٤٧
(١٨) البينة : ٧

قال أبو محمد : واحتجوا بأمر الله عز وجل الملائكة بالسجود لآدم على جميعهم السلام .

قال أبو محمد : وهذه أعظم حجة عليهم لأن السجود المأمور به لا يخلو من أن يكون سجود عبادة ، وهذا كفر ممن قاله لأنه يجيز أن يكون الله عز وجل يأمر أحدًا من خلقه بعبادة غيره ، وإما أن يكون سجود تحيَّة وكرامة ، وهو كذلك بلا خلاف من أحد من الناس فإذ هو كذلك فلا دليل أدل على فضل الملائكة على آدم من أن يكون الله تعالى بلغ الغاية فى إعظامه وكرامته ، بأن تحييه الملائكة لأنهم لو كانوا دونه لم يكن له كرامة ولا مزية فى تحيتهم له ، وقد أخبر الله عز وجل عن يوسف عليه السلام قال : « ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا(١٩) » .

وكانت رؤياه التى ذكر الله عز وجل عنه إذ يقول : « إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين(٢٠) » .

قال أبو محمد : وليس فى سجود يعقوب ليوسف ما يوجب أن يوسف أفضل من يعقوب عليه السلام . واحتجوا أيضًا بأن الملائكة لم يعلموا أسماء الأشياء حتى أنبأهم بها آدم ، على جميعهم السلام بتعليم الله عز وجل آدم إياها .

قال أبو محمد : وهذا لا حجة لهم فيه لأن الله تعالى يُعَلِّم من هو أنقص فضلا وعلما فى الجملة ، أشياء لا يعلمها من هو أفضل منه وأعلم منه بما عدا تلك الأشياء ، فعلم الملائكة ما لا يعلمه آدم ، وعلم آدم أسماء الأشياء ثم أمره بأن يعلمها الملائكة ، كما خص الخضر عليه السلام بعلم لم يعلمه موسى عليه السلام ، حتى اتبعه موسى ليتعلم منه ، وعلَّم أيضًا موسى عليه السلام علومًا لم يعلمها الخضر ، وهكذا صح عن النبى ﷺ أن الخضر قال لموسى عليه السلام إنى على عِلْمٍ من علْم الله لا تَعْلَمُه أَنْتَ ، وأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلم الله لا أَعْلَمُه أنا(٢١) » .

(١٩) يوسف : ١٠٠

(٢٠) يوسف : ٤

(٢١) هذا الحديث رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب الفضائل ، باب فضائل خضر عليه السلام ، رقم ١٧٠ ، وجاء فيه : حدثنا عمرو ابن دينار عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس إن نَوْفًا البِكالىّ يزعم أن موسى عليه السلام صاحب بنى إسرائيل ليس هو صاحب الخضر عليه السلام ، فقال : كذب عدو الله ، سمعت أبىَّ بن كعب يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قام موسى خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسئل : أىُّ الناس أعلم ؟ فقال : أنا أعلم ، قال فعتب الله عليه إذْ لم يردَّ العلم إليه ، فأوحى الله إليه إنَّ عبدًا من عبادى بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى : أى ربِّى كيف لى به ؟ فقيل له : احمل حوتا فى مكتل فحيث تفقد الحوت فهو ثمَّ ، فانطلق وانطلق معه فتاه ، وهو يوشع بن نون ، فحمل موسى عليه السلام حوتا فى مكتل وانطلق هو وفتاه يمشيان حتى أتيا الصخرة ، فرقد موسى وفتاه ، فاضطرب الحوت فى المكتل حتى خرج من المكتل فسقط فى البحر ، قال : وأمسك الله عنه جرية الماء .... فانطلق بقية يومهما وليلتهما ، ونسى صاحب موسى أن يخبره ، فلما أصبح موسى عليه السلام قال لفتاه : (آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) قال ... (أرأيت إذْ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا . قال موسى : ذلك ما كنا نبغ فارتدَّا على آثارهما قصصا) .. فرأى رجلًا نائما مسجًّى عليه بثوب ، فسلم عليه موسى فقال له الخضر أنى بأرضك السلام قال : أنا موسى ، قال : موسى بنى إسرائيل ..؟ قال : نعم قال : إنك على علم من—

قال أبو محمد : وليس فى هذا أن الخضر أفضل من موسى عليه السلام .

قال أبو محمد : وقد قال بعض الجهال : إن الله تعالى جعل الملائكة خدام أهل الجنة يأتونهم بالتحف من عند ربهم عز وجل . قال تعالى : « تتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون(٢٢) » . وقال تعالى : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم(٢٣) » .

قال أبو محمد : أما خدمة الملائكة لأهل الجنة وإقبالهم إليهم بالتحف فشىء ما علمناه قط ولا سمعناه إلا من القصاص بالخرافات والتكاذيب ، وإنما الحق من ذلك ما ذكره الله عز وجل فى النص الذى أوردنا ، وهو ولله الحمد من أقوى الحجج فى فضل الملائكة على من سواهم ، ويلزم هذا المحتج إذا كان إقبال الملائكة بالبشارات إلى أهل الجنة دليلا على فضل أهل الجنة عليهم ، أن يكون إقبال الرسل إلينا مبشرين ومنذرين بالبشارات من عند الله عز وجل دليلا على أننا أفضل منهم ، وهذا كفر مجرد ، ولكن الحقيقة هى أن الفضل إذا كان للأنبياء عليهم السلام على الناس بأنهم رسل الله إليهم ، ووسائط بين ربهم تعالى وبينهم فالفضل واجب للملائكة على الأنبياء والرسل ، لكونهم رسل الله تعالى إليهم ووسائط بينهم وبين ربهم تعالى ، وأما تفضل الله تعالى على أهل الجنة بالأكل والشرب والجماع واللباس والآلات والقصور ، فإنما فضلهم الله عز وجل من ذلك بما يوافق طباعهم ، وقد نزه الله تعالى الملائكة عن هذه الطبائع المستدعية لهذه اللذات ، بل أبانهم ، وفضلهم بأن جعل طبائعهم لا تتلذ بشىء من ذلك إلا بذكر الله تعالى وعبادته وطاعته فى تنفيذ أوامره تعالى ، فلا منزلة له أعلى من هذه وعجل لهم سكنى المحل الرفيع الذى جعل تعالى غاية إكرامنا الوصول إليه ، بعد لقاء الأمرين فى التعب فى عمارة هذه الدنيا النكدة ، وفى كلف الأعمال .

ففى ذلك المكان خلق عز وجل الملائكة منذ ابتدأهم ، وفيه خلدهم وبالله تعالى التوفيق .

قال أبو محمد : وقال بعض السخفاء إن الملائكة بمنزلة الهواء والرياح .

قال أبو محمد : وهذا كذب وقحة ، وجنون لأن الملائكة بنص القرآن والسنن وإجماع جميع من يقر بالملائكة من أهل الأديان المختلفة عقلًا متعبدون مأمورون منهيون ، وليس كذلك الهواء

— علم الله علّمكه الله لا أعلمه ، وأنا على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه ، قال له موسى عليه السلام : هل أتبعك على أن تعلمنى مما علّمت رشدًا ... » الحديث .

(٢٢) الأنبياء : ١٠٣

(٢٣) الرعد : ٢٣

والرياح لكنها لا تعقل ولا هى مكلفة متعبدة ، بل هى مسخرة مصرَّفة لا اختيار لها قال تعالى : « والسحاب المسخر بين السماء والأرض[٢٤] » .

وقال تعالى : « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام[٢٥] » .

وذكر تعالى الملائكة فقال : « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون[٢٦] » .

وقال تعالى : « ويستغفرون لمن فى الأرض[٢٧] » .

وقال تعالى : « وقال الذين لا يرجون لقانا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ، يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين[٢٨] » .

فقرن تعالى نزول الملائكة برؤيته تعالى وقرن تعالى إتيانه بإتيان الملائكة فقال عز وجل : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة[٢٩] » .

وأعلم أن اعراب الملائكة هاهنا بالرفع عطفًا على الله عز وجل لا على الغمام .

ونص تعالى على أن آدم عليه السلام إنما أكل من الشجرة ليكون ملكا أو ليخلد ، كما نص تعالى علينا إذ يقول عزَّ وجل : « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين[٣٠] » .

قال أبو محمد : فبيقين ندرى أن آدم عليه السلام لولا تيقنه بأن الملائكة أفضل منه وطمعه بأن يصير ملكًا لما قبل من إبليس ما غره به من أكل الشجرة ، التى نهاه الله عز وجل عنها ، ولو علم آدم أن الملك مثله أو دونه لما حمل نفسه على مخالفة أمر الله تعالى لينحط عن منزلته الرفيعة ، إلى الدون ، هذا ما لا يظنه ذو عقل أصلًا .

قال أبو محمد : وقال الله عز وجل : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون[٣١] » .

فقوله عز وجل بعد ذكر المسيح ولا الملائكة المقربون بلوغ للغاية فى علو درجتهم على المسيح

(٢٤) البقرة : ١٦٤
(٢٥) الحاقة : ٧
(٢٦) الأنبياء : ٢٧
(٢٧) الشورى : ٥
(٢٨) الفرقان : ٢٢
(٢٩) البقرة : ٢١٠
(٣٠) الأعراف : ٢٠
(٣١) النساء : ١٧٢

عليه السلام لأن بنية الكلام ورتبته إنما هى إذا أراد القائل نفى صفةٍ ما عن متواضع عنه أن يبدأ بالأدنى ثم بالأعلا وإذا أراد نفى صفة مًّا عن مترفع عنها أن يبدأ بالأعلى ثم بالأدنى ، فنقول فى القسم الأول : ما يطمع فى الجلوس بين يدى الخليفة خازنه ولا وزيره ولا أخوه ، ونقول فى القسم الثانى : ما ينحط إلى الأكل فى السوق والٍ ولا ذو مرتبة ، ولا متصاون من التجار أو الصناع ، لا يجوز ألبتة غير هذا . وبالله تعالى التوفيق .

قال أبو محمد : وأيضًا فإن رسول الله تعالى ﷺ أخبر بأن الله تعالى خلق الملائكة من نور وخلق الإنسان من طين وخلق الجن من نار .

قال أبو محمد : ولا يجهل فضل النور على الطين وعلى النار أحد ، إلا من لم يجعل الله له نورًا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ الله لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُور . وقد صح أن رسول الله ﷺ دعا ربه فى أن يجعل فى قلبه نورا(٣٢) . فالملائكة من جوهرٍ دعا أفضل البشر ربَّه تعالى فى أن يجعل فى قلبه منه ، وبالله تعالى التوفيق وفى هذا كفاية لمن عقل .

قال أبو محمد : وقال عز وجل : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر » إلى قوله : « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا(٣٣) » فإنما فضل الله تعالى بنص كلامه عز وجل بنى آدم على كثير ممن خلق لا على كل من خلق ، وبلا شك أن بنى آدم مفضلون على الجن وعلى جميع الحيوان الصامت وعلى ما ليس حيوانا ، فلم يبق خلق يستثنى من تفضيل الله تعالى بنى آدم الا الملائكة فقط .

قال أبو محمد : وأما فضل رسول الله ﷺ على كل رسول قبله فالثابت عنه عليه السلام أن قال : فضلت على الأنبياء بست ، وروى بخمس ، وروى باربع وروى بثلاث رواه جابر بن عبد الله وأنس(٣٤) بن مالك ، وحذيفه بن اليمان ، وأبو هريرة وبقوله ﷺ : أنا سيد ولد آدم ولا فخر وإنه عليه السلام بعث إلى الأحمر والأسود ، وانه عليه السلام أكثر الأنبياء اتباعا ، وانه ذو الشفاعة التى يحتاج إليه يوم القيامة فيها النبيون فمن دونهم(٣٥) ، أماتنا الله على ملّته ولا خالف بنا عنه ، وهو أيضًا عليه السلام خليل الله وكليمه .

---

(٣٢) الحديث رواه ابن عباس قال : « بت عند خالتى ميمونة ، فقام رسول الله ﷺ من الليل فأتى حاجته ، ثم غسل وجهه ويديه ثم قال ثم قام فأتى القربة فأطلق شناقها ثم توضأ ... ثم قام فصلّى فقمت فتمطأت كراهية أن يرى أنى كنت أرتقبه ، فتوضأت فقام يصلى فقمت عن يساره ، فأخذنى بأذنى ، فأدارنى عن يمينه ، فتتامت صلاة رسول الله ﷺ من الليل ثلاث عشرة ركعة ، ثم اضطجع فنام حتى نفخ ، وكان إذا نام نفخ ، فأتى بلال فأذن بالصلاة ، فقام فصلى بتوضوه ، وكان يقول فى دعائه : « اللهم اجعل فى قلبى نورًا ، وفى بصرى نورًا ، وفى سمعى نورًا ، وعن يمينى نورًا ، وعن يسارى نورًا ، ومن فوق نورًا ، ومن تحتى نورًا ، ومن أمامى نورًا ، ومن خلفى نورًا ، وأعظم لى نورًا » . (مسند الإمام أحمد بن حنبل : ٣٤٣/١) .

(٣٣) الإسراء : ٧٠

(٣٤) الحديث رواه الإمام مسلم فى صحيحه بشرح النووى حـ ٥ ص ٥ ولفظه : « فضلت على الأنبياء بست ؛ أعطيت جوا مع الكلم ، ونصرت بالرّعب ، وأحلّت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض طهورًا ومسجدًا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون » . (راجع أيضًا جامع الأصول حـ ٨ ص ٥٣١ وصحيح البخارى : ٢١١/٣) .

(٣٥) الحديث رواه ابن ماجة فى سننه : ١٤٤٠/٢ فى كتاب الزهد باب ذكر الشفاعة . ولفظه : « قال رسول الله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفّع ولا فخر ، ولواء الحمد بيدى يوم القيامة ولا فخر » . (راجع أيضا جامع الأصول : ٨ مناقب الرسول ﷺ » .

« الكلام فى الفقر والغنى »

قال أبو محمد : اختلف قوم فى أى الأمرين أفضل الفقر أم الغنى ؟

قال أبو محمد : وهذا سؤال فاسد لأن تفاضل العمل والجزاء فى الجنة إنما هو للعامل لا لحالة محمولة فيه ، إلا أن يأتى نص بتفضيل الله تعالى حالًا على حال ، وليس هاهنا نص فى فضل إحدى هاتين الحالتين على الأخرى .

قال أبو محمد : وإنما الصواب أن يقال أيهما أفضل الغنى أم الفقر ..؟ والجواب هاهنا هو ما قال الله تعالى إذ يقول : « هل تجزون إلا ما كنتم تعملون[1] » .

فإن كان الغَنِىُّ أفضل عملًا من الفقير فالغنى أفضل ، وإن كان الفقير أفضل عملًا من الغنىِّ فالفقير أفضل ، وإن كان عملهما متساويًا فهما سواء قال عز وجل : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره[2] » .

وقد استعاذ النبى ﷺ من فتنة الفقر وفتنة الغنى ، وجعل الله عز وجل الشكر بإزاء الغنى ، والصَّبر بإزاء الفقر فمن اتقى الله عز وجل فهو الفاضل غنيا كان أو فقيرا ، وقد اعترض بعضهم هاهنا بالحديث الوارد : بأن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بكذا وكذا خريفا ونزع الآخرون بقول الله عز وجل : « ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى[3] » .

---

(١) النمل : ٩٠

(٢) الزلزلة : ٧ ، ٨ وقد جاءت الآية محرفة فى (أ) .

(٣) الضحى : ٧ ، ٨

قال أبو محمد : والغنى نعمة إذا قام حاملها بالواجب عليه فيها ، وأما فقراء المهاجرين فهم كانوا أكثر وكان الغنى فيهم قليلًا والأمر كله فيهم وفى غيرهم راجع إلى العمل بالنص ، وبالإجماع على أنه تعالى لا يجزى بالجنة على فقر ليس معه عمل خير ، ولا على غِنًى ليس معه عمل خير ، وبالله تعالى التوفيق .

« الكلام فى الاسم والمسمى »

قال أبو محمد : ذهب قوم إلى أن الإسم هو المسمى . وقال آخرون الإسم غير المسمى واحتج من قال إن الإسم هو المسمى بقول الله تعالى : « تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام[1] » .

قال : ولا يجوز أن يقال تبارك غير الله فلو كان الإسم غير المسمى ما جاز أن يقال تبارك اسم ربك ، وبقوله تعالى : « سبح اسم ربك الأعلى[2] » .

قالوا ومن الممتنع أن يأمر الله عز وجل بأن يُسبَّح غيره وبقوله عز وجل : « ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم واباءكم[3] » .

وقالوا الاسم مشتق من السُّمو ، وأنكروا على من قال إنه مشتق من الوسم ، وهو العلامة . وذكروا قول لبيد :

إلى الحول ثَمَّ اسْمُ السَّلام عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَبْك حَوْلًا كَامِلًا فَقَد اعْتَذَر

وقالوا : قال سيبويه الأفعال أمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء قالوا : إنما أراد المسمين ،

---

(١) الرحمن : ٧٨

(٢) الأعلى : ١

(٣) يوسف : ٤٠

(٤) لبيد بن ربيعة : هو أبو عُقَيل لبيد بن ربيعة العامرى ، أحد أشراف الشعراء المجيدين من بنى عامر بن صعصعة أحد بطون هوازن مضر – لما ظهر الإسلام وأقبلت وفود العرب على النبى ﷺ جاء لبيد فى وفد بنى عامر وأسلم وحفظ القرآن ، وترك الشعر حتى لم يرو له فى الإسلام غير بيت واحد ، وجاء هذا البيت سابع الأبيات فى قصيدته التى يخاطب فيها ابنتيه حين حضرته الوفاة ومطلعها :

تمنَّى ابنَتَاى أن يعيش أبوهما وهل أنا إلَّا من ربيعة أو مضر

وقيل أن ابنتيه كانتا تلبسان ثيابهما فى كل يوم وتأتيان مجلس جعفر بن كلاب فترثيانه ولا تُعولان فأقامتا على ذلك حولًا كاملًا ثم انصرفتا ، ويحتج النحاة بهذا البيت على إقحام لفظه (اسم) (شرح ديوان لبيد بن ربيعة ص ٢١٤ ط الكويت) .

هذا كل ما احتجوا به فقد تقصيناه لهم ولا حجة لهم فى شيء منه ، أما قول الله عز وجل : « تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام(٥) » .

وذو الجلال فحق ، ومعنى تبارك تفاعل من البركة ، والبركة واجبة لاسم الله عز وجل الذى هو كلمة مؤلفة من حروف الهجاء ، ونحن نتبرك بالذكر له وبتعظيمه ونُجِلّه ونكرمه فله منا التبارك ، وله الإجلال منا ومن الله تعالى ، وله الإكرام من الله تعالى ومنا حيث ما كان من قرطاس أو فى شيء منقوش فيه أو مذكور بالألسنة ، ومن لم يُجل اسم الله عز وجل كذلك ولا أكرمه فهو كافر بلا شك . فالآية على ظاهرها دون تأويل فبطل تعلقهم بها جملة ولله تعالى الحمد ، وكل شيء نص الله تعالى عليه أنه تبارك فذلك حق له ، ولو نص تعالى بذلك على أى شيء كان من خلقه كان ذلك واجبا لذلك الشيء . وأما قوله تعالى : « سبح اسم ربك الأعلى » فهو أيضًا على ظاهره دون تأويل لأن التسبيح فى اللغة التى بها نزل القرآن وبها خاطبنا الله عز وجل إنما هو تنزيه الشيء عن السوء ، وبلا شك أن الله تعالى أمرنا أن ننزه اسمه الذى هو كلمة مجموعة من حروف الهجاء عن كل سوء ، حيث كان ، من كتاب أو منطوقا به ، ووجه آخر أن معنى قوله تعالى : « سبح اسم ربك الأعلى » .

ومعنى قوله تعالى : « إن هذا لهو حق اليقين ، فسبح باسم ربك العظيم(٦) » .

ومعنى واحد وهو أن يسبح الله تعالى باسمه إذ(٧) لا سبيل إلى تسبيحه تعالى ولا إلى دعائه ولا إلى ذكره إلا بتوسط اسمه ، فكلا الوجهين صحيح حق وتسبيح الله تعالى وتسبيح اسمه كل ذلك واجب بالنص ، ولا فرق بين قوله تعالى : فسبح باسم ربك العظيم » وبين قوله : « وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه ، وإدبار النجوم(٨) » .

والحمد ، بلا شك غير الله تعالى وهو تعالى يسبح بحمده ، كما يسبح باسمه ولا فرق ، فبطل تعلقهم بهذه الآية والحمد لله رب العالمين .

قال أبو محمد : أما قوله تعالى : « ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم واباؤكم » .

فقول الله عز وجل حق على ظاهره ولهذه الآية وجهان كلاهما صحيح ، أحدهما : أن معنى قوله عز وجل : « ما تعبدون من دونه إلا أسماء » . أى إلا أصحاب أسماء ، برهان هذا قوله تعالى

---

(٥) الرحمن : ٧٨.
(٦) الواقعة : ٧٤
(٧) فى (أ) : (ولا سبيل) .
(٨) الطور : ٤٨ ، ٤٩ ، وقد جاءت محرفة فى (أ) .

إثر ذلك متصلًا بها : « سميتموها أنتم وآباؤكم » فصح يقينًا أنه تعالى لم يعن بالأسماء هاهنا ذوات المعبودين لأن العابدين لها لم يحدثوا قط ذوات المعبودين ، بل الله تعالى توحَّد بإحداثها . هذا ما لا شك فيه . والوجه الثانى : أن أولئك الكفار إنما كانوا يعبدون أوثانا من حجارة أو بعض المعادن أو من خشب ، وبيقين ندرى أنهم قبل أن يسموا تلك الجمل من الحجارة ومن المعادن ومن الخشب باسم اللّات والعُزّى ومناة ، وهُبَل ، وَوُدّ وسُوَاع ويَغُوث ويَعُوق ونَسْرًا وبَعْل[٩]، قد كانت ذواتها بلا شك موجودات قائمة وهم لا يعبدونها ولا تستحق عندهم عبادة فلما أوقعوا عليها هذه الأسماء عبدوها حينئذ ، فصح يقينا أنهم لم يقصدوا بالعبادة إلا الأسماء ، كما قال الله عز وجل لا الذوات المسميات .

فعادت الآية حجة عليهم ، وبرهانا على أن الاسم غير المسمى بلا شك ، وبالله التوفيق .

وأما قولهم : إن الإسم مشتق من السمو ، وقول بعض من خالفهم مشتق من الوسم فقولان فاسدان كلاهما باطل ، افتعله أهل النحو ، لم يصح قط عن العرب شيء منهما وما اشتق لفظ الاسم قط من شيء ، بل هو اسم موضوع مثل حجر ، ورمل ، وخشبه وسائِر الأسماء لا اشتقاق لها ، وأول ما تبطل به دعواهم هذه الفاسدة أن يقال لهم : قال الله عز وجل : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين[١٠]» .

فصح أن من لا برهان له على صحة دعواه فليس صادقًا فى قوله ، فهاتوا برهانكم على أن الاسم مشتق من السمو أو من الوسم ، وإلا فهى كذبة كذبتموها على العرب وافتريتموها عليهم أو على الله تعالى الواضع للغات كلها ، وقَولٌ عليه تعالى أو على العرب بغير علم ، وإلَّا فمن أين لكم أن العرب اجتمعوا فقالوا نشتق لفظة اسم من السمو أو من الوسم .. ؟ والكذب لا يستحله مسلم ، ولا يستسهله فاضل ، ولا سبيل لهم إلى برهانٍ أصلًا بذلك ، وأيضًا فلو كان الاسم مشتقا من السمو كما تزعمون فتسمية العَذِرَة ، والكلب ، والجيفة ، والقذر ، والشرك والخنزير والخساسة رفعة لها ، وسموٌّ لهذه المسميات وتبًّا لكل قول أدى إلى هذا الهوس البارد ، وأيضًا فهبك أنه قد سُلِّم لهم قولُهم أن الاسم مشتق من السمو ، أىُّ حجة فى ذلك على أن الإسم هو المسمى .. ؟ بل هو حجة عليهم لأن ذات المسمى ليست مشتقة أصلًا ولا يجوز عليها الاشتقاق من السمو ولا من غيره فصح بلا شك أن ما كان مشتقا فهو غير ما ليس مشتقًا ، والإسم بإقرارهم مشتق والذات المسماة غير مشتقة .

---

(٩) بعل : اسم صنم كان يعبده قوم إلياس عليه السلام (القاموس المحيط) .
(١٠) البقرة : ١١١

فالاسم غير الذات المسماة ، وهذا يلوح لكل من نصح نفسه أن المحتج بمثل هذا السفه عيّار مستهزىء بالناس ، متلاعب بكلامه ، ونعوذ بالله من الخذلان .

قال أبو محمد : وهذا قول يؤدى من اتبعه وطرده إلى الكفر المجرد ، لأنهم قطعوا أن الإسم مشتق من السموّ ، وقطعوا أن الإسم هو الله نفسه ، فعلى قولهم المهلك الخبيث أن الله مشتق وأن ذاته نفسها مشتقة ، وهذا ما لا ندرى كافرا بلغه ، والحمد لله على ما منَّ به من الهدى . وأيضًا فإن الله تعالى يقول : « وعلم ادم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » إلى قوله تعالى قال : « يا آدم أنبئهم بأسمائهم[١١] » .

قال أبو محمد : فلا يخلو أن يكون الله عز وجل علم آدم الأسماء كلهّا ، كما قال عزّ وجل ، إما بالعربية ، وإما بلغة أخرى ، أو بكل لغة فإن كان عز وجل علمه الأسماء بالعربية ، فإن لفظة اسم من جملة ما علمه لقوله تعالى الأسماء كلها ، ولأمره تعالى آدم بأن يقول للملائكة : أنبئونى بأسماء هؤلاء .

فلا يجوز أن يخصّ من هذا العموم شيء أصلًا ، بل هو لفظ موقف عليه كسائر الأسماء ولا فرق ، وهو من جملة ما علمه الله تعالى آدم عليه السلام إلا أن يدَّعوا أن الله تعالى اشتقه فالقوم كثيرًا ما يستسهلون الكذب على الله تعالى والإخبار عنه بما لا علم لهم به ، فصح يقينًا أن لفظة الإسم لا اشتقاق لها ، وإنما هى اسم مبتدأ كسائر أسماء[١٢] الأنواع والأجناس ، وإن كان الله تعالى علم آدم الأسماء كلها بغير العربية فإن اللغة العربية موضوعة للترجمة عن تلك اللغة يدل كل إسم من تلك اللغة على إسم من العربية ، موضوع للعبادة عن تلك الألفاظ ، وإذا كان هذا فلا مدخل للاشتقاق فى شيء من الأسماء أصلا لا لفظة إسم ولا غيرها . وإن كان تعالى علمه الأسماء بالعَربية وبغيرها من اللغات غير[١٣] العربية فلفظة اسم من جملة ما علمه وبطل أن يكون مشتقًا أصلًا ، والحمد لله رب العالمين ، فبطل قولهم فى اشتقاق الاسم وعاد حجة عليهم وبالله تعالى التوفيق .

وأما بيت لبيد : فإنه يخرج على وجهين : أحدهما أن السلام اسم من أسماء الله عز وجل ، قال تعالى : « الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن » .

ولبيد رحمه الله مسلم صحيح الصحبة للنبى ﷺ فمعناه : « ثم اسم الله عليكما حافظ

---

(١١) البقرة : ٣١ – ٣٣
(١٢) فى (أ) : (الأسماء والأنواع) .
(١٣) كلمة (غير) ليست مذكورة فى الأصل .
(١٤) الحشر : ٢٣

لكما ، والوجه الثانى ، أنه أراد بالسلام التحية ، ولبيد لا يقدر هو ولا غيره على إيقاع معنى التحية عليهما ، وإنما يقدر على ذلك الله تعالى بلا خلاف من أحد[١٥]، وإنما يقدر لبيد وغيره على إيقاع اسم التحية والدعاء بها فقط ، فأى الأمرين كان فاسم السلام فى بيت لبيد هو غير معنى السلام ، فالإسم فى ذلك البيت غير المسمى ولابد . ثم لو صح ما يدعونه على لبيد ولا يصح[١٦] لكان قول عائشة رحمها الله إنما أَهْجُر اسمك بيانًا أن الاسم غير المسمى وأن اسمه عليه السلام غيره لأنها أخبرت أنها لا تهجره وإنما تهجر اسمه وهى رضوان الله عليها ليست فى الفصاحة دون لبيد ، وهى أولى بأن تكون حجة من لبيد فكيف وقول لبيد حجة عليهم لا لهم .. ؟ والحمد لله رب العالمين . وقد قال رؤبة[١٧] باسْمِ الَّذِى فِى كُلِّ سورة اسْمُه » ورؤبة ليس دون لبيد فى الفصاحة ، وذات البارى تعالى ليست فى كل سورة ، وإنما فى السورة اسم الله تعالى فلا شك فى أن الذى فى السورة غير الذى ليس فيها .

وقال أبو ساسان حُضَيْن بن المنذر بن الحارث بن وعلة الرقاشى لابنه غيَّاظ .

وسُمّيتَ غَيَّاظًا ولَسْتَ بِغَائِظٍ عَدُوًّا ولكن الصَّديق تغيظ

فصرح بأن الإسم غير المسمى تصريحًا لا يحتمل التأويل ، بخلاف ما ادعوه على لبيد ، وأما قول سيبوية : إن الأفعال أمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء فلا حجة لهم فيه ، فبيقين ندرى أنه أراد أحداث أصحاب الأسماء ، برهان ذلك قوله فى غير موضع من كتابه أمثلة الأسماء من الثلاثى ، والرباعى ، والخماسى ، والسداسى ، والسباعى ، وقطعه بأن السداسىّ والسُّباعىّ من الأسماء مزيدان ولابدّ ، وأنَّ الثلاثىَّ من الأسماء أصلى ولابدّ ، وأنَّ الرباعى والخماسى من الأسماء يكونان أصليين ، كجعفر وسفرجل ، ويكونان مزيدين ، وأن الثنائىَّ من الأسماء منقوص مثل يد ، ودم ، ولو تتبعنا قطعه على أن الأسماء هى الأبنية المسموعة الموضوعة ليعرف بها المسميات لبلغ أزيد من ثلاثمائة موضع .

أفلا يستحى من يدرى هذا من كلام سيبويه إطلاقًا لعلمه بأن مراده لا يخفى على أحدٍ قرأ من كتابه ورقتين . ونعوذ بالله من قلة الحياء .

---

(١٥) فى (أ) : سقط الكلام من قوله : (وإنما يقدر على ذلك الله تعالى) .

(١٦) فى (أ) : (ولو صح) .

(١٧) هو : رُؤْبَةُ بن عبد الله العَجَّاج بن رؤبة ، من بنى مالك بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، أبو الجُحاف راجز من الفصحاء المشهورين من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، كان أكثر مقامه فى البصرة ، وأخذ عنه أعيان أهل اللغة وكانوا يحتجون بشعره ، ويقولون بإمامته فى اللغة ، مات فى البادية وقد أسنّ ، وفى الوفيات : لما مات رؤبة قال الخليل : « دفنّا الشعر واللغة والفصاحة » وهذا الجزء من البيت ليس موجودًا فى ديوانه . (ترجمته فى اللالىء ، والأغانى ، وتهذيب التهذيب – وديوانه مطبوع فى مجموع أشعار العرب – اعتنى بتصحيحه وترتيبه : وليم بن الورد البروسى » . (راجع الشعر والشعراء تحقيق أحمد محمد شاكر : ٥٩٤ الترجمة رقم ١٠٨) .

وأول سطر من كتاب « سيبويه » بعد البسملة : هذا باب علم ما الكلم من العربية ، فالكلم : اسم ، وفعل ، وحرف ، جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل ، فالاسم : رجل وفرس . فهذا بيان جلى من « سيبويه » ، ومن كل من تكلم فى النحو قبله وبعده ، على أن الأسماء هى بعض الكلام ، وأن الاسم هو كلمة من الكلِم ، ولا خلاف بين أحد له حس سليم فى أن المسمَّى ليس كلمة ، ثم قال بعد أسطر يسيرة : والرفع والجر والنصب والجزم بحروف الإعراب ، وحروف الإعراب الأسماء المتمكنة ، والأفعال المضارعة ، وأسماء الفاعلين ، وهذا منه بيان لا إشكال فيه ، أن الأسماء غير الفاعلين وهى التى تضارعها الأفعال التى فى أوائلها الزوائد الأربع ، وما قال قط من يرمى بالحجارة : أن الأفعال تضارع المسمين ، ثم قال : والنصب فى الأسماء ؛ رأيت زيدًا ، والجر : مررت بزيد ، والرفع : هذا زيد . وليس فى الأسماء جزم لتمكنها ، وإلحاق التنوين ، وهذا كله بيان أن الأسماء : هى الكلمات المؤلفة من الحروف المقطعة ، لا المسمّون بها ، ولو تتبع هذا فى أبواب الجمع وأبواب التصغير ، والنداء والترخيم ، وغيرها لكثر جدًّا ، وكاد يفوت التحصيل .

* * *

قال أبو محمد : فسقط كل ما شغب به القائلون بأن الاسم هو المسمّى ، وكل قول سقط احتجاج أهله ، وعُرِّى عن برهان فهو باطل .

ثم نظرنا فيما احتج به القائلون : أن الاسم غير المسمَّى فوجدناهم يحتجون بقول الله تعالى : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه(١٩) » .

قالوا والله عزّ وجلَّ واحد ، والأسماء كثيرة ، وقد تعالى الله عن أن يكون اثنين ، أو أكثر ، وقد قال رسول الله ﷺ : « إن لله تسعةً وتسعين اسْمًا ، مائةً غيَر واحَدٍ ، مَنْ أحصاها دخل الجنة(٢٠) » .

قالوا : ومن قال : إن خالقه أو معبوده تسعةٌ وتسعون فهو شرٌّ من النصارى الذين لم يجعلوه إلّا ثلاثة .

(١٨) هو : حُضَين بن المنذر بن الحارث بن وعلة الذهلى الشيبانى أبو ساسان تابعى من سادات ربيعة وشجعانهم ، كان صاحب راية على ابن أبى طالب يوم « صفين » ، وفيه يقول الشاعر :

لمن رايةٌ سَوداء يخفق ظلها إذا قلت قدِّمها حُضَين تقدَّما

ولّاه على « اصطخر » ، ولما استتب الأمر لمعاوية وفد عليه فأكرمه . توفى سنة ٩٧ هـ (راجع : تهذيب ابن عساكر : ٣٧٤/٤) بتصرف

(١٩) الأعراف : ١٨٠

(٢٠) سبق تخريج هذا الحديث .

قال أبو محمد : وهذا برهان ضرورى لازم ، ورأيت لمحمد بن الطيب الباقلانى ، ولمحمد ابن الحسن بن فورك[٢١] الأصبهانى : أنه ليس لله تعالى إلا اسم واحد فقط .

قال أبو محمد : وهذا معارضة وتكذيب لله عزَّ وجل ، وللقرآن ، ولرسول الله ﷺ ، ولجميع العالمين ، ثم عطفا فقالا : معنى قول الله عزَّ وجلَّ : « ولله الأسماء الحسنى » .

وقول رسول الله ﷺ : « إن لله تِسْعَةً وتِسعين اسْمًا » إنما هو التسمية لا الأسماء .

قال أبو محمد : وكان هذا التقسيم أدخل فى الضلال من ذلك الإجمال ، ويقال لهم : فعلى قولكم هذا ، أراد الله تعالى أن يقول : لله التسميات الحسنى ، فقال : « الأسماء الحسنى » ، وأراد رسوله ﷺ أن يقول إن لله تسعة وتسعين تسمية ، فقال : « إن لله تسعةً وتسعين اسما » أَعَنْ غلطٍ وخطأ قال الله تعالى ذلك ، ورسوله ﷺ ، أم عن عمدٍ ، ليضل بذلك أهل الإسلام ؟ أم عن جهل باللغة التى تنبهتما لها أنتما ؟

ولابدَّ من أحد هذه الوجود ضرورة ، لا محيد عنها وكلها كفر مجرد ، ولابدَّ لهم من أحدها ، أو ترك ما قالوه من الكذب على الله تعالى ورسوله ﷺ .

هذا ودعواهم فى ذلك ظاهرة الكذب بلا دليل ، ولا يرضى بهذا لنفسه عاقل .

قال أبو محمد : الاسم غير المسمَّى ، فهو شيء ثالث غير الاسم ، وغير المسمى ، فذات الخالق تعالى هى الله المسمَّى ، والتسمية : هى تحريكنا عضل الصدر واللسان عند نطقنا بهذه الحروف ، وهى غير الحروف ، لأن الحروف هى الهواء المندفع بالتحريك فهو المحرَّك بفتح الراء ، والإنسان هو المحرّك بكسر الرَّاء ، والحركة هى فعل المحرِّك فى دفع المحرَّك ، وهذا أمر معلوم بالحس ، مشاهد بالضرورة ، متفق عليه فى جميع اللغات .

واحتجوا أيضًا بقول الله تعالى : « إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سميا[٢٢]» .

وهذا نص لا يحتمل تأويلًا ، فى أن الإسم هو (الياء والحاء والياء والألف) ولو كان الإسم هو المسمى لما عقل أحد معنى قوله تعالى : « لم نجعل له من قبل سميا » ولا فهم ، ولكان فارغا حاشا لله من هذا . ولا خلاف فى أن معناه لم يعلق هذا الاسم على أحد قبله .

وذكروا أيضًا قول الله عزَّ وجل عن نفسه : « هل تعلم له سميا[٢٣]» وهذا نص جلى على أن

---

(٢١) راجع ترجمتهما فى الجزء الرابع : ٢ ، ٣

(٢٢) مريم : ٧ وقد جاءت هذه الآية محرفة فى (أ) .

(٢٣) مريم : ٦٥

أسماء الله تعالى التى اختص بها لا تقع على غيره ، ولو كان ما يدعونه لما عقل هذا اللفظ أحد أيضًا ، حاشا لله من هذا .

واحتجوا أيضًا بقول الله تعالى : « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد[٢٤] » وهذا نص على أن الإسم هو (الألف ، والحاء ، والميم ، والدال) إذا اجتمعت . واحتجوا أيضًا بقول الله عزّ وجل : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » ، إلى قوله : « قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال : ألم أقل لكم » الآية .

وهذا نصٌّ جلى على أن الأسماء كلها غير المسمَّيات ، لأن المسميات كانت أعيانا قائمة ، وذوات ثابتة ، تراها الملائكة ، وإنما جهلت الأسماء فقط التى علمها الله آدم ، وعلمها آدم الملائكة ، وذكروا قول الله تعالى : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى[٢٥] » .

وهذا ما لا حيلة لهم فيه ، لأن لفظة (الله) هى غير لفظة (الرحمن) بلا شك وهى بنص القرآن أسماء الله تعالى . والمسمَّى واحد لا يتغاير بلا شك .

وذكروا قول الله عزَّ وجل : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه[٢٦] » . وهذا بيان أيضًا جلى مجمع عليه من أهل الإسلام أن الذى عنده التذكية فهو الكلمة المجموعة من الحروف المقطعة ، مثل (الله الرحمن الرحيم) وسائر أسمائه عزَّ وجل .

واحتجوا من الإجماع بأن جميع أهل الإسلام لا نحاشى منهم أحدًا قد أجمعوا على القول بأن من حلف باسم من أسماء الله عزَّ وجل فحنث فعليه الكفارة ، ولا خلاف فى أن ذلك لازم فيمن قال والله ، أو والرحمن أو الصَّمد ، أو أى اسم من أسماء الله عزَّ وجل حلف بها ، وسبحان من خلق عقولًا لا يدخل فيها تخطئة ما جاء به الله عز وجل فى القرآن ، وما قاله رسول الله ﷺ وما أجمع عليه أهل الإسلام وما أصفق عليه أهل الأرض قاطبة من أن الإسم هو الكلمة المجموعة من الحروف المقطعة ، وتصويب الباقلانى ، وابن فورك ، فى أن ذلك ليس هو الإسم وإنما هو التسمية والحمد لله الذى لم يجعلنا من أهل هذه الصفة المرذولة ولا من هذه العصابة المخذولة .

---

(٢٤) الصف : ٦ ، وقد جاءت هذه الآية محرفة فى (أ) .
(٢٥) الإسراء : ١١٠
(٢٦) الأنعام : ١٢١

واحتجوا أيضًا بقول رسول الله ﷺ : « إذا أرسلت كلبك فذكرت اسم الله فكل[٢٧] » فصح أن اللفظ المذكور هو اسم الله تعالى . وقول رسول الله ﷺ إن له أسماء هى أحمد ، ومحمد ، والعاقب ، والحاشر ، والماحى[٢٨].

فيالله ويالله للمسلمين أيجوز أن يظن ذو مسكة عقل أن رسول الله ﷺ خمس ذوات ، تبارك الذى يخلق ما لا نعلم . وذكروا قول رسول الله ﷺ « تسمَّوا باسْمِى ولا تكنوا بكنيتى[٢٩] » .

فصح أن الإسم هو الميم والحاء والميم والدال بيقين لا شك فيه واحتجوا بقول عائشة رضى الله عنها بحضرة رسول الله ﷺ وقد قال لها عليه السلام : « إذا كُنْتِ رَاضِيَةً عَنِّى قُلْتِ لَا وَرَبِّ مُحَمّد ، وإذَا كُنْتِ سَاخِطَةً قُلْتِ لَا وَرَبِّ إبْرَاهِيم ، قالت أَجَلْ يا رسول الله ما أَهْجُرُ إلَّا اسمك[٣٠] » فلم ينكر رسول الله ﷺ عليها هذا القول ، فصح أن اسمه غيره بلا شك لأنها لم تهجر ذاته وإنما هجرت اسمه ، احتجوا أيضًا بقول رسول الله ﷺ أحب الأسماء إلى الله عزَّ وجل عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدق الأسماء همام والحارث[٣١].

وروى أكذبها خالد ، ومالك ، وهذا كله سبق أن الإسم غير المسمى ، فقد يسمى عبد الله وعبد الرحمن ، من يبغضه الله عز وجل ، وقد يمسى من يكون كذَّابًا الحارث وهمامًا ، ويسمى الصادق خالدًا ومالكا ، فهم بخلاف أسمائهم . واحتجوا أيضًا بأن قالوا قد أجمعت الأمم كلها على أنه إذا سئل المرء ما اسمك ؟ قال : فلان فإذا قيل له كيف سميت ابنك وعبدك ؟ قال : سميته فلانا ، فصح أن تسميته هى اختياره وإيقاعه ذلك الإسم على المسمى فصح يقينًا أن التسمية غير الإسم وغير المسمى ، وأن الإسم غير المسمى ، واحتجوا من طريق النظر بأن قالوا

---

(٢٧) الحديث رواه الإمام مسلم فى كتاب الصيد والذبائح ، باب : الصيد بالسهام والتسمية عند الرمى ولفظه عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : لى رسول الله ﷺ : إذا أرسلتَ كلبك فاذكر اسم الله ، فإن أمسك عليك فأدركته حيا فاذبحه ، وإن أدركته قد قَتَل ولم يأكل منه فكله ، وإن وجدت مع كلبك كلبا غيره ، وقد قتل ، فلا تأكل فإنك لا تدرى أيهما قتله ، وإن رميت بسهمك فاذكر اسم الله ، فإن غاب عنك يومًا فلم تجد فيه إلَّا أثر سهمك ، فكل إن شئت ، وإن وجدته غريقًا فى الماء فلا تأكل » (٥٨/٦) .

(٢٨) الحديث رواه مسلم فى كتاب الفضائل ، باب فى عدد أسماء النبى ﷺ ولفظه عن جُبَيْر بن مطعم رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : إنَّ لى أسماء أنا محمد وأنا أحمد ، وأنا الماحى ، الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يُحْشَرَ النَّاسُ على قدَمَىَّ ، وأنا العاقبُ الذى ليس بعده أحد » وقد سمَّاه الله رءوفًا رحيما » » . (٨٩/٧) .

(٢٩) رواه مسلم فى كتاب الأدب ، عن أنس رضى الله عنه قال : نادى رجل رجلًا بالبقيع : يا أبا القاسم ، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنّى لم أعْنِكَ إنما دعَوْت فلانا ، فقال رسول الله ﷺ : تَسَمَّوْا باسمى ، ولا تَكَنَّوْا بكنيتى » (١٦٩/٦ باب قول النبى ﷺ تَسمَّوا باسمى ولا تكتنوا بكنيتى) .

(٣٠) الحديث رواه مسلم فى كتاب الفضائل ولفظه عن عائشة قال : قال لى رسول الله ﷺ إنى لأعلم إذا كنت عنّى راضية ، وإذا كنت علىَّ غضبى » قالت فقلت : ومن أين تعرف ذلك ؟ قال : « أمّا إذا كنت عنّى راضية فإنك تقولين : لا ورب محمد ! ، وإذا كنت غضبى قلت: لا ورب إبراهيم ، قالت قلت : أجل والله يا رسول الله ، ما أهجر إلا اسمك » (٨٩٠/٤) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى .

(٣١) جاء هذا الحديث فى صحيح مسلم فى كتاب الأدب ولفظه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله « إنَّ أحبَّ أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » .

إنهم يقولون إن اسم الله تعالى هو الله نفسه ، ثم لا يسألون بأن يقولوا أسماء الله تعالى مشتقة من صفاته فعليم مشتق من علم ، وقدير من قدرة ، وحيٌّ من حياة ، فإذًا اسم الله هو الله ، واسم الله مشتق ، فالله تعالى على قولكم مشتق وهذا كفر بارد ، وكلام سخيف لا مخلص لهم منه فصححت البراهين المذكورة من القرآن والسنن ، والإجماع والعقل ، واللغة والنحو ، على أن الإسم غير المسمى بلا شك ولقد أحسنٌ أحمد ابن حداد ما شاء أن يحسن إذ يقول :

هيهات يا أخت آل بما غلطت ... فـــى الإســـم والمســـمى
لو كان ذاك وقيل ســـم ... مات إذن مـن يقـول ســما

قال أبو محمد : وبلغنى وأخبرنى أبو عبد الله القطان السايح من شاهد بعضهم قد كتب الله فى سحَّاه وجعل يصلى إليها قال فقلت له : ما هذا .. ؟ قال معبودى قال فنفخت فيها فطارت فقلت له قد طار معبودك قال فضربنى .

قال أبو محمد : وموهوا فقالوا فأسماء الله عز وجل إذن مخلوقة إذ هى كثيرة ، وإذ هى غير الله تعالى ؟ قلت لهم وبالله تعالى التوفيق : إن كنتم تعنون الأصوات التى هى حروف الهجاء والمخطوط به فى القرطاس فما يختلف مسلمان فى أن كل ذلك مخلوق ، وإن كنتم تريدون الإيهام والتمويه بإطلاق الخلق على الله تعالى فمن أطلق ذلك فهو كافر ، بل إن أشار مشير إلى كتاب مكتبوب فيه « الله أو بعض أسماء الله تعالى أو إلى كلامه إذ قال يا الله أو قال بعض أسمائه عز وجل فقال أهذا مخلوق أو أهذا ليس ربكم .. ؟ أو تكفرون بهذا لما حل لمسلم إلا أن يقول حاشى لله من أن يكون مخلوقًا بل هو ربِّى وخالقى ، أو من به ولا أكفر به ، ولو قال غير هذا لكان كافرًا حلال الدم لأنه لا يمكن أن يسأل عن ذات البارىء تعالى ولا عن الذى هو ربنا عز وجل وخالقنا ، والذى هو المسمى بهذه الأسماء ولا إلى الذى يخبر عنه ولا إلى الذى يذكر ألا يذكر اسمه ولابد ، فلما كان الجواب فى هذه المسألة يموهه أهل الجهل بإيصال ما لا يجوز إلى ذات الله عز وجل لم يجز أن يطلق الجواب فى ذلك ألبتة إلا بتقسيم ، كما ذكرنا وكذلك لو كتب إنسان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم أو نطق بذلك ثم قال لنا هذا رسول الله ﷺ أم ليس رسول الله وأتؤمنون بهذا أو تكفرون به ..؟ لكان من قال ليس رسول الله وأنا أكفر به كافرًا حلال الدم باجماع أهل الإسلام ، لكن يقول بل هو رسول الله ، ونحن نؤمن به ولا يختلف اثنان فى أن الصوت المسموع والخط المكتوب ، ليس هو الله ولا رسول الله ، وبالله تعالى التوفيق .

فإن قالوا : إن أحمد بن[٣٢] حنبل ، وأبا زرعة عبيد[٣٣] الله بن عبد الكريم ، وأبا حاتم محمد

---

(٣٢) أحمد بن حنبل : راجع ترجمته فى (٢٨٠/٢ ، ٥٤٢/٣) من هذا المؤلف .

(٣٣) أبو زرعة : هو عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ المخزومى بالولاء ، أبو زرعة الرازى من حفاظ الحديث الأئمة ، من أهل ـــ

ابن إدريس[٣٤] الحنظلى ، الراويين رحمهم الله يقولون إن الإسم هو المسمى . قلنا لهم : إن هؤلاء رضى الله عنهم وإن كانوا من أهل السنة ، ومن أئمتنا فليسوا معصومين من الخطأ ، ولا أمرنا الله تعالى عز وجل بتقليدهم واتباعهم فى كل ما قالوه ، وهؤلاء رحمهم الله أراهم اختيار هذا القول قولهم الصحيح أن القرآن هو المسموع من القراء ، والمخطوط فى المصاحف نفسه ، وهذا قول صحيح ولا يوجب أن يكون الإسم هو المسمى على ما قدمنا فى هذا الباب ، وفى باب الكلام فى القرآن ، والحمد لله رب العالمين ، وإنما العجب كله ممن قلب الحق وفارق هؤلاء المذكورين حيث أصابوا وحيث لا يحل خلافهم وتعلق بهم حيث وهموا ، من هؤلاء المنتمين إلى الأشعرى ، القائلين بأن القرآن لم ينزل قط إلينا ولا سمعناه قط ، ولا نزل به جبريل قط على قلب رسول الله ﷺ ، وأن الذى فى المصاحف هو شىء آخر غير القرآن ، ثم اتبعوا هذه الكفرة الصلعاء بأن قالوا : إن اسم الله هو الله وأنه ليس لله إلا اسم واحد ، وكذّبوا الله تعالى ورسوله فى أن لله أسماء كثيرة تسعة وتسعين ونعوذ بالله من الخذلان .

قال أبو محمد : ولو أن إنسانًا يشير إلى كتاب مكتوب فيه الله ، فقال هذا ليس ربى وأنا كافر بهذا لكان كافرًا ، ولو قال هذا المداد ليس ربى وأنا كافر بربوبية هذا الصوت لكان صادقا ، وهذا لا ينكر وإنما نقف حيث وقفنا ولو أن إنسانا قال محمد رسول الله رحمه الله لم يبعد من الاستخفاف ، فلو قال اللهم ارحم محمد وآل محمد لكان محسنًا ، ولو أن إنسانًا يذكر من أبويه العضو المستور باسمه عَاقًا أتى كبيرة وإن كان صادقًا ، وبالله تعالى التوفيق .

— الرى ، زار بغداد وحدّث بها وجالس أحمد بن حنبل ، كان يحفظ مائة ألف حديث ، ويقال : كل حديث لا يعرفه أبو زرعة ليس له أصل . توفى بالرى سنة ٢٦٤ هـ ، وله مسند . (الأعلام : ٣٥٠/٤) .

(٣٤) هو : أبو حاتم : محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران الحنظلى ، حافظ للحديث ، من أقران البخارى ومسلم ، ولد فى الرى ، وإليها نسبته ، وتنقل فى العراق والشام ومصر ، وبلاد الروم . توفى ببغداد سنة ٢٧٧ هـ ، له (طبقات التابعين) وكتاب (الزينه) (الأعلام : ٢٥٠/٦) .

« الكلام فى قضايا النجوم والكلام فى هل يعقل الفلك والنجوم أم لا »

قال أبو محمد : زعم قوم أن الفلك والنجوم تعقل وأنها ترى ، وتسمع ، ولا تذوق ، ولا تشم ، وهذه دعوى بلا برهان وما كان هكذا فهو باطل ، مردود عند كل طائفة بأول العقل ، إذ ليست أصح من دعوى أخرى تضادها وتعارضها ، وبرهان صحة الحكم بأن الفلك والنجوم لا تعقل أصلا : هو أن حركتها أبدًا على رتبة واحدة لا تتبدل عنها وهذه صفة الجماد المدبَّر الذى لا اختيار له ، فقالوا الدليل على هذا : أن الأفضل لا يختار إلا أفضل العمل . فقلنا لهم ومن أين لكم بأن الحركة أفضل من السكون الاختيارى ؟ لأننا وجدنا الحركة حركتين ، حركة اختيارية واضطرارية ، ووجدنا السكون سكونين اختياريًا واضطراريًا ، فلا دليل على أن الحركة الاختيارية أفضل من السكون الاختيارى ، ثم من لكم بأن الحركة الدورية أفضل من سائر الحركات يمينا أو يسارًا أو أمام أو وراء ؟ ثم من لكم بأن الحركة من شرق إلى غرب كما يتحرك الفلك الأكبر أفضل من الحركة من غرب إلى شرق ، كما تتحرك سائر الأفلاك وجميع الكواكب فلاح أن قولهم مخرفة فاسدة ، ودعوى كاذبة ، مموهة .

وقال بعضهم : لمَّا كُنَّا نحن نعقل وكانت الكواكب تدبرنا كانت أولى بالعقل والحياة منّا . فقلنا هاتان دعوتان مجموعتان فى نسق ، إحداهما القول بأنها تدبرنا فهى دعوى كاذبة بلا برهان على ما نذكره بعد هذا إن شاء الله ، والثانية الحكم بأن من يدبرنا أحق بالعقل والحياة منا ، فقد وجدنا التدبير يكون طبيعيًا ويكون اختياريًا ، فلو صح أنها تدبرنا لكان تدبيرًا طبيعيًا كتدبير الغذاء لنا ، وكتدبير الهواء والماء لنا ، وكل ذلك ليس حيًّا ولا عاقلًا بالمشاهدة . وقد أبطلنا الآن أن يكون تدبير النجوم[1] اختياريًا بما ذكرنا من جريها على حركة واحدة ورتبة واحدة ، لا تنتقل عنها أصلًا . وأما القول بقضايا النجوم فإنا نقول فى ذلك قولا لائحًا ظاهرًا إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى (أ) : (الكواكب) .

قال أبو محمد : أما معرفة قطعها فى أفلاكها وآحاد[٢] ذلك ومطالعها ، وأبعادها ، وارتفاعاتها واختلاف مراكز أفلاكها ، فعلم حسن صحيح رفيع يُشرف به الناظر فيه على عظيم قدرة الله عز وجل ، وعلى يقين تأثيره وصنعته واختراعه تعالى للعالم وما[٣] فيه ، وفيه الذى يضطر كل ذلك إلى الإقرار بالخالق ولا يستغنى عن ذلك فى معرفة القبلة وأوقات الصلوات ، وينتج من هذا معرفة رؤية الأهلة لفرض الصوم والفطر ومعرفة الكسوفين ، برهان ذلك قول الله عز وجل : « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق[٤]» وقال تعالى : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون[٥]» وقال تعالى : « والسماء ذات البروج[٦]» . وقال تعالى : « لتعلموا عدد السنين والحساب[٧]» .

وهذا هو نفس ما قلناه وبالله تعالى التوفيق .

وأما القضاء[٨] بها : فالقطع به خطأ لما نذكره إن شاء الله تعالى وأهل القضاء ينقسمون قسمين أحدهما : القائلون بأنها والفلك عاقلة مميزة فاعلة مدبرة دون الله تعالى ، أو معه وأنها لم تزل فهذه الطائفة كفار مشركون حلال دماؤهم وأموالهم بإجماع الأمة ، وهؤلاء عنى رسولُ الله ﷺ إذ يقول ان الله عز وجل : قال « أصبح من عبادى كافر بى مؤمن بالكوكب[٩]» .

وفسره رسول الله ﷺ بأنه القائل مُطِرْنا بنوء كذا وكذا . وأما من قال بأنها مخلوقة وأنّها غير عاقلة لكن الله عزَّ وجل خلقها وجعلها دلائل على الكوائن فهذا ليس كافرا ولا مبتدعا ، وهذا هو الذى قلنا فيه إنه خطأ ، لأن قائل هذا إنما يحيل على التجارب فما كان من تلك التجارب ظاهرا إلى الحسّ كالمد والجزر الحادثين عند طلوع القمر واستوائه وأفوله وامتلائه ونقصانه ، وكتأثير القمر فى قتل الدّابة الدبرة إذا لاقى الدبرة ضوؤه وكتأثير فى القرع والقثاء المسموع لنموها مع القمر صوتٌ قوى ، وكتأثيره فى الدماغ والدم والشعر ، وكتأثير الشمس فى عطش[١٠] الحر وتصعيد الرطوبات ،

---

(٢) فى (أ) : (وآناء) .
(٣) فى (أ) : (بما) .
(٤) المؤمنون : ١٧
(٥) يس : ٣٩ ، ٤٠
(٦) البروج : ١
(٧) يونس : ٥
(٨) فى (أ) : (الفقهاء) وهو تحريف .
(٩) رواه مسلم فى كتاب الإيمان ، ورواه البخارى فى كتاب الاستسقاء ، ورواه مالك فى كتاب الاستسقاء أيضًا ، والعبارات متفاوتة ، ولفظه عند مسلم : عن زيد بن خالد الجُهَنى : قال : صلّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية فى إثر السماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر . فأمّا من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب وأما من قال مُطِرْنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب » . (مسلم : كتاب الإيمان ص ٥٩ الجزء الأول) .
(١٠) فى (أ) : (عكس) .

وكتأثيرها فى أعين السنانير بين غدوة ونصف النهار وبالعيش ونصف الليل وسائر ما يوجد حسًّا فهو حق لا يدفعه ذو حسٍّ سليم ، فكل ذلك خلق الله عز وجل فهو خلق القوى وما يتولد منها وما يوجد بها كما قال تعالى : « فأحيينا به الأرض بعد موتها[١١] » « فأخرجنا به من كل الثمرات[١٢] » « فأنبتنا به جنات وحب الحصيد[١٣] » .

وأما ما كان من تلك التجارب خارجًا عما ذكرنا فهى دعاوى لا تصح لوجوه أحدها أن التجربة لا تصح إلا بتكرُّرٍ كثير موثوق بدوامة تضطر النفوس إلى الإقرار به ، كاضطرارنا إلى الإقرار بأن الإنسان إن بقى ثلاث ساعات تحت الماء مات ، وإن أدخل يده فى النار احترق ، ولا يمكن هذا فى القضاء بالنجوم لأن النصب الدالة عندهم على الكائنات لا تعود إلا فى عشرات الآلاف من السنين لا سبيل إلى أن تصح فيها[١٤] تجربة ولا إلى أن تبقى دورة تراعى تكرار تلك الأدوار ، وهذا برهان مقطوع به على بطلان دعواهم فى صحة القضاء[١٥] بدلائل النجوم .

وبرهان آخر : وهو أن شروطهم فى القضاء لا يمكنهم الإحاطة بها أصلا من معرفة مواقع السهام ، ومطارح الشعاعات ، وتحقيق الدرج النيرة والضيمة والمظلمة والآثار ، والكواكب السارية[١٦] وسائر شروطهم التى يقرون أنه لا يصح القضاء إلا بتحقيقها .

وبرهان ثالث : وهو أنه مادام يشتغل المعدِّل فى تعديل كوكب زلَّ عنه سائِر الكواكب ولو دقيقة ولابد ، وفى هذا فساد القضاء بإقرارهم .

وبرهان رباع : وهو ظهور يقين الباطل فى دعواهم إذ جعلوا طبع زحل البرد واليبس ، وطبع المريخ الحر واليبس ، وطبع القمر البرد والرطوبة ، وهذا الصفات إنما هى للعناصر التى دون فلك القمر ، وليس شيء منها فى الأجرام العلوية لأنها خارجة عن محل حوامل هذه الصفات والأعراض لا تتعدى حواملها ، والحوامل لا تتعدى مواضعها التى رتبها الله فيها .

وبرهان خامس : وهو ظهور كذبهم فى قسمتهم الأرض على البروج والدرارى ، ولسنا نقول فى المدن التى يمكنهم فيها دعوى أن بناءها كان فى طالع كذا ، ونصبه[١٧] كذا ، لكن فى الأقاليم والقطع من الأرض التى لم يتقدم كون بعضها كون بعض فظهر[١٨] كذبهم فيما عليه بنوا قضاياهم فى النجوم ، وكذلك قسمتهم أعضاء الجسم والفلزات على الدرارى أيضًا .

(١١) فاطر : ٩
(١٢) الأعراف : ٥٧
(١٣) سورة (ق) : ٩
(١٤) فى (أ) : (منها) .
(١٥) فى (أ) : (القضايا بالنجوم) .
(١٦) فى (أ) : (البنيانية) .
(١٧) فى (أ) : (ونصه) .
(١٨) فى (أ) : سقطت كلمة (فظهر) .

وبرهان سادس : أننا نرى نوعًا وأنواعًا من أنواع الحيوان قد فشا فيها الذبح ، فلا يكاد يموت شيء منها إلا مذبوحًا كالدجاج ، والحمام ، والضأن والمعز والبقر التى لا يموت منها حتف أنفه إلا فى غاية الشذوذ ، ونوعًا وأنواعًا لا تكاد تموت إلا حتف أنوفها كالحُمر ، والبغال ، وكثير من السباع ، وبالضرورة يدرى كل أحد أنها قد تستوى أوقات ولاداتها فبطل قضاؤهم بما يوجب الموت الطبيعى ، وبما يوجب الموت[١٩] الكرهى ، لاستواء جميعها فى الولادات واختلافها فى أنواع المنايا .

وبرهان سابع : وهو أننا نرى الخصا فاشيًا فى سكان الإقليم الأول ، وسكان الإقليم السابع ولا سبيل إلى وجوده ألبتة فى سكان سائر الأقاليم ، ولا شك ولا مرية فى استوائهم فى أوقات الولادة فبطل يقينا قضاؤهم بما يوجب الخصا وبما لا يوجبه بما ذكرنا من تساو فى أوقات التكون والولادة واختلافهم فى الحكم ، ويكفى من هذا أن كلامهم فى كل ذلك دعوى بلا برهان ، وما كان هكذا فهو باطل مع اختلافهم فيما يوجبه الحكم عندهم ، والحق لا يكون فى قولين مختلفين . وأيضًا : فإن المشاهدة توجب أننا قادرون على مخالفة أحكامهم متى أخبرونا بها فلو كانت حقًا وحتمًا ما قدر أحد على خلافها وإذا أمكن خلافها فليست حقًا ، فصح أنها تخرُّص كالطرق بالحصا والضرب بالحب ، والنظر فى الكف والزجر والطيرة وسائر ما يدعى أهله فيه تقديم المعرفة بلا شك ، وما يحصى[٢٠] ما شاهدناه وما صح عندنا مما حققه حذاقهم من التعديل فى الموالد ، والمناخات[٢١]، وتحاول السنين ثم قضوا به فأخطئوا وما تقع إصابتهم من خطأهم إلا فى جزء يسير ، فصح أنه تخرصٌ لا حقيقة فيه لاسيما دعواهم فى إخراج الضمير[٢٢] فهو كله كذب لمن تأمله ، وبالله تعالى التوفيق .

وكذلك قولهم فى الغيبيات[٢٣] أيضا ولو أمكن تحقيق تلك التجارب فى كل ما ذكرنا لصدقناها وما يبدو منها ولم يكن ذلك علم غيَّب لأن كلَّ ما قام عليه دليل من خط ، أو كف[٢٤] أو زجر أو تطير فليس غيبا لو صح وجه كل ذلك ، وإنما الغيب وعلمه : فهو أن يخبر المرء بكائنة من الكائنات دون صناعة أصلًا من شيء مما ذكرنا ، ولا من غيره فيصيب الجزئى والكلى ، وهذا لا يكون إلا لنبى وهى معجزة حينئذ . وأما الكهانة فقد بطلت بمجيء رسول الله ﷺ وكان هذا من إعلامه وآياته وبالله تعالى التوفيق .

---

(١٩) فى (أ) : سقطت كلمة (الموت) .
(٢٠) فى (أ) : (وما يخص) وهو تحريف .
(٢١) فى (أ) : (والمناجاة) .
(٢٢) أى معرفة ما فى داخل النفس من أسرار .
(٢٣) فى (أ) : (القرانات) .
(٢٤) فى (أ) : (كتف) وهو تحريف .

الكلام فى خلق الله تعالى للشىء أهو المخلوق نفسه أم غيره ..؟ وهل فعل من دون الله تعالى هو المفعول أم غيره ..؟

قال أبو محمد : ذهب قوم إلى أن خلق الشىء هو غير الشىء المخلوق ، واحتج هؤلاء بقول الله عز وجل : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم[١]» .

قال أبو محمد : ولا حجة فى هذه الآية لأن الإشهاد هاهنا هو الإحضار بالمعرفة ، وهذا حق لأن الله تعالى لم يحضرنا عارفين ابتداء خلق السماوات والأرض وابتداء أنفسنا ، ووجدنا من قال : إن خلق الشىء هو الشىء نفسه يحتج بقول الله عز وجل : « هذا خلق الله[٢]» الآية .

وهذه إشارة إلى جميع المخلوقات فقد سمى الله تعالى جميع المخلوقات كلها خلقًا له ، وهذا برهان لا يعارض .

قال أبو محمد : ثم نسأل من قال إن خلق الشىء غير الشىء ؟ فنقول له أخبرنا عن خلقه الله تعالى لما خلق أمخلوق هو أيضًا أم غير مخلوق ؟ ولابد من أحد الأمرين فإن قالوا : هو غير مخلوق أوجبوا بإزاء كل مخلوق شيئًا موجودًا غير مخلوق ، وهذا مضاهاة لقول الدّهرية ، والبرهان قد قام بخلاف هذا . وقال عزَّ وجل : « وخلق كل شىء فقدره تقديرا[٣]» .

وإن قالوا : بل خلق الله تعالى لما خلق مخلوق ، قلنا خلقه تعالى لذلك الخلق أبخلق أم بغير خلق ؟ فإن قالوا بغير خلق قيل لهم من أين قلتم إن خلقه الأشياء بخلق هو غير المخلوق وقلتم فى خلقه لذلك الخلق إنه بغير خلق ؟ وهذا تخليط وإن قالوا بل خلقه بخلق . سألناهم أبخلق[٤] هو هو أو بخلق هو غيره ؟ وهكذا أبدًا فإن وقفوا فى شىء من ذلك فقالوا : خلقه هو هو سألناهم عن

---

(١) الكهف : ٥١

(٢) لقمان : ١١

(٣) الفرقان : ٢

(٤) فى (أ) : (الخلق هو) .

الفرق بين ما قالوا إن خلقه هو غيره وبين ما قالوا إن خلقه هو هو . فإن تمادوا وأخرجوا إلى الوجود أشياء لا نهاية لها فهذا محال ممتنع . وقد قطع بهذا معمّر بن عمرو(٥) العطار ، أحد رؤساء المعتزلة ، وسنذكر كلامه بعد هذا إن شاء الله تعالى متصلًا بهذا الباب وبالله تعالى نتأيد . وأيضًا فإن الجميع يطبقون على أن الله عز وجل خلق ما خلق بلا معاناة(٦)، فإذ لا شك فى ذلك فقد صح يقينًا أنه لا واسطة بين الله وبين ما خلق ، ولا ثالث فى الوجود غير الخالق والمخلوق ، وخلق الله تعالى ما خلق حق موجود ، وهذا بلا شك مخلوق وهو بلا شك ليس هو الخالق فهو المخلوق نفسه ، بيقين لا شك فيه ، إذ لا ثالث هاهنا أصلًا وبالله تعالى التوفيق .

قال أبو محمد : وكل مَنْ دون الله تعالى يفعله(٧) هو مفعوله نفسه لا غير لأنه لا يفعل أحد دون الله تعالى إلا حركة أو سكونًا أو تأثيرًا أو معرفة أو فكرة إو إرادة ، ولا مفعول لشىء دون الله تعالى إلا ما ذكرنا فهى مفعولات الفاعلين وهى أفعال الفاعلين ، ولا فرق وماعدا هذا فإنما هو مفعول فيه كالمضروب والمقتول ، أو مفعول به كالسوط والإبرة وما أشبه ذلك ، أو مفعول له كالمطاع والمخدوم ، أو مفعول من أجله كالمكسوب والمحبوب فهذه أوجه المفعولات .

قال أبو محمد : وأما سائر أفعال الله تعالى فبخلاف ما قلنا فى الخلق ، بل هى غير المفعول فيه ، أو له ، أو به ، أو من أجله وذلك كالإحياء فهو غير المُحْيَا بلا شك ، وكلاهما مخلوق لله تعالى وخلقه تعالى لكل ذلك هو المخلوق نفسه كما قلنا ، وكالإماته فهى غير الممات ولو كان غير هذا أو كان الإحياء هو المحيا ، والإماته هى الممات وبيقين ندرى لو أن المحيا هو الممات نفسه لوجب أن يكون الإحياء هو الإماتة ، وهذا محال . وكالإبقاء هو غير المُبْقَى للبرهان الذى ذكرنا ، وبيقين ندرى أن الشىء غير أعراضه التى هى قائمة به وقتا ، وفانية عنه تارة ، وبالله تعالى التوفيق .

---

(٥) راجع ترجمته فى ص ٥٩ من هذا الجزء .
(٦) فى (أ) : (معاياة) .
(٧) فى (أ) : (فعله) .

« الكلام فى البقاء والفناء »

والمعانى التى يدَّعيها معمَّر والأحوال التى تدَّعيها الأشعرية ، وهل المعدوم شىء أم ليس شيئا ..؟ ومسألة الأجزاء وهل يتجدد خلق الله تعالى للأشياء أم لا يتجدد ..؟

قال أبو محمد : ذهب قوم إلى أن البقاء والفناء صفتان للباقى والفانى ، لا هما الباقى ولا الفانى ولا هما غير الباقى والفانى .

قال أبو محمد : وهذا قول فى غاية الفساد لأن القضية الثانية ، تنقض الأولى ، والأولى تنقض الثانية لأنه إذا قال : ليست هى هو[1] فقد أوجب أنها غيره ، وإذا قال ليست غيره فقد أوجب أنه هو ، وهذا تناقض ظاهر ، وأيضًا فإنه لا فرق بين قول القائل : ليس هو هو ، ولا غيره وبين قوله هو هو ، وهو غيره ، والمعنى فى كلتا القضيتين سواء . وأيضًا فلو كان البقاء ليس هو الباقى ، ولا هو غيره ، والفناء ليس هو الفانى ، ولا هو غيره ، والباقى هو الفانى نفسه ، والباقى ليس هو الباقى ، ولا هو غيره وهذا يزيد من الجنون ومن التناقض . وذهب معمَّر إلى أن الفناء صفة قائمة بغير الفانى .

قال أبو محمد : وهذا تخليط لا يعقل ولا يتوهم ولا يقوم عليه دليل أصلًا ، وما كان هكذا فهو باطل . والحقيقة فى ذلك ظاهرة وهى أن البقاء هو وجود الشىء وكونه ثابتًا قائمًا مدة زمان مًا فإذ هو قائم كذلك فهو صفة موجودة فى الباقى ، محمولة فيه ، قائمة به موجودة بوجوده فانيه بفنائه ، وأما الفناء فهو عدم الشىء وبطلانه جملة وليس هو شيئًا أصلا والفناء المذكور ليس موجودًا فى شىء ألبتة من الجواهر وإنما هو عدم العرض فقط كحمرة الخجل إذا ذهبت ، عُبِّر عن المعنى المراد بالإخبار عن ذهابها بلفظة الفناء . وكالغضب يفنى ويعقبه رضى وما أشبه ذلك ، ولو شاء الله أن يعدم الجواهر لقدر على ذلك ولكنه لم يوجد ذلك إلى الآن ولا جاء به نص فنقف عنده فالفناء عدم كما قلنا .

---

(١) فى (أ) : سقطت (هو) .

« الكلام فى المعدوم أهو شيء أم لا »

قال أبو محمد : رضى الله عنه وقد اختلف الناس فى المعدوم أهو شيء أم لا ؟ فقال أهل السنة وطوائف من المرجئة كالأشعرية وغيرهم ليس شيئًا ، وبه يقول هشام بن عمرو الفوطى ، أحد شيوخ المعتزلة ، وقال سائر المعتزلة المعدوم شيء . وقال عبد الرحيم[1] بن محمد بن عثمان الخياط أحد شيوخ المعتزلة إن المعدوم جسم فى حال عدمه ، إلا أنه ليس متحركا ولا ساكنًا ولا مخلوقًا ولا محدثًا فى حال عدمه .

قال أبو محمد : واحتج من قال إن المعدوم شيء بأن قالوا قال الله عز وجل « إن زلزلة الساعة شيء عظيم[2] » .

فقالوا : فقد أخبر الله عز وجل بأنها شيء وهى معدومة ، ومن الدليل على أن المعدوم شيء أنه يخبر عنه ، ويوصف ، ويتمنى ، ومن المحال أن يكون ما هذه صفته ليس شيئًا .

قال أبو محمد : أما قول الله عز وجل : « إن زلزلة الساعة شيء عظيم » فإن هذه القضية[3] موصولة بقوله تعالى : « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى » .

فإنما تم الكلام عند قوله يوم ترونها ، فصح أن زلزلة الساعة يوم ترونها شيء عظيم ، وهذا هو قولنا . ولم يقل تعالى قط إنها الآن شيء عظيم ثم أخبر تعالى بما يكون يومئذ من ذهول[4]

---

(١) هو : عبد الرحيم بن محمد بن عثمان ، أبو الحسن ابن الخياط شيخ المعتزلة ببغداد ، تنسب إليه فرقة منهم تدعى الخياطية ، ذكره الذهبى فى الطبقة السابعة عشرة وقال : لا أعرف وفاته ، وفى اللباب هو أستاذ الكعبى المتوفى سنة ٣١٧ هـ له كتب منها (الانتصار فى الرد على ابن الراوندى ، والاستدلال ونقض الحكمة (الأعلام : ١٣٣/٣) .

(٢) الحج : ١

(٣) فى (أ) : (القصة) .

(٤) فى (أ) : (هول) .

المرضعات ، ووضع الأحمال وكون الناس سكارى من غير خمر ، فبطل تعلقهم بالآية . وما نعلم أنهم شغبوا بشيء غيرها . وأما قولهم إن المعدوم يخبر عنه ، ويوصف ويتمنى ويسمًّى به فجهل شديد وظن فاسد ، وذلك أن قولنا فى شيء نذكر أنه معدوم ونخبر عنه أنه معدوم ، ويتمنى به إنما هو أن يذكر اسم مًّا فذلك الإسم موجود وبلا شك يعرف ذلك بالحس كقولنا العنقاء ، وابن آوى ، وحبير[٥] وابن عرس ونبوة مسليمة ، وما أشبه ذلك . ثم كل إسم ينطق به ويوجد ملفوظًا أو مكتوبًا فإنه ضرورة لابد له من أحد وجهين إما أن يكون له مسمى وإما أن يكون ليس له مسمى ، فإن كان له مسمى فهو موجود وهم شيء حينئذ وإن كان ليس له مسمى فإخبارنا بالمعدوم ، وتمنينا للمريض الصحة إنما هو إخبار عن ذلك الإسم الموجود وإنه ليس له مسمى ولا تحته شيء ، وتمنٍّ منَّا لأن يكون تحته مسمى فهكذا هو الأمر لا كما ظنه أهل الجهل ، فصح أن المعدوم لا يَخبر عنه ولا يَتمنى . ونسألهم عمن قال ليت لى ثوبًا أحمر ، وغلامًا أسود . أخبرونا هل الثّوب المتمنَّى به عندكم أحمر أم لا ؟ فإن أثبتوا معنى وهو الثوب أثبتوا عرضًا محمولا فيه وهو الحمرة ، فوجب أن المعدوم يحمل الأعراض وإن قالوا لم يتمن شيئًا أصلًا ، صدقوا وصح أن المعدوم لا يتمنى لأنه ليس شيئًا . ولا فرق بين قول القائل تمنيت لا شيء وبين قوله لم أتمن شيئًا بل هما متلائمان بمعنى واحد وهذا أيضًا يخرَّج على وجه آخر ، وهو أن يتمنى شيئًا موجودًا فى العالم كثوب موجود أو غلام موجود ، وأما من أخرج لفظة التمنّى لما ليس فى العالم فلم يتمن شيئًا . وأما قولهم يوصف فطريق عجب جدًّا لأن معنى قول القائل يوصف إخبار بأن له صفة محمولة فيه ، موجودة به فليت شعرى كيف يَحمل المعدوم الصفات من الحمرة والخضرة ، والقوة والطول ، والعرض ، إن هذا لعجب جدا فظهر فساد ما موَّهوا به والحمد لله رب العالمين .

قال أبو محمد : فإذ قد عرى قولهم من الدليل فقد صح أنه دعوى كاذبة ثم نقول وبالله تعالى التوفيق من البرهان على أن المعدوم إسم لا يقع على شيء أصلا قول الله عز وجل : « وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا[٦] » وقوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا[٧] » وقوله تعالى : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا[٨] » وقال عز وجل : « إنا كل شيء خلقناه بقدر[٩] » .

فيلزمهم ولابد : إن كان المعدوم شيئًا أن يكون مخلوقًا بَعْدُ ، وهم لا يختلفون فى أن المخلوق

---

(٥) حبير : الثوب الناعم الموشى (المعجم الوسيط ١/١٥٢) .
(٦) مريم : ٩
(٧) الدهر : ١
(٨) الفرقان : ٢
(٩) القمر : ٤٩

موجود ، وقد وجد وقتًا من الدهر فالمعدوم على هذا موجود وقد كان موجودًا وهذا خلاف قولهم وهذا غاية البيان ، فى أن المعدوم ليس شيئًا .

قال أبو محمد : ونسألهم ما معنى قولنا شيء ؟ فلا يجدون بُدًّا من أن يقولوا : إنه الموجود وأن يقولوا : هو كل ما يخبر عنه ، فإن قالوا هو الموجود صاروا إلى الحق ، وإن قالوا هو كل ما يُخبر عنه قلنا لهم : إن المشركين يخبرون عن شريك لله عز وجل قال تعالى : « اين شركائى(١٠) » .

قال أبو محمد : وهذا معدوم لا مدخل له فى الحقيقة ، واسم لا مسمى تحته ، فإن قالوا : إن شركاء الله تعالى أشياء كانوا قد أفحشوا ، وأيضًا فإنه قد اتفقت جميع الأمم لا نحاشى أمة على القول : أن المعدوم ليس شيئا أو لا شيء . أو ما يعبر به فى كل لغة عن شيء وعن لا شيء إلا أن المعنى واحد ، فلو كان المعدوم شيئا لكان ما اجتمعوا عليه بلا شيء وليس شيئًا ولم يكن شيئًا باطلًا ، وهذا رد على جميع عقول أهل الأرض مذ كانوا إلى أن يفنى العالم ، فصح أن الموجود هو الشيء فإذ هو الشيء فبضرورة العقل ندرى أن اللا شيء هو المعدوم ثم نسألهم أيقولون : إن المعدوم عظيم أو صغير أو حسن أو قبيح أو طويل أو قصير أو ذو لون فى حال عدمه ؟ فإن أبوا من هذا تناقض قولهم وسئلوا عن الفرق بين قولهم إنه شيء وبين قولهم إنه حسن أو قبيح أو صغير أو كبير ، وكيف قالوا إنه شيء ثم قالوا : أنه ليس حسنًا ولا قبيحًا ولا صغيرًا ولا كبيرًا ؟ فإن قالوا : نعم أوجبوا أن المعدوم يَحمل الأعراض والصفات ، وهذا تخليط ناهيك به . وسئلوا فى ماذا يحمل الصفات أفى ذاته أو فى ماذا ..؟ فإن قالوا فى ذاته أوجبوا أن له ذاتًا وهذه صفة الموجود ضرورة . وإن قالوا بل يحمل الصفات فى غيره ، كان ذلك أيضًا عجبًا زائدًا ومحالًا لا خفاء به .

قال أبو محمد : ونسألهم هل الإيمان موجود من أبى جهل أو معدوم ؟ فإنَّ قولهم بلا شك إنه معدوم منهم ، فنسألهم عن إيمان أبى جهل المعدوم أحسن هو أم قبيح ؟ فإن قالوا : لا حَسن ولا قبيح قلنا لهم : أيكون يعقل إيمان ليس حسنا ؟ هذا عظيم جدًّا وإن قالوا بل هو حسن أوجبوا أنه حامل للحسن . وكذلك نسألهم عن الكفر المعدوم من الأنبياء عليهم السلام أقبيح هو أم لا ؟ فإن قالوا : لا أوجبوا كفرا ليس قبيحا ، وإن قالوا : بل هو قبيح أوجبوا أن المعدوم يحمل الصفات ونسألهم عن ولد العقيم المعدوم منه أصغير هو أم كبير أم عاقل أم أحمق ؟ فإن منعوا من وجود شيء من هذه الصفات له كانِ عجبا أن يكون ولد لا صغير ولا كبير ولا حى ولا ميت ، وإن وصفوه بشيء من هذه الصفات أتوا بالزيادة من المحال . ونسألهم عن الأشياء المعدومة ألها عدد أم لا عدد لها ؟ فإن قالوا : لا عدد لها كانوا قد أتوا بالمحال إذ أقروا بأشياء لا عدد لها ، وإن قالوا بل لها عدد

(١٠) النحل : ٢٧

كان ذلك عجبًا جدًا ومحالًا لا خفاء به . وسألناهم عن الأولاد المعدومين من العاقر والعقيم كم عددهم ؟ ونسألهم عن الأشياء المعدومة أهى فى العالم ومن العالم أم ليست فى العالم ولا من العالم ؟ فإن قالوا : هى فى العالم ومن العالم ، سألناهم عن مكانها فإن حددوا لها مكانًا سخفوا ما شاءوا وإن قالوا لا مكان لها ، قيل وكيف يكون شىء فى العالم لا مكان له فيه ولا حامل .

قال أبو محمد : ويلزمهم أن المعدومات إذا كانت أشياء لا عدد لها ولا نهاية ولا مبدأ فإنها لم تزل . وهذه دهرية محققة وكفر مجرد أن تكون أشياء لا تحصى كثرة لم تزل مع الله تعالى . ونعوذ بالله من مثل هذا الهوس .

قال أبو محمد : وقد ادَّعوا أن المعدوم يُعلم وهذا جهل منهم بحدود الكلام لاسيما ممن أقر بأن المعدوم لا شىء ، وادّعى مع ذلك أنه يعلم ، فألزمناهم على ذلك أنهم يعلمون لا شىء ، وأن الله تعالى يعلم لا شىء فجسر بعضهم على ذلك . فقلنا له : إن قولك علمت لا شىء ، وعلم الله تعالى لا شىء ، ملائم لقولك لم أعلم شيئا ، ولقولك لم يعلم الله تعالى شيئًا ، لا فرق بين معنى القضيتين ألبتة بل هما واحد وإن اختلفت العبارتان ، وإذ هو كذلك فقد صح أن المعدوم لا يعلم فإن ألزمنا على هذا وسألنا هل يعلم الله تعالى الأشياء قبل كونها أم لا ؟ قلنا لهم : لم يزل الله تعالى يعلم أن ما يخلقه أبدا إلى ما لا نهاية له فإنه سيخلقه ويرتبه على الصفات التى يخلقها فيها إذا خلقه ، وأنه سيكون شيئًا إذا كوَّنه ، ولم يزل عز وجل يعلم أن ما لم يُخْلَق بعد فليس هو شيئًا حتى يخلقه ، ولم يزل تعالى يعلم أنه لا شىء معه وأنَّه سيُكوِّن الأشياء أشياءَ إذا خلقها ، لأنه تعالى إنما يعلم الأشياء على ما هى عليه لا على خلاف ما هى عليه لأن من علمها على خلاف ما هى عليه فلم يعلمها ، بل جهلها وليس هذا علما بل هو ظن كاذب وجهل . وبرهان هذا قول الله عز وجل : « ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم[(١١)] » .

« ولو » فى لغة العرب التى خاطبنا الله تعالى بها : حرفٌ يدل على امتناع الشىء لامتناع غيره فصح أنه تعالى لم يسمعهم لأنه لم يعلم فيهم خيرًا إذ لا خير فيهم ، فصح أن المعدوم لا يعلم أصلًا ولو عُلم لكان موجودًا ، وإنما يعلم الله تعالى أن لفظة المعدوم لا مسمًّى لها ، ولا شىء تحتها ، ويعلمْ عز وجل الآن أن الساعة غير قائمة ، وهو الآن تعالى لا يعلمها قائمة ، بل يعلم أنه سيقيمها فتقوم فتكون قيامة وساعة ، ويوم جزاء ، ويوم بعث ، وشيئًا عظيمًا ، حين يخلق كل ذلك لا قبل أن يخلقه ، فأما علمه تعالى أنه سيقيمها فتقوم فهو موجود حق فهذا معنى إطلاق العلم على ما لم يكن بعد من المعدومات كما أننا لا نعلم الشمس الآن طالعة طلوعها فى غدٍ ، بل

---

(١١) الأنفال : ٢٣

نعلم أنها ستطلع غدا وكذلك لا نعلم موت الأحياء الآن ، بل نعلم أن الله تعالى سيخلق موتهم فيعلمه موتا لهم إذا خلقه لا قبل ذلك . وبالله تعالى التوفيق . وقال تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين[١٢]» .

فهذا نص جلى على أن المعدوم لا يُعلم لأن الله تعالى أخبر أنه لا يُدخل الجنة من لا يعلمه الله تعالى مُجاهدا ، ولا صابرا ، فصح أن من لم يجاهد ولا صبر فلم يعلمه تعالى قط مجاهدًا ولا صابرًا ولا علم له جهادًا ، ولا صبرًا وإنما علمه غيرَ مجاهد وغير صابر ، ولم يزل تعالى يعلم أن من كان منهم سيجاهد وسيصبر فإنه لم يزل يعلم أنه سيجاهد وسيصبر فإذا جاهد وصبر علمه حينئذ صابرًا مجاهدًا والعلم لا يستحيل لأنه ليس شيئًا غير البارى تعالى ، وإنما استحال المعلوم فقط ثم نسألهم هل يعلم الله تعالى لحية الأطلس[١٣]، وقَنَا الأفطس أم لا يعلم ذلك ؟ وهل يعلم الله تعالى أولاد العقيم ، وإيمان الكافر ، وكفر المؤمن ، وكذب الصادق ، وصدق الكاذب ، أم لا يعلم شيئًا من ذلك ؟ فإن قالوا : إن الله تعالى لا يعلم للعقيم أولادا ، وإنما يعلمه لا ولد له ، ولا يعلم لحية الأطلس بل يعلمه غير ذى لحية ، صدقوا وعادوا إلى الحق وبالله تعالى التوفيق .

---

(١٢) آل عمران : ١٤٢

(١٣) الأطلس : الذئب الأمعط فى لونه غبرة إلى السود . والرجل إذا رمى بقبيح ، والأسود كالحبشى ونحوه والمقصود أن الذئب لا تنبت له لحية فهى من قبيل المستحيل عند الناس .

« الكلام فى المعانى على قول معمّر »

قال أبو محمد : وأما معمّر ومن اتبعه فقالوا : إنا وجدنا المتحرك والساكن فأيقنا أن معنًى حدث فى المتحرك به فارق الساكن فى صفته ، وأن معنًى حدث فى الساكن به أيضًا فارق المتحرك فى صفته ، وكذلك علمنا أن فى الحركة معنًى به فارقت السكون ، وأن فى السكون معنًى به فارق الحركة .

وكذلك علمنا أن فى ذلك المعنى الذى خالفت به الحركة السكون ، معنى به فارق المعنى الذى به فارقه السكون ، وهكذا أبدًا أوجبوا أن فى كل شىء فى هذا العالم من جوهر أو عرض أى شىء كان معانى فارق بكل معنًى منها كل ما عداه فى العالم ، وكذلك أيضًا فى تلك المعانى لأنها أشياء موجودة متغايرة ، وأوجبوا بهذا وجود أشياء فى زمان محدود فى العالم لا نهاية لعددها .

قال أبو محمد : هذه جملة كل ما شغبوا به إلا أنهم فصّلوها ومدوها فى الكفر والكافر ، والإيمان والمؤمن ، وفى غير ذلك مما هو المعنى الذى أوردناه بعينه ، ولا زيادة فيه أصلًا .

قال أبو محمد : وهذا ليس شيئًا لأننا نقول لهم وبالله تعالى التوفيق : العالم كله قسمان جوهر حامل ، وعرض محمول ولا مزيد ، ولا ثالث فى العالم غير هذين القسمين ، هذا أمر يعرف بضرورة العقل وضرورة الحس ، فالجواهر مغايرة بعضها لبعض بذواتها التى هى أشخاصها يعنى بالغيريَّة فيها ، وتختلف أيضًا بجنسها ، وهى أيضًا مفترق بعضها من بعض بالعرض المحمول[١] فى كل حامل من الجواهر . وأما الأعراض : فمغايرة للجواهر بذواتها بالغيرية فيها ، وكذلك هى[٢] أيضًا بعضها مغاير لبعض بذواتها ، وبعضها مفارق لبعض بذواتها ، وإن كان بعض الأعراض أيضًا قد تَحْمِلِ الأعراض كقولنا حمرة مشرقة ، وحمرة كدرة ، وعمل سىء ، وعمل صالح ، وقوة شديدة ،

---

(١) فى (أ) : المحوّل .
(٢) فى (أ) : هذه .

وقوة دونها فى الشدة ، ومثل هذا كثير إلا أن كل هذا يقف فى عدد متناهٍ لا يزيد . هذا أمر يعلم بالحس والعقل ؛ فالمتحرك يفارق الساكن هذا بحركته وهذا بسكونه والحركة تفارق السكون بذاتها ، ويفارقها السكون بذاته وبالنوعية والغيرية ، والحركة إلى الشرق تفارق الحركة إلى الغرب بكون هذه إلى الشرق وكون هذه إلى الغرب بذاته وبالغيريَّة فقط وهكذا فى كل شىء .

فكل شيئين وقعَا تحت نوع واحد مما يلى الأشخاص فإنهما يختلفان بغيريتهما ، فإن كانا وقعًا تحت نوعين فإنهما يختلفان بالغيريَّة فى الشخص وبالغيرية فى النوع أيضًا ، والغيريَّة أيضًا لها نوع جامع لجميع أشخاصها إلا أن كل ذلك واقف عند حدٍّ من العدد لا يزيد ولابد . ثم نسألهم خبرٌونا عن المعانى التى تدَّعونها فى حركة واحدة أيما أكثر أهى أم المعانى التى تدعونها فى حركتين ؟ فإن أثبتوا قلة وكثرة تركوا مذهبهم وأوجبوا النهاية فى المعانى التى نَفَوْا النهاية عنها ، وإن قالوا : لا قلة ولا كثرة هاهنا كابروا وأتوا بالمحال الناقض أيضًا لأقوالهم ، لأنهم إذا أوجبوا للحركة معنى أوجبوا للحركتين معنيين وهكذا أبدا ، فوجبت الكثرة والقلة ضرورة لا محيد عنها .

قال أبو محمد : فلم يكن لهم جواب أصلًا إلا أن بعضهم قال أخبرونا أليس الله تعالى قادرًا على أن يخلق فى جسم واحد حركات لا نهاية لها ؟

قال أبو محمد : فجواب أهل الإسلام فى هذا السؤال : نعم . وأما من عجَّز ربه فأجابوا بلا . وسقط هذا السؤال عنهم وكان سقوط الإسلام عنهم بهذا الجواب أشد من سقوط سؤال أصحاب معمّر .

قال أبو محمد : فتمادى سؤالهم لأهل الحق فقالوا فأخبرونا أيما أكثر ما يقدر الله تعالى عليه من خلقِ لحركات فى جسمين أو ما يقدر عليه من خلق الحركات فى جسم واحد ؟ فكان جواب أهل الحق فى ذلك أنه لا يقع عدد على معدوم ، ولا يقع العدد إلا على موجود معروف ، والذى يقدر الله تعالى عليه ولم يفعله فليس هو بعد شيئًا ، ولا له عدد ولا هو معدود ولا نهاية لقدرة الله تعالى وأما ما يقدر عليه تعالى ولم يفعله فلا يقال فيه إن له نهاية ولا أنه لا نهاية له ، وأما كل ما خلق تعالى فله نهاية بعد ، وكذلك كل ما يخلق فإذا خلقه حدثت له نهاية حينئذ لا قبل ذلك . وأما المعانى التى تدَّعونها فإنكم تزعمون[٣] أنها موجودة قائمة فوجب أن تكون لها نهاية ، فإن نفيتم النهاية عنها لحقتم بأهل الدهر وكلمناكم بما كلمناهم به مما قد ذكرنا قبل وبالله تعالى التوفيق .

* * *

(٣) فى (أ) : (تدَّعون) .

ثم لو تثبت لكم هذه العبارة من قول القائل إنَّ ما يقدر الله تعالى عليه لا نهاية لعدده ، وهذا لا يصح ، بل الحق فى هذا أن يقول : إن الله تعالى قادر على أن يخلق ما لا نهاية له فى وقت ذى نهاية ومكان ذى نهاية ، ولو شاء أن يخلق ذلك فى وقت غير ذى نهاية ، ومكان غير ذى نهاية لكان قادرًا على ذلك لما وجب من ذلك إثبات ما ادعيتم من وجود معان فى وقت واحد لا نهاية لها ، إذ ليس هاهنا عقل يوجب ذلك ، ولا قرآن[٤] يوجب ذلك ، ولا خبر يوجب ذلك ، وإنما هو قياس منكم ، إذ قلتم لمَّا كان قادرًا على أن يخلق ما لا نهاية له قلنا : إنه قد خلق ما لا نهاية له ، فهذا قياس والقياس كله باطل ، ثم لو كان القياس حقًا لكان هذا منه باطلا ، لأنه بزعمكم قياسُ موجودٍ على معدوم وقياسٌ وتشبيه لما قد خلقه بزعمكم على ما لم يخلقه ، وهذا فى غاية الفساد ، ولا فرق بينكم فى هذا القياس الفاسد وبين من يقول : إن فى بلد كذا قومًا يشمُّون من عيونهم ، ويسمعون من أنوفهم ، ويذوقون من آذانهم ، ويبصرون من ألسنتهم ، فإذا كُذِّب فى ذلك وسئل برهانًا على دعواه قال أتقرون أن الله تعالى قادر على خلق ذلك فقلنا له نعم ، قال هذا دليل على صحة دعواى بل أنتم أسوأ حالًا لأن هذا أخبر عن متوهم ، لو كان ، كيف كان يكون ؟ وأنتم تخبرون عن غير متوهم فى النفس ولا متشكل فى العقل وهو إقراركم بوجود معانٍ لا نهاية لعددها فى وقت واحد . »

قال أبو محمد : فبطل هذا القول الفاسد والحمد لله رب العالمين . وكان يكفى من بطلانها أنها دعوى لا برهان على صحتها وهى دعوى فاسدة غير ممكنة بل هى محال لا يتوهم ولا يُتشكل وبالله تعالى التوفيق .

---

(٤) فى (أ) : سقط (ولا قرآن يوجب ذلك)

« الكلام فى الأحوال مع الأشعرية ومن وافقهم »

قال أبو محمد : وأما الأحوال التى ادعتها الأشعرية فإنهم قالوا : إن هاهنا أحوالًا ليست حقًّا ولا باطلًا ، ولا هى مخلوقة ولا هى غير مخلوقة ، ولا هى موجودة ولا هى معدومة ، ولا هى معلومة ولا هى مجهولة ولا هى أشياء ، ولا هى لا أشياء .

وقالوا : من هذا علم العالم بأن له علما ، ووجوده لوجوده قالوا : فإن قلتم : إن لكم علمًا بأن لكم علمًا بالبارى تعالى وبما تعلمونه ، وأن لكم وجودًا لوجودكم ما تجدونه ؟ سألناكم ألكم علم بعلمكم بأن لكم علمًا ؟ وهل لكم وجود لوجودكم ما تجدونه ، فإن أقررتم بذلك لزمكم أن تسلسلوا هذا أبدا إلى ما لا نهاية له ودخلتم فى قول أصحاب معمّر والدهرية ، وإن منعتم من ذلك سئلتم عن صحة الدليل على صحة منعكم ما منعتم من ذلك ، وصحة إيجابكم ما أوجبتم من ذلك ، وكذلك قالوا فى قدم القديم وحدث المحدث ، وبقاء الباقى ، وفناء الفانى ، وظهور الظاهر ، وخفاء الخافى ، وقصد القاصد ، ونية الناوى ، وزمان الزمان ، وما أشبه ذلك ، وقالوا : لو كان للباقى بقاء ولبقاء الباقى بقاء ، وهكذا أبدًا إلى ما لا نهاية له .

قالوا : أفهذا يوجب وجود أشياء لا نهاية لها ؟ وهذا محال وهكذا قالوا فى قدم القديم ، وقدم قدمه ، وقدم قديم قدمه إلى ما لا نهاية له ، وفى حدوث المحدث ، وحدوث حدثه ، وحدوث حدث حدثه ، إلى ما لا نهاية له ، وهكذا قالوا فى زمان الزمان ، وزمان زمان الزمان إلى ما لا نهاية له ، وفى فناء الفانى وفناء فنائه وفناء فناء فنائه إلى ما لا نهاية له ، وكذلك ظهور الظاهر ، وظهور ظهوره ، وظهور ظهور ظهوره ، إلى ما لا نهاية له ، وكذلك القصد ، والقصد إلى القصد ، والقصد إلى القصد إلى القصد ، وهكذا إلى ما لا نهاية له ، وكذلك النية ، والنية للنية ، والنية للنية للنية ، إلى ما لا نهاية له ، وكذلك تحقيق الحق ، وتحقيق تحقيق الحق ، إلى ما لا نهاية له .

قال أبو محمد : رضى الله عنه أفكار السوء إذا ظن صاحبها أنه يدقق فيها فهى أضرّ عليه

لأنها تخرجه إلى التخليط[١] الذى ينسبونه إلى السوفسطائية وإلى الهذيان المحض وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا .

قال أبو محمد : والكلام فى هذا أبين من أن يشكل على عامى فكيف على فَهِم فكيف على عالم ؟ والحمد لله . ونحن نتكلم على هذا إن شاء الله عز وجل كلامًا ظاهرًا لائحًا لا يخفى على ذى حس سليم وبالله تعالى نتأيد .

فنقول وبالله تعالى التوفيق : أما القدم[٢] فإنه من صفات الزمن ومن فيه تقول ملك أقدم من ملك ، وزمان أقدم من زمان ، وشيخ أقدم من شيخ ، أى أنه متقدم بزمانه عليه ، والزمان متقدم بذاته على الزمان ليس فى العالم قديم قدم[٣] الأزمان . هذا هو حكم اللغة التى لا يوجد فيها غيره أصلًا ، فالقدم هو المتقدم ، والتقدم متقدم بنفسه على غيره فقط ، لأن القدم موجود معلوم وهى صفة المتقدم فلا يجوز إنكاره وأما قدم القديم فباطل لأنه لم يأت به نص ولا قام بوجوده دليل ، وما كان هكذا فهو باطل . وأما وجود الموجود فبضرورة الحسن أن الموجود حق ، وأنه يقتضى واجدا وأن الواجد يقتضى وجودًا لما وجد ، هو فعل الواجد وصفته فهو حق لما ذكرنا . ووجود الواجد يوجد بذاته لا بوجودٍ هو غيره لأن وجود الوجود لم يأت به نص ولا برهان وما كان هكذا فهو باطل .

وأما البارىء عز وجل فإنه يجد نفسه ويعلمها ويجد ما دونه ويعلمه بذاته لا بوجود هو غيره ، ولا بعلم هو غيره فقط ، وكذلك العالم منا يقتضى علمًا ، ولابدّ هو فعل العالم وصفته المحمولة فيه عرضًا بيقين ، ويزيد ويذهب ويثبت أطوارا . هذا ما لا شك فيه ، والعالم منا يعلم أنه يحمل علمًا ، بعلمه ذلك لا بعلمٍ هو غير علمه ، لأن العلم بالعلم لم يوجب وجوده نص ولا برهان وما كان هكذا فهو باطل ، وكذلك الباقى مثاله بلا شك بقاء هو اتصال وجوده مدة بعد مدة ، وهذا معنى صحيح لا يجوز أن ينكره عاقل ، فأما بقاء البقاء فلم يأت بإيجاب وجوده نص ولا قام به برهان ، وما كان هكذا فهو باطل ، ولا يجوز أن يوصف الله بالبقاء ولا بأنه باق ، كما لا يوصف بالخلد ولا بأنه خالد ، ولا بالدّوام ولا بأنه دائم ، ولا بالثّبات ولا بأنه ثابت ، ولا بطول العمر ، ولا بطول المدة ، لأن الله عزّ وجل لم يسمِّ نفسه بشىء من ذلك ، لا فى القرآن ولا على لسان نبيه ﷺ ، ولا قاله قط أحد من الصحابة رضى الله عنهم ، ولا قام به برهان بل

---

(١) فى (أ) : (التخطيط) وهو تحريف .
(٢) فى (أ) : (العدم) وهو تحريف .
(٣) فى (أ) : (قدم قديم إلا زمنى) .

البرهان قام ببطلان ذلك لأن كل ما ذكرنا من صفات المخلوقين ، ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بشيء من صفات المخلوقين إلا أن يأتى نص بأن يسمى باسمٍ ما فيوقف عنده .

ولأن كل ما ذكرنا أعراض فيما هى فيه ، والله تعالى لا يحمل الأعراض ، وأيضًا فإنه عز وجل لا فى زمان ، ولا يمر عليه زمان ، ولا هو متحرك ، ولا ساكن ، لكن يقال لم يزل الله تعالى ولا يزال ، وأما الفناء فإنه مدة للعدم بعدِّها أجزاء الحركات والسكون ولا يجوز أن يكون للمدة مدة لكنها مدة فى نفسها ولنفسها فالقول بالزمان حق لأنه محسوس معلوم وأما القول بزمان الزمان فهو شيء لم يأت به نص ولا قام بصحته برهان ، وما كان هكذا فهو باطل . وأما ظهور الظاهر فهو متيقن معلوم ، والظهور صفة الظاهر وفعله ، تقول ظهر يظهر ظهورًا ، والظهور معلوم ظاهر بنفسه ، ولا يجوز أن يقال إن للظهور ظهورًا لأنه لم يأت به نص ولا قام بصحته برهان ، وما كان هكذا فهو باطل ، وأما خفاء الخافى فهو عدم ظهوره ، والعدم ليس شيئًا كما قدمنا وأما القصد إلى الشيء والنية له فإنما هما فعل القاصد والناوى وإرادتهما الشيء ، والقول بهما واجب لأنهما موجودان بالضرورة يجدهما كل أحد من نفسه ويعلمها من غيره علمًا ضروريًا . وأما القصد إلى القصد ، والنية للنية فباطل لأنه لم يأت بهما نص ولا أوجبهما دليل ، وما كان هكذا فهو باطل والقول به لا يجوز فهذا وجه البيان فيما خفى عليهم ، حتى أتوا فيه بهذا التخليط والحمد لله رب العالمين .

قال أبو محمد : ثم نقول لهم أخبرونا إذا قلتم هذه الأحوال(٤) أهى معان ومسميات مضبوطة محدودة متميز بعضها من بعض ؟ أم ليست معانى أصلًا ، ولا لها مسمَّيات ، ولا هى مضبوطة ، ولا محدودة ، ولا متميّز بعضها من بعض ؟ فإن قالوا ليست معانى أصلا ، ولا لها مسميات ، ولا هى مضبوطة ولا محدودة ، ولا متميز بعضها من بعض ولا لتلك الأسماء مسميات أصلا ؟ قيل لهم فهذا هو معنى العدم حقًا فلِمَ قلتم إنها ليست معدومة ؟ ثم لِمَ سميتموها أحوالًا وهى معدومة ؟ ولا تكون التسمية إلا شرعية أو لغوية وتسميتكم هذه المعانى أحوالا ليست تسمية شرعية ، ولا لغوية ولا مصطلحًا عليها لبيان ما يقع عليه ، فهى باطل محض بيقين . فإن قالوا هى معان مضبوطة ولها مسميات محدودة متميزة بعضها من بعض قيل لهم : هذه صفة الموجود ولابدَّ فلِمَ قلتم إنها ليست موجودة ؟ وهذا ما لا مخلص لهم منه وبالله تعالى التوفيق .

قال أبو محمد : ويقال لهم أيضًا هذه الأحوال التى تقولون أمعقولة هى أم غير معقولة ؟ فإن قالوا : هى معقولة كانوا قد أثبتوا لها معانى وحقائق من أجلها عقلت فهى موجودة ولابدَّ . والعدم ليس معقولا لا كُنْهَ(٥) ولا مَعْنَى لهذه اللفظة أصلًا وبالله تعالى التوفيق .

---

(٤) فى (أ) : (أحوال) .
(٥) فى (أ) : (لكنه لا معنى) وهو تحريف .

ويقال لهم أيضًا : هل الأحوال فى اللغة وفى المعقول إلا صفات لذى حال ، وهل الحال فى اللغة إلا بمعنى التحول من صفة إلى أخرى ؟ يقال هذه حال فلان اليوم . وكيف كانت حالك أمس ؟ وكيف يكون الحال غدا ؟ فإذ الأمر هكذا ولابد فهذه الأحوال موجودة حقًّا مخلوقة ولابد ، فظهر فساد قولهم وإنه من أسخف الهذيان والمحال الممتنع الذى لا يرضى به عاقل .

ويقال لهم أيضًا قبل كل شيء وبعده : فمن أين سميتم هذا الإسم يعنى الأحوال ؟ ومن أين قلتم لا هى معلومة ، ولا هى مجهولة ، ولا حق ، ولا باطل ، ولا مخلوقة ، ولا غير مخلوقة ، ولا معدومة ، ولا موجودة ولا هى أشياء ولا غير أشياء ؟ أى دليل حدابكم إلى هذا الحكم أقرآن أم سنة أم إجماع أم قول مقدَّم(٦) أم لغة ، أم ضرورة عقل ، أم دليل إقناعى أم قياس ؟ فهاتوه ولا سبيل إليه فلم يبق إلا الهذر والهوس وقلة المبالاة بما يكتبه الملكان ويسأل عنه رب العالمين والتهاون باستخفاف أهل العقول لمن قال بهذا الجنون ولا مزيد ، ونعوذ بالله من الخذلان . وما ينبغى لهم بعد هذا أن ينكروا على من أتى بما لا يُعقل ككون الجسم فى مكانين ، والجسمين فى مكان واحد ، وكون شيء قائمًا قاعدًا وكون أشياء غير متناهية فى وقت واحد ، فإن قالوا : هذا كفر ، قيل لهم بل الكفر بما جئتم به لأنه إبطال الحقائق كلِّها ، والعجب كل العجب أنهم لا يجوّزون قدرة الله تعالى على ما هو محال عندهم ، وقد أتوا فى هذا الفصل بعين(٧) المحال . ونعوذ بالله من الخذلان .

قال أبو محمد : وكلامهم فى هذه المسألة كلام ما سمع بأسخف منه ، ولا قول السوفسطائية ، ولا قول النصارى ، ولا قول الغالية ، على أن هذه الفرق أحمق الفرق أقوالا . أما السوفسطائية فإنهم قطعوا على أن الأشياء باطل لا حق ، أو أنها حق عند من هى عنده حق ، وباطل عند من هى عنده باطل ، وأيها لا ندرى(٨). وأما النصارى والغالية فقد(٩) كانت هاتان الفرقتان قد أتتا بالعظائم فإنهم قطعوا بأنها حق .

وأما هؤلاء المخاذيل فإنهم أتوا بقول حققوه وأبطلوه ، ولم يحققوه ولا أبطلوه فكل ذلك مَعًا فى وقت واحد من وجه واحد وهذا لا يأتى به إلا مُبَرْسِم ، أو مخبول ، أو ماجن يريد أن يُضحك من معه .

قال أبو محمد : ونحن نتكلف بيان هذا التخليط الذى أتوا به وإن كان مكتفيًا بسماعه ،

---

(٦) فى (أ) : (متقدم) .
(٧) فى (أ) (بين) .
(٨) فى (أ) : سقط (وأيها لا ندرى) .
(٩) فى (أ) : (فإن) .

ولكن التزيد من إبطال الباطل ما أمكن حسن فنقول وبالله التوفيق : إن قولهم : لا هى حق ولا هى باطل ، فإنَّ كل ذى حس سليم يدرى أن كل ما يكون حقًا فهو باطل ، وما لم يكن باطلًا فهو حق ، هذا لا يعقل غيره ، فكيف وقد قال الله عز وجل : « فماذا بعد الحق إلا الضلال[١٠] » . وقال تعالى : « ليحق الحق ويبطل الباطل[١١] » وقال تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون[١٢] » وقال تعالى : « وخلق كل شىء[١٣] » وقال تعالى : « أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا » وقال تعالى : « فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم[١٤] » .

قال أبو محمد : وهؤلاء قوم ينتمون إلى الإسلام ويصدقون القرآن ، ولولا ذلك ما احتججنا عليهم به[١٥] فقد قطع الله تعالى أنه ليس إلا حق أو باطل ، وليس إلا علم أو جهل ، وهو عدم العلم ، وليس إلا وجود أو عدم ، وليس إلا شىء مخلوق أو الخالق أو لفظة العدم التى لا تقع على شىء ولا على مخلوق فقد أكذبهم الله عز وجل فى دعواهم . ولا شك ذو حس سليم أن ما لم يكن باطلًا فهو حق ، وما لم يكن حقا فهو باطل ، وما لم يكن معلوما فهو مجهول ، وما لم يكن مجهول فهو معلوم ، وما لم يكن شيئًا فهو لا شىء ، وما لم يكن لا شىء فهو شىء ، وما لم يكن موجودًا فهو معدوم ، وما لم يكن معدومًا فهو موجود ، وما لم يكن مخلوقًا فهو غير مخلوق ، وما لم يكن غير مخلوق فهو مخلوق ، هذا كله معلوم ضرورة لا يعقل غيره ، فإذ هذا كذلك فلا فرق بين ما قالوه فى هذه القضية وبين القول اللازم لهم ضرورة وهو أن تلك الأحوال معدومة موجودة معا ، حق باطل معًا ، معلومة مجهولة معًا ، مخلوقة غير مخلوقة معًا ، شى لا شىء معًا ، وهذا هو نفس قولهم ومقتضاه لأنهم إذا قالوا ليست حقا فقد أوجبوا أنها باطل ، وإذ قالوا ولا هى باطل فقد أوجبوا أنها حق ، وهكذا فى سائر ما قالوه فاعجبوا لعقول رسخ هذا فيها وسخموا به ورقهم ، وعجب آخر وهو قولهم إن هاهنا أحوالا ولفظة « هاهنا » معناها الإثبات بلا شك فهى موجودة ثابتة بلا شك .

قال أبو محمد : ولم يتخلصوا بهذا من قول معمّر فى وجوب وجود أشياء لا نهاية لها ، أو أن يصيروا إلى قولنا فى إبطال هذه التى يسمونها أحوالا وإعدامها جملة ، وما نعلم هوسًا إلا وقد انتظمته هذه المقالة ونعوذ بالله من الخذلان .

---

(١٠) يونس : ٣٢
(١١) الأنفال : ٨
(١٢) الزمر : ٩
(١٣) الفرقان : ٢
(١٤) الأعراف : ٤٤ ، ٤٥
(١٥) فى (أ) : سقطت (به) .

مسألة أخرى :

قال أبو محمد : قالت الأشعرية ليس فى العالم شيء له بعضٌ أصلا ، ولا شيء له نصف ، ولا ثلث ، ولا ربع ، ولا خُمس ، ولا سدس ، ولا سبع ، ولا ثمن ، ولا تسع ، ولا عشر ، ولا جزء أصلا ، واحتجوا فى هذا بأن قالوا : يلزم من قال إن الواحد عشر العشرة ، وجزء من العشرة ، وبعض العشرة أن يقول ولابد : إن الواحد عشر من نفسه ، وجزء من نفسه ، وبعض نفسه ، وهو جزء لغيره ، وبعض لغيره وعشر لغيره ، لأن العشرة تسعة وواحد ، فلو كان الواحد عشر العشرة وبعضا للعشرة ، وجزءًا للعشرة لكان عُشرا لنفسه وللتسعة التى هى غيره ولكان بعضًا لنفسه وللتسعة التى هى غيره .

قال أبو محمد : وهذا خبط شديد أول ذلك أنه رد على الله تعالى مجرد ، وتكذيب للقرآن ، وخلاف للُّغة بل لجميع اللغات ، ومكابرة للعقول وللحواس قال تعالى : « وإذا خلا بعضهم إلى بعض[١٦] » وقال تعالى : « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا[١٧] » وقال تعالى : « فلأمه الثلث فلأمة السدس » « فلها النصف ولهن الربع فلهن الثمن[١٨] » .

فقد كذبوا القرآن نصًّا ثم هذا موجود فى كل طبيعة ، فى كل لغة ، ومحسوس بالحواس ثم يقال لهم : لا فرق بينكم وبين من صحح ولم ينكر كون الشيء بعض نفسه ، وبعض غيره ، وجزءًا لنفسه وجزءًا لغيره وعشرَ نفسه وعشرًا لغيره ، واحتج فى تصحيح ذلك بالحجة التى رمتم بها إبطال ذلك ولا مزيد وكلاكما منكسع[١٩] فى ظلمة الخطأ . ثم نقول لهم وبالله تعالى التوفيق ليس الأمر كما ظننتم بل الأسماء موضوعة للتفاهم ولتمييز بعض المسميات من بعض ، فالعشرة اسم للعشرة أفراد مجتمعات فى العدد ، وكذلك لتسعة وواحد ، ولثمانية واثنين ، ولسبعة وثلاثة ، ولستة وأربعة ، ولخمسة وخمسة ، قال تعالى : « ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة[٢٠] » .

وهكذا جميع الأعداد لا ينكر ذلك إلا مخذول منكر للمشاهدة فبالضرورة ندرى أن كل جزء من تلك الجملة فهو بعض لها ، وعشر لها ، ومسمًّى منها بتسمية[٢١] مَّا ، ولا يقال هو جزء لنفسه

---

(١٦) البقرة : ٧٦ .
(١٧) الأنعام : ١١٢
(١٨) النساء : ١١ وهى أجزاء . متفرقة من هذه الآية ، وقد جاءت محرفة فى (أ) .
(١٩) كسع : كمنع : ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه ، والمقصود متردٍّ فى ظلمة الخطأ (محيط) .
(٢٠) البقرة : ١٩٦
(٢١) فى (أ) : (التشبه) وهو خطأ .

ولا جزء لغيره ولا أنه بعضٌ لنفسه ، ولا أنه بعض لغيره ، ولا عُشر لنفسه ولا عشر لغيره ، ومثل هذا « البلق » الذى هو اسم لاجتماع السَّواد والبياض مَعًا ، فالبياض بلا شك بعض البلق ، والسواد بعضُ البلق ، وليس البياض جزءًا لنفسه وللسواد ، ولا بعضًا لنفسه وللسواد ، وكل واحد منهما جزءٌ للبلق وكذلك الإنسان اسم للجملة المجتمعة من أعضائه ولا شك فى أن العين بعض الإنسان ، وجزء من الإنسان ، ولا يُحتمل أن يقال العين بعض نفسها ، وبعض الأذن واليد ، ولا أن يقال الأذن جزء لنفسها وللعين وللأنف ، وهكذا فى سائِر الأعضاء ، فعلى قول هؤلاء النوكى يلزمهم ألا تكون العين بعض الإنسان ، أو أن يقولوا إن العين بعض نفسها وبعض الأذن ، ومن أبطل الأبعاض والأجزاء فقد أبطل الجمل ، لأن الجُمَل ليست شيئًا ألبتة غير أبعاضها ، ومن أبطل الجُمل فقد أبطل الكل والجزء وأبطل العالم بكل ما فيه ، وإذا بطل العالم بطل الدين والعقل وهذه حقيقة السفسطة ، وما نعلم فى الأقوال أحمق من هذه المسألة ومن التى قبلها نعوذ بالله من الخذلان .

* * *

« خلق الله عز وجل العالم فى كل وقت وزيادته فى كل دقيقة »

قال أبو محمد : وذكر عن النظام أنه قال : إن الله تعالى يخلق كل ما خلق فى وقت واحد دون أن يعدمه وأنكر عليه هذا القول بعض أهل الكلام .

قال أبو محمد : وقول النظام هاهنا صحيح لأننا إذا أثبتنا أن خلق الشىء هو الشىء نفسه فخلق الله تعالى قائم فى كل موجود أبدا مادام ذلك الموجود موجودا[١]. وأيضًا فإنا نسألهم ما معنى قولكم خلق الله تعالى أمر كذا ؟ فجوابهم أن معنى خلقه أنه تعالى خرَّجه من العدم إلى الوجود . فنقول لهم أليس معنى هذا القول منكم أنه أوجده ولم يكن موجودا ؟ فَمَنْ قولهم نعم فنقول لهم وبالله تعالى التوفيق .

فالخلق هو الإيجاد عندكم بلا شك ، فأخبرونا أليس الله تعالى موجدا لكل موجود أبدا مدة وجودة ؟ فإن أنكروا ذلك أحالوا وأوجبوا أن الأشياء موجودة وليس الله تعالى موجدا لها الآن ، وهذا تناقض . وإن قالوا : نعم فإن الله موجد لكل شىء[٢] موجود أبدًا قلنا لهم هذا هو الذى أنكرتم بعينه قد أقررتم به ، لأن الإيجاد هو الخلق نفسه والله تعالى موجد لكل ما يوجد فى كل وقت أبدا ، وإن لم يُفنه قبل ذلك والله تعالى خالق لكل مخلوق فى كل وقت وإن لم يُفنه قبل ذلك وهذا لا مخلص لهم منه وبالله تعالى التوفيق .

وبرهان آخر وهو قول الله تعالى : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم[٣]» .

---

(١) فى (أ) : (وجودا) .
(٢) فى (أ) : لم يذكر كلمة (شىء) .
(٣) الأعراف : ١١

وصح البرهان بأن الله تعالى خلق التراب والماء اللّذين[٤] يتغذّى آدم وبنوه بما استحال عنهما ، وصارت فيهم دمًا وأحاله الله تعالى منيًّا فثبت بهذا يقينًا أن جميع أجساد الحيوان والنوامى كلها متفرقة ، ثم جمعها الله تعالى فقام منها الحيوان والنوامى وقال عز وجل : « ثم أنشأناه خلقا آخر[٥] » وقال تعالى : « خلقا من بعد خلق[٦] » .

فصح أن فى كل حين يحيل الله أحوال مخلوقاته فهو خلق جديد ، فالله تعالى يخلق فى كل حين جميع العالم خلقًا مستأنفًا دون أن يفُنيه وبالله تعالى نتأيد .

---

(٤) فى (أ) (الذى) .
(٥) المؤمنون : ١٤
(٦) الزمر : ٦

« الكلام فى الحركات والسكون »

قال أبو محمد : ذهبت طائفة إلى أنه لا حركة فى العالم ، وأن كل ذلك سكون ، واحتجوا بأن قالوا : وجدنا الشيء ساكنًا فى المكان الأول ساكنًا فى المكان الثانى ، وهكذا أبدًا فعلمنا أن كل ذلك سكون وهذا قول منسوب إلى معمّر بن عمرو العطار ، مولى بنى سليم أحد رؤساء المعتزلة . وذهبت طائفة إلى أن لا سكون أصلًا ، وإنما هى حركة اعتماد وهذا قول منتسب إلى إبراهيم بن سيار النظام . واحتج غير النظام من أهل هذه المقالة بأن قال : السكون إنما هو عدم الحركة ، والعدم ليس شيئًا . وقال بعضهم هو ترك الحركة وترك الفعل ليس فعلًا ولا هو معنى . وذهبت طائفة إلى إبطال الحركة والسكون معًا .

وقالوا : إنما يوجد متحرك وساكن فقط وهو قول أبى بكر بن كيسان[٢] الأصم . وذهبت طائفة إلى أن الجسم فى أول خلق الله تعالى له ليس ساكنًا ولا متحركًا . وذهبت طائفة إلى إثبات الحركة والسكون إلا أنها قالت : إن الحركات أجسام ، وهو قول هشام بن الحكم شيخ الإمامية ، وجهم بن صفوان السمرقندى ، وذهبت طائفة إلى إثبات الحركة والسكون وأن كل ذلك أعراض وهذا هو الحق .

فأما من قال بنفى الحركة وأن كل ذلك سكون فقولهم يبطل بأننا قد علمنا أن السكون إنما هو إقامة فى المكان ، وأن الحركة نقلة عن ذلك المكان وزوال عنه ، ولا شك فى أن الزوال عن الشيء هو غير الإقامة فيه ، فإذ الأمر كذلك فواجب أن يكون لهذين المعنيين المتغايرين لكل واحد منهما اسم غير اسم الآخر كما هما متغايران ، فاتفق فى اللغة أن يسمى أحدهما حركة ، ويسمى الآخر سكونا . وأما قولهم إن كلّ حركة فهى سكون فى المكان الثانى فليس كذلك ، لأن السكون

---

(١) فى (أ) : (ينسب) .
(٢) ترجمنا له فى (٣/٣٧) .

إقامة لا نقلة فيها فإذا وجدت نقلة متصلة لا إقامة فيها فهى غير الإقامة التى لا نقلة فيها ، ونوع آخر له أيضًا أشخاصه غير أشخاص النوع الآخر ، وبيقين ندرى أن الشيء المتحرك من مكان إلى مكان فإنه وإن جاوز كلَّ مكان يمر عليه فإنه غير واقف ولا مقيم . هذا ما لا شك فيه يعرف ذلك بضرورة الحس ، فصح أن الحركة معنى وأن السكون معنى آخر .

وأما من قال إن السكون حركة اعتمادٍ فاحتجاج لا يعقل فلا وجه للاشتغال به .

وأما حجة من احتج بأن السكون عدم الحركة ، والعدم ليس شيئًا فليس كما قال لأنه عقب الحركة إقامة موجودة ظاهرة ، فهى وإن كان معها وبوجودها[٣] عدمت الحركة ، فليست هى عدما كما أن القيام معنى صحيح موجود وإن كان قد عدمت معه سائر الحركات والأعمال من القعود والاتكاء والاضطجاع . ويقال لهم : وما الفرق بينكم وبين من قال بل الحركة ليست معنى لأنها عدم السكون ؟ فهذا ما لا انفكاك عنه ، وكذلك من قال أيضًا إن المرض ليس معنى لأنه عدم الصحة ، والصحة ليست معنًى لأنها عدم المرض ، ومثل هذا كثير جدا . وفى هذا إبطال الحقائق كلّها . وأما من قال إن التَّرْك ليس معنى فخطأ ، لأن كلَّ مَنْ دون الله تعالى فإنه إن ترك معنى مّا وفعلًا مّا فلابد له ضرورة من فعل آخر ومعنى آخر ، هذا أمر يوجد بالمشاهدة والحس لا يمكن غير ذلك ، فصح أن ترك مَنْ دُونَ الله تعالى لفعل مّا هو أيضًا فعل صحيح بوجوده منذ[٤] سمى تاركًا لما ترك ، وليس الله تعالى كذلك ، بل لم يزل غير فاعل ولم يمكن بذلك فاعلًا للترك لأن ترك الإنسان للفعل كما بينت عرض موجود فيه وهو حامل له ، ولو كان لترك الله تعالى للفعل معنى لكان قائمًا به تعالى ، ومعاذ الله من هذا ومن[٥] أن يكون عز وجل حاملًا لعرض .

فلو كان أيضًا قائمًا بنفسه لكان جوهرًا ، أو الترك ليس جوهرًا ، ولو كان قائمًا بغيره عز وجل لكان تعالى فاعلًا له غير تارك ، فصح الفرق وبالله تعالى التوفيق .

وأما من أبطل الحركة والسكون معًا : فقول فاسد أيضًا لأنه أثبت المتحرك والساكن مع ذلك وبيقين يدرى كل ذى حسٍّ سليم أن من تحرّك سكن ، فإن تلك العين المتحركة ثم الساكنة هى عين واحدة وذات واحدة لم تتبدل ذاتها ، وإنما يتبدل عرضها المحمول فيها ، فبالضرورة ندرى أنه حدث فيه ، أو له ، أو منه معنى من أجله استحق أن يسمى متحركًا ، وأنه حدث فيه أوله ، أو منه أيضًا معنى من أجله استحق أن يسمى ساكنًا ، لولا ذلك لم يكن بأن يسمى متحركًا

---

(٣) فى (أ) : (بوجودها) بغير (واو) .
(٤) فى (أ) : (منه) .
(٥) فى (أ) : (من) بغير (واو) .

حق(٦) منه بأن يسمى ساكنًا ، هذا أمر محسوس مشاهد ، فذلك المعنى هو الحركة أو السكون ، نصح وجودهما ضرورة ، ولا فرق بين من أثبت الساكن والمتحرك ، ونفى الحركة والسكون ، فلا فرق بينه وبين من أثبت الضارب والقائم ، والآكل ، وأبطل الضرب والأكل والقيام ، وهذه سفسطة سقيمة(٧) وبالله تعالى التوفيق .

وأما من قال إن الجسم فى أول خلق الله عزَّ وجلَّ له ليس ساكنًا ولا متحركًا فكلام فاسد أيضًا ؛ لأنه لا يُتوهم ولا يعقل معنى ثالث ليس حركة ولا سكونًا ، هذا شىء لا يتشكل فى النفس ولا يثبته عقل ولا سَمْع . وأيضًا فإنه قول لا دليل عليه فهو باطل . ولا شك فى أن الله تعالى إذا خلق الجسم فإنما يخلقه فى زمان ومكان وإذ لا شك فى ذلك فالجسم فى أول حدوثه ساكن فى المكان الذى خلقه الله تعالى فيه ولو طرفه عين ، ثم إما يتصل سكونه فيه فتطول إقامته فيه ، وإما أن ينتقل عنه فيكون متحركًا عنه فإن قال قائل بل هو متحرك لأنه خارج عن العدم إلى الوجود . قيل له : هذا منك تسمية فاسدة لأن الحركة فى اللغة وهى التى يُتكلم عليها إنما هى نقلة من مكان إلى مكان ، والعدم ليس مكانًا ، ولم يكن المخلوق شيئًا قبل أن يخلقه الله تعالى . فحالُ خلقه هى أول أحواله التى لم يكن هو قبلها فكيف أن يكون له حال قبلها فلم ينتقل أصلًا بل ابتدأه الله تعالى الآن .

وأما الجسم الكلى الذى هو جرم العالم جملة وهو الفلك الكلى فكل جزء منه مقدر مفروض فإن أجزاءه المحيطة به من أربع جهات ، والجزء الذى يليه فى جهة عمق الفلك هو مكانه ، ولا مكان له من(٨) الصفحة التى لا تلى الأجزاء التى ذكرنا والله تعالى يمسكه بقوته كما شاء ولا يلاقيه من صفحته العليا شىء أصلا ، ولا هنالك مكان ولا زمان ولا خلاء ولا ملاء .

قال أبو محمد : ورأيت لبعض النوكى ممن ينتمى إلى الكلام قولا طريفا وهو أنه قال : إن الله تعالى إذ خلق الأرض خلق جرما عظيما يمسكها لئلا تنحدر سفلا ، فحين خلق ذلك الجرم أعدمه وخلق آخر وهكذا أبدا بلا نهاية ، لأنه زعم لو أبقاه وقتين لاحتاج إلى ممسك(٩) وهكذا أبدا إلى ما لا نهاية له ، كأن هذا الأنوك لم يسمع قول الله تعالى : « إنَّ الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده(١٠) » .

---

(٦) فى (أ) : (أحق به) .
(٧) فى الأصل (صحيحة) .
(٨) فى (أ) : (فى) .
(٩) فى (أ) : (مسك) .
(١٠) فاطر : ٤١

فصح أن الله تعالى يمسك الكل كما هو دون عُمد ، ولا زيادة ولا جرم آخر ولو أن هؤلاء المخاذيل إذ عدموا العلم تمسكوا باتِّباع القرآن والسكوت عن الزيادة والخبر عن الله تعالى بما لا علم لهم به – لكان أسلم لهم فى الدين والدنيا ، ولكن من يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِىَ لَه ونعوذ بالله من الضلال .

وأما من قال : إن الحركات أجسام فخطأ لأن الجسم فى اللغة اسم موضوع للطويل العريض العميق ذى المساحة وليست الحركة كذلك فليست جسمًا ، ولا يجوز أن يوقع عليها اسم جسم إذ لم يأت ذلك فى اللغة ولا فى الشريعة ولا أوجبه دليل ، وإذ صح(١١) أنها ليست جسما فهى بلا شك عرض .

وأما من قال إن الحركة تُرى فقول فاسد لأنه قد صح أن البصر لا يقع فى هذا العالم إلّا على لون فى ملون فقط ، وبيقين ندرى أن الحركة لا لون لها فإذ لا لون لها فلا سبيل إلى أن تُرى وإنما علمنا كون الحركة لأننا رأينا لون المتحرك فى مكان مًّا ثم رأيناه فى مكان آخر علمنا أن ذلك الملون قد انتقل عن مكان إلى مكان بلا شك ، وهذا المعنى هو الحركة أو بأن يحس الجسم منتقلا(١٢) من مكان إلى مكان فيدرى حينئذ من لامسه وإن كان أعمى أو مطبق العينين أنه تحرك ، وبرهان ما قلناه أن الهواء لمَّا لم يكن له لون لم يره أحد ، وإنما يُعلم من تموجه وتحرُّكه وملاقاته بأنه متنقل وهو هبوب الرياح . وكذلك أيضًا علمنا حركة الصوت بإحساسنا الصوت يأتى من مكان مًّا إلى مكان مًّا ، وكذلك القول فى حركة(١٣) المشموم من الطيب والنتن ، وحركة المذوق فبطل قول من قال إن الحركات تُرى وصح أن الحركة ليست لونًا ولا لها لون ، ولو كان هذا لأمكن لآخر أن يدعىَ أنه يسمع الحركة وهذا خطأ لأنه لا يسمع إلا الصوت ، ولأمكن لآخر أن يدَّعىَ أن الحركة تُلمس وهذا خطأ وإنما نلمس المحسة(١٤) من الخشونة والأملاس أو غير ذلك من المحسات(١٥)، والحق من هذا إنما هو أن الحركة تُعرف وتوجد بتوسط كل ما ذكرنا وبالله تعالى التوفيق .

قال أبو محمد : والحركات النقلية المكانية تنقسم قسمين لا ثالث لهما ، إما حركة ضرورية وإما ختيارية .

---

(١١) فى (أ) : (وأوضح) وهو تحريف .
(١٢) فى (أ) : (قد انتقل) .
(١٣) فى (أ) : (الحركة) .
(١٤) فى (أ) : (المجسمة) .
(١٥) فى (أ) : (المجسات) .

فالاختيارية هى فعل النفوس الحية من الملائكة والإنس والجن وسائِر الحيوان كله ، وهى التى تكون إلى جهات شتّى على غير رتبة معلومة الأوقات وكذلك السكون الاختيارى .

والحركة الضرورية تنقسم قسمين لا ثالث لهما إما طبيعية وإما قسرية . والاضطرارية : هى الحركة الكائنة ممن ظهرت منه عن غير قصد منه إلينا .

وأمّا الطبيعية فهى حركة كل شىء غير حىٍّ بما(١٦) بناه الله عليه كحركة الماء إلى وسط المركز ، وكحركة الأرض كذلك وكحركة الهواء والنار إلى مواضعهما ، وكحركة الأفلاك والكواكب دورا ، وكحركة عروق الجسد النوابض ، والسكون الطبيعى هو سكون كل ما ذكرنا فى عنصره .

وأما القسرية فهى حركة كل شىء دخل عليه ما يحيل حركته عن طبيعته أو عن اختياره إلى غيرها ، كتحريك المرء قهرا ، وتحريكك الماء عُلُوًّا ، والحجر كذلك وكتحريك النّار سفلًا ، والهواء كذلك وكتصعيد الهواء الماء ، وكعكس الشمس الشمس بحر النار . والسكون القسرى هو توقيف الشىء فى غير عنصره أو توقيف المختار كرهًا وبالله تعالى التوفيق .

---

(١٦) فى (أ) : (بما) .

« الكلام فى التولد »

قال أبو محمد : تنازع المتكلمون فى معنًى عبروا عنه بالتولد ، وهو أنهم اختلفوا فى من رمى سهمًا فجرح به إنسانًا أو غيره ، وفى حرق النار ، وتبريد الثلج ، وسائِر الآثار الظاهرة من الجمادات فقالت طائفة : ما تولد من ذلك عن فعل إنسان أو حيٍّ فهو فعل الإنسان والحى واختلفوا فيما تولد من غير حى . فقالت طائفة : هو فعل الله وقالت طائفة ما تولد من غير حى فهو فعل الطبيعة . وقال آخرون كل ذلك فعل الله عز وجل .

قال أبو محمد : فهؤلاء مبطلون للحقائق غائبون عن موجبات العقول .

قال أبو محمد : والأمر أبين من أن يطول فيه الخطاب والحمد لله رب العالمين . والصّواب فى ذلك أن كلَّ ما فى العالم من جسم أو عرض فى جسم أو أثر من جسم فهو خلق الله عز وجل فكل ذلك فعل الله تعالى بمعنى أنه خلقه ، وكل ذلك مضاف بنص القرآن وبحكم اللغة إلى ما ظهر منه من حى أو جماد . قال تعالى : « فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج[1]» .

فنسب عز وجل الاهتزاز والإنبات والربو إلى الأرض . وقال تعالى : « تلفح وجوههم النار[2]» فأخبر تعالى أن النَّارَ تلفح .

وقال تعالى : « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه[3]» فأخبر عز وجل : أنَّ المَاءَ يشوى الوجوه .

---

(١) الحج : ٥
(٢) المؤمنون : ١٠٤
(٣) الكهف : ٢٩

وقال تعالى : « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة[٤] » فسمى تعالى المخطىء قاتلًا وأوجب عليه حكمًا ، وهو لم يقصد قتله قط لكنه تولد عن فعله .

وقال تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه[٥] » فأخبر تعالى أن الكلم يصعد ، وأن العمل يرفع الكلم والعمل عرض من الأعراض .

وقال تعالى : « أفئن مات أو قتل انقلبتم[٦] » وقال تعالى : « على شفا جرف هار فانهار به[٧] » .

ولم تختلف أمة ولا لغة فى صحة قول القائل مات فلان ، وسقط الحائط ، فنسب الله تعالى وجميع خلقه الموت إلى الميت ، والسقوط إلى الحائط ، والانهيار إلى الجرف ، لظهور كل ذلك منها ليس فى القرآن ولا فى السنن ولا فى اللغات[٨] ولا فى العقول شىء غير هذا الحكم ، ومن خالف هذا فقد اعترض على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ وعلى جميع الأمم ، وعلى جميع عقولهم وهذه صفة من عظمت مصيبته بنفسه ، ومن لا دين له ، ولا عقل ولا حياء ، ولا علم ، وصح بكل ما ذكرنا أن إضافة كل أمر[٩] فى العالم إلى الله تعالى هى على غير إضافته إلى من ظهر منه ، وإنما إضافته إلى الله تعالى لأنه خلقه ، وأما إضافته إلى من ظهر منه أو تولد عنه فلظهوره منه اتباعًا للقرآن ، ولجميع اللغات ، ولسنن رسول الله ﷺ ، وكل هذه الإخبارات ، وكلتا هاتين الإضافتين حقٌّ لا مجاز فى شىء من ذلك ، لأنه لا فرق بين ما ظهر من حىٍّ مختار ، أو من غير حَىٍّ ولا مختار فى أن كل ذلك ظاهر مما ظهر منه ، وأنه مخلوق لله تعالى إلا أن الله تعالى خلق فى الحى اختيارا لما ظهر منه ، ولم يخلق اختيارًا فى ما ليس حيًّا ، ولا مريدًا . فما تولد عن فعل فاعل فهو فعل الله تعالى بمعنى أنه خلقه ، وهو فعل ما ظهر منه بمعنى أنه ظهر منه . قال الله تعالى : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى[١٠] » . وقال تعالى : « أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون[١١] » .

وهذا نص قولنا وبالله تعالى التوفيق .

---

(٤) النساء : ٩٢
(٥) فاطر : ١٠
(٦) آل عمران : ١٤٤
(٧) التوبة : ١٠٩
(٨) فى (أ) : سقطت (ولا فى اللغات) .
(٩) فى (أ) (أثر) .
(١٠) الأنفال : ١٧
(١١) الواقعة : ٦٣

« الكلام فى المداخلة والمجاورة والكمون »

قال أبو محمد : ذهب القائلون بأن الألوان أجسام إلى المداخلة ومعنى هذه اللفظة أن الجسمين يتداخلان فيكونان جميعًا فى مكان واحد .

قال أبو محمد : وهذا كلام فاسد لما سنبينه إن شاء الله تعالى فى باب الكلام فى الأجسام والأعراض من ديواننا هذا وبالله نتأيد .

من ذلك أن كل جسم فله مساحة وإذا كان كذلك فله مكان ولابدَّ[1]، وإذ له مكان بقدر مساحته ولابدَّ فإن كل جسم زيد عليه جسم آخر ، فإن ذلك الجسم الزائِد يحتاج إلى مكان زائِد من أجل مساحته الزائِدة ، هذا أمر يعلم بالمشاهدة فإن اختلاط الأمر على من لم يتمرَّن فى معرفة حدود الكلام من أجل ما يرى فى الأجسام المتخلخلة من تخلل الأجسام المائعة لها فإنما هذا لأن فى خلال أجزاء تلك الأجسام المتخلخلة خروقًا صغارًا مملوءة هواء فإذا صُبَّ عليها الماء أو مائع مًا ملأ تلك الخروق ، وخرج عنها الهواء الذى كان فيها ، وهذا ظاهر للعين محسوس خروج الهواء عنها بنفاخات ، وصوت من كل ما يخرج عنه الهواء مسرعًا والذى ذكرنا فإنه إذا تم خروج الهواء عنه وزيد فى عدد المائع ربَا واحتاج إلى مكان زائِد . وأما الذى ذكرنا قبل فإنه فى الأجسام المكتنزة كماء صُبَّ على ماءٍ ، أو دهن على دهن ، أو دهن على ماء وهكذا فى كل شيء من هذه الأنواع وغيرها .

فصح يقينا أن الجسم إنما يكون فى الجسم على سبيل المجاورة ، كل واحد فى حيز غير حيز الآخر وإنما تكون المداخلة بين الأعراض والأجسام وبين الأعراض والأعراض ، لأن العرض لا يشغل مكانا فنجد اللون والطعم والمحسة والرائحة والحر والبرد والسكون ، كل ذلك مداخل للجسم ،

---

(١) فى (أ) : (زائد) .

ومداخل بعضه بعضا ، ولا يمكن أن يكون جسم واحد فى مكانين ، ولا جسمان فى مكان واحد ، ثم إن المجاورة بين الجسمين تنقسم ثلاثة أقسام إحداها : أن يخلع أحد الجسمين كيفياته ويلبس كيفية الآخر ، كنقطة رميتها فى دن خل أو دن مرتَ أو فى لبن أو فى مِدَاد أو شىء يسير من بعض هذه فى بعض أو من غيرها كذلك ، فإن الغالب منها يسلب المغلوب كيفياته الذاتية والغيرية ويذهبها عنه ويلبسه كيفيات نفسه الذاتية والغيرية والثانى أن يخلع كل واحد منهما كيفياته . الذاتية والغيرية ويلبسا معا كيفيات أخر كماء الزاج إذا جاور ماء العفص ، وكجسم الجير إذا جاور جسم الزرنيخ وكسائر المعاجن كلها ، والدقيق والماء وغير ذلك .

والثالث : أن لا يخلع واحد منهما عن نفسه كيفية من كيفياته لا الذاتية ولا الغيرية بل يبقى كل واحد منهما كما كان كزيت أضيف إلى ماء ، وكحجر إلى آخر[٢]، وثوب إلى ثوب ، فهذا حقيقة الكلام فى المداخلة والمجاورة .

* * *

وأما الكمون : فإن طائفة ذهبت إلى أن النار كامنة فى الحجر ، وذهبت طائفة إلى إبطال هذا ، وقالت إنه لا نار فى الحجر أصلًا ، وهو قول ضرار بن عمرو .

قال أبو محمد : وكل طائفة منهما فإنها تفرط على الأخرى فيما تدَّعى عليها ، فضرار ينسب إلى مخالفيه أنهم يقولون إن النخلة بطولها وعرضها وعظمها كامنة فى النواة ، وأن الإنسان بطوله وعرضه وعمقه وعظمه كامن فى المنى . وخصومه ينسبون إليه أنه يقول : إنه ليس فى النار حر ، ولا فى العنب عصير ، ولا فى الزيتون زيت ولا فى الإنسان دم .

قال أبو محمد : وكلا القولين جنون محض ومكابرة للحواس والعقول ، والحق من ذلك أن فى الأشياء ما هو كامن كالدم فى الإنسان ، والعصير فى العنب ، والزيت فى الزيتون ، والماء فى كل ما يعتصر منه ، وبرهان ذلك أن كل ما ذكرنا إذا خرج[٣] ما كان كامنًا فيه ضمر الباقى لخروج ما خرج منه وخف وزنه لذلك عما كان عليه قبل خروج الذى خرج منه[٤].

ومن الأشياء ما ليس كامنا كالنار فى الحجر والحديد ، لكن فى حجر الزناد والحديد الذكر

---

(٢) فى (أ) : (إلى حجر) .
(٣) فى (أ) : (مما) .
(٤) فى (أ) : سقطت (منه) .

قوة إذًا تضاغطًا احتدم ما بينهما من الهواء فاستحال نارًا وهكذا يعرض لكل شىء متحرق فإن رطوباته تستحيل نارًا ثم دخانًا ، ثم هواء ، إذا فى طبع النار استخراج ناريات الأجسام ، وتصعيد رطوباتها حتى يفنى كل ما فى الجسم من الناريات والمائيات عنه بالخروج ثم لو نفخت دهرك على ما بقى من الأرضية المحضة وهو الرماد لم يحترق ولا اشتعل إذ ليس فيه نار فتخرج ، ولا ماء فيصعد .

وكذلك دهن السراج فإنه كثير الناريات بطبعه فيستحيل بما فيه من المائية اليسيرة دخانًا هوائيًا ، وتخرج ناريته حتى يذهب كلّه . وأما القول فى النوى والبذور والنطف ، فإن فى النواة وفى البذر وفى النطفة طبيعة خلقها فى كل ذلك الله تعالى ، وهى قوة تجتذب الرطوبات الواردة عليها من الماء والزبل ، ولطيف التراب الوارد كل ذلك على النواة والبذر ، فيحيل كل ذلك إلى ما فى طبعها إحالته إليه فيصير عُودًا ولِحَاءً وورقا وزهرًا وثمرًا وخوصًا وكرمًا ، ومثل الدم الوارد على النطفة فتحيله طبيعته التى خلقها الله فيه لحما ، ودمًا وعظمًا ، وعصبًا وعروقًا وشرايين وغضلا وغضاريف وجلدًا وظفرًا وشعرًا وكل ذلك خلق الله تعالى ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

قال أبو محمد : وذهب الباقلانى وسائر الأشعرية إلى أنه ليس فى النار حر ، ولا فى الثلج برد ، ولا فى الزيتون زيت ، ولا فى العنب عصير ، ولا فى الإنسان دم ، هذا أمر ناظرنا عليه من لقيناه منهم .

والعجب كل العجب قولهم هذا التخليط وإنكارهم ما يعرف بالحواس وضرورة العقل ، ثم هم يقولون مع هذا إن للزجاج والحصى طعمًا ورائحة وإن لقشور العنب رائحة ، وإن للفلك طعمًا ورائحة ، وهذه إحدى عجائب الدنيا .

قال أبو محمد : وما وجدنا لهم فى ذلك من حجة غير دعواهم أن الله تعالى خلق كل حر نجده فى النار عند مسنا إياها ، وكذلك خلق البرد فى الثلج عند مسنا إياه ، وكذلك خلق الزيت عند عصر الزيتون والعصير عند عصر العنب ، والدم عند القطع والشرط .

قال أبو محمد : فإذا تعلقوا من هذا بحواسهم فمن أين قالوا ، إن للزجاج طعمًا ورائحة ، وللفلك طعمًا ورائحة ..؟ وهذا موضع تشهد الحواس بتكذيبهم فى أحدهما ولا تدرك الحواس الآخر ويقال لهم : لعل الناس ليس فى الأرض منهم أحد ، وإنما خلقهم الله عند رؤيتكم لهم ، ولعل بطونكم لا مصارين فيها ، ورءوسكم لا أدمغة فيها ، لكن الله خلق كل ذلك عند الشدخ والشق .

قال أبو محمد : وقول الله تعالى يكذبهم إذ قال تعالى : « يا نار كونى برداً وسلاما على إبراهيم[٥]» .

فلولا أن النار تحرق بحرها ما كان يقول الله تعالى هذا .

وإذ يقول عز وجل : « قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون[٦]» فصح أن النار موجودة .

وكذلك أخبر رسول الله ﷺ أن نار جهنم أشد حرًّا من نارنا هذه تسعين درجة[٧]. وقال تعالى : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين[٨]» .

فأخبر أن الشجرة تنبت بها وقال تعالى : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقًا حسنا[٩]» .

فصح أن السكر ، والعصير الحلال مأخوذ من الثمر والأعناب ولو لم يكونا فيهما ما أخذ منها وقد أطبقت الأمم كلها على إنكار هذا الجنون ، وعلى القول : هذا أحلى من العسل ، وأمر من الصبّر ، وأحرّ من النار ، ونحمد الله على السلامة .

---

(٥) الأنبياء : ٦٩

(٦) التوبة : ٨١

(٧) لم نعثر على هذا الحديث فى كتب الصحاح ، وقد ورد فى إحياء العلوم للغزالى ما يؤكد صحته من حيث المعنى فقد جاء فى الحديث (أن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا) وقد رواه ابن عبد البر عن ابن عباس .

(٨) المؤمنون : ٢٠

(٩) النحل : ٦٧

« الكلام فى الاستحالة »

قال أبو محمد : احتج الحنيفيون ومن وافقهم فى قولهم إن النقطة من البول والخمر تقع فى الماء ، فلا يظهر لها فيه أثر إنها فيه باقية بجسمها إلا أن أجزاءها دقت وخفيت عن أن تُحس ، وكذلك الحبر يرمى فى اللبن فلا يظهر له فيه أثر ، وكذلك الفضة اليسيرة تذاب فى الذهب فلا يظهر لها فيه أثر ، وهكذا كل شى فقالوا ؛ لو أن ذلك المقدار من الماء يحيل ماء النقطة من الخمر تقع فيه لكان أكثر من ذلك المقدار أقوى على الإحالة بلا شك ، ونحن نجد كلما زدنا نقط الخمر وقلتم أنتم قد استحالت ماء ونحن نزيد فلا يلبث أن تظهر الخمر ، وهكذا فى كل شيء قالوا فظهرت صحة قولنا ولزمكم أن كلما كثر الماء ضعفت إحالته وهكذا فى كل شيء .

قال أبو محمد : فقلنا لهم : إن الأمور إنما هى على ما رتبها الله عزَّ وجلَّ ، وعلى ما توجد عليه لا على قضاياكم المخالفة للحس ، ولا ننكر أن يكون مقدارٌ مًّا يفعل فعلًا مًّا ، فإذا كثر لم يفعل ذلك الفعل كالمقدار من الدواء ينفع ، فإذا زيد فيه أو نقص منه لم ينفع ، ونحن نقرُّ معكم بما ذكرتم ولا ننكره فنقول : إن مقدارًا مًّا من الماء يُحيل مقدارًا مًّا مما يلقى فيه ، من الخل أو الخمر أو العسل ، ولا يحيل أكثر منه ما يكون فيه ، ونحن نجد الهواء يحيل الماء هواء حتى إذا كثر الهواء المُحيل من الماء لم يستحل[1] بل أحال الهواء ماء ، وهكذا كل ما ذكرتم . وإنما العمدة هاهنا على ما شهدت به أوائل العقول والحواس ، من أن الأشياء إنما تختلف باختلاف طبائِعها وصفاتها التى منها تقوم حدودها وبها تختلف فى اللغات أسماؤها ، فللماء صفات وطبائِع إذا وجدت فى جرم مًّا سمى ماء وكان ماء[2] فإذا عدمت منه لم يُسم ماء ولم يكن ماء ، وهكذا كل ما فى العالم ولا نُحاشى شيئًا أصلًا ، ومن المحال أن تكون حدود الماء وصفاته وطبعه فى العسل أو فى الخمر

---

(١) فى (أ) : بزيادة (من الماء) .
(٢) فى (أ) : سقط (وكان ماء) .

وهكذا كل شيء فى العالم فأكثره يستحيل بعضه إلى بعض ، فأى شيء وجدت فيه حدود شيء مّا سمى باسم ما فيه تلك الحدود إذا استوفاها كلها ، فإن لم يستوف إلا بعضها وفارق أيضًا شيئًا من صفاته الذاتية فهو حينئذ شيء غير الذى كان ، وغير الذى مازج كالعسل الملقى فى الأبارج[٣]، ونقطة مداد فى لبن وما أشبه ذلك وهذه رتبة العالم فى مقتضى العقول ، وفيما يشاهد بالحواس بالبصر والذوق والشم واللمس ، ومن دفع هذا خرج عن المعقول ، ويلزم الحنيفيين من هذا اجتناب ماء البحر ، لأن فيه على قولهم[٤] عذرة وبولا ورطوبات ميتة ، وكذلك مياه جميع الأنهار أولها عن آخرها نعم ، وماء المطر أيضًا ونحن نجد الدجاج يتغذى بالميتة والدم والعذرة ، والكبش يُسقى خمرًا إن ذلك كله قد استحال عن صفات كل ذلك وطبعه إلى لحم الدجاج ، والكبش فحل عندنا وعندهم ، ولو كثر تغذيها به حتى تضعف طبيعتها عن إحالته فيوجد فى حواصلها وفيه صفة العذرة ، والميتة حرم أكله وهذا هو الذى أنكروه نفسه وهم مقرون معنا فى أن الثمار والبقول تتغذى بالعذرة ، وتستحيل فيها ثمرة[٥]، أنها قد حلت ، وهذا هو الذى أنكروه نفسه وبالله تعالى التوفيق .

---

(٣) الأبارج : جمع أبريج وهو الممخضة يمخض بها اللبن لاستخراج السمن منه قال الشاعر

لقد تمخّض فى قلبى مودّتها ... كما يمخّض فى إبريجه اللبن

لسان العرب ١٨٥

(٤) فى (أ) : (عقولهم) .

(٥) فى (أ) : (مدة) وهو تحريف .

« الكلام فى الطفرة »

قال أبو محمد : نسب قوم من المتكلمين إلى إبراهيم النظّام أنه قال : إن المارّ على سطح الجسم يسير من مكان إلى مكان بينهما أماكن لم يقطعها المار ولا مرَّ عليها ، ولا حاذها ولا حلّ فيها .

قال أبو محمد : وهذا عين المحال والتخليط .

قال أبو محمد : إلا إن كان هذا على قوله فى أنه ليس فى العالم إلا جسم حاشا الحركة فقط ، فإنه وإن كان قد أخطأ فى هذه "تضية"[1] فكلامه الذى ذكرنا خارج عليه خروجًا صحيحًا ، لأن هذا الذى ذكرنا ليس موجودًا البتة إلا فى حاسة البصر فقط ، وكذلك إذا أطبقت بصرك ثم فتحته لاقى نظرك خضرة السماء والكواكب ، التى فى الافلاك البعيدة بلا زمان ، كما يقع على أقرب ما يلاصقة من الألوان ، ولا تفاضل بين الإدراكين فى المدة أصلًا .

فصح ضرورة أن خط[2] البصر لو قطع المسافة التى بين الناظر وبين الكواكب ومرَّ عليها لكان ضرورة بلوغه إليها فى مدة أطول ، من مدة مروره على المسافة التى ليس بينه وبين من يراه فيها إلا يسيرًا أو أقل ، فصح يقينًا أن البصر يخرج من الناظر ويقع على كل مرىء قرب أو بعد دون أن يمر فى شىء من المسافة التى بينهما ، ولا يَحُلُّها ، ولا يحاذيها ، ولا يقطعها ، وأما فى سائر الأجسام فهذا محال ألا ترى أنك تنظر إلى الهدم وإلى ضرب القصَّار بالثوب فى الحجر من بُعدٍ ، فتراه ثم يقيم سويعة ، وحينئذ تسمع صوت ذاك الهدم وذلك الضرب فصح يقينًا أن الصوت يقطع الأماكن وينتقل فيها ، وأن البصر لا يقطعها ولا ينتقل فيها ، فإذا صح البرهان بشىء مًّا لم يعترض عليه إلا عديم عقل ، أو عديم حياء ، أو عديم علم أو عديم دين .

وبالله تعالى التوفيق .

---

(١) فى (أ) : (القصة) .

(٢) فى (أ) : (إن خلا) .

« الكلام فى الإنسان »

قال أبو محمد : اختلف الناس فى هذا الإسم علام يقع ؟ فذهبت طائفة إلى أنه إنما يقع على الجسد دون النفس ، وهو قول أبى الهذيل العلاف . وذهبت طائفة إلى أنه إنما يقع على النفس دون الجسد ، وهو قول إبراهيم النظام ، وذهبت طائفة إلى أنه إنما يقع عليهما معا ، كالبلق الذى لا يقع على السَّواد والبياض معا .

قال أبو محمد : واحتجت الطائفة التى ذكرنا بقول الله عز وجل : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار[(١)] » . وبقوله تعالى : « فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماءٍ دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب[(٢)] » . وقال تعالى : « أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى[(٣)] » .

وبآيات أخر غير هذه ، وهذه بلا شك صفة الجسد لا صفة النفس لأن الروح إنما نفخ[(٤)] بعد تمام خلق الإنسان الذى هو الجسد . واحتجت الطائفة الأخرى بقول الله عز وجل : « إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا[(٥)] » . وهذا بلا خلاف صفة النفس لا صفة الجسد ، لأن الجسد موات والفعَّالة هى النفس وهى المميزة الحية ، حاملةٌ لهذه الأخلاق وغيرها .

قال أبو محمد : وكلا هذين الاحتجاجين حق وليس أحد منهما أولى بالقبول[(٦)] من الآخر ، ولا يجوز أن يعارَض أحدهما بالآخر ، لأن كليهما من عند الله عزَّ وجل ، وما كان من عند الله

---

(١) الرحمن : ١٤

(٢) الطارق : ٥ - ٧

(٣) القيامة : ٣٦ - ٣٨

(٤) فى (أ) : (تنفخ) .

(٥) سورة المعارج : ١٩ ، ٢٠ ، وقد جاءت محرفة فى (خ) .

(٦) فى (أ) : (بالقول) وهو تحريف .

فليس بمختلف ، قال تعالى : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا[٧] » .

فإذ كلُّ هذه الآيات حق فقد ثبت أنّ للإنسان إسم يقع على النفس دون الجسد ، ويقع أيضًا على الجسد دون النفس ، ويقع أيضًا على كليهما معا مجتمعين ، فنقول فى الحىّ : هذا إنسان ، وهو مشتمل على جسد وروح ، ونقول للميت : هذا إنسان وهو جسدٌ لا نفس فيه ، ونقول : إنَّ الإنسان يعَّذب قبل يوم القيامة ، ويُنَعمَّ يعنى النفس دون الجسد ، وأمَّا من قال : إنه لا يقع إلَّا على النفس والجسد معًا فخطأ يبطله الذى ذكرنا من النصوص التى فيها وقوع اسم الإنسان على الجسد دون النفس ، وعلى النفس دون الجسد ، وبالله تعالى التوفيق .

(٧) النساء : ٨٢

« الكلام فى الجواهر والأعراض وما الجسم ؟ وما النفس ؟ »

قال أبو محمد : اختلف الناس فى هذا الباب ، فذهب هشام بن الحكم : إلى أنه ليس فى العالم إلّا جسم ، وأن الألوان والحركاتِ أجسام ، واحتج أيضا بأن الجسم إذا كان طويلًا عريضا عميقا فمن حيث وجدتّه وجدت اللّون فيه ، فوجب الطول ، والعرض ، والعمق للّون أيضا ، فإذا وجب ذلك للّون فاللّون أيضا طويل عريض عميق ، وكل طويل عريض عميق جسم ، فاللّون جسم . وذهب إبراهيم بن سيَّار النّظام : إلى مثل هذا سواء سواء إلّا الحركات فإنه قال : هى خاصة أعراض .

وذهب ضرار بن عمرو : إلى أن الأجسام مركبة من الأعراض . وذهب سائر الناس إلى أنّ الأجسام هى كل ما كان طويلًا عريضًا عميقًا شاغلًا لمكان ، وأن كل ماعداه من لون أو حركة أو مذاق أو طيب أو محبة فعرض . وذهب بعض الملحدين إلى نفى الأعراض ، ووافقهم على ذلك بعض أهل القبلة .

قال أبو محمد : أما الجسم فمتفق على وجوده ، وأما الأعراض فإثباتها بيّن واضح بعون الله تعالى ، وهو أننا لم نجد فى العالم إلّا قائما بنفسه حاملًا لغيره ، أو قائما بغيره لا بنفسه ، محمولًا فى غيره ، ووجدنا القائم بنفسه شاغلًا لمكان يملؤه ، ووجدنا الذى لا يقوم بنفسه لكنه محمول فى غيره لا يشغل مكانًا بل يكون الكثير منها فى مكان حاملها القائم بنفسه هذه قسمة لا يمكن وجود شيءٍ فى العالم بخلافها ، ولا وجود قسم زائد على ما ذكرنا ، فإذ ذلك كذلك فبالضرورة علمنا أنّ القائم بنفسه ، الشاغل لمكانه هو نوع آخر غير القائم بغيره الذى لا يشغل مكانًا فوجب أن يكون لكل واحد من هذين الجنسين اسم يعبَّر عنه ليقع التفاهمُ بيننا فاتفقنا على أن سمَّينا القائم بنفسه ، الشاغل لمكانه – جسمًا ، واتفاقنا على أن سمّينا ما لا يقوم بنفسه عَرَضًا ، وهذا بيان برهانى مشاهد . ووجدنا الجسم تتعاقب عليه الألوان ، والجسم قائم بنفسه فبيمنا تراه أبيض صار أخضر ، ثم أحمر ، ثم أصفر ، كالذى نشاهده فى الثمار والأصباغ ، فبالضرورة نعلم أنّ الذى عُدِم

وفنى من البياض والخضرة وسائر الألوان هو غير الذى بقى موجودًا لم يفن ، وأنهما جميعًا غير الشىء الحامل لهما ، لأنه لو كان شىء من ذلك هو الآخر لعدم بعدمه ، فدل بقاؤه بعده على أنه غيره ولابدَّ ، إذ من المحال الممتنع أن يكون الشىء معدومًا موجودًا فى حالة واحدة ، فى مكانٍ واحدٍ ، فى زمانٍ واحدٍ .

وأيضا فإن الأعراض هى الأفعال من الأكل والشرب ، والنوم ، والجماع ، والمشى ، والضرب ، وغير ذلك ، فمن أنكر الأعراض فقد أثبت الفاعلين وأبطل الأفعال ، وهذا محال لا خفاء به ، ولا فرق بين من أثبت الفاعلين ونفى الأفعال ، وبين من أثبت الأفعال ونفى الفاعلين . وكلا الطائفتين مبطلة لما يُشاهد بالحواسِّ ، ويدرك بالعقل[1]، سوفسطائيون حقًّا ، لأن من الأعراض ما يدرك بالبصر وهو اللون إذ ما لا لون له لا يدرك بالبصر ، وقد يدرك بالشمّ كالنتن والطيب ومنها : ما يدرك بالذَّوق كالحلاوة والمرارة ، والحموضة والملوحة ، ومنها ما يدرك بالحس[2] كالحر والبرد ، ومنها ما يدرك بالسمع كحسن الصوت وقبحه ، وجهارته وجفوته ، ومنها ما يدرك بالعقل كالحركة ، والحمق والعقل ، والعدل والجور ، والعلم والجهل ، فظهر فساد قول مبطلى الأعراض يقينًا والحمد لله رب العالمين ، فإذ قد صح كل ما ذكرنا فإنما الأسماء عبارات وتمييز للمسمّيات ليتوصل بها المخاطبون إلى تفاهم مراداتهم من الوقوف على المعانى ، وفصل بعضها من بعض ، ليس للأسماء فائدة غير هذه ، فوجب ضرورة أن يوقع على القائم بنفسه ، الشاغل لمكانه ، الحامل لغيره أسماء تكون عبارة عنه ، وأن يوقع أيضًا على القائم بغيره لا بنفسه المحمول الذى لا يشغل مكانًا – اسمًا آخر يكون أيضا عبارة عنه لينفصل بهذين الاسمين كل واحد من ذينك المسمَّيين عن الآخر ، وإن لم يكن هذا وقع التخليط وعدم البيان ، واصطلحنا على أن سمينا القائم بنفسه ، الشاغل للمكان جسمًا . واتفقنا على أن سمينا القائم بغيره لا بنفسه عرضًا ، لأنه عرض فى الجسم ، وحدث فيه . هذا هو الحق المشاهد بالحسِّ ، المعروف بالعقل ، وماعدا هذا فهذيان وتخليط ، لا يعقله قائله ، فكيف غيره ؟ فصحَّ بهذا كلّه وجود الأعراض وبطلان قول من أنكرها ، وصحَّ أيضًا بما ذكرنا أنَّ حدَّ اللون والحركة ، وكلَّ ما لا يقوم بنفسه هو غير حدّ القائم بنفسه ، فإذ ذلك كذلك فلا جسمَ إلَّا القائم بنفسه وكل ما عداه فعرض ، فلاحَ بهذا صحة قول من قال بذلك ، وبطل قول هشام والنظام . وبالله تعالى التوفيق .

وأما احتجاج هشام بوجود الطول والعرض والعمق التى توهّمها فى اللون ، فإنما هو طول الجسم الملون وعرضه وعمقه فقط ، وليس للّون طول ولا عرض ولا عمق ، وكذلك الطعم والمجسَّة ،

---

(١) فى (أ) : (بالفعل) .
(٢) فى (أ) : (باللمس) .

والرائحة ، وبرهان ذلك أنه : لو كان للجسم طول وعرض وعمق ، وكان للون طول غير طول الملون الحامل له ، وعرض آخر غير عرض الحامل له ، وعمق آخر غير عمق الملّون الحامل له ، لاحتاج كل واحدٍ منهما إلى مكان آخر ، غير مكان الآخر ، إذ من أعظم المحال الممتنع أن يكون شيئان طول كل واحدٍ منهما ذراع ، وعرضه ذراع وعمقه ذراع ثم يسعان جميعًا فى واحد ليس هو إلّا ذراع فى ذراع فقط ، ويلزمه مثل هذا فى الطعم والرائحة والمجسة ، لأن كل هذه الصفات توجدمن كل جهة من جهات الجسم الذى هى فيه ، كما يوجد اللون ولا فرق . وقد يذهب الطعم حتى يكون الشىء لا طعم له ، وتذهب الرائحة حتى يصير الشىء لا رائحة له ، ومساحته باقية بحسبها ، فصح يقينًا أن المساحة للملون والذى له الرائحة والطعم والمجسة ، لا للّون ولا للطعم[٣] ولا للرائحة ولا للمجسة . وقد نجد جسمًا طويلًا عريضًا عميقًا لا لون له وهو الهواء ساكنة ومتحركة ، وبالضرورة ندرى أنه لو كان له لون لم يزد ذلك فى مساحته شيئًا .

قال أبو محمد : فإن بلغ الجهل بصاحبه إلى أن يقول ليس الهواء جسمًا سألناه عما فى داخل الزّق المنفوخ ما هو ؟ وعما يَلْقى الذى يُجْرِى فرسًا جوادًا بوجهه وجسمه ؟ فإنه لا شك فى أنه جسم قوى متكسر محسوس .

وبرهان آخر : وهو أن كل أحد يدرى أن الطول والعرض والعمق لو كان لكل واحد منهما طول وعرض وعمق لاحتاج كل واحد منهما أيضًا إلى طول آخر وعرض آخر وعمق آخر وهكذا مسلسلًا إلى ما لا نهاية له ، وهذا باطل فبطل قول إبراهيم وهشام وبالله تعالى التوفيق .

وأما قول ضرار : إن الأجسام مركبة من الأعراض ، فقول فاسد جدًا لأن الأعراض قد صحّ كما ذكرنا أنها لا طول لها ولا عرض ولا عمق ولا تقوم بنفسها ، وصح أن الأجسام ذات أطوال وعروض وأعماق وقائمة بأنفسها ، ومن المحال أن يجتمع ما لا طول له ولا عرض ولا عمق مع مثله فيقوم[٤] منها ما له طول وعرض وعمق ، وإنما غلط فيها من توهم أن الأجسام مركبة من السطوح وأن السطوح مركبة من الخطوط ، والخطوط مركبة من النقط .

قال أبو محمد : وهذا خطأ على كل حال لأن السطوح المطلقة إنما هى تناهى الجسم وانقطاع تماديه من أوسع جهاته وعدم امتداده فقط وأما الخطوط المطلقة فإنما هى تناهى جهة السطح وانقطاع تماديها ، وأما النقط فهى تناهى جهات الجسم من أحد نهاياته كطرف السكين ونحوه فكل هذه الأبعاد إنما هى عدم التمادى ومن المحال أن يجتمع عدم فيقوم منه موجود . وأما[٥]

---

(٣) فى (آ) : بزيادة (مكان) ولا معنى لها .
(٤) فى (أ) : (فيتقوم) .
(٥) فى (أ) : (وإنما) .

السطوح المجسمة والخطوط المجسمة والنقط المجسمة فإنما هى أبعاض الجسم وأجزاؤه ، ولا تكون الأجزاء أجزاء إلا بعد القسمة فقط على ما نذكر بعد هذا إن شاء الله تعالى .

قال أبو محمد : وذهب قوم من المتكلمين إلى إثبات شيء سموه جوهرا ليس جسما ولا عرضا ، وقد ينسب هذا القول إلى بعض الأوائل . وحَدُّ هذا الجوهر عند من أثبته أنه واحد بالذات قابل للمتضادات قائم بنفسه لا يتحرك ، ولا له مكان ولا له طول ولا عرض ولا عمق ولا يتجزأ .

وحدَّه بعض من ينتمى إلى الكلام : بأنه واحد بذاته لا طول له ولا عرض ولا عمق[٦] ولا يتجزأ . وقالوا إنه يتحرك[٧] وله مكان وأنه قائم بنفسه يحمل من كل عرض عرضا واحدا فقط كاللون والطعم والرائحة والمجسة .

قال أبو محمد : وكلا هذين القولين والقول الذى اجتمعا عليه فى غاية الفساد والبطلان ، أول[٨] ذلك أنها كلها دعاوى مجردة لا يقوم على صحة شيء منها دليل أصلًا لا برهانى ولا إقناعى بل البرهان العقلى والحس يشهدان ببطلان كل ذلك وليس يعجز أحد أن يدعى ما شاء ومما كان هكذا فهو باطل محض وبالله تعالى نتأيد .

وأما نحن فنقول إنه ليس فى الوجود إلا الخالق وخلقه وأنه ليس الخلق إلا جوهرا حاملا لأعراضه ، وأعراضا محمولة فى الجوهر لا سبيل إلى تعرِّى[٩] أحدهما عن الآخر ، فكل جوهر جسم وكل جسم جوهر وهما اسمان معناهما واحد ولا مزيد وبالله تعالى التوفيق .

* * *

قال أبو محمد : ونجمع إن شاء الله تعالى كل شى أوقعت عليه هاتان الطائفتان اسم جوهر لا جسم ولا عرض ونبين إن شاء الله تعالى فساد كل ذلك بالبراهين الضرورية كما فعلنا فى سائر كلامنا وبالله تعالى التوفيق .

قال أبو محمد : حققنا ما أوقع عليه بعض الأوائل ومن قلدهم اسم جوهر ، وقالوا إنه ليس جسمًا ولا عرضًا فوجدناهم يذكرون البارى تعالى والنفس والهيولى والعقل والصورة وعبر بعضهم عن

(٦) فى (أ) : سقط : (ولا عمق) .
(٧) فى (أ) : (لا يتحرك) .
(٨) فى (أ) : (أول من قال ذلك) .
(٩) فى (أ) : (تعدى) بالدال وهو تحريف .

الهيولى بالطينة وبعضهم بالخميرة والمعنى فى كل ذلك واحد إلا أن بعضهم قال : المراد بذلك الجسم متعريا من جميع أعراضه وأبعاده . وبعضهم قال المراد[١٠] بذلك الشيء الذى منه كون هذا العالم ومنه يكون على حسب اختلافهم فى الخالق أو فى إنكاره وزاد بعضهم فى الجوهر الخلاء والمدة اللذين لم يزالا عندهم يعنى بالخلاء المكان المطلق لا المكان المعهود ويعنى بالمدة الزمان المطلق لا الزمان المعهود .

قال أبو محمد : وهذه أقوال ليس شيء منها لمن ينتمى إلى الإسلام وإنما هى للمجوس والصابئين وللدهرية وللنصارى فى تسميتهم البارى تعالى جوهرا فإنهم سموه فى أمانيهم[١١] التى لا يصح عندهم دين لملكى ولا لنسطورى ولا ليعقوبى ولا هارونى إلا باعتقادها ، وإلا فهو كافر بالنصرانية قطعا ، حاشا تسميته البارى تعالى جوهرًا ، فإنه للمجسمة أيضا وحاشى القول بأن النفس جوهر لا جسم ، فإنه قد قال به معمّر العطار أحد رؤساء المعتزلة ، وأما المنتمون إلى الإسلام فأن الجوهر الذى ليس جسمًا ولا عرضًا ليس هو عندهم شيئًا إلا الأجزاء الصغار التى لا تتجزأ وإليها[١٢] تنحل الأجسام عندهم بزعمهم وقد ذكر هذا عن بعض الأوائل أيضا فهذه ثمانية أشياء كما ذكرنا لا نعلم أحدًا سمى جوهرا ليس جسمًا ولا عرضًا ولا غيرها إلا قومًا جُهّالا يظنون فى القوى الذاتية أنها جواهر وهذا جهل منهم لأنها بلا خلاف محمولة فيما هى فيه[١٣] غير قائمة حتما وهذا صفة العرض لا صفة الجواهر بلا خلاف .

قال أبو محمد : فأما الخلاء والمدة فقد تقدم إفسادنا لهذا القول فى صدر ديواننا بالبراهين الضرورية وفى كتابنا الموسوم بالتحقيق فى نقض كتاب العلم الإلٰهى لمحمد بن زكريا الطبيب فحلّلنا كلّ دعوى أوردها هو وغيره فى هذا المعنى بأبين شرح والحمد لله رب العالمين كثيرًا .

وأثبتنا فى صدر كتابنا هذا وهنالك أنه ليس فى العالم خلاء ألبتة وأنه كلُّه كرة مصمته لا تخلخل فيها وأنه ليس وراء هذا[١٤] خلاء ولا ملاءٌ ولا شيء ألبتة وأن المدة ليست إلا مدة[١٥] أحدث الله [فيها] الفلك بما فيه من الأجسام الساكنة والمتحركة وأعراضها ، وبينا فى كتاب التقريب لحدود الكلام أن الآلة المسماة الزرّافة وسارقة الماء والآله التى تدخل فى إحليل من به أثر البول براهين ضرورية فى[١٦] تحقيق أن لا خلاء فى العالم أصلًا وأن[١٧] الخلاء عند القائلين به إنما هو

(١٠) فى (أ) : سقط (المراد) .
(١١) فى (أ) : (أمانتهم) .
(١٢) فى (أ) : سقطت (الواو) .
(١٣) فى (أ) : سقطت (فيه) .
(١٤) فى (أ) : (وراءها) .
(١٥) فى (أ) : (للأمد) .
(١٦) فى (أ) : (بتحقيق) .
(١٧) فى (خ) : (فإن) .

مكان لا تمكن فيه وهذا محال بما ذكرنا لأنه لو خرج الماء من الثقب الذى فى أسفل سارقة الماء وقد سُدَّ أعلاها لبقى مكانه خاليًا بلا متمكن فيه فإذا لم يكن ذلك أصلًا ولا كان فى[١٨] بنية العالم وجوده وقف الماء باقيا لا ينهرق حتى إذا فتح أعلاها ووجد الهواء مدخلًا خرج الماء وانهرق لوقته وخلفه الهواء ، وكذلك الزرّافة والآلة المتخذة لمن به أسر البول فإنه إذا حصلت تلك فى داخل الإحليل وأول المثانة ثم جبذ الزر المغلق لبقها إلى خارج اتبعه البول ضرورة وخرج إذ [لو] لم يخرج لبقى ثقب الآلة خاليًا لا شىء فيه ، وهذا باطل ممتنع وقد بينا فى صدر كتابنا كلَّ ما اعترض به الملحدون المخالفون لنا فى هذا المكان فأغنى عن إعادته .

فإن قال قائل فالماء الذى اخترعه الله عز وجل من بين أصابع رسول الله ﷺ ، والتمر الذى اخترع له ، والثريد الذى اخترع له من أين اخترعه وهى أجسام محدثة والعالم عندكم ملاء لا خلاء فيه ، ولا تخلخل ولا يكون الجسمان فى مكان واحد ؟ قلنا وبالله تعالى التوفيق لا يخلو هذا من أحد وجهين لا ثالث لهما .

إما أن يكون الله عز وجل أعدم من الهواء مقدار ما اخترع منه من التمر والماء والثريد ، وإما أن يكون الله عز وجل أحال أجزاء من الهواء ماء وتمرًا وثريدًا فالله أعلم أى ذينك كان والله على كل شىء قدير فسقط قولهم فى الخلاء والمدة والحمد لله رب العالمين .

* * *

قال أبو محمد : وأما الصّورة فكيفية بلا شك وهى تخليط الجواهر وتشكلها إلا أنها قسمان أحدهما ملازم كالصورة الكلية لا تفارق الجواهر ألبتة ولا توجد دونها ولا تتوهم الجواهر عارية عنها والآخر تتعاقب أنواعه وأشخاصه على الجواهر كانتقال الشىء عن تثليث إلى تربيع ونحو ذلك فصح أنها أعراض بلا شك وبالله تعالى التوفيق .

* * *

وأما العقل فلا خلاف بين أحد له حس[١٩] سليم فى أنه عرض محمول فى النفس ، وكيفية برهان ذلك أنه يقبل الأشد والأضعف فنقول عقل أقوى من عقل وأضعف من عقل وله ضد وهو

(١٨) فى (أ) : (فيه) .
(١٩) فى (أ) : (عقل) .

الحمق ، ولا خلاف فى الجواهر أنها لا ضدّ لها ، وإنما التضاد فى بعض الكيفيات فقط وقد اعترض فى هذا بعض من صح[٢٠] له علم الفلسفة فقال : ليس للعقل[٢١] ضد لكن لوجوده ضد وهو عدمه فقلت للذى ذكر لى هذا القول[٢٢] إن هذه سفسطة وجهل ، ولو جاز له هذا التخليط لجاز لغيره أن يقول ليس للعلم ضد لكن لوجوده ضد وهو عدمه ، ولا لشىء من الكيفيات ضد ، ولكن لوجودها ضد وهو عدمها ، فيبطل التضاد من جميع الكيفيات ، وهذا كلام يُعلم فساده بضرورة العقل ، ولا فرق بين وجود الضد للعقل وبين وجوده للعلم ولسائر الكيفيات وهى باب واحد كله وإنما هى صفات متعاقبة كلها موجودة فالعقل موجود ثم يعقبه الحمق ، وهو موجود كما أن العلم موجود ويعقبه الجهل ، وكما أن النجدة موجودة ويعقبها الجبن ، وهو موجود وهذا أمر لا يخفى على من له أقل تمييز ، وكذلك الجواهر لا تقبل الأشد والأضعف فى ذواتها ، وهذا أيضًا قول كل من له أدنى فهم من الأوائل . والعقل عند جميعهم هو تمييز الفضائل من الرذائِل واستعمال الفضائل واجتناب الرذائِل والتزام ما تحسن به المغبَّة فى دار البقاء وعالم الجزاء وحسن السياسة فيما يلزم المرء فى دار الدنيا .

وبهذا أيضًا جاءت الرسل عليهم السلام قال الله عز وجل : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها[٢٣]» .

وقال تعالى : « كذلك يبين الله لكم الايات لعلكم تعقلون[٢٤]» .

وقال تعالى : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا[٢٥]» .

وقال تعالى : « ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون[٢٦]» .

وقال تعالى : « وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون[٢٧]» .

وقال تعالى : « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون[٢٨]» .

---

(٢٠) فى (أ) : (يدعى) .
(٢١) فى (أ) : (فى العقل) .
(٢٢) فى (أ) : (البحث) .
(٢٣) الحج : ٤٦
(٢٤) النور : ٦١
(٢٥) الفرقان : ٤٤
(٢٦) يونس : ١٠٠
(٢٧) المائدة : ٥٨
(٢٨) الأنفال : ٥٥

فصح أن العقل هو الإيمان وجميع الطاعات وقال تعالى عن الكفار : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير[٢٩] » .

ومثل هذا فى القرآن كثير فصح أن العقل فعل النفس وهو عرض محمول فيها وقوة من قواها فهو عرض كيفية بلا شك وإنما غلط من غلط فى هذا لأنه رأى لبعض الجهال المخلطين من الأوائل أن العقل جوهر وأن له فلكا فعوَّل على ذلك من لا علم له وهذا خطأ كما أوردنا . وبالله تعالى التوفيق .

وأيضًا فإن لفظة العقل غريبة أتى بها المترجمون عبارة عن لفظة أخرى يُعبَّر بها فى اليونانية أو فى غيرها من اللغات عما يعبر بلفظة العقل عنه فى اللغة العربية هذا ما لا خفاء به عند أحد ولفظة العقل فى لغة العرب إنما هى موضوعة لتمييز الأشياء واستعمال الفضائل فصح ضرورة أنها معبَّر[٣٠] بها عن عرض وكلّ[٣١] مُدَّعٍ خلاف ذلك ردىء العقل عديم الحياء مباهتٌ بلا شك . ولقد قال بعض النوكى والجهال لو كان العقل عرضا لكانت الأجسام أشرف منه فقلت للذى أتانى بهذا وهل للجوهر شرف إلا بأعراضه ؟ وهل شرف جوهر قط على جوهر إلا بصفاته لا بذاته ؟ وهل يخفى هذا على أحد ؟ ثم قلنا ويلزمهم هذا نفسه على قولهم السخيف فى العلم والفضائل إذ[٣٢] لا يخالفون فى أنها أعراض فعلى مقدمتهم السخيفة يجب أن تكون الأجسام كلها أشرف منها وهذا كما ترى .

وأما الهيولى : فهو الجسم نفسه الحامل لأعراضه كلها وإنما أفردته الأوائل بهذا الاسم إذ تكلموا عليه مفردا فى الكلام عليه عن سائر أعراضه كلها من الصورة وغيرها مفصولا فى الكلام عليه خاصة ، عن أعراضه وإن كان لا سبيل إلى أن يوجد خاليا عن أعراضه ولا متعريا منها أصلا ولا يتوهم وجوده كذلك ولا يتشكل فى النفس ، ولا يتمثل ذلك أصلا ، بل هو محال ممتنع جملة ، كما أن الإنسان الكلى وجميع الأجناس والأنواع ليس شىء منها غير أشخاصه فقط فهى الأجسام بأعيانها إن كان النوع نوعَ أجسام وهى أشخاص الأعراض إن كان النوعُ نوع أعراض ولا مزيد . لأن قولنا الإنسان الكلىّ يزيد النوع إنما معناه أشخاص الناس فقط لا أشياء أخر وقولنا الحمرة الكلية إنما معناه أشخاص الحمرة حيث وجدت فقط فبطل بهذا تقدير من ظن من أهل الجهل أن الجنس والنوع والفصل جواهر لا أجسام وبالله تعالى التوفيق .

---

(٢٩) الملك : ١٠
(٣٠) فى (أ) : (معبرة) .
(٣١) فى (أ) : (وكان) .
(٣٢) فى (أ) : (أن) .

ولكن الأوائل سمّتها وسمّت الصفات الأوليات الذاتيات جوهريات لا جواهر وهذا صحيح لأنها منسوبة إلى الجواهر لملازمتها لها لا تفارقها ألبتة ولا يتوهم مفارقتها لها وبالله تعالى التوفيق .

فبطل قولهم فى الخلاء والمدة والصورة والعقل والهيولى والحمد لله رب العالمين .

* * *

وأما البارى تعالى فقد أخطأ من سمّاه جوهرًا من المجسمة ومن النصارى لأن لفظة الجوهر لفظة عربية ومن أثبت الله عز وجل فَفَرْضٌ عليه إذا أقرأنّه خالقه وإلاهه ومالك أمره أن لا يقدم عليه فى شيء إلا بعهد منه تعالى ، ولا يخبر عنه إلا بعلم متيقن ، ولا علم هاهنا إلا بما أخبر به عزَّ وجل فقط فصح يقينًا أن تسمية الله عز وجل جوهرا والإخبار عنه بأنه جوهر حكم عليه تعالى بغير عهد منه وإخبار عنه عز وجل بالكذب الذى لم يخبر قط تعالى به عن نفسه ولا سمى به نفسه وهذا إقدام لم يأتنا قط به برهان بإباحته . وأيضًا فإن الجوهر حامل لأعراض مّا ولو كان البارى تعالى حاملا لعرض لكان مُركّبا من ذاته وأعراضه وهذا باطل .

وأما النصارى فليس لهم أن يتسوروا على اللغة العربية فيصرفوها عن موضوعها فبطل أن يكون تعالى جوهرا لبراءته عن حد الجوهر وبطل أن يسمى جوهرًا لأنه تعالى لم يسم نفسه به وبالله تعالى التوفيق .

فبطل قول من سمى الله تعالى جوهرًا أو أخبر أنه تعالى جوهر . ولله تعالى الحمد ، فلم يبق إلا النفس والجزء الذى لا يتجزأ ونحن إن شاء الله عز وجل نتكلم فيهما كلامًا متيقنا(٣٣) ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

* * *

قال أبو محمد : اختلف الناس فى النفس فذكر عن أبى بكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم إنكار النفس جملة . وقال لا أعرف إلا ما شاهدته بحواسّى ، وقال جالنيوس وأبو الهذيل محمد ابن الهذيل العلاف النفس عرض من الأعراض ثم اختلفا فقال جالنيوس هى مزاج مجتمع يتولد من تركيب أخلاط الجسد . وقال أبو الهذيل هى عرض كسائر أعراض الجسم وقالت طائفة : النفس

---

(٣٣) فى (أ) : (مبينا) .

هى النسيم الداخل الخارج بالتنفس فهى النفس ، قالوا والروح عرض وهو الحياة فقط فهو غير النفس وهذا قول الباقلانى ومن اتبعه من الأشعرية .

وقالت طائفة : النفس جوهر ليست جسمًا ولا عرضًا ولا لها طول ولا عرض ولا عمق ولا هى فى مكان ولا تتجزأ وأنها هى الفعَّالة المدبرة وهى الإنسان وهو قول بعض الأوائل وبه يقول معمّر بن عمر العطار أحد شيوخ المعتزلة وذهب سائر أهل الإسلام والملل المقرَّة بالمَعَادِ إلى أن النفس جسم طويل عريض عميق ذات مكان عاقلة مميزة مصرفة للجسد .

قال أبو محمد : وبهذا نقول والنفس والروح اسمان مترادفان لمسمًّى واحد ومعناهما واحد .

قال أبو محمد : وأما قول أبى بكر بن كيسان فإنه يبطله النص وبرهان العقل ، أما النص فقول الله عز وجل : « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم اخرجوا انفسكم(٣٤) » الآية .

فصح أن النفس موجودة وأنها غير الجسد وأنها الخارجة عند الموت .

قال أبو محمد : وأما البرهان العقلى فإنا نرى المرء إذا أراد تصفيّة عقلة وتصحيح رأيه أو فك مسألة عويصَة عكس ذهنه وأفرد نفسه عن حواسها الجسدية وترك استعمال الجسد فقط جملة وتبرأ منه حتى إنه لا يرى من بحضرته ولا يسمع ما يقال أمامه فحيئنذ يكون رأيه وفكره أصفى ما كان .

فصحَّ أن الفكر والذكر ليسا للجسد المتخلى منه عند إرادتهما وأيضًا فالذى يراه النائِم مما يخرج حقًا على وجهه وليس ذلك إلا اذا تخلّت النفس عن الجسد فبقى الجسد كجسد الميت ونجده حينئذ يرى فى الرؤيا ويسمع ويتكلم ويذكر وقد بطل عمل بصره الجسدى وعمل أذنيه الجسدية ، وعمل ذوقه الجسدى وكلام لسانه الجسدى .

فصحَّ يقينا أن العقل المبصر السامع المتكلم الحساس الذائق هو شىء غير الجسد .

فصح أنه المسمى نفسًا إذ لا شىء غير ذلك وكذلك ما تتخيلة نفس الأعمى والغائِب عن الشىء مما قد رآه قبل ذلك فيتمثله ويراه فى نفسه كما هو .

فصح يقينا أن هاهنا متمثلًا مدركًا غير الجسد إذ لا أثر للجسد ولا للحواس فى شىء مما ذكرنا ألبتة . ومنها أنك ترى المريد يريد بعض الأمور بنشاط فإذا اعترضه عارض مًّا كسل ، والجسم بحسبه كما كان لم يتغير منه شىء فعلمنا أن هاهنا مريدًا للأشياء غير الجسد ومنها أخلاق

(٣٤) الأنعام : ٩٣

النفس من الحلم والصبر والحسد والعقل والطيش والخرق والنَّزق والعلم والبلادة وكل هذا ليس لشيء من أعضاء الجسد فإذ لا شك فى ذلك فإنما هو كله للنفس المدبرة للجسد . ومنها ما يرى من بعض المحتضرين ممن قد ضعف جسده وفسدت بنيته وتراه حينئذ أحدَّ ما كان ذهنا وأصحَّ ما كان تمييزا ، وأفضل طبيعة وأبعد عن كل لغوٍ وأنطق بكل حكمة ، وأصحَّهم نظرًا وجسده حينئذ فى غاية الفساد وبطلان القوى .

فصح أن المدرك للأمور المدبر للجسد الفعَّال المميز الحيّ هو شيء غير الجسد وهو الذى يسمى نفسًا وصح أن الجسد مؤذ للنفس وأنها مذ حلت فى الجسد فكأنها وقعت فى طين غمر[٣٥] فأنساها شغلها بها كل ما سلف لها .

وأيضًا فلو كان الفعل للجسد لكان فعله متماديا وحياته متصلة فى حال نومه وموته ، ونحن نرى الجسد حينئذ صحيحًا سالمًا لم ينتقص منه شيء من أعضائه قد بطلت أفعاله كلها جملة .

فصح أن الفعل والتمييز إنما كان لغير الجسد وهو النفس المفارقة له[٣٦] وأن الفعَّال الذاكر فرّا منه[٣٧] وتبرأ منه . وأيضًا فإننا نرى أعضاء الجسد تذهب عضوًا عضوًا بالقطع أو الفساد والقوى باقية بحسبها والأعضاء قد ذهبت وفسدت بالجذام وبالجدرى وبالقطع والجسد قد نقص وفسد باقيه[٣٨] ونجد الذهن والتدبير والعقل وقوى النفس باقية أوفر ما كانت .

فصح ضرورة أن الفعّال العالم الذاكر المدبر المريد هو غير الجسد كما ذكرنا وأن الجسد موات فبطل قول ابن كيسان والحمد لله رب العالمين .

وأما قول من قال إنها مزاج كما قال جَالنيوس فإن كل ما ذكرنا مما أبطلنا به قول أبى بكر ابن كيسان ، فإنه يبطل أيضًا قول جالنيوس .

وأيضًا فإن العناصر الأربعة التى منها تُّركبُ الجسد وهى التراب ، والماء ، والهواء ، والنار ، فإنها كلها موات بطبعها ، ومن الباطل الممتنع والمحال ، الذى لا يجوز ألبتة أن يجمع موات وموات ، وموات وموات فيقوم منها حى .

وكذلك محال أن تَجتمع فيقوم منها حارٌّ أَوْ حوَارٌّ فيجتمع منها بارد ، أو حى وحى وحى فيقوم منها موات ، فبطل أن تكون النفس مزاجًا ، وبالله تعالى التوفيق .

(٣٥) فى (أ) : (مخمر) .
(٣٦) فى (أ) : سقطت (له) .
(٣٧) فى (أ) : (باينه) .
(٣٨) فى (أ) : سقط الكلام من قوله (بالجذام إلى باقية) .

وأما قول من قال إنها عرض فقط ، وقول من قال : إنما النفس النسيم الداخل والخارج من الهواء ، وأن الروح هو عرض وهو الحياة ، فإن كل هذين القولين يبطلان بكل ما ذكرنا فى[٣٩] إبطال قول الأصم بن كيسان ، وأيضا فإن أهل هذين القولين ينتمون إلى الإسلام ، والقرآن يبطل قولهم نصا قال الله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى[٤٠] » .

فصح ضرورة أن الأنفس غير الأجساد ، وأن الأنفس هى المتوفاة فى النوم والموت ، ثم ترد عند اليقظة ، وتمسك عند الموت ، وليس هذا التوفى للأجساد أصلًا ، وبيقين يَدرى كل ذى حس سليم أن العرض لا يمكن أن يتوفى فيفارق الجسم الحامل له ، ويبقى كذلك ثم يُرَدُّ بعضه ويمسك بعضه ، هذا ما لا يكون ولا يجوز لأن العرض يبطل بمزايلته الحامل له كذلك لا يمكن أن يَظُنُّ ذو مسكة من عقل أن الهواء الداخل والخارج هو المتوفى عند النوم وكيف ذلك وهو باق فى حال النوم كما كان فى حال اليقظة ولا فرق ..؟ وكذلك قوله عز وجل : « والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون[٤١] » .

فإنه لا يمكن أن يعذب العرض ولا الهواء . وأيضًا فإن الله عز وجل يقول : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى[٤٢] » .

قال أبو محمد : هذه آية ترفع الإشكال جملة ، وتبين أن النفس غير الجسد ، وإنما هى العَاقلة المخاطبة المكلفة ، لأنه لا يشك ذو حس سليم فى أن الأجساد حين أخذ الله عليها هذا العهد كانت مبددة فى التراب والماء والهواء والنار ، ونص الآية يقتضى ما قلنا فكيف وفيها نص أن الإشهاد إنما وقع على النفوس ..؟ وما أدرى كيف ينشرح نفس مسلم بخلاف هذه النصوص ..؟ وكذلك إخبار رسول الله ﷺ أنه رأى عند سماء الدنيا ليلة أسرى به عن يمين آدم وعن يساره نسم بنيه فأهل السعادة عن يمينه ، وأهل الشقاء عن يساره عليه السلام » . ومن الباطل أن تكون الأعراض باقية هنالك أو أن يكون النسيم هنالك ، وهو هواء متردد فى الهواء .

قال أبو محمد : ولو كان ما قاله أبو الهذيل والباقلانى ، ومن قلدهما حقًا ، لكان الإنسان يبدل فى كل ساعة ألف ألف روح وأزيد من ثلثمائة ألف نفس ، لأن العرض عندهم لا يبقى وقتين بل يفنى ويتجدد عندهم أبدا ، فروح كل حىّ على قولهم فى كل وقت غير روحه التى كانت قبل

---

(٣٩) فى (أ) : سقطت (فى) .
(٤٠) الزمر : ٤٢
(٤١) الأنعام : ٩٣
(٤٢) الأعراف : ١٧٢

ذلك ، وهكذا تتبدل أرواح الناس عندهم بالخطاب ، وكذلك بيقين يشاهد كل أحد أن الهواء الداخل بالتنفس ثم يخرج هو غير الهواء الداخل بالتنفس الثانى . فالإنسان يبدل على قول الأشعرية أنفسًا كثيرة فى كل وقت ونفسه الآن غير نفسه آنفًا ، وهذا حمق لا خفاء به فبطل قول الفريقين بنص القرآن والسنة ، والإجماع والمشاهدة والمعقول ، والحمد لله رب العالمين .

هذا مع تعريهما من الدليل جملة ، وأنها دعوى فقط وما كان هكذا فهو باطل . وقد صرح الباقلانى عند ذكره لما يعترض فى أرواح الشهداء وأرواح آل فرعون فقال : هذا يخرج على أحد وجهين بأن يوضع عرض الحياة فى أقل جزء من أجزاء الجسم ، وقال بعض من شاهدناه منهم توضع الحياة فى عجب الذنب واحتج بالخبر عن النبى ﷺ « كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب[٤٣]» .

قال أبو محمد : وهذا تمويه من المحتج بهذا الخبر ، لأنه ليس فى الحديث لا نص ولا دليل ولا إشارة ، يمكن أن يتأول على أن عجب الذنب يحيا ، وإنما فى الحديث أن عجب الذنب لا يأكله التراب ، وأنه منه خلق الجسد وفيه يُركب فقط ، فظهر تمويه هذا القائل وضعفه ، والحمد لله رب العالمين .

قال الباقلانى : وأما أن يخلق لتلك الحياة جسد آخر ، فلا .

قال أبو محمد : وهذا مذهب أهل التناسخ بلا مؤنة ، واحتج لذلك بالحديث المأثور .

أن نسمة المؤمن طير يعلق من ثمار الجنة ، ويأوى إلى قناديل تحت العرش وفى بعضها أنها فى حواصل طير خضر .

قال أبو محمد : ولا حجة له فى هذا الخبر ، لأن معنى قوله عليه السلام طائر يعلق هو على ظاهره لا على ظن أهل الجهل ، وإنما أخبر عليه السلام أن نسمة المؤمن طائر بمعنى أنها تطير فى الجنة فقط ، لا أنها تنسخ فى صور الطير ، فإن قيل إن النسمة مؤنثة قلنا قد صح عن عربى فصيح أنه قال أتتك كتابى فاستخففت بها ، فقيل له أتونث الكتاب ؟ فقال أو ليس صحيفة ؟ وكذلك النسمة روح فتذكَّر لذلك ، وأما الزيادة التى فيها أنها فى حواصل طير خضر ، فإنها صفة تلك القناديل التى نأوى إليها ، والحديثان معا حديث واحد وخبر واحد .

قال أبو محمد : ولم يحصل من هذين الوجهين الفاسدين إلا على دعوى كاذبة بلا دليل

---

(٤٣) سبق تخريج هذا الحديث ص ١٨١ .

يشبه الهزل أو على كفر مجرد فى المصير ، إلى قول أصحاب التناسخ وعلى تحريف الحديث عن وجهه ونعوذ بالله من الخذلان .

فبطل هذان القولان والحمد لله رب العالمين . وأما قول من قال إن النفس جوهر لا جسم من الأوائل ، ومعمّر وأصحابه ، فإنهم مؤهوا بأشياء إقناعيات فوجب إيرادها ، ونقضها ليظهر البرهان على وجه الإنصاف للخصم وبالله تعالى التوفيق .

* * *

قال أبو محمد رحمه الله : قالوا : لو كان النفس جسمًا لكان بين تحريك المحرّك رجله وبين إرادته تحريكها زمان على قدر حركة الجسم وتنقله ، إذ النفس هى المحركة للجسد والمريدة لحركته قالوا فلو كان المحرك للرجل جسمًا لكان لا يخلو إمّا أن يكون حاصلًا فى هذه الأعضاء ، وإما جائيًا إليها فإن كان جائيا إليها احتاج إلى مدة ولابد ، وإن كان حاصلًا فيها فنحن إذًا قطعنا تلك العصبة التى بها تكون الحركة لم يَبق منها فى العضو الذى كان يتحرك شىء أصلًا ، فلو كان المحرك حاصلًا فيه لبقى منه شىء فى ذلك العضو .

قال أبو محمد : وهذا لا معنى له لأن النفس لا تخلو من أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها ، إما أن تكون متخللة لجميع الجسد من خارج كالثوب وإما أن تكون متخللة لجميعه من داخل كالماء فى المدره . وإما أن تكون فى مكان واحد من الجسد وهو القلب والدماغ ، وتكون قواها منبثة فى جميع الجسد فأى هذه الوجوه كان فتحريكها لما يريد تحريكه من الجسد يكون مع إرادتها لذلك متلازمان كإدراك البصر لما يلاقى الجسد فى البعد بلا زمان ، وإذا قطعت العصبة لم ينقطع ما كان من جسم النفس متخللا لذلك العضو إن كانت متخللة لجميع الجسد من داخل ، أو متخللة له من خارج ، بل تفارق العضو الذى يبطل حسه فى الوقت وينفصل عنه بلا زمان ، وتكون مفارقتها لذلك العضو كمفارقة الهواء للإناء الذى ملىء ماء ، وأماإن كانت النفس ساكنة فى موضع واحد من الجسد فلا يلزم على هذا القسم أن يسلب من العضو المقطوع ، بل يكون فعلها حينئذ فى تحريكها الأعضاء كفعل حجر المغناطيس فى الحديد وإن لم يلصق به يتلازمان فبطل هذا الإلزام الفاسد . والحمد لله رب العالمين .

وقالوا لو كانت النفس جسما لوجب أن نعلم ببعضها أو بكلها .

قال أبو محمد : وهذا سؤال فاسد بعينه والجواب وبالله تعالى التوفيق أنها لا تُعلم إلا بكلها أو ببعضها ، لأن كل بسيط غير مركب من طبائع شتى ، فهو طبيعة واحدة وما كان طبيعة واحدة

فقوته فى جميع أبعاضه ، وفى بعض أبعاضه سواء كالنار تحرق بكلها وببعضها ، ثم لا ندرى ما وجه هذا الاعتراض علينا بهذا السؤال ، ولا ما وجه استدلالهم منه على أنها غير جسم ولو عكس عليهم فى إبطال دعواهم أنها جوهر لا جسم لما كان بينهم وبين السائل لهم بذلك فرق أصلًا .

وقالوا : إن من شأن الجسم أنك إذا زدت عليه جسمًا آخر زاد فى كميته وثقله قالوا فلو كانت النفس جسما ثم داخلت الجسم الظاهر لوجب أن يكون الجسد حينئذ أثقل منه دون النفس ونحن نجد الجسد إذا فارقته النفس أثقل منه ، إذا كانت النفس فيه .

قال أبو محمد : هذا شغب فاسد ومقدمة باطلة كاذبة ، لأنه ليس كل جسم كما ذكروه ، من أنه إذا زيد عليه جسم آخر كان أثقل منه وحده ، وإنما يعرض من هذا فى الأجسام الثقال التى تطلب المركز والوسط فقط ، يعنى التى فى طبعها أن تتحرك سفلا ، وترسب من المائيات والأرضيات ، وأما التى تتحرك بطبعها علوًّا فلا يعرض ذلك لها ، بل الأمر بالضد وإذ أضيف جسم منها إلى جسم ثقيل خففه فإنك ترى أنك لو نفخت زقا من جلد ثورٍ أو جلد بعير لو أمكن حتى يمتلىء هواء ثم وزنته فإنك لا تجد على وزنه زيادة على مقدار وزنه لو كانه فارغًا أصلًا .

وكذلك ما صعد من الزقاقة ولو أنه ورقة سوسنة منفوخة ، ونحن نجد الجسم العظيم الذى إذا أضفته إلى جسم الثقيل خففه جدا ، فإنك لو رميت الزق غير المنفوخ فى الماء لرسب فإذا نفخته ورميت به خف وعام ، ولم يرسب ولذلك يستعمله العَائمون لأنه يرفعهم عن الماء ويمنعهم من الرسوب ، وهكذا النفس مع الجسد وهو باب واحد كله ، لأن النفس جسم علوى فلكى أخف من الهواء ، وأطلب للعلو فهى تخفف الجسد إذا كانت فيه ، فبطل تمويهم والحمد لله رب العالمين .

وقالوا أيضًا لو كانت النفس جسما لكانت ذات خاصة ، إما خفيفة وإما ثقيلة ، وإما حارة وإما باردة ، وإما لينة وإما خشنة .

قال أبو محمد : نعم هى خفيفة فى غاية الخفة ذاكرة عاقلة مميزة حية ، هذه خواصها وحدودها التى بانت بها عن سائِر الأجسام المركبات ، مع سائِر أعراضها المحمولة فيها من الفضائِل والرذائِل ، وأما الحر واليبس والبرد والرطوبة واللين والخشونة فإنما هى من أعراض عناصر الأجرام التى دون الفلك خاصة ، ولكن هذه الأعراض المذكورة مؤثرة فى النفس اللذة أو الألم ، فهى منفعلة لكل ما ذكرنا ، وهذا يثبت أنها جسم يحمل الأعراض .

وقالوا أيضًا : إن كل جسم(٤٤) كيفياته محسوسة ، وما لم تكن كيفياته محسوسة فليس

---

(٤٤) فى (أ) : (قالوا : إنما من كان الأجسام فكيفياته) وهذا تحريف مخل بالمعنى .

جسما ، وكيفيات النفس إنما هى الفضائل والرذائِل ، وهذان الجنسان من الكيفيات ليسا محسوسين فالنفس ليست جسمًا .

قال أبو محمد : وهذا شغب فاسد ومقدمة كاذبة ، لأن قولهم ما لا تحسُّ كيفياته فليس جسما دعوى كاذبة بلا برهان أصلًا ، لا عقلى ولا حسى ، وما كان هكذا فهو قول ساقط مطرح لا يعجز عن مثله أحد ، ولكنا لا نقنع بهذا دون أن نُبطل الدعوى ببرهان حسى ضرورى بعون الله تعالى ، وهو أن الفلك جسم ، وكيفياته غير محسوسة ، وأما اللون اللازوردى الظاهر فإنما يتولد فيما دونه من امتزاج بعض العناصر ووقوع خط البصر عليها ، وبرهان ذلك تبدُّل ذلك اللون بحسب العوارض المولدة له ، فمرة تراه أبيض صافى البياض ، ومرة ترى فيه حمرة ظاهرة ، فصح أن قولهم دعوى مجردة كاذبة وبالله تعالى التوفيق .

وأيضا فإن الجسم تتفاضل أنواعه فى وقوع الحواس عليه ، فمنه ما يدرك لونه وطعمه وريحه ومنه ما لا يدرك منه إلا المحسة فقط ، كالهواء ومنها النار فى عنصرها لا تقع عليها شيء من الحواس أصلا بوجه من الوجوه ، وهى جسم عظيم المساحة محيط بالهواء كله ، فوجب من هذا أن الجسم كلما زاد لطافة وصفاء لم تقع عليه الحواس ، وهذا حكم النفس وما دون النفس فأكثره محسوس للنفس لا حِسَّ ألبتة إلا للنفس ولا حساس إلا هى ، فهى حساسة لا محسوسة ، ولم يجب قط لا بعقل ولا بحس أن يكون كل حساس محسوسًا ، فسقط قولهم جملة والحمد لله رب العالمين .

وقالوا : إن كل جسم فإنه لا يخلو من أن يقع تحت جميع الحواس أو تحت بعضها والنفس لا تقع تحت كل الحواس ولا تحت بعضها فالنفس ليست جسمًا .

قال أبو محمد : وهذه مقدمة فاسدة كما ذكرنا آنفًا لأن ما عدم اللون من الأجسام لم يدرك بالبصر (٤٥) كالهواء وكالنار فى عنصرها وأن ما عدم الرائحة لم يدرك بالشم كالهواء والنار والحصى والزجاج وغير ذلك ، وما عدم الطعم لم يدرك بالذوق كالهواء والنار والحصى والزجاج ، وما عدم المجسة لم يدرك باللمس كالهواء الساكن ، والنفس عادمة اللون والطعم والمجسة والرائحة . فلا تُدرك بشيء من الحواس بل هى المدركة لكل هذه المدركات ، وهى الحساسة لكل هذه المحسوسات ، فهى حساسة لا محسوسة ، وإنما تعرف بآثارها ، وبراهين عقلية ، وسائِر الأجسام والأعراض محسوسة لا حساسة ولابد من حسَّاس لهذه المحسوسات ولا حساس لها غير النفس ، وهى المعاملة التى تعلم نفسها وغيرها وهى القابلة لأعراضها التى تتعاقب عليها من الفضائِل والرذائِل المعلومة بالعقل كقبول سائِر الأجرام لما يتعاقب عليها من الأعراض المعروفة (٤٦) بالعقل ، والنفس هى المتحركة

(٤٥) فى (أ) : (بالبر) وهو تحريف .
(٤٦) فى (أ) : سقطت (المعروفة) .

باختيارها المحركة لسائِر الأجسام ، وهى مؤثرة مؤثِّر(٤٧) فيها ، تألم وتلتذ وتفرح وتحزن ، وتغضب وترضى ، وتعلم وتجهل ، وتحب وتكره ، وتذكر وتنسى ، وتنتقل وتحل ، فبطل قول هؤلاء ان كل جسم فلا بد من أن يقع تحت الحواس أو تحت بعضها لأنها دعوى لا دليل عليها ، وكل دعوى عريت من دليل فهى باطلة ، وقالوا : كل جسم فإنه لا محالة يلزمه الطول والعرض ، والعمق والسطح ، والشكل والكم ، والكيف ، فإن كانت النفس جسمًا فلابد من أن تكون هذه الكيفيات فيها أو يكون بعضها فيها ، فأى الوجهين كان فهى إذن محاط بها ، وهى مدركة بالحواس أو من بعضها ، ولا نرى الحواس تدركها فليست جسمًا .

قال أبو محمد : هذا كله صحيح وقضايا صادقة ، حاشا قضية واحدة ، ليست فيها وهى قولهم وهى مدركة من الحواس أو من بعضها ، فهذا هو الباطل المقحم بلا دليل ، وسائِر ذلك صحيح ، وهذه القضية الفاسدة دعوى كاذبة وقد تقدم أيضًا إفسادنا لها آنفًا مع تعرّيها عن دليل يصححها ، ونعم فالنفس جسم طويل عريض عميق ، ذات سطح وخط وشكل ومساحة وكيفية ، يحاط بها ، ذات مكان وزمان ، لأن هذه خواص الجسم ولابد ، والعجب من قلة حياء من أقحم مع هذا « فهى إذا مدركة بالحواس » وهذا عين الباطل لأنّ حاسة البصر وحاسة السمع وحاسة الذوق وحاسة الشم ، وحاسة اللمس ، لا يقع شىء منها لا على الطول ولا على العرض ولا على العمق ، ولا على السطح ولا على الشكل ، ولا على المساحة ، ولا على الكيفية ، ولا على الخط إنما تقع حاسة البصر على اللون فقط ، فإن كان فى شىء مما ذكرنا لون وقعت عليه حينئذ(٤٨) حاسة البصر وعلمت ذلك الملون بتوسط اللون والإفلا . وإنما تقع حاسة السمع على الصوت فإن حدث فى شىء مما ذكرنا صوت وقعت عليه حاسة السمع حينئذ ، وعلمت ذلك المصوت بتوسط الصوت والإفلا .

وإنما تقع حاسة الشم على الرائِحة ، فإن كان فى شىء مما ذكرنا رائِحة وقعت عليها حينئذ حاسّة الشم ، وعلمت حامل الرائِحة حينئذ(٤٩) بتوسط الرائحة والإفلا ، وإن كان لشىء مما ذكرنا طعم وقعت عليه حينئذ حاسّة الذوق وعلمت المذوق بتوسط الطعم والإفلا ، وإن كان فى شىء مما ذكرنا مجسة وقعت عليها حاسة اللّمس حينئذ وعلمت الملموس حينئذ بتوسط المجسة والإفلا .

وقالوا إن من خاصة الجسم أن يقبل التجز ، وإذا جزىء خرج منه الجزء الصغير والكبير ، ولم يكن الجزء الصغير كالجزء الكبير ، فلا يخلو حينئذ من أحد أمرين ، إما أن يكون كل جزء منها

(٤٧) فى (أ) : سقطت (مُؤثِّر) .
(٤٨) فى (أ) : سقطت (حينئذ) .
(٤٩) فى (أ) : سقطت (حينئذ) .

نفسًا فيلزم من ذلك ألا تكون النفس نفسًا واحدة ، بل تكون حينئذ أنفسًا كثيرة مركبة من أنفس وإما أن لا يكون كل جزء منها نفسًا فيلزم أن لا يكون كلها نفسًا .

قال أبو محمد : أما قولهم إن خاصة الجسم احتمال التجزؤ فهو صدق ، والنفس محتملة للتجزؤ لأنها جسم من الأجسام . وأما قولهم إن الجزء الصغير ليس كالكبير فإن كانوا يريدون فى المساحة فنعم ، وأما فى غير ذلك فلا ، وأما قولهم : إنها ان تجزأت فإما أن يكون كل جزء منها نفسًا وإلزامهم من ذلك أنها مركبة من أنفس فإن القول الصحيح فى هذا أن النفس محتملة للتجزىء بالقوة ، وإن كان التجزؤ بانفسامها غير موجود بالفعل . وهكذا القول فى الفلك والكواكب ، كل ذلك محتمل للتجزؤ بالقوة ، وليس التجزؤ موجودًا فى شىء منها بالفعل . وأما قولهم إنها مركبة من أنفس فشغب فاسد ، لأننا قد قدمنا فى غير موضع أن المعانى المختلفة والمسمَّيات المتغايرة يجب أن يوقع على كل واحد منها اسم يبين به عن غير ، وإلا فقد وقع الإشكال وبطل التفاهم ، وصرنا إلى قول السوفسطائية المبطلة لجميع الحقائق ، ووجدنا العالم ينقسم قسمين .

أحدهما : مؤلف من طبائِع مختلفة فاصطلحنا على أن سمينا هذا القسم مركبا والثانى : مؤلف من طبيعة واحدة ، فاصطلحنا على أن سمينا هذا القسم بسيطا ليقع التفاهم فى الفرق بين هذين القسمين ، ووجدنا القسم الأول لا يقع على كل جزء من أجزائه اسمُ كلّه كالإنسان الجزئىّ فإنه متألف من أعضاء لا يسمى شىء منها إنسانًا كالعين والأنف واليد وسائِر أعضائه التى لا يسمى عضو منها على انفراده إنسانًا ، فإذا تألفت سمّى المتألف منها إنسانًا . ووجدنا القسم الثانى يقع على كل جزء من أجزائه اسمُ كلّه كالأرض والماء وكالهواء وكالنار وكالفلك ، فكل جزء من النار نار ، وكل جزء من الماء ماء ، وكل جزء من الهواء هواء وكل جزء من الفلك فلك ، وكل جزء من النفس نفس ، وليس ذلك موجبًا أن تكون الأرض مؤلفة من أرضين ولا أن يكون الهواء مؤلفًا من أهوية ، ولا أن يكون الفلك مؤلفًا من أفلاك ، ولا أن تكون النفس مؤلفة من أنفس ، وحتى لو قيل ذلك بمعنى أن كل بعض منها يسمى نَفسًا وكل بعض من الفلك يسمى فلكًا ، فما كان يكون فى ذلك ما يعترض به على أنها جسم كسائِر الأجسام التى ذكرنا ، وبالله تعالى التوفيق .

* * *

وقالوا أيضا طبع ذات الجسم أن يكون غير متحرك والنفس متحركة ، فإن كانت هذه الحركة التى فيها من قبل البارى تعالى فقد وجدنا لها حركات فاسدة ، فكيف يضاف ذلك إلى البارى تعالى ؟

قال أبو محمد : وهذا كلام فى غاية الفساد والهجنة ، ولقد كان ينبغى لمن ينتسب إلى العلم إن كان يدرى مقدار سقوط هذه الاعتراضات وسخفها أن يصون نفسه عن الاعتراض بها لرذالتها وإن كان لا يدرى لأذالتها فكان الأولى به أن يتعلم قبل أن يتكلم ، فأما قوله إن طبع ذات الجسم أن تكون غير متحركة ، فقول ظاهر الكذب والمجاهرة ، لأن الأفلاك(٥٠) والكواكب أجسام وطبعها الحركة الدائمة المتصلة أبدا ، إلى أن يحيلها خالقها عن ذلك يوم القيامة .

وأن للعناصر دون الفلك أجسامًا وطبعها الحركة إلى مقرها ، والسكون فى مقرها ، وأما النفس فلأنها حية كان طبعها السكون الاختيارى والحركة الاختيارية حينًا وحينًا ، هذا كله لا يجهله أحد به ذوق .

وأما قولهم : إن لها حركات ردية فكيف تضاف إلى البارى تعالى ..؟ فإنما كان بعض حركات النفس رديا لمخالفة النفس أمر باريها فى تلك الحركات ، وإنما أضيفت إلى البارى تعالى لأنه خلقها فقط على قولنا أو لأنه تعالى خلق تلك القوى التى بها كانت تلك الحركات ، فسقط إلزامهم الفاسد والحمد لله رب العالمين .

وقالوا أيضًا : إن الأجسام فى طبعها الاستحالة والتغير واحتمال الانقسام أبدا بلا غاية ليس شىء منها إلا هكذا أبدًا ، فهى محتاجة إلى من يربطها ويشدها ويحفظها ويكون به تماسكها . قالوا والفاعل لذلك النفس فلو كانت النفس جسمًا لكانت محتاجة إلى من يربطها ويحلها ، فيلزم من ذلك أن تحتاج النفس إلى نفس أخرى ، والأخرى إلى أخرى والأخرى كذلك إلى ما لا نهاية له ، وما لا نهاية له باطل .

قال أبو محمد : هذا أفسد من كل قول سلف من تشغياتهم لأن مقدمته مغشوشة فاسدة كاذبة . أما قولهم : إن الأجسام فى طبعها الاستحالة والتغيير على الإطلاق كذب ، لأن الفلك جسم لا يقبل الاستحالة ، وإنما تجب الاستحالة والتغيير فى الأجسام المركبة من طبائع شتى بخلعها كيفياتها ولباسها كيفيات أخرى وبانحلالها إلى عناصرها هكذا مدة ما أيضًا ثم تبقى غير منحلة ولا مستحيلة .

وأما النفس فإنها تقبل الاستحالة والتغيير فى أعراضها فتتغير وتستحيل من علم إلى جهل ، ومن جهل إلى علم ، ومن حرص إلى قناعة ، ومن بخل إلى جود(٥١)، ومن رحمة إلى قسوة ، ومن لذة إلى ألم ، هذا كله موجود محسوس . وأما أن تستحيل فى ذاتها فتصير ليست نفسًا فلا ، وهذا

---

(٥٠) فى (أ) : (للأفلاك) .
(٥١) فى (أ) : (وجود) .

الكوكب هو جسم ولا يصير غير كوكب ، والفلك لا يصير غير فلك ، وأما قوله إن الأجسام محتاجة إلى ما يشدّها ويربطها ويمسكها فصحيح ، وأما قوله : إن النفس هى الفاعلة لذلك فكذب ودعوى بلا دليل عليها إقناعى ولا برهانى ، بل هو تمويه مدلس ليجوز باطلة على أهل الغفلة ، وهكذا قول الدهرية ، وليس كذلك بل النفس من جملة الأجسام المحتاجة إلى ما يمسكها ويشدها ويقيمها وحاجتها إلى ذلك كحاجة سائِر الأجسام التى فى العالم ولا فرق ، والفاعل لكل ذلك فى النفس وفى سائِر الأجسام والممسك لها ، والحافظ لجميعها والمحيل لما استحال منها فهو المبتدىء[٥٢] للنفس ولكل ما فى العالم من جسم أو عرض ، والمتمم لكل ذلك هو الله الخالق البارىء المصور عز وجل .

فبعضٌ أمسكها بطبائعها التى خلقها فيها ، وصرفها فضبطها لما هى فيه وبعضٌ أمسكها برباطات ظاهرة كالعصب والعروق والجلود لا فاعل لشىء من ذلك دون الله تعالى ، وقد قدمنا البراهين على كل ذلك فى صدر كتابنا هذا فأغنى عن ترداده والحمد لله رب العالمين .

وقالوا أيضًا : كل جسم فهو إما ذو نفس ، وإما لا ذو نفس فإن كانت النفس جسمًا فهى متنفسة أى ذات نفس وإما لا متنفسة أى لا ذات نفس ، فإن كانت لا متنفسة فهذا خطأ لأنه يجب من ذلك أن تكون النفس لا نفسًا وإن كانت متنفسة أى ذات نفس فهى محتاجة إلى نفس وتلك النفس إلى أخرى والأخرى إلى أخرى ، وهذا يوجب ما لا نهاية له وما لا نهاية له باطل .

قال أبو محمد : هذه مقدمة صحيحة ركبوا عليها نتيجة فاسدة ليست منتجة على تلك المقدمة . أما قولهم إن كل جسم فهو إما ذو نفس وإما لا ذو نفس فصحيح ، وأما قولهم إن النفس إن كانت غير متنفسة وجب من ذلك أن تكون النفس لا نفسًا فشغب فاسد بارد ، لا يلزم لأن معنى القول بأن الجسم ذو نفس إنما هو أن بعض الأجسام أضيفت إليه نفس حية حساسة متحركة بإرادة ، مدبرة لذلك الجسم الذى استضافت إليه ، ومعنى القول بأن هذا الجسم غير ذى نفس إنما هو أنه لم تستضف إليه نفس فالنفس هى الحية المحركة المدبرة ، وهى غير محتاجة إلى جسم مدبّر لها ، ولا محرّك لها فلم يجب أن يحتاج إلى نفس ولا أن تكون ليست نفسًا ، ولا فرق بينهم فى قولهم هذا وبين من قال إن الجسم يحتاج إلى جسم ، كما قالوا إنه يجب أن تحتاج النفس إلى نفس أو قال يجب أن يكون الجسم لا جسمًا كما قالوا يجب أن تكون النفس لا نفسًا ، وهذا كله هوس وجهل والحمد لله رب العالمين .

وقالوا لو كانت النفس جسمًا لكان الجسم نفسًا .

---

(٥٢) فى (أ) : (المبدى) .

قال أبو محمد : وهذا من الجهل المفرط المظلم ، ولو كان لقائل هذا الجنون أقل علم بحدود الكلام لم يأت بهذه الغثاثة ، لأن الموجبة الكلية لا تنعكس ألبتة انعكاسًا مطردًا إلا موجبة جزئية لا كلية ، وكلامهم هذا بمنزلة من قال لما كان الإنسان جسمًا وجب أن يكون الجسم إنسانًا ، ولما كان الكلب جسمًا وجب أن يكون الجسم كلبًا ، وهذا غاية الحمق والقحة ، لكن صواب القول فى هذا أن نقول : لما كانت النفس جسمًا كان بعض الأجسام نفسًا ، ولما كان الكلب جسمًا وجب أن يكون بعض الأجسام كلبًا ، وهذا هو العكس الصحيح المطرد اطرادًا صحيحًا أبدا ، وبالله تعالى التوفيق .

وقالوا أيضًا : إن كانت النفس جسمًا فهى بعض الأجسام ، وإذا كانت كذلك فكلية الأجسام أعظم مساحة منها ، فيجب أن تكون أشرف منها .

قال أبو محمد : مَنْ عُدِم الحياء والعقل لم يبال بما نطق لسانه ، وهذه قضية فى غاية الحمق لأنها توجب أن الشرف إنما هو بعظم الأجسام وكثرة المساحة ، ولو كان ذلك لكانت الهضبة[٥٣] والباسة[٥٤] والحمار والبغل وكدش[٥٥] العذرة أشرف من الإنسان المنبأ والفيلسوف لأن كل ذلك أعظم مساحة منه ولكانت العزلة أشرف من ناظر العين والإلية أشرف من القلب والكبد والدماغ ، والصخرة أشرف من اللؤلؤة ، وأُفٍّ لكل علم أدَّى إلى مثل هذا .

ونعم فإن كثيرًا من الأجسام أعظم مساحة من النفس ، وليس ذلك موجبا أنها أشرف منها مع أن النفس الرذلة المضربة عما أوجبه التمييز وعن طاعة ربها إلى الكفر ، به فكل شىء فى العالم أشرف منها ونعوذ بالله من الخذلان .

وقالوا : إن كانت النفس جسمًا آخر مع الجسم فالجسم نفس وشىء آخر ، وإذا كان ذلك فالجسم أتم وإذا كان أتم فهو أشرف .

قال أبو محمد : وهذا جنون مردد لأنه ليس بكثرة العدد يجب الفضل والشرف ، ولا بعموم اللفظ يجب الشرف ، بل قد يكون الأقل والأخص أشرف ، ولو كان ما قالوه لوجب أن تكون الأخلاق جملةً أشرف من الفضائِل خاصة ، لأن الأخلاق فضائِل وشىء آخر فهى أتم فهى على حكمهم[٥٦] السخيف أشرف ، وهذا ما لا يقوله ذو عقل ، وهم يقرون أن النفس جوهر والجوهر نفس وجسم فالجوهر أشرف من النفس ، لأنه نفس وشىء آخر ، وقد قالوا إن الحىَّ يقع تحت

---

(٥٣) فى (أ) : (القضية) .
(٥٤) مفهوم قوله أنها شىء كبير الحجم ، ولم نعثر لها على معنى فى القواميس فلعلها محرفة عن (الملس) : وهى الناقة السريعة .
(٥٥) يقصد المكان الذى تتجمع فيه القاذورات أكواما .
(٥٦) فى (أ) : (حملهم) .

النامى فيلزمهم أن النامى أشرف من الحيِّ لأنه حيٌّ وشيء آخر ، وهذا تخليط وحماقة ونعوذ بالله من الوسواس .

وقالوا أيضًا : كل جسم يتغذَّى والنفس لا تتغذى فهى غير جسم .

قال أبو محمد : إن كان هؤلاء السخفاء إذ اشتغلوا بهذه الحماقات كانوا سكارى ،بل سكر الجهل والسخف أعظم من سكر الخمر ، لأن سكر الخمر سريع الإفاقة ، وسكر الجهل والسخف بطيء الإفاقة أتراهم إذ قالوا كل جسم فهو متغذ ألم يروا الماء والأرض والهواء والكواكب والفلك وأن كل هذه أجسام عظام لا تتغذى ، وإنما يتغذى من الأجسام النوامى فقط ، وهى أجساد الحيوان الساكن فى الماء والأرض والشجر والنبات فقط ، فإذا كان عند هؤلاء النوكى ما لا يتغذى ليس جسمًا فالأرض والحجارة والكواكب والفلك والملائكة ليس كلُّ ذلك جسمًا ، وكفى بهذا جنونًا وخطأ ونحمد الله على السلامة .

وقالوا : لو كانت النفس جسمًا لكانت لها حركة ، لأن لكل جسم حركة ونحن لا نرى للنفس حركة فبطل أن تكون جسمًا .

قال أبو محمد : هذه دعوى كاذبة ، وقد تناقضوا أيضًا فيها لأنهم قد قالوا قبل هذا بِنَحْو ورقة فى بعض حججهم إن الأجسام غير متحركة ، والنفس متحركة ، وهنا قلبوا الأمر فظهر جهلهم وضعف عقلهم(٥٧)، وأما قولهم لا نرى لها حركة فمخرقة فليس كل ما لا يرى يجب أن ينكر إذا قام على صحته دليل ، ويلزمهم إذا أبطلوا حركة النفس لأنهم لا يرونها أن يبطلها النفس جملة لأنهم أيضًا لا يرونها ولا يشمونها ، ولا يلمسونها ولا يذوقونها ، وحركة النفس معلومة بالبرهان وهو أن الحركة قسمان حركة اضطرار وحركة اختيار ، فحركة الاضطرار هى حركة كل جسم غير النفس هذا ما لا يُشك فيه فبقيت حركة الإختيار وهى موجودة يقينا وليس فى العالم شيء متحرك بها حاشا النفس فقط فصح أن النفس هى المتحركة بها فصح ضرورة أن للنفس حركة اختيارية معلومة بلا شك فإذ لا شك فى أن كل متحرك فهو جسم وقد صح أن النفس متحركة فالنفس جسم ، فهذا هو البرهان الضرورى التام الصحيح ، لا تلك الوساوس وإلا هذا ونحمد الله على نعمه عز وجل .

وقالوا : لو كانت النفس جسمًا لوجب أن يكون اتصالها بالجسم إما على سبيل المجاورة وإما على سبيل المداخلة وهى الممازجة .

قال أبو محمد : فبعد هذا ماذا ؟ ونعم فإن النفس متصلة بالجسم على سبيل المجاورة

---

(٥٧) فى (أ) : (عقولهم) .

ولا يجوز سوى ذلك ، إذ لا يمكن أن يكون اتصال الجسمين إلا بالمجاورة ، وأما اتصال المداخلة فإنما هى بين العرض والعرض والجسم والعرض على ما بينا قبل . وقالوا أيضًا إن كانت النفس جسمًا فكيف يعرف الجسم ؟ أبمماسة أم بغير مماسة ؟

قال أبو محمد : الأجسام كلها حاشا النفس موات لا علم لها ولا حس ، ولا تعلم شيئًا وإنما العلم والحس للنفس فقط ، فهى تعلم الأجسام والأعراض وخالق الأجسام والأعراض الذى هو خالقها أيضًا بما فيها من صفة الفهم وطبيعة التمييز وقوة العلم التى وضعها فيها خالقها عز وجل ، وسؤالهم بارد . وقالوا أيضًا : إن كل جسم بدأ فى نشوة وغاية ينتهى إليها ، وأجود ما يكون الجسم إذا انتهى إلى غايته فإذا أخذ فى النقص ضعف ، وليست الأنفس كذلك ، لأننا نرى أنفس المكتهلين أكثر ضياء وأنفذ فعلًا ، ونجد أبدانهم أضعف من أبدان الأحداث فلو كانت النفس جسمًا لنقص فعلها بنقصان البدن ، فإذا كان هذا كما ذكرنا فليست النفس جسمًا .

قال أبو محمد : هذه مقدمة فاسدة الترتيب ، أما قولهم : إن الجسم أجود ما يكون إذا انتهى إلى غايته فخطأ . إذا قيل على العموم ، وإنما ذلك فى النوامى فقط وفى الأشياء التى تستحيل استحالة ذبوليَّة فقط ، كالشجر وأصناف أجساد الحيوان والنبات .

وأما الجبال والحجارة والأرض والبحار والهواء والماء والأفلاك والكواكب فليس لها[٥٨] غاية إذا بلغتها أخذت فى الانحطاط ، وإنما يستحيل بعض ما يستحيل من ذلك على سبيل التفتت ، كحجر كسرته فانكسر ولو ترك لبقى ، ولم يذبل ذبول الشجر والنبات وأجسام الحيوان ، وكذلك النفس لا تستحيل استحالة ذبول ولا استحالة تفتت وإنما تستحيل أعراضها كما ذكرنا فقط ، ولا نماء لها وكذلك الملائكة والفلك والكواكب والعناصر الأربعة لا نماء لها ، وكل ذلك باق على هيئته التى[٥٩] خلقه الله تعالى عليها إذ خلق كل ذلك ، والنفس كذلك منتقلة من عالم الابتداء إلى عالم الابتلاء[٦٠] إلى البرزخ ، إلى عالم الحساب ، إلى عالم الجزاء فتخلد فيه أبدا بلا نهاية ، وهى إذا تخلصت من رطوبات الجسد ، وكدره كانت أصفى نظرًا وحسًا[٦١] وأصح علما كما كانت قبل حلولها فى الجسد نسأل الله خير ذلك المنقلب بمنه آمين .

قال أبو محمد : هذا كل ما موَّهوا به من كل نطيحة ومتردية ، قد تقصيناه لهم وبينا أنه كله فساد وحماقات ، ونقضناه[٦٢] بالبراهين الضرورية والحمد لله رب العالمين .

---

(٥٨) فى (أ) : (لهم) .
(٥٩) فى (أ) : (متى) .
(٦٠) فى (أ) : (الانتهاء) .
(٦١) فى (أ) : سقطت (حسا) .
(٦٢) فى (أ) : (وتقصيناه) .

قال أبو محمد : فإذ قد بطل كل ما شغب به من يقول إن النفس ليست جسما ، وسقط هذا القول لتعرّية عن الأدلة جملة ، فنحن إن شاء الله عز وجل نوضح بعون الله عز وجل وقوته البراهين الضرورية على أنها جسم وبالله تعالى نتأيد . وذلك بعد أن نبين بتأييد الله عز وجل شغبين يمكن أن يُعترض بهما إن قال قائل أتنمُّو النفس ..؟ فإن قلتم لا . قلنا لكم(٦٣) نحن نجدها تنشأ من صغر إلى كبر ، وترتبط بالجسد بالغذاء ، وإذا انقطع الغذاء انحلت عن الجسد ونجدها تسوء أخلاقها ويقل صبرها ، بعدم الغذاء فإذا أتغذت اعتدلت أخلاقها وصلحت .

قال أبو محمد : النفس لا تتغذّى ولا تُنمّى . أما عدم غذائها فالبرهان القائم بأنها ليست مركبة من الطبائع الأربع ، وأنها بخلاف الجسد ، هذا هو البرهان على أنها لا تتغذى وهو أن ما تركب من العناصر الأربعة فلابدّ له من الغذاء ليستخلف ذلك الجسد ، أو تلك الشجرة أو ذلك النبات من رطوبات ذلك الغذاء أو أرضياته ، مثل ما تحلل من رطوباته بالهواء والحَرِّ وليست هذه صفة النفس إذ لو كانت لها هذه الصفة لكانت من الجسد أو مثله ، ولو كانت من الجسد أو مثله لكانت مواتا كالجسد غير حساسة ، فإذ قد بطل أن تكون مركبة من طبائع العناصر بطل أن تكون متغذيّة ناميةً وأما ارتباطها بالجسد من أجل الغذاء فهو أمر لا يَعرف كيفيتَه إلا خالقُها عزّ وجل الذى هو مدبرها ، إلا أنه معلوم أنه كذلك فقط وهو كطحن المعدة للغذاء لا يُدرى كيف هو وغير ذلك مما يوجده الله تعالى ويعلمه .

ومن البرهان على أن النفس لا تتغذى ولا تُنَمّى : أن البرهان قد قام على أنها كانت قبل تركيب الجسد على آباد الدهور ، وأنها باقية بعد انحلاله ، وليس هنالك فى ذينك العالمين غذاء يولد نماء أصلا ، وأمّا ما ظنوه من نشأتها من صغر إلى كبر فخطأ ، وإنما هو عودة من النفس إلى ذكرها الذى سقط عنها بأول ارتباطها بالجسد ، فإن سأل سائل أتموت النفس ؟ قلنا : نعم ، لأن الله تعالى نصّ على ذلك فقال : « كل نفس ذائقة الموت(٦٤) » .

وهذا الموت إنما هو فراقها للجسد فقط ، برهان ذلك قول الله تعالى : « أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون(٦٥) » . وقوله تعالى : « وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحيكم(٦٦) » .

فصح أن الحياة المذكورة إنما هى ضم الجسد إلى النفس ، وهو نفخ الروح فيه وأن الموت المذكور إنما هو التفريق بين الجسد والنفس فقط ، وليس موت النفس مما يظنه أهل الجهل وأهل

---

(٦٣) فى (ا) : سقطت (لكم) .
(٦٤) آل عمران : ١٨٥
(٦٥) الأنعام : ٩٣
(٦٦) البقرة : ٢٨ وقد ذكرت محرفة فى (خ ، أ) .

الإلحاد من أنها تعدم جملة بل هى موجودة قائمة ، كما كانت قبل الموت وقبل الحياة الأوْلى ، ولا أنها يَذهب حسها وعلمها بل حسها بعد الموت أصح ما كان ، وعلمها أتم ما كان ، وحياتها التى هى الحس والحركة الإراديَّة باقية بِحَسْبِهَا أكمل ما كانت قط ، قال عز وجل : « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون(٦٧) » .

وهى راجعة إلى البرزخ حيث رآها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به ، عن الميمنه من آدم عليه السلام ومشملته إلى أن تحيا ثانية بالجمع بينها وبين جسدها يوم القيامة . وأما أنفس الجن وسائِر الحيوان فحيث شاء الله تعالى ، ولا علم لنا إلا ما علمنا ولا يحل لأحد أن يقول بغير علم ، وبالله تعالىٰ التوفيق .

* * *

قال أبو محمد : فلنذكر الآن إن شاء الله تعالى البراهين الضرورية على أن النفس جسم من الأجسام ، فمن الدليل على أن النفس جسم من الأجسام انقسامها على الأشخاص ، فنفس زيد غير نفس عمرو فلو كانت النفس واحدة لا تنقسم على ما يزعم الجاهلون القائلون أنها جوهر لا جسم لوجب ضرورة أن يكون نفس المحب هى نفس المبغض ، وهى نفس المحبوب وأن يكون نفس الفاسق الجاهل هى نفس الفاضل الحكيم العالم ، ولكانت نفس الخائِف هى نفس المخوف منه ، ونفس القاتل هى نفس المقتول وهذا حمق لا خفاء به .

فصح أنها نفوس كثيرة متغايرة الأماكن مختلفة الصفات ، حاملة لأعراضا فصح أنها جسم بيقين لا شك فيه . وبرهان آخر وهو أن العلم لا خلاف فى أنه من صفات النفس وخواصها لا مدخل للجسد فيه أصلا ولا حظ للنفس(٦٨) فلو كان النفس جوهرًا واحدًا لا يتجزأ نفوسًا لوجب ضرورة أن يكون علم كل أحد مستويًا لا تفاضل فيه ، لأن النفس على قولهم واحدة ، وهى العالمة فكان يجب أن يكون كل ما علمه زيد يعلمه عمرو ، لأن نفسهما واحدة عندهم غير منقسمة ولا متجزئة ، فكان يلزم ولابدَّ أن يعلم جميع أهل الأرض ما يعلمه كلُّ عالم فى الدنيا ، لأن نفسهم واحدة لا تنقسم وهى العالمة ، وهذا ما لا انفكاك منه ألبتة فقد صحَّ بما ذكرنا ضرورة أن نفس كل أحد غير نفس غيره ، وأن أنفس النَّاس أشخاص متغايرة تحته نوع نفس الإنسان ، وأن نفس الإنسان الكلية نوع تحت جنس النفس الكلية ، التى يقع تحتها أنفس جميع الحيوان .

---

(٦٧) العنكبوت : ٦٤

(٦٨) فى (أ) : سقط (للنفس) .

وإذ هى أشخاص متغايرة ذات أمكنة متغايرة حاملة لصفات متغايرة فهى أجسام ، لا يمكن غير ذلك ألبتة وبالله تعالى التوفيق .

وأيضًا : فإن العالم كله محدود معروف أجسام وأعراض ولا مزيد ، فمن ادَّعى أن هاهنا جوهرا ليس جسما ولا عرضًا فقد ادَّعى ما لا دليل عليه ألبتة ، ولا يتشكل فى العقل ولا يمكن توهمه ، وما كان هكذا فهو باطل مقطوع على بطلانه . وبالله تعالى التوفيق .

وأيضًا فإن النفس لا تخلو من أن تكون خارج الفلك أو داخل الفلك ، فإن كانت خارج الفلك فهذا باطل إذ قام البرهان على تناهى جرم العالم ، وإذا تناهى جرم(٦٩) العالم فليس وراء النهاية شىء ولو كان وراءها شىء لم تكن نهاية ، فوجب ضرورية أنه ليس خارج الفلك الذى هو نهاية العالم شىء لا خلاء ولا ملاء ، وإن كانت فى الفلك فهى ضرورة ، إما ذاتُ مكان وإمَّا محمولة فى ذى مكان ، لأنه ليس فى العالم شىء غير هذين أصلًا .

ومن ادّعى أن للعالم(٧٠) شيئًا ثالثًا فقد ادّعى المحال والباطل ، وما لا دليل له عليه ، وهذا لا يعجز عنه أحد ، وما كان هكذا فهو باطل بيّقين . وقد قام الدليل على أن النفس ليست عرضًا لأنها عالمة حساسة ، والعرض ليس عالمًا ولا حساسًا ، فصح أنها حاملة لصفاتها لا محمولة فإذ هى حاملة متمكنة فهى جسم لا شك فيه ، إذ ليس إلا جسم حامل أو عرض محمول ، وقد بطل أن تكون عرضًا محمولًا فهى جسم تحت حسٍّ(٧١) حامل وبالله تعالى التوفيق .

وأيضًا : فلا تخلو النفس من أن تكون واقعة تحت جنس ، أو لا واقعة تحت جنس فإن كانت لا واقعة تحت جنس فهى خارجة عن المقولات ، وليس فى العالم شىء خارج عنها ، ولا فى الوجود شىء خارج عنها إلا خالقها وحده لا شريك له ، وهم لا يقولون بهذا بل يوقعونها تحت جنس الجوهر ، فإذ هى واقعة تحت جنس الجوهر الجامع للنفس وغيرها أله طبيعة أم لا ؟ فإن قالوا : لا وجب أن كلَّ ما تحت الجوهر لا طبيعة له ، وهذا باطل وهم لا يقولون بهذا ، فإن قالوا لا ندرى ما الطبيعة ؟ قلنا لهم : أله صفة محمولة فيه لا يوجد دونها أم لا ؟ فلابد من نعم وهذا هو معنى الطبيعة ، وإن قالوا بل له طبيعة ؛ وجب ضرورة أن يعطى كل ما تحته طبيعة ، لأن الأ على يُعْطِى كُلَّ ما تحته اسمه وحدود عطاءً صحيحًا ، والنَّفس تحت الجوهر فالنفس ذات طبيعة بلا شك ، وإذ صح أن لها طبيعة فكل ما له طبيعة فقد حصرته طبيعته ، وما حصرته(٧٢) الطبيعة

---

(٦٩) فى (أ) : سقط (وإذا تناهى جرم العالم) .
(٧٠) فى (أ) : (فى العالم) .
(٧١) فى (أ) : سقط (تحت حس) .
(٧٢) فى (أ) : سقط (وما حصرته) .

فهو ذو نهاية محدودة ، وكل ذى نهاية فهو إما حامل وإما محمول ، والنفس بلا شك حاملة لأعراضها من الأضداد ، كالعلم ، والجهل ، والذكاء والبلادة والنجدة ، والجبن ، والعدل ، والجود والقسوة ، والرحمة ، وغير ذلك ، وكل حامل فذو مكان ، وكل ذى مكان فهو جسم ، فالنفس جسم ضرورة . وأيضًا : فكل ما كان واقعًا تحت جنس فهو نوع من أنواع ذلك الجنس ، وكلّ نوع فهو مركب من جنسه الأ على العام له من أنواعه ، ومركب أيضًا مع ذلك من فصله الخاص له ، المميّز له من سائِرِ الأنواع الواقعة معه تحت جنس واحد ، فإنه موضوع وهو جنسه القابل لصورته وصورة غيره وله محمول وهو صورته التى خصته دون غيره فهو ذو موضوع ومحمول ، فهو مركب والنفس نوع للجوهر فهى مركبة من موضوع ومحمول وهى قائمة بنفسها فهى جسم ولابد .

* * *

قال أبو محمد : وهذه براهين ضرورية حسية عقلية لا محيد عنها ، وبالله تعالى التوفيق .

وهذا قول جماعة من الأوائل ، ولم يقل أرسطاطاليس إن النفس ليست جسمًا على ما ظنه أهل الجهل ، وإنما نفى أن تكون جسمًا كدرا وهو الذى لا يليق بكل ذى علم سواه ، ثم لو صح أنه قالها لكانت وهلة ودعوى بلا برهان عليها ، وخطأ لا يجب اتباعه عليه ، وهو يقول فى مواضع من كتبه اختلف أفلاطون والحق وكلاهما إلينا حبيب غير أن الحق أحب إلينا ، وإذا جاز أن يختلف أفلاطون والحق فغير نكير ولابُدَّ أن[٧٣] يختلف أرسطاطاليس والحق ، وما عصم إنسان من الخطأ فكيف وما صح قط أنه قاله ..؟

قال أبو محمد : وإنما قال إن النفس جوهر لا جسم من ذهب ، إلا أنها هى الخالقة لما دون الله تعالى على ما ذهب إليه بعض الصائبين ، ومن كنى بها عن الله تعالى .

قال أبو محمد : وكلا القولين سخيف وباطل ، لأن النفس والعقل لفظتان من لغة العرب موضوعتان فيها لمعنيين مختلفين ، فإحالتهما عن موضوعهما فى اللغة سفسطة وجهل ، وقلة حياء وتلبيس وتدليس .

قال أبو محمد : وأما من ذهب إلى أن النفس ليست جسمًا ممن ينتمى إلى الإسلام بزعمه فقوله يبطل بالقرآن والسنة وإجماع الأمة ، فأما القرآن فإن الله عزّ وجل قال : « هنالك تبلو كل

---

(٧٣) فى (أ) : (ولا بديع) .

نفس ما أسلفت[٧٤]» وقال تعالى : « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم[٧٥]» وقال تعالى : « كل امرىء بما كسب رهين[٧٦]» .

فصح أن النفس الفعَّالة الكاسبة المجزيَّة المخاطبةَ وقال تعالى : « إن النفس لأمارة بالسوء[٧٧]» .

وقال تعالى : « ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب[٧٨]» وقال تعالى : « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون[٧٩]» وقال تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله[٨٠]» .

فصح أن النفس منها ما يُعرض على النار قبل يوم القيامة فتعذب ، ومنها ما يُرزق وينعم فرحا ويكون مسرورا قبل يوم القيامة ، ولا شك أن أجساد آل فرعون وأجساد المقتولين فى سبيل الله قد تقطعت أوصالها ، وأكلتها السباع والطير وحيوان الماء .

فصح أن الأنفس منقولة من مكان إلى مكان ، ولا شك فى أن العرض لا يلقى العذاب ولا يحس فليست عرضًا ، وصح أنها تشغل[٨١] الأماكن قائمة بنفسها وهذه صفة الجسم لا صفة الجوهر عند القائلين به . فصح ضرورة أنها جسم .

وأما من السنن فقول رسول الله ﷺ « إن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر فى الجنة[٨٢] » وقوله ﷺ « إنه رأى نَسمَ بنى آدمَ عِنْد سَماءِ الدُّنْيَا عَنَ يمين آدم ويَساره[٨٣]» .

فصح أن الأنفس مرئية فى أماكنها ، وقوله عليه السلام إن نفس المؤمن إذا قبضت عرج بها إلى سماء الدنيا ، وفعل بها كذا ، ونفس الكافر إذا قبضت فُعل بها كذا . فصح أنها معذبة ومنعمة ومنقولة فى الأماكن ، وهذه صفة الأجسام ضرورة . وأما من الإجماع فلا خلاف بين أحد من أهل

(٧٤) يونس : ٣٠

(٧٥) غافر : ١٧ وقد جاءت الآية محرفة فى (أ) .

(٧٦) الطور : ٢١

(٧٧) يوسف : ٥٣

(٧٨) غافر : ٤٦

(٧٩) البقرة : ١٥٤

(٨٠) آل عمران : ١٦٩

(٨١) فى (أ) : (تنتقل فى) .

(٨٢) حديث صحيح رواه ابن مسعود ولفظه (إن أرواح المؤمنين فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاضطلع إليهم ربهم اطلاعه فقال : هل تشتهون شيئا ، قالوا أى شىء نشتهى ، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا) إلى آخر الحديث .

(٨٣) وهذا الحديث غير وارد فى كتب الصحاح بهذا اللفظ ، ولكن وردت أحاديث كثيرة حول معناه ، وقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) الأعراف : ١٧٢ .

الإسلام فى أن نفس العباد منقولة بعد خروجها عن الأجساد إلى نعيم أو إلى ضيق[٨٤] وتعذيب ، وهذه صفة الأجسام ، ومن خالف هذا فزعم أن الأنفس تُعدم أو أنها تنتقل إلى أجسام أخرى فهو كافر مشرك حلال الدّم والمال ، لخرقه الإجماع ومخالفته القرآن والسنن ونعوذ بالله من الخذلان .

قال أبو محمد : وقد ذكرنا فى باب عذاب القبر أن الروح والنفس شىء واحد ، ومعنى قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى[٨٥] » إنما هو لأن الجسد مخلوق من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم عظمًا ثم لحمًا ، ثم أمشاجًا ، وليس الروح كذلك ، وإنما قال الله تعالى : آمرا له بالكون « كُن » فكان فصح أن النفس والروح والنسمة أسماء مترادفة لمعنى واحد . وقد تقع الروح أيضًا على غير هذا ، فجبريل عليه السلام الرُّوح الأمين ، والقرآن روح من عند الله تعالى ، وبالله تعالى التوفيق .

---

(٨٤) فى (ا) : بزيادة (صنوف) .

(٨٥) الإسراء : ٨٥

« الكلام فى الجزء الذى ادَّعوا أنه لا يتجزأ »

فقد بطلٍ قولهم فى النفس وصح أنها جسم ، ولم يبق إلا الكلام فى الجزء الذى ادَّعوا أنّه لا يتجزأ .

قال أبو محمد : ذهب جمهور المتكلمين إلى أن الأجسام تنحل إلى أجزاء صغار ، ولا يمكن ألبتة أن يكون لها تجزؤ ، وأن تلك الأجسام جواهر لا أجسام . وذهب النظّام وكل من يحسن القول من الأوائل إلى أنه جزء وإن دق ، إلا وهو يحتمل التجزؤ أبدا بلا نهاية وأنه ليس فى العالم جزء لا يتجزأ وأن كل جزء يقسم الجسم إليه فهو جسم أيضًا ، وإن دق أبدًا .

قال أبو محمد : وعمدة القائلين بوجود الجزء الذى لا يتجزأ خمس مشاغب ، وكلها راجع بحول الله تعالى وقوته عليهم ، ونحن إن شاء الله عزّ وجل نذكرها كلها ، ونتقصى لهم كل ما موّهوا به ونرى بعون الله عز وجل بطلان جميعها بالبراهين الضرورية ، ثم نرى بالبراهين الصحاح صحة القول بأن كل جزء فهو يتجزأ أبدا ، وأنه ليس فى العالم جزء لا يتجزأ أصلا ، كما فعلنا بسائِر الأقوال والحمد لله رب العالمين .

قال أبو محمد : فأول مشاغبهم أن قالوا : أخبرونا إذا قطع الماشى المسافة التى مشى فيها فهل قطع ذا نهاية أو غير ذى نهاية ؟ فإن قلتم قطع غير ذى نهاية فهذا محال . وإن قلتم قطع ذا نهاية فهذا قولنا .

قال أبو محمد : فجوابنا وبالله تعالى التوفيق . أن القوم أتوا من أحد وجهين ، إما أنهم لم يفهموا قولنا فتكلموا بجهل وهذا لا يرضاه ذو ورع ولا ذو عقل ولا ذو حياء . وإما أنهم لما عجزوا عن معارضة الحق رجعوا إلى الكذب والمباهتة وهذه شر من الأولى ، وفى أحد هذين القسمين وجدنا كلّ من ناظرناه منهم فى هذه المسألة ، وهكذا عرض لنا سواء سواء مع المخالفين لنا فى القياس المدعين لتصحيحه ، فإنهم أيضًا أحد رجلين ؛ إما جاهل بقولنا فهو يقولنا ما لا نقوله ،

ويتكلم فى غير ما اختلفنا فيه ، وإمّا مكابر ينسب إلينا ما لا نقوله مباهتة وجرأة على الكذب ، وعجزًا عن معارضة الحق من أننا ننكر اشتباه الأشياء ، وأننا ننكر قضايا العقول ، وأننا ننكر استواء حكم الشيئين فيما أوجبه لهما ما اشتبها فيه ، وهذا كله كذب علينا بل نحن نقرُّ بذلك كله ونقول به ، وإنما ننكر أن نحكم فى الدّين لشيئين بتحريم أو إيجاب أو تحليل من أجل أنهما اشتبها فى صفة من صفاتهما ، فهذا هو الباطل البحت والحمد لله رب العالمين على عظيم نعمه .

ونقول على هذا السؤال الذى سألونا عنه : إننا لم ندفع النهاية عن الأجسام كلها من طريق المساحة بل نبينها[1] ونعرفها ، ونقطع على أن كل جسم فله مساحة أبدًا محدودة ولله الحمد . وإنما نفينا النهاية عن قدرة الله تعالى على قسمة كل جزء وإن دَقَّ ، وأثبتنا قدرة الله تعالى على ذلك وهذا هو شيء غير المساحة .

ولم يتكلف القاطع بالمشى أو بالذرع أو بالعمل قسمة ما قطع ولا تجزئته ، وإنما تكلف عملًا أو مشيًا فى مساحة معدودة بالميل أو بالذراع أو الشبر أو الإصبع أو ما أشبه ذلك ، وكل هذه له نهاية ظاهرة ، وهذا غير الذى نفينا وجود النهاية فيه فبطل إلزامهم والحمد لله كثيرًا . ثم نعكس هذا الاعتراض عليهم فنقول لهم وبالله تعالى التوفيق : نحن القائلون بأن كل جسم فله طول وعرض وعمق وهو محتمل للانقسام والتجزؤ ، وهذا هو إثبات النهاية لكل جسمٍ انقسم الجسم إليه من طريق المساحة ضرورة ، وأنتم تقولون إن الجسم ينقسم إلى أجزاء ليس لشيء منها عرض ولا طول ولا عمق ولا مساحة ولا يتجزأ ، وليست أجسامًا ، وأن الجسم هو تلك الأجزاء نفسها ليس هو شيئًا غيرها أصلًا ، وأن تلك الأجزاء ليست لشيء منها مساحة فلزمكم ضرورة أن[2] الجسم هو تلك الأجزاء نفسها ليس هو غيرها ، وكل جزء من تلك الأجزاء لا مساحة له فالجسم لا مساحة له وهذا أمر يبطله العَيان ، وإذا لم تكن له مساحة والمساحة هى النهاية فى ذرع الأجسام فلا نهاية لما قطعه القاطع من الجسم على قولهم وهذا باطل .

والاعتراض الثانى : أن قالوا لابدَّ أن يلى الجِرْم من الجِرْم الذى يليه جزء يتقطع ذلك الجرم فيه . قالوا وهذا إقرار بجزء لا يتجزأ .

قال أبو محمد : وهذا تمويه فاسد لأننا لم ندفع النهاية من طريق المساحة ، بل نقول إن لكل جرم نهايةً وسطحًا ينقطع تماديه عنده ، وأن الذى ينقطع به الجرْم إذا جزىء فهو متناه محدود ، ولكنه محتمل للتجزىء أيضًا ، وكل ما جزىء فذلك الجزء هو الذى يلى الجرم الملاصق له بنهايته من جهته التى لاقاه منها ، لا ما ظنّوا من أن حدَّ الجرم جزء منه هو ، وحَدُّه الملاصق للجرم الذى

---

(١) فى (أ) : (نثبتها) .
(٢) فى (أ) : (إذ ... أو ليست أجساما) .

يلاصقه ، بل هو باطل بما ذكرنا لكن الجزء هو الملاصق للجرم بسطحه ، فإذا تجزأ كان الجزء الملاصق للجرم بسطحه هو الملاصق له حينئذ بسطحه ، لا الذى ميز عن ملاصقته .

وهكذا أبدا والكلام فى هذا كالكلام فى الذى قبله ولا فرق .

والاعتراض الثالث أن قالوا : هل ألّف أجزاء الجسم إلا الله ؟ فلابد من نعم . قالوا : فهل يقدر الله تعالى على تفريق أجزائه حتى لا يكون فيها شىء من التأليف ولا تحتمل تلك الأجزاء التجزؤ أم لا يقدر على ذلك ؟. قالوا : فإن قلتم لا يقدر عجَّزتم ربكم . وإن قلتم يقدر فهذا إقرار منكم بالجزء الذى لا يتجزأ .

قال أبو محمد : هذا من أقوى شبههم التى شغبوا بها وهو حجة لنا عليهم ، والجواب أننا نقول لهم وبالله تعالى التوفيق إن سؤالكم سؤال فاسد ، وكلام فاسد ولم تكن قط أجزاء العالم متفرقة ثم جمعها الله عزّ وجل ، ولا كان له أجزاء مجتمعة ثم فرقها الله عز وجل ، لكن الله تعالى خلق العالم بكل ما فيه بأن قال له « كن » فكان أو بأن قال لكل جرم منه إذا أراد خلقه « كن » فكان ذلك الجرم ، ثم إن الله تعالى خلق جميع ما أراد جمعه من الأجرام التى خلقها مفرقة ثم جمعها ، وخلق تفريق كلّ جرم من الأجرام التى خلقها مجتمعًا ثم فرَّقها ، فهذا هو الحق لا ذلك السؤال الفاسد الذى أجملتموه وأوهمتم به أهل الغفلة أن الله تعالى ألف العالم من أجزاء خلقها متفرقة ، وهذا باطل لأنه دعوى لا برهان عليها . ولا فرق بين من قال إن الله تعالى ألف أجزاء العالم وكانت متفرقة وبين من قال بل الله تعالى فرق العالم أجزاء وإنما كان جزءا واحدا وكلاهما دعوى ساقطة لا برهان عليها لا من نص ولا من عقل ، بل القرآن جاء بما قلناه نصا قال تعالى : « إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون[٣] » .

ولفظة شىء تقع على الجسم وعلى العرض ، فصح أن كل جسم صغر أو كبر ، وكل عرض فى جرم فإن الله تعالى إذا أراد خلقه قال له « كن » فكان ، ولم يقل عزّ وجل قط ألف كل جرم من أجزاء متفرقة فهذا هو الكذب على الله عز وجل حقا ، فبطل ما ظنوا أنهم يلزموننا به ، ثم نقول لهم إن الله تعالى قادر على أن يخلق جسما لا ينقسم ، ولكنه لم يخلقه فى بنية هذا العالم ولا يخلقه ، كما أنه تعالى قادر على أن يخلق عرضًا قائمًا بنفسه ولكنه تعالى لم يخلقه فى بنيته العالم ولا يخلقه ، لأنهما مما رتبه الله عز وجل محالا فى العقول ، والله تعالى قادر على كل ما يُسأل عنه ، لا نحاشى شيئًا منها إلا أنه تعالى لا يفعل كلّ ما يقدر عليه وإنما يفعل ما يشاء ، وما سبق فى علمه أنه يفعله فقط وبالله تعالى التوفيق .

---

(٣) النحل : ٤٠

ثم نعطف هذا السؤال نفسه عليهم فنقول لهم : هل يقدر الله عز وجل على أن يقسم كل جزؤ ويقسم كل قسم من أقسام الجسم أبدا بلا نهاية أم لا ؟ فإن قالوا : لا يقدر على ذلك عجَّزوا ربهم حقًا . وكفروا . وهو قولهم دون تأويل ولا إلزام ، ولكنهم يخافون من أهل الإسلام فيملحون ضلالتهم بإثبات الجزء الذى لا يتجزأ جملة ، وإن قالوا إنه تعالى قادر على ذلك صدقوا ورجعوا إلى الحق الذى هو نفس قولنا وخلاف قولهم جملة .

ونحن لم نخالفهم قط فى أن أجزاء طحين الدقيق لا يقدر مخلوق فى العالم على تجزئة تلك الأجزاء ، وإنما خالفناهم فى أن قلنا نحن إن الله تعالى قادر على ما لا نقدر نحن عليه من ذلك ، وقالوا هم بل هو غير قادر على ذلك ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا .

وقولهم فى تناهى القدرة على قسمة الله تعالى الأجزاء هو القول بأن الله تعالى يبيغ من الخلق إلى مقدار ، مًّا ثم لا يقدر على الزيادة عليه ويبقى حينئذ[٤] عاجزًا ، تعالى الله عن هذا الكفر ، ولعمرى أن أبا الهذيل شيخ المثبتين للجزء الذى لا يتجزأ ليحن إلى هذا المذهب حنينًا شديدًا وقد صرّح بأن لما يقدر الله عليه كلًّا وآخرا لو خرج إلى الفعل لم يكن الله تعالى قادرًا بعد على تحريك ساكن ، ولا تسكين متحرك ، ولا على فعل شىء أصلًا ثم تدارك كفره فقال : ولا يخرج ذلك الآخر أبدًا إلى حد الفعل .

قال أبو محمد : فيقال له ما المانع من خروجه والنهاية حاصرةٍ له والفعل قائم ؟ فلا بد مع طول الزمان من البلوغ إلى ذلك الآخر .

قال أبو محمد : نعوذ بالله من الضلال .

والاعتراض الرابع : هو أن قالوا أيما أكبر أجزاء الجبل أو أجزاء الخردلة أو أجزاء الخردلتين ؟ قالوا : فإن قلتم بل أجزاء الخردلتين وأجزاء الجبل صدقتم وأقررتم بتناهى التجزىء ، وهو القول بالجزء الذى لا يتجزأ ، وإن قلتم ليس أجزاء الجبل أكبر من أجزاء الخردلة ولا أجزاء الخردلتين أكبر من أجزاء الخردلة كابرتم العيان ، لأنه لا يحدث فى الخردلة جزء إلا ويحدث فى الخردلتين جزآن ، وفى الجبل أجزاء وادّعوا علينا أننا نقول إن فى كل جسم أجزاء لا نهاية لعددها ولا آخر لها ، وأن من قطع بالمشى مكانا مًّا أو قطع بالجملتين شيئًا فإنما قطع ما لا نهاية لعدده ، وقالوا إن عمدة حجتكم على الدهرية هو هذا المعنى نفسه فى إلزامكم إياهم وجوب القله والكثرة فى أعداد الأشخاص وأوقات الزمان ، وإيجابكم أن كل ما حصره العدد فذو نهاية ، وإنكاركم على الدّهرية وجود أشخاص وأزمان لا نهاية لعددها ، قالوا ثم نقضتم كل ذلك فى هذا المكان .

---

(٤) فى (أ) : (حسيرًا) .

قال أبو محمد : هو الذى قلنا : إنهم إما لم يفهموا كلامنا فى هذه المسألة فقوّلونا ما لا نقوله بظنونهم الكاذبة ، وإما أنهم عرفوا قولنا فحرّفوه قلة حياء واستحلالا للكذب ، وجرأة على عاجل(٥) الفضيحة لهم فى كذبهم ، وعجزا منهم عن كسر الحق ونصر الباطل ، فاعلموا أن كل ما نسبوه إلينا من قولنا إن من قطع مكانًا أو شيئًا بالمشى أو بالجملتين فإنما قطع ما لا نهاية له فباطل ما قلناه قط ، بل ما قطع إلا ذا نهاية بمساحته وبزمانه ، وأما احتجاجنا على الدهرية بما ذكروا فصحيح هو حجتنا على الدهرية .

وأما ادعاؤهم أننا نقضنا ذلك فى هذا المكان فباطل ، والفرق بين ما قلناه من أن كل جزء فهو يتجزأ أبدا بلا نهاية ، وبين ما احتججنا به على الدّهرية من إيجاب النهاية بوجود القلة والكثرة فى أعداد الأشخاص والأزمان ، وإنكارنا عليهم وجود أشخاص وأزمان لا نهاية لها ، بل هو حكم واحدٌ وباب واحد ، وقول واحد ومعنى واحد ، وذلك أن الدهريّة أثبتت وجود أشخاص قد خرجت إلى الفعل لا نهاية لعددها ، ووجود أزمان قد خرجت إلى الفعل لا نهاية لها وهذا محال ممتنع .

وهكذا قلنا فى كل جزء يخرج إلى حدّ الفعل فإنها متناهية العدد بلا شك ، ولم نقل قط إن أجزاءه موجودة منقسمة لا نهاية لعددها ، بل هذا باطل محال ثم إن الله تعالى قادر على الزيادة فى الأشخاص وفى الأزمان ، وفى قسمة الجزء أبدا بلا نهاية ، لكن كل ما يخرج إلى الفعل أو يخرج من الأشخاص أو الأزمان أو تجزئة الأجزاء فكل ذلك متناهٍ بعدده ، إذا خرج وهكذا أبدا وأمّاما لم يخرج إلى حد الفعل بعدُ من شخص أو زمان أو تجزىء فليس شيئًا ، ولا هو عددًا ، ولا معدودًا ، ولا يقع عليه عدد ، ولا هو شخص بعد ولا زمان ولا جزء بعد ، وكل ذلك عدم ، وإنما يكون الجزء إذا جزىء بقطع أو برسم مميز لا قبل أن يجزأ ، وبهذا يتبين غثاثة سؤالهم فى أيما أكثر أجزاءً الخردلة أو أجزاء الجبل أو أجزاء الخردلتين ، لأن الجبل إذا لم يجزأ والخردلة إذا لم تجزأ والخردلتان إذا لم تجزأ فلا أجزاء لها أصلًا . بعدُ ، بل الخردلة جزء واحد ، والجبل جزء واحِدٌ ، والخردلتان كلٌّ واحدةٍ منهما جزء ، فإذا قسمت الخردلة على سبعة أجزاء ، وقسّم الجبل جزءين وقسمت الخردلتان جزئين ، فالخردلة الواحدة بيقين أكثر أجزاءً من أجزاء الجبل والخردلتين ، لأنها صارت سبعة أجزاء ولم يصر الجبل والخردلتان إلا ستة أجزاء فقط ، فلو قسمت الخردلة ستة أجزاء لكانت أجزاؤها وأجزاء الجبل والخردلتين سواء ، ولو قسمت الخردلة خمسة أجزاء كانت أجزاء الجبل والخردلتين أكثر من أجزاء الخردلة .

وهكذا فى كل شىء فصح أنه لا يقع التجزؤ ، فى شىء إلا إذا قُسِّم لا قبل ذلك ، فإن كانوا يريدون فى أيهما يمكننا التجزئة أكثر فى الجبل والخردلتين أم فى الخردلة الواحدة ؟ فهذا

(٥) فى (أ) : (عمل) .

ما لا شك فيه أن التجزؤ أمكن لنا فى الجبل وفى الخردلتين منه والخردلة الواحدة ، لأن الخردلة الواحدة عن قريب تصغر أجزاؤها حتى لا نقدر نحن على قسمتها ويتمادى لنا الأمر فى الجبل كثيرا حتى إنه يفنى عمر أحدنا قبل أن يبلغ بتجزئه إلى أجزاء تدق عن قسمتنا .

وأما قدرة الله عز وجل على قسمة ما عجزنا نحن عن قسمته من ذلك فباقية غير متناهية ، وكل ذلك عليه تعالى هيّن ، سواء ليس بعضه أسهل عليه من بعض بل هو قادر على قسمة الخردلة أبدا بلا نهاية ، وعلى قسمة الفلك كذلك ولا فرق وبالله تعالى التوفيق . ونزيد بيانا فنقول إن الشىء قبل أن يجزأ فليس متجزئًا فإذا جزىء بمنصفين أو جزءين فهو جزئان فقط ، فإذا جزء على ثلاثة أجزاء فهو ثلاثة أجزاء فقط وهكذا أبدًا .

وأما من قال أو ظن أن الشىء قبل أن ينقسم وقبل أن يتجزأ أنه منقسم بعدُ ومتجزىء بعدُ فهو وساوس وظن كاذب ، لكنه يحتمل للانقسام والتجزىء ، وكل ما قسم وجزىء فكل جزء ظهر منه فهو معدود متناه وكذلك كل جسم ، فطوله وعرضه متناهيان بلا شك والله تعالى قادر على الزيادة فيهما أبدًا بلا نهاية ، إلا أن كل ما زاده تعالى فى ذلك وأخرجه إلى حد الفعل فهو متناه ومعدود ومحدود . وهكذا أبدا ، وكذلك الزيادة فى أشخاص العالم وفى العدد ، فإن كل ما خرج إلى حد الفعل من الأشخاص ومن الأعداد فذو نهاية ، والله تعالى قادر على الزيادة فى الأشخاص أبدًا بلا نهاية .

والزّيادة فى العدد ممكنة أبدًا بلا نهاية ، إلا أن كلَّ ما خرج من الأشخاص والأعداد إلى الفعل صحبته النهاية ولا بد ، ثم نعكس هذا السؤال عليهم فنقول لهم وبالله تعالى التوفيق .

أتفضل عندكم قدرة الله عز وجل على قسمة الجبل على قدرته على قسمة الخردلة ؟ وهل يأتى حال يكون الله تعالى فيها قادرًا على قسمة أجزاء الجبل غير قادر على قسمة أجزاء الخردلة أم لا ؟ فإن قالوا : بل قدرة الله تعالى على قسمة الجبل أتم من قدرته على قسمة الخردلة ، وأقروا بأنه تأتى حال يكون الله تعالى فيها قادرًا على قسمة أجزاء الجبل غير قادر على قسمة أجزاء الخردلة كفروا ، وعجّزوا ربهم ، وجعلوا قدرته محدثة متفاضلة متناهية ، وهذا كفر مجرد ، وإن أبوا من هذا وقالوا إن قدرة الله تعالى على قسمة الجبل والخردلة سواء وأنه لا سبيل إلى وجود حال يقدر الله تعالى فيها على تجزئة أجزاء الجبل ولا يقدر على تجزئة أجزاء الخردلة صدقوا ، ورجعوا إلى قولنا الذى هو الحق وماعداه ضلال وباطل والحمد لله رب العالمين .

والاعتراض الخامس : هو أن قالوا هل لأجزاء الخردلة كلٌّ أم ليس لها كل ؟ وهل يعلم الله تعالى عدد أجزائها أم لا يعلمه ؟ فإن قلتم : لا كلَّ لها ، نفيتم النهاية عن المخلوقات الموجودات وهذا كفر .

وإن قلتم : إن الله تعالى لا يعلم عدد أجزائها كفرتم . وإن قلتم إن لها كلًّا والله تعالى يعلم عدد أجزائها أقررتم بالجزء الذى لا يتجزأ .

قال أبو محمد : وهذا تمويه لائح ينبغى التنبيه عليه لئلا يجوز على أهل الغفلة ، وهو أنهم أقحموا لفظة « كلّ » حيث لا يوجد « كلّ » وسألوا هل يعلم الله عدد ما لا عدد له ..؟ وهم فى ذلك كمن سأل هل يعلم الله تعالى عدد شعر لحية الأطلس أم لا ؟ وهل يعلم جميع أولاد العقيم أم لا ؟ وهل لحركات أهل الجنة والنار كلٌّ أم لا ؟ فهذه السؤالات كسؤالهم ولا فرق . وجوابنا فى ذلك كلّه أن الله عز وجل إنما يعلم الأشياء على ما هى عليه ، لا على خلاف ما هى عليه لأن من علم الشىء على ما هو عليه فقد علمه حقًّا . وأمّا من علم الشىء على خلاف ما هو عليه فلم يعلمه بل جهله وحاشى لله من هذه الصفة فما لا كُلّ له ، ولا عدد له ، فإنما يعلمه الله عز وجل لا عد له ولا كُلّ . وما علم الله عز وجل قط عددًا ولا كلًّا إلا لما له عدد وكل ، لا لما لا عدد له ولا كل ، وكذلك لم يعلم الله عز وجل قط عدد شعر لحية الأطلس ، ولا علم قط ولد العقيم ، فكيف أن يعرف لهم كلا ، وكذلك لم يعلم الله عز وجل قط عدد أجزاء الجبل ولا الخردلة قبل أن تجزأ لأنهما لا جزء لهما قبل التجزئة ، وإنما علمهما غير متجزئين ، وعلمهما محتملين للتجزؤ فإذا جزئا علمهما حينئذ متجزئين ، وعلم حينئذ عدد أجزائهما ، ولم يزل تعالى يعلم أنه سيجزىء كلَّ ما لا يتجزأ ولم يزل يعلم عدد الأجزاء التى تخرج[٦] فى المستأنف إلى حد الفعل ، ولم يزل يعلم عدد ما يخرج من الأشخاص بخلقه فى الأبد إلى حدّ الفعل ، ولم[٧] يزل يعلم أنه لا أشخاص زائدة على ذلك ، ولا أجزاء لما لم ينقسم بعد ، وكذلك ليس للخردلة ولا للجبل قبل التجزؤ أجزاء أصلًا . ولا أجزاء ، وإذ ذلك كذلك فلا كلّ هاهنا ، ولا بعض فهذا بطلان سؤالهم والحمد لله رب العالمين .

ثم نعكس عليهم هذا السؤال فنقول لهم وبالله تعالى التوفيق : أخبرونا عن الشخص الفرد من خردلة ، أو وبرة ، أو شعرة أو غير ذلك إذا جزأنا كل ذلك جزأين أو أكثر متى حدثت لها[٨] الأجزاء ؟ أحين جزئت أم قبل أن تجزأ ؟ فإن قالوا قبل أن تجزأ تناقضوا أسمج مناقضة لأنهم أقروا بحدوث أجزاء كانت قبل حدوثها وهذا سخف . وإن قالوا إنما حدثت لها الأجزاء حين جزئت لا قبل ذلك ، سألناهم متى علمها الله تعالى متجزئة ؟ أحين حدث فيها التجزؤ أم قبل أن يحدث فيها التجزؤ ؟. فإن قالوا بل حين حدث فيها التجزؤا صدقوا وأبطلوا قولهم فى أجزاء الخردلة . وإن

---

(٦) فى (أ) : (لا تخرج) .
(٧) فى (أ) : (أو لم) .
(٨) فى (أ) : سقطت (لها) .

قالوا بل علم أنها متجزئة وأن لها أجزاء قبل حدوث التجزؤ فيها جهَّلوا ربهم تعالى إذا أخبروا أنه يعلم الشيء بخلاف ما هو عليه ، ويعلم أجزاء لما لا أجزاء له ، وهذا ضلال وبالله تعالى التوفيق .

قال أبو محمد : هذا كل ما موَّهوا به لم ندع لهم منه شيئًا إلا وقد أوردناه وبيَّنا أنه كله لا حجة لهم فى شيء منه ، وأنه كله عائِد عليهم وحجة لنا والحمد لله رب العالمين .

ثم نبتدىء بحول الله تعالى وقوته بإيراد البراهين الضرورية على أن كل جسم فى العالم فإنه يتجزأ ومحتمل للتجزئِة ، وكل جزء من جسم فهو أيضًا جسم محتمل للتجزؤ ، وهكذا أبدًا وبالله تعالى نتأيد :

قال أبو محمد : يقال لهم وبالله تعالى نستعين أخبرونا عن هذا الجزء الذى قلتم إنه لا يتجزأ أهو فى العالم أم ليس فى العالم ؟ ولا سبيل إلى قسم ثالث ، فإن قالوا : ليس هو فى العالم صدقوا وأبطلوه إلا أنهم يلزمهم قول فاحش ، وهو أنهم يقولون إن جميع العالم مركب من أجزاء لا تتجزأ ، والكل ليس هو شيئًا غير تلك الأجزاء ، فإن كانت تلك الأجزاء ليست فى العالم فالعالم عدم ليس فى العالم وهذا تخليط كما ترى . وإن قالوا بل هو فى العالم قلنا لهم : لا يخلو إن كان فى كرة العالم من أن يكون إما قائمًا بنفسه حاملًا وإما أن يكون محمولًا غير قائم بنفسه ، لابد ضرورة من أحد الأمرين ، إذ ليس العالم كله إلا على هذين القسمين فإن كان محمولًا غير قائم بنفسه فهو عرض من الأعراض ، وإن كان حاملًا قائمًا بنفسه فله ولابد مكان فى العالم ، وما كان حاملًا قائمًا بنفسه(٩) ذا مكان فهو جسم ، ثم يقال لهم أخبرونا عن الجزء الذى ذكرتم إنه لا يتجزأ وهو على قولكم فى مكان لأنه بعض من أبعاض الجسم : هل الملاقى منه للمشرق هو الملاقى للمغرب أم غيره ؟ وهل الحازى(١٠) منه للسماء هو المحازى منه للأرض أم هو غيره ؟ فإن قالوا كل ذلك واحد والملاقى منه للمشرق هو الملاقى منه للمغرب ، والمحازى منه للسماء هو المحازى منه للأرض أتوا بإحدى العظائم وجعلوا جهة المشرق منه هى جهة المغرب وجعلوا السماء والأرض منه فى جهة واحدة ، وهذا حمق لا يبلغه إلا الموسوس ومكابرة للعيان لا يرضاها لنفسه سالم البنية ، وإن قالوا بل الملاقى منه للمشرق هو غير الملاقى منه للمغرب وأن السماء والأرض منه فى جهتين متقابلتين فوق وأسفل صدقوا ، وهكذا جهة الجنوب والشمال ، فإذ ذلك كذلك بلاشك فقد صح أنه ذو جهات ست

---

(٩) فى (أ) : سقط الكلام من قوله (فله ولابدّ مكان فى العالم) .
(١٠) فى (أ) :) المحازى) .

متغايرة ، وهذا إقرار منهم بأنه ذو أجزاء إذ قطعوا بأن الملاقى منه للمغرب غير الملاقى منه للمشرق ، ومن للتبعيض ، وبطل قولهم من قرب والحمد لله رب العالمين .

قال أبو محمد : فإن أرادوا إلزامنا مثل هذا فى العرض قلنا ليس للعرض جهة ، ولا له مكان ، ولا يقوم بنفسه ، ولا يحاذى شيئا ، وإنما يحاذى الأشياء حامل العرض لا العرض ، إذ لو ارتفع العرض لبقى حامله مالئًا لمكانه كما كان محاذيًا من جميع جهاته ، ما كان يحاذى حين حمله للعرض سواء سواء ، ولو ارتفع فى قولكم الجزء الذى لا يتجزأ لبقى مكانه خاليًا منه ، وقد أوضحنا أن عرضين وأعراضًا تكون فى جسم واحد ، فى جهة منه واحدة وهم لا يختلفون فى أن جزءين كل واحد منهما لا يتجزأ فلا يمكن ألبتة أن يكونا جميعًا فى مكان واحد منهما ، بل لكل واحد منهما عندهم مكانا غير مكان الآخر .

وبرهان آخر :

وهو أنهم يقولون : إن الجزء الذى لا يتجزأ لا طول له ولا عرض ولا عمق ، نقول لهم وبالله تعالى التوفيق : إذا أضفتم إلى الجزء الذى لا يتجزأ عندكم جزءًا آخر مثله لا يتجزأ أليس قد حدث لهما طول ؟ فلابدّ من قولهم : نعم . لا يختلفون فى ذلك ، ولو أنهم قالوا لا يحدث لهما طول للزمهم مثل ذلك فى إضافة جزء ثالث ورابع وأكثر حتى يقولوا إن الأجسام العظام لا طول لها ويحصلوا فى مكابرة العيان ، نقول لهم إذا قلتم إن جزءًا لا يتجزأ لا طول له إذا ضُمَّ إليه جزء آخر لا يتجزأ ، ولا طول له فأيهما حدث له طول ؟ فقولوا لنا هل يخلو هذا الطول الحادث عندكم من أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها ، إما أن يكون هذا الطول لأحدهما دون الآخر ، أو لا لواحد منهما ، أو لكليهما ، فإن قلتم ليس هذا الطول لهما ، ولا لواحد منهما ، فقد أوجبتم طولًا لا لطويل ، وطولا قائمًا بنفسه ، والطول عَرَض والعرض لا يقوم بنفسه ، وصفة الصفة لا يمكن أن تُوجد إلا فى موصوف بها ووجود طول لا لطويل مكابرة ومحال .

وإن قلتم إن ذلك الطول هو لأحد الجزءين دون الآخر ، فقد أحلتم ، وأتيتم بما لا شك بالحس وضرورة العقل فى بطلانه ، ولزمكم أن الجزء الذى لا يتجزأ له طول ، وإذا كان له طول فهو بلا شك يتجزأ وهذا ترك منكم لقولكم ، مع أنه أيضًا محال لأنه يجب من هذا أنه يتجزأ ولا يتجزأ . وإن قلتم إن ذلك الطول للجزأين معا صدقتم وأقررتم بالحق فى أن كل جزء منهما فله حصته من الطول والحِصَّة من الطول طول بلا شك ، وإذا كان كل واحد منهما له طول ، فكل واحد منهما يتجزأ ، وهذا خلاف قولكم إنه لا يتجزأ ، وهذا برهان ضرورى أيضًا واضح لا محيد عنه ، وبالله تعالى التوفيق .

وبرهان آخر :

قال أبو محمد : ونقول لهم أيما أطول جزآن لا يتجزأ كل واحد منهما وقد ضم أحدهما إلى الآخر ، أم أحدهما غير مضموم إلى الآخر ؟ فلا يجوز أن يقول أحد ، إلا أن الجزأين المضمومين أطول من أحدهما غير مضموم إلى الآخر ، فإذ ذلك كذلك فمن المحال الممتنع الباطل أن يقال فى شىء هذا أطول من هذا إلا وفى الآخر طول دون طول ما هو أطول منه ، فقد صح ضرورة أن الطول موجود لكل جزء قالوا فيه إنه لا يتجزأ ، وإذا كان له طول فهو منقسم بلا خلاف من أحد منا ، ومنهم ، وهكذا القول فى عرضهما إن ضُم أحدها إلى الآخر وفى عمقهما كذلك ، ولابد من أن يكون لكل واحد منهما حصة من العرض والعمق ، فإذ ذلك كذلك ضرورة فكل جزء قالوا فيه إنه لا يتجزأ فلابد من أن يكون له طول وعرض وعمق ، فإذ ذلك كذلك فهو جسم يتجزأ ولابد ، وهذا أيضًا برهان ضرورى لا محيد عنه وبالله تعالى التوفيق .

وقد رام أبو الهذيل التخلص من هذا الإلزام فَبعُد ذلك عليه ، لأنه رام محالا فقال : إن الطول الحادث للجزئين عند اجتماعهما إنما هو كالاجتماع الحادث لهما ، ولم يكن لهما ولا لأحدهما إذا كانا منفردين .

قال أبو محمد : وهذا تمويه ظاهر لأن الاجتماع هو ضم أحدهما إلى الآخر نفسه ليس هو شيئًا آخر ، ولم يكونا قبل هذا الضم والجمع مضمومين ولا مجتمعين وليس معنى الطول والعرض والعمق كذلك بل هو شىء آخر غير الضم والجمع وإنما هو صفة للطويل مضمومًا كان إلى غيره أو غير مضموم ، ولا يوجب الجمع والضم طولًا لم يكن واجبًا قبل الضم والجمع ، فلم يزد أبو الهذيل على أن قال : لما اجتمعا صارا مجتمعين ، وصارًا طويلين وهذه دعوى فاسدة وتنظير منحل ، لأن قوله لما اجتمعا صارا مجتمعين صحيح لا شك فيه ، وقوله وصارا طويلين دعوى مجردة من الدليل جملة وما كان هكذا فهو باطل . وأيضًا فإن الاجتماع لما حدث بينهما بطل معنى آخر كان موجودا فيهما ، وهو الافتراق الذى هو ضد الاجتماع .

فأخبرونا إذا حدث الطول بزعمكم فأى شىء هو المعنى الذى ذهب بوجود الطول وبما فيه[11] الطول ؟ ولا سبيل لهم إلى وجوده ، فصح أن الطُّول كان موجودا فى كل جزء على انفراده وكذلك العرض والعمق ، ثم لما اجتمعا زاد الطول والعرض والعمق ، وهكذا أبدًا وبالله تعالى التوفيق .

---

(١١) فى (أ) : (وعاقبة) .

وهذا هو الذى تشهد له الحواس والمشاهدة والعقل والحمد لله رب العالمين .

وبرهان آخر : وهو أن الجرم لو[١٢] كان أحمر فكل جزء من أجزائه أحمر بلا شك ، فإن قالوا ليس أحمر قلنا لهم فلعله أخضر أو أصفر أو غير ذى لون وهذا عين المحال ، لأن الكل قد بينا أنه ليس هو شيئًا غير أجزائه ، فلو كان لون أجزائه غير لونه كله لكان لونه غير لونه وهذا محال . فإذ لا شك فيما ذكرنا فالجزء الذى يدعون أنه لا يتجزأ هو ذو لون بلا شك ، وإذ هو ذو لون فهو جسم لا يعقل غير ذلك فهو يتجزأ .

قال أبو محمد : وقالت الأشعرية هاهنا كلامًا طريفًا وهو أنهم قالوا : هو ذو لون واحد .

قال أبو محمد : كل ملون فهو ذو لون واحد لا ذو ألوان كثيرة ، إلا أن يكون أبلق أو موشًّى .

وبرهان آخر : أن وجود شيء فى العالم قائم بنفسه ليس جسمًا ولا عرضًا ولا قابلًا للتجزؤ ولا طول له ولا عرض ولا عمق فهو محال ممتنع إذ هذا المذكور ليس هو شيئًا غير البارى ، تعالى وجلَّ تعالى عن أن يكون له فى العالم شبيه ، وبهذا بان عز وجل عن مخلوقاته ، ولم يكن له كفوا أحد ، وليس كمثله شيء .

برهان آخر :

قال أبو محمد : كل شيء يحتمل أن يكون له أجزاء كثيرة فبالضرورة ندرى أنه يحتمل أن يجزأ إلى أقل منها ، هذا ما لا تختلف العقول والإحساس فيه ، كشيء احتمل أن يقسم على أربعة أقسام فلا شك أنه يحتمل أن ينقسم على ثلاثة وعلى اثنتين ، وهكذا فى كل عدد ، ومن دافع هذا فإنما يدافع الضرورة ويكابر العقل ، فلو أقمت خطًّا من ثلاثة أجزاء كل جزء منها لا يتجزأ على قولهم ، أو يَعمل ذلك الخط من عشرة أجزاء كذلك ومن ألف جزء كذلك ، أو مما زاد فإنه لا يختلف أحد فى أن الخط الذى هو من ثلاثة أجزاء فإنه ينقسم أثلاثًا فى موضعين ، وأن الذى هو من أربعة أجزاء فإنه ينقسم أرباعًا فى ثلاثة مواضع ، وأن الذى من ألف جزء فإنه ينقسم أعشارًا أو بنصفين ، فإذ لا شك فى هذا فبيقين لا محيد عنه يدرى كلُّ ذى حس سليم ولو أنه عالم أو جاهل أن ما انقسم أثلاثًا فإنه ينقسم بنصفين مستويين ، وما انقسم أرباعًا فإنه ينقسم أثلاثا مستوية ، وأما ما كان من الخطوط له أعشار وأخماس ونصف وأثلاث وأسداس وأسباع متساوية ، فإذ لا شك فى هذا فإن القسمة لابدّ من أن تقع فى نصف جزء منها أو فى أقل من نصفه ، فصح

(١٢) فى (أ) : (إن) .

أن كل جسم فهو يتجزأ ضرورة وأن الجزء الذى لا يتجزأ باطل معدوم من العالم ، وهذا ما لا مخلص لهم منه وبالله تعالى التوفيق .

برهان آخر :

قال أبو محمد : بلا شك نعلم أن الخطين المستقيمين المتوازيين لا يلتقيان أبدا ولو مُدَّا عمر العالم أبدا بلا نهاية وإذ لا شك فى[١٣] هذا فإنك إن مددت من الخط الأعلى إلى الخط المقابل له خطين مستقيمين متوازيين قام منهما مربع بلا شك فإذا أخرجت من زاوية ذلك المربع خطًا منحدِّرا من هنالك إلى الخط الأسفل فإن تلك الخطوط المخرجة من الضلع الذى ذكرنا وتلك الخطوط المخرجة من الزاوية لا تمر مع الخط الأعلى أبدًا لأنها غير متوازية له وإذ ذلك كذلك فذلك الضلع منقسم أبدا لابد ما أخرجت الخطوط بلا نهاية .

برهان آخر :

قال أبو محمد : وبالضرورة نعلم أن كل مربع متساوى الأضلاع ، فإن الخط القاطع من الزاوية العليا إلى الزاوية السفلى التى لا يوازيها يقوم منه فى المربع مثلثان متساويان فإنه لا شك أطول من كل ضلع من أضلاع ذلك المربع على انفراده ، ونسألهم عن مائة جزء لا تتجزأ رتبت متلاصقة ، عشرة عشرة ، فبالضرورة نجد فيها ما ذكرنا فبيقين نعلم حينئذ أن كل جزء من الأجزاء المذكورة لولا أن له طولًا وعرضًا لما كان الخط المارُّ بها القاطع للمربع القائم منها على مثلثين متساويين أطول من الخط المارّ بكل جهة من جهات ذلك المربع على استواء وموازاة للخطوط الأربعة المحيطة بذلك المربع ، وهو أطول منه بلا شك .

فصح ضرورة أن لكل جزء منها طولًا وعرضًا ، وأن ما له طول وعرض فهو متجزىء بلا شك فصح أيضًا بما ذكرنا أن كل جزء مر عليه الخيط المذكور فقد انقسم .

برهان آخر : وأيضًا فإننا لو أقمنا خطًا من أجزاء لا تتجزأ على قولهم مستقيما ثم أدرناه حتى يلتقى طرفاه ويصير دائرة فبالضرورة يدرى كل ذى حس سليم أن الخط إذا أدير حتى يلتقى طرفاه فإن ما قابل من أجزائه مركز الدائرة أضيق[١٤] مما قابل منها خارج الدائرة ، فإذ ذلك كذلك فهذا لازم فى هذا الخط المدار بلا شك ، إذ لا شك فى هذا فقد فضل من أحد طرفى الجزء الذى لا يتجزأ عندهم فضلة على طرفه الآخر وهكذا كل جزء من تلك الأجزاء بلا شك ، فصح ضرورة أنه منقسم محتمل للانقسام ولابد وبالله تعالى التوفيق .

---

(١٣) فى (أ) : سقط (وإذ لا شك فى هذا) .
(١٤) فى (أ) : (أضعف) .

برهان آخر : نسألهم عن دائِرة قطرها أحد عشر جزءًا ، لا يتجزأ كل واحد منها عندهم أو أى عدد شئت على الحساب ، فأردنا أن نقسمها بنصفين على السواء ولا خلاف فى أن هذا ممكن فبالضرورة ندرى أن الخط القاطع على قطر الدائِرة من المحيط إلى ما قابله من المحيط مارًّا على مركزها لا يقع ألبتَّه إلا فى أنصاف تلك الأجزاء ، فصح ضرورة أنها تتجزأ ولو لم يمر ذلك الخط على أنصافها لما قسم الدائِرة بنصفين وبالله تعالى التوفيق .

وبرهان آخر : وهو أن نسألهم عن الجزء الذى لا يتجزأ الذى يُحققونه إذا وضع على سطح زجاجة ملساء مستوية ، هل له حجم زائِد على سطحها أم لا حجم له زائِد على سطحها ؟ فإن قالوا لا حجم له زائِد على سطحها أعدموه ولم يجعلوا له مكانا ولا جعلوه متمكنًا أصلًا . ونسألهم عن جزأين جعلا كذلك فلابد من قولهم إن له حجمًا . فنسألهم عن ذلك الحجم ألهما معًا أم لأحدهما ؟ فأى ذلك قالوا أثبتوا ولابد الحجم لهما وللجزء الذى هو أحدهما ، وإذا كان للجزء الذى لا يتجزأ حجم زائِد فالذى لا شك فيه أن له ظلا ولذا صح يقينا أن له ظلا فلا شك فى أن الظل يزيد وينقص ، ويمتد ويتقلص ويذهب جملة[١٥] إذا سامتته الشمس ، فإذ ذلك كذلك فبيقين ندرى أن ظله ينقص حتى يكون أقل من قدره وإذ ذلك كذلك فقد ظهر ووجب أن له تجزءا ومقدارًا متبعضًا .

وبرهان آخر : وهو أننا نسألهم عن جزء لا يتجزأ من الحديد أو من الذهب ، وجزء لا يتجزأ من خيط قطن هل ثقلهما ووزنهما سواء ، أم الذى من الذهب والحديد أثقل من الذى من القطن ؟ فإن قالوا ثقلهما ووزنهما سواء كابروا ولزمهم هذا فى ألف جزء كذلك من الذهب ، أنها ليست أثقل من ألف جزء من القطن مجتمعة كانت الأجزاء أو متفرقة ، وهذا جنون ومكابرة ، وإن قالوا بل الذى من الذهب أوزن وأثقل صدقوا وأوجبوا أن له تجزءا بتفاضل الوزن ضرورة ولابد .

قال أبو محمد : فهذه براهين ضرورية قاطعة بأن كل جزء فهو يتجزأ أبدًا بلا نهاية وأن جزءًا لا يتجزأ ليس فى العالم أصلًا ، ولا يمكن وجوده بل هو من المحال الممتنع وبالله تعالى التوفيق .

قال أبو محمد : أما أبو الهذيل فخلط فى هذا الباب ، وحق لمن رام نصر الباطل أن يخلط فقال : إن الجزء الذى لا يتجزأ ذو حركة وسكون يتعاقبان عليه ، وأنه يشغل مكانًا لا يسع فيه معه غيره ، وأنه أقرب إلى السماء من مكانه الذى هو عليه من الأرض ، وهذا غاية التناقض إذ ما كان هكذا فله مساحة بلا شك ، وهو ذو وجهات ست فلمساحته[١٦] أجزاء من نصف وثلث وأقل وأكثر ، وما كان ذا جهات فالذى منه فى كل جهة غير الذى منه فى الجهة الأخرى

---

(١٥) فى (أ) : سقطت (جملة) .
(١٦) فى (أ) : (فللمساحة) .

بلا شك ، وما كان هكذا فهو جسم[١٧] محتمل للتجزؤ ، بلا شك وما عدا هذا فوسواس نعوذ بالله منه .

قال أبو محمد : اختلفوا[١٨] فى تخليطهم هذا اختلافًا طريفًا أيضًا ، فأجمعوا أنه إذا ضم جزء لا يتجزأ إلى جزء لا يتجزأ فصار اثنين فقد حدث لهما طول ، ثم اختلفوا متى يصير جسمًا له طول وعرض وعمق .

فقال بعضهم : إذا صار جزأين صار جسما وهو قول الأشعرية وقال بعضهم إذا صار له أربعة أجزاء وقال بعضهم بل إذا صار ستة أجزاء ، واتفقوا على أنه إذا صار ثمانية أجزاء فقد صار جسمًا له طويل وعرض وعمق ، وكل هذا تخليط ناهيك به ، وجهل شديد كان الأولى بأهله أن يتعلموا قبل أن يتكلموا بهذه الحماقات . برهان ذلك أنهم لم يختلفوا أنهم إذا صفّوا[١٩] أربعة أجزاء لا تتجزأ ، وتحتها أربعة أجزاء لا تتجزأ ، فإنه قد صار عندهم مجتمع[٢٠] من هذه الأجزاء جسمًا طويلًا عريضًا عميقًا .

قال أبو محمد : وهذا الذى طابت نفوسهم عليه وأنِسَت عقولهم إليه فى الثمانية ، وسهل على بعضهم دون بعض فى ثلاثة أجزاء تحتها ثلاثة أجزاء ، وفى جزءين تحتهما جزآان ، ومنعوا كلهم من ذلك فى جزء على جزء حاشا الأشعرية ، وأنه[٢١] بعينه موجود على أصولهم المخذولة وأقوالهم المرذولة فى جزء على جزء سواء سواء بعينه ، وذلك أن أربعة أجزاء على أربعة أجزاء فإنما الحاصل منها جزء على جزء فقط من كل جهة ، فإذا جعلوا للأربعة على الأربعة طولًا فإنما جعلوه فى جزء إلى جنب جزء وكذلك فعلوا فى العرض ، وكذلك فعلوا فى العمق ، فإذ هو كذلك والطول عندهم يوجد فى جزء إلى جنب جزء والعرض يوجد جنب الطول ، لأن العرض لا يكون أكثر من الطول أصلًا والعمق موجود فيهما أيضًا فظهر أيضًا لكل جزء منها طولًا وعرضًا وعمقًا ومكانًا وجهات ، ووجب ضرورة بهذا أنه يتجزأ ولاح جهلهم وخبطهم وبالله تعالى التوفيق .

قال أبو محمد : فإذ قد بطل قولهم فى الجزء الذى لا يتجزأ وفى كل ما أوجبوا أنه جوهر لا جسم ولا عرض ، فقد صح أن العالم كله حامل قائم بنفسه ، ومحمول لا يقوم بنفسه ولا يمكن وجود أحدها متخليًا ، فالمحمول هو العرض ، والحامل هو الجوهر ، وهو الجسم سمّه كيف شئت ولا يمكن فى الوجود غيرهما ، وغير الخالق لهما تعالى وبالله تعالى التوفيق .

---

(١٧) فى (أ) : سقط (جسم) .
(١٨) فى (أ) : سقط (اختلفوا) .
(١٩) فى (أ) : (سفوا) بالسين وهو تحريف .
(٢٠) فى (أ) : (الجميع) .
(٢١) فى (أ) : (فإنه) .

« الكلام فى أن العرض لا يبقى وقتين »

قال أبو محمد : وقال هؤلاء الجهال : إن العرض لا يبقى وقتين وأنه لا يحمل عرضًا .

قال أبو محمد : وقد كلمناهم فى هذا وتقرينًا كتبهم فما وجدنا لهم حجة فى هذا أصلًا ، أكثر من أن بعضهم قال لو بقى وقتين لشغل مكانًا .

قال أبو محمد : وهذه حجة فقيرة إلى حجة ، ودعوى كاذبة ، نصرتها دعوى كاذبة ولا عجب أكثر من هذا ، ثم لو صحت لهم للزمهم هذا بعينه فيما جوَّزوه من بقاء العرض وقتًا واحدًا ، ويقال لهم ما الفرق بينكم وبين من قال لو بقى العرض وقتًا واحدًا لشغل مكانًا ؟ ويبقين يَدرى كل ذى حس سليم أنه لا فرق فى اقتضاء المكان بين بقاء وقت واحد وبين بقاء وقتين فصاعدًا ، فإن أبطلوا بقاءه وقتا لزمهم أنه ليس باقيًا أصلا ، وإذا لم يكن باقيًا فليس موجودًا أصلا وإذا لم يكن موجودًا فهو معدوم ، فحصلوا من هذا التخليط على نفى الأعراض ومكابرة العيان .

ويقال لهم : ما الفرق بينكم وبين من قال بل يبقى وقتين ولا يبقى ثلاثة أوقات إذ لو بقى ثلاثة أوقات لشغل مكانًا ..؟ وكل هذا هوس وليس من أجل البقاء وجب اقتضاء الباقى المكان ، لكن من أجل أنه طويل عريض عميق فقط ولا مزيد .

وقد قال بعضهم إن الشىء فى حين خلق الله تعالى له ليس باقيًا ولا فانيًا ، وهذه دعوى فى الحمق كما سلف لهم ولا فرق ، وهى مع ذلك لا تُعقل ، ولا يَتمثل فى الوهم أن يكون فى الزمان أو فى العالم شئ موجود ليس باقيًا ولا فانيًا .

قال أبو محمد : ولا عجب أعجب من حماقة من قال إن بياض الثلج ، وسواد القار ، وخضرة البقل ، ليس شىء منها الذى كان آنفا بل يفنى فى كل حين ويستعيض ألف ألف بياض وأكثر ، وألف ألف خضرة وأكثر ، هذه دعوى عارية من الدليل إلا أنها جمعت السخف مع المكابرة .

قال أبو محمد : والصحيح من هذا هو ما قلناه ونقوله ، من أن الأعراض تنقسم أقساما فمنها ما لا يزول ولا يُتوهم زواله إلا بفساد ما هو فيه لو أمكن ذلك كالصورة الكلية ، أو كالطول والعرض والعمق . ومنها ما لا يزول ولا يتوهم زواله إلا بفساد حامله كالإسكار فى الخمر ونحو ذلك فإنها إن لم تكن مسكرة لم تكن خمرا وهكذا كل صفة نجد[1] بها ما هى عليه ، ومنها ما لا يزول إلا بفساد حامله ، إلا أنه لو توهم زائلا لم يفسد حامله كزرق الأزرق وفطس الأفطس فلو زالا لبقى الإنسان إنسانا بحسبه ، ومنها ما يبقى مُددًا طوالًا وقصارًا وربما زايل ما هو فيه كسواد الشعر وبعض الطعوم والخشونة والأملاس فى بعض الأشياء ، والطيب والنتن فى بعضها والسكون والعلم ، وكبعض الألوان التى تَستحيل ، ومنها ما يسرع [إليه] الزوال كحمرة الخجل ، وكمدة الهم ، وليس من الأعراض شيء يفنى بسرعة حتى لا يمكن أن يضبط مدة بقائه إلا الحركة فقط ، على أنها بضرورة العقل والحس نَدرى أن حركة الجزء من الفلك التى تَقطع الفلك بنصفين من مشرق إلى غرب أسرع من حركة الجزء منه الذى حوالى القطبين ، لأن كل هذين الجزءين يرجع إلى مكانه الذى بدأ منه فى أربعة وعشرين ساعة ، وبين دائريهما فى الكبر ما لا يكون مساحة خط دائرة أو خط مستقيم أكثر منه فى العالم ، وبيقين ندرى أن حركة المذعورة فى طيرانها أسرع من حركة السلحفاة فى مشيها ، وأن حركة الماء المنساب فى الحدود أسرع من حركة الماء الجارى فى ميل النهر ، وأن حركة المحضَر[2] فى الجرى أسرع من حركة الماشى .

فصح يقينا أن فى خلال ذلك الحركات أيضًا بقاء إقامة تتفاضل فى مدته لأن الحركات كلها إنما هى نُقلة من مكان إلى مكان فللمتحرك مقابله ، ولابد لكل جرم مر عليه ، ففى تلك المقابلات يكون التفاضل فى السرعة أو فى البطء ، إلا أنه لا تحس أجزاؤه ولا تضبط دقائقه إلا بالعقل فقط الذى به تعرف زيادة الظل والشمس ، ولا يدرك ذلك بالحس ، إلا إذا اجتمعت فيه جملة مًّا فإنه يعرف حينئذ بحس البصر كما لا يدرك بالحواس نماء النامى إلا إذا اجتمعت منه جملة مًّا ، وكما يعرف بالعقل لا بالحس أن لكل خردلة جزءًا من الأثقال ، ولا[3] تحس إلا إذا اجتمعت منه جملة مًّا ، وكذلك الشبع والرى وكثير من أعراض العالم فتبارك خالق كل[4] ذلك هو الله أحسن الخالقين .

وأما قولهم : إن العرض لا يحمل العرض فكلام فاسد مخالف للشريعة وللطبيعة وللعقل

---

(١) فى (أ) : (يجدها) .
(٢) فى (أ) : (العصر) .
(٣) فى (أ) : (فلا) .
(٤) فى (أ) : سقطت (كل) .

وللحواس ، ولإجماع جميع ولد آدم لأننا لا نختلف فى أن نقول حركة سريعة ، وحركة بطيئة ، وحمرة مشرقة ، وخضرة أشد من خضرة ، وخلق حسن وخلق سىء ، وقال تعالى : « إن كيدكن عظيم[٥]» وقال تعالى : « فصبر جميل[٦]» .

وحسبك فسادًا بقول أدى إلى هذا ، ومن أحال على العيان والحس والمعقول ، وكلام الله تعالى فقد فاز مدحه[٧] وخسرت صفقة من خالفه .

قال أبو محمد : ولسنا نقول إن كل عرض يحمل عرضًا إلى ما لا نهاية له ، بل هذا باطل لكن كما وجد وكما خلق البارى تعالى ما خلق ولا مزيد وما عدا هذا فرقة دين ، وضعف عقل ، وقلة حياء ، ونعوذ بالله من هذه الثلاث وحسبنا الله ونعم الوكيل .

---

(٥) يوسف : ٢٨ وقد جاءت محرفة فى (أ) .
(٦) يوسف : ١٨
(٧) فى (أ) : (قدحه) وهو تحريف .

« الكلام فى المعارف »

قال أبو محمد : اختلف الناس فى المعارف فقال قائلون : المعارف كلها باضطرار إليها ، وقال آخرون المعارف كلها باكتساب لها ، وقال آخرون بعضها باكتساب وبعضها باضطرار .

قال أبو محمد : والصحيح فى هذا الباب أن الإنسان يخرج إلى الدنيا غفلًا[1] لا معرفة له بشىء كما قال عز وجل : « أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا[2] » .

قال أبو محمد : فحركاته كلها طبيعية كأخذه الثدى حين ولادته ، وتصرفه تصرف البهائم على حسب[3] تألمها وطربها ، حتى إذا كبر وعقل وتقوت نفسه الناطقة ، وأنست بما صارت فيه وسكنت إليه ، وبدأت رطوباته تجف بدأت بتمييز الأمور فى الدار التى صارت فيها فيحدث الله تعالى لها قوة على التفكير ، واستعمال الحواس فى الاستدلال ، وأحدث الله تعالى لها الفهم بمّا تشاهد وما تخبر به فطريقه إلى بعض المعارف اكتساب فى أول توصله إليها لأنه بأول فهمه ومعرفته عرف أن الكل أكثر من الجزء ، وأن جسمًا واحدًا لا يكون فى مكانين ، وأنه لا يكون قاعدًا قائمًا معا ، وهو إن لم يحسن العبارة عن ذلك فإن أحواله كلها تقتضى تيقنه لكل ما ذكرنا وعرف أولًا صحة ما أدرك بحواسه ، ثم أنتجت له بعد ذلك سائر المعارف بمقدمات راجعة إلى ما ذكرنا من قرب أو من بعد ، فكل ما ثبت عندنا ببرهان وإن كان بعيد الرجوع إلى ما ذكرنا فمعرفة النفس به اضطرارية لأنه لو رام جهده أن يزيل عن نفسه المعرفة بما ثبت عنده هذا الثبات لم يقدر ، فإذ هذا لا شك فيه فالمعارف كلها باضطرار ، إذ ما لم يعرف بيقين فإنما عرف بظن ، وما عرف ظنا فليس علما ولا معرفة ، هذا ما لا شك فيه إلا أن يتطرق إلى طلب البرهان بطلب

---

(١) فى (أ) (ليس عاقلا) .
(٢) النحل : ٧٨
(٣) فى (أ) : (على حسبها) .

هذا الطلب هو الاستدلال ولو شاء ألّا يستدل لقدر على ذلك ، فهذا الطلب وحده هو الاكتساب فقط ، وأما ما كان مدركا بأول العقل وبالحواس فليس عليه استدلال أصلًا ، بل من قبل هذه الجهات يبتدىء كل أحد بالاستدلال وبالرد إلى ذلك فيصح استدلاله أو يبطل ، وحدّ العلم بالشيء هو المعرفة به أن نقول العلم والمعرفة اسمان واقعان على معنى واحد ، وهو اعتقاد الشيء على ما هو عليه وتيقنه به وارتفاع الشكوك عنه ، ويكون ذلك إما بشهادة الحواس وأول العقل وإما ببرهان راجع من قرب أو من بعد إلى شهادة الحواس وأول العقل ، وإما باتفاق وقع له فى مصادفة اعتقاد الحق خاصة بتصديق ما افترض الله عز وجل عليه اتباعه خاصة دون استدلال .

وأما علم الله تعالى فليس محدودًا أصلًا ، ولا يجمعه مع علم الخلق حدٌّ ولا جِنْس[٤] ولا شيء أصلا ، وذهب الأشعرية إلى أن علم الله تعالى واقع مع علمنا تحت حدٌّ واحد .

قال أبو محمد : وهذا خطأ فاحش إذ من الباطل أن يقع ما لم يزل (مع ما لم يكن تحت حدٌّ ، وما لم يزل فلا نهاية له وما لا نهاية له فلا حدّ له لأن الحدّ هو حصر النهايات[٥]) وعلم الله تعالى ليس هو غير الله تعالى على ما بيّنا قبلُ وبالله تعالى التوفيق .

قال أبو محمد : قالت طوائف منهم الأشعرية وغيرهم ، إن من اتفق له اعتقاد شيء على ما هو به عَن غير دليل لكن بتقليد أو بميل بإرادته فليس عالما به ولا عارفا به ، ولكنه معتقد له . وقالوا كل علم ومعرفة اعتقادٌ ، وليس كلّ اعتقادٍ علمًا ولا معرفةً ، لأن العلم والمعرفة بالشيء إنما يعبر بهما عن تيقن صحته ، قالوا : وتيقن الصحة لا يكون إلا ببرهان . قالوا وما كان بخلاف ذلك فإنما هو ظن ودعوى لا يقين بها إذ لو جاز أن يصدق قول بلا دليل لما كان قول أولى من قول ، ولكانت الأقوال كلها صحيحة على تضادها ، ولو كان ذلك لبطلت الأقوال ولبطلت الحقائق كلها ، لأن كل قول يبطل كل قول سواه ، فلو صحت الأقوال كلها لبطلت كلُّها لأنه[٦] كان يكون كلّ قول صادقا فى إبطاله ما عداه .

قال أبو محمد : فنقول وبالله تعالى التوفيق : إن التسمية والحكم ليس إلينا وإنما هما إلى خالق اللغات ، وخالق الناطقين بها ، وخالق الأشياء ومرتبها كما شاء لا إله إلا هو قال عز وجل منكرًا على من سمى من قبل نفسه : « إن هى إلا اسماء سميتموها أنتم واباءكم ما أنزل الله بها من سلطان[٧]» .

---

(٤) فى (أ) : (ولا حس) .
(٥) فى (أ) : سقط الكلام الذى بين القوسين .
(٦) فى (أ) : بزيادة (لو) .
(٧) النجم : ٢٣

فوجداه عز وجل يقول فى غير موضع من القرآن : « يا أيها الذين آمنوا » وقال تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا[٨] » وقال تعالى : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين[٩] » .

فخاطب الله تعالى بهذه النصوص وبغيرها ، وكذلك رسول الله ﷺ كلَّ مؤمن فى العالم إلى يوم القيامة ، وبيقن ندرى أنه كان فى المؤمنين على عهده عليه السلام ثم من بعده عصرا عصرا إلى يوم القيامة المستدل وهم الأقل ، وغير المستدل ، كمن أسلم من الزنج ومن الروم ، والفرس والإماء وضعفه النساء ، والرعاةِ ومن نشأ على الإسلام بتعليم أبيه أو سيدة إياه ، وهم الأكثر والجمهور فسماهم عز وجل مؤمنين وحكم لهم بحكم الإسلام ، وهذا كله معروف بالمشاهدة والضرورة وقال تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم[١٠] » .

فنهى الله عز وجل كل أحد عن أن يقول ما ليس له به علم ، وقال تعالى : « آمنوا بالله ورسوله[١١] » .

وقال رسول الله ﷺ : « أمرت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أن لَا إِلَهَ إِلَّا الله وأَنِّى رَسُولُ الله ، ويُؤْمِنُوا بِمَا أُرْسِلْتُ بِهِ » .

فصح يقينا أنهم كلهم مأمورون بالقول بجميع ما جاء به النبى ﷺ ، وأن كل من صدَّ عنه فهو كافر حلالٌ دمه وماله ، فلو لم يؤمن بالقول بالإيمان إلا مَن عرفه من طريق الاستدلال لكان كل من لم يستدل ممن ذكرنا منهيا عن اتباع الرسول ﷺ ، وعن القول بتصديقه لأنه عند هؤلاء القوم ليسوا عالمين بذلك ، وهذا خلاف القرآن وسنة رسول الله ﷺ وإجماع الأمة المتيقن .

أما القرآن والسنة فقد ذكرناهما ، وأما إجماع الأمة فمن الباطل المتيقن أن يكون الاستدلال فرضًا لا يصح أن يكون أحد مسلمًا إلا به ، ثم يغفل الله عز وجل أن يقول : لا تقبلوا من أحدٍ أنه مسلم حتى يستدل أتراه نسى تعالى ذلك أو تعمد عزّ وجل ترك ذكر ذلك إضلالًا لعباده ..؟؟؟

ويترك ذلك رسول الله ﷺ إما عمدًا أو قصدًا إلى الضلال والإضلال ، أو نسيانًا لما اهتدى له هؤلاء وتنبهوا إليه وهم من هم بلادة وجهلًا وسقوطًا ، هذا لا يظنه إلا كافر ولا يحققه

(٨) الحجرات : ٩
(٩) التوبة : ١١
(١٠) الإسراء : ٣٦ وهذه الآية لم تذكر فى (أ) كما سقط كل ما بين القوسين .
(١١) النساء : ١٣٦

إلا مشرك ، فما قال قط رسول الله ﷺ لأهل قرية أو حلة أو حى ولا لراعٍ ولا لراعية ولا للزنج ولا للنساء لا أقبل إسلامكم حتى أعلم المستدل من غيره .

فإذا لم يقل عليه السلام ذلك فالقول به واعتقاده إفك وضلال ، وكذلك أجمع جميع الصحابة رضى الله عنهم على الدعاء إلى الإسلام وقبوله من كل أحد دون ذكر استدلال ، ثم هكذا جيلًا فجيلًا حتى حدّث من لا وزن له[١٢].

فإن قالوا قد قال الله عز وجل : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين[١٣]. قلنا نعم هذا حق ، وإنما قاله الله عز وجل لمن خالف الحق الذى أمر عز وجل الجن والإنس باتباعه .

وهكذا القول أن كل من قال قولا خالف فيه ما أمر الله عز وجل باتباعه ، فسواء استدل بزعمه أو لم يستدل هذا مبطل غير معذور إلا من عذره الله عز وجل فيما عذره فيه كالمجتهدين من المسلمين يخطأ قاصدٍ إلى الحق فقط ما لم يقم عليه حجة فيعاند وأما من اتبع الحق فما كلفه الله عز وجل قطُّ برهانا .

والبرهان قد ثبت بصحة كل ما أمر الله تعالى به ، فسواء علمه فتبع الرسول ﷺ أو لم يعلمه حسبه أنه عالم بالحق معتقد له ، موقن به ، وإن جهل برهانه الذى قد علمه غيره ، وهذا خَلَقَ الله عز وجل الإيمان والعلم فى نفسه كما خلقه فى نفس المستدل ولا فرق ، قال الله عز وجل : « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا[١٤]» .

فسماهم داخلين فى دينه وإن كانوا أفواجا ، وما شرط الله عزّ وجل قط ولا رسوله ﷺ أن يكون ذلك باستدلال ، بل هذا شرط من شرط ذلك ممن قذفه إبليس فى قلبه وعلى لسانه ، ليخرجه إلى تكفير الأمة ، ولا عجب أعجب من إصفاق هذه الطائفة الضالة المخذولة على أنه لا يصح لأحد إيمان حتى يستدل على ذلك ، ولا يصح لأحد استدلال إلا حتى يكون شاكًا فى نبوة محمد ﷺ غير مصدق بها ، فإذا كان ذلك كذلك صح له الاستدلال ، وإلا فليس مؤمنا فهل سمع بأحمق أو أدخل فى الحمق والكفر من قول من قال لا يؤمن أحد إلا حتى يكفر بالله تعالى وبالرسول ﷺ ، وأن من آمن بهما ولم يكفر بهما قط فهو كافر مشرك ، نبرأ إلى الله تعالى من كل من قال بهذا .

قال أبو محمد : فهذان طريقان لا ثالث لهما ، وكل طريق منهما تنقسم قسمين أحدهما من

---

(١٢) فى (أ) : (من لا قدر له) .
(١٣) البقرة : ١١١
(١٤) سورة النصر : ١ ، ٢

اتبع الذى أمره الله تعالى باتباعه وهو رسول الله ﷺ فهذا مؤمن عالم حقًا ، سواء استدل أو لم يستدل ، لأنه فعل ما أمر الله تعالى به ، ثم ينقسم هؤلاء قسمين أحدهما من لم يتبع قط غيره عليه السلام ووافق الحق بتوفيق الله عز وجل .

فهذا له فى كل عقد اعتقده أجران ، وإما أن يكون حُرِم موافقة الحق وهو يريد[١٥] فى أمره ذلك اتباع رسول الله ﷺ فهذا معذور ومأجور أجرًا واحدًا ، ما لم تقم عليه الحجة فيعاندها وهذا نص قوله عليه السلام فى الحاكم المجتهد والمخطىء .

والطريقة الثانية من اتبع غير الذى أمره الله باتباعه ، فهذا سواء استدل أو لم يستدل هو مخطىء ظالم عاصٍ لله تعالى أو كافر على حسب ما جاءت به الديانة فى أمره ، ثم ينقسم هؤلاء قسمين أحدهما أصاب ما جاء به رسول الله ﷺ وهو غير قاصد إلى اتباعه عليه السلام فيه والآخر لم يصبه ، وكلاهما لا خير فيه وكلاهما آثم غير مأجور ، وكلاهما عَاص لله عز وجل أو كافر على حسب ما جاءت به الديانة فى أموره ، لأنهما جميعًا تعديا حدود الله عزَّ وجل فيما أمرهم به من اتّباع رسول الله ﷺ وقال تعالى : « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه[١٦] » .

ولا ينتفع بإصابته الحق إذ لم يصبه من الطريق التى لم يجعل الله تعالى له طلب الحق وأخذه إلا من قبلها . وقد علمنا أن اليهود والنصارى يوافقون الحق فى كثير كإقرارهم بنبوة موسى عليه السلام ، وكتوحيد بعضهم لله تعالى ، فما انتفعوا بذلك إذْ لم يعتقدوه اتباعا لرسول الله ﷺ ، وكذلك من قلد فقيها فاضلا دون رسول الله ﷺ وكان عقده أنه لا يتبع رسول الله ﷺ إلا إن وافق قوله قول ذلك الفقيه فهذا فاسق بلا شك ، وإن فعله غير معتقد له وهو كافر بلا شك ، إن اعتقده بقلبه أو نطق به بلسانه لمخالفته قول الله تبارك وتعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما[١٧] » .

فنفى الله عز وجل عن أهل هذه الصفة الإيمان ، وأقسم على ذلك ونحن ننفى ما نفى الله عز وجل عمن نفاه عنه ، ونقسم على ذلك ونُوقنُ أننا على الحق فى ذلك ، وأما من قلد فقيها فاضلًا وقال إنما أتبعه لأنه اتَّبع رسول الله ﷺ فهذا مخطىء للطريق ، لأنه فعل من ذلك ما لم يأمره الله تعالى به ، ولا يكفر لأنه قاصد إلى اتباع رسول الله ﷺ مخطىء للطريق فى ذلك ، ولعله مأجور بنيته أجرًا واحدا ما لم تَقُم الحجة عليه بخطأ فعله فإن ذكروا قول رسول الله ﷺ فى حديث فتنة القبر .

---

(١٥) فى (أ) : (مريد) .
(١٦) الطلاق : ١
(١٧) النساء : ٦٥

« وأما المنافق أو المرتاب فإنه يقال له ما قولك فى هذا الرجل يعنى رسول الله ﷺ فيقول لا أدرى سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته » .

قال أبو محمد : هذا حق على ظاهره ، كما أخبر رسول الله ﷺ أنه لا يقول هذا إلا المنافق أو المرتاب ، لا المؤمن الموقن ، بل المؤمن الموقن ذكر فى هذا الحديث أنه يقول : هو عبد الله ورسوله أتانا بالهدى والنور ، أو كلامًا هذا معناه ، فإنما أخبر عليه السلام عن موقن ومرتاب لا عن مستدل وغير مستدل ، وكذلك نقول إن من قال فى نفسه أو بلسانه لولا أنى نشأت بين المسلمين لم أكن مسلمًا وإنما اتبعت من نشأت بينهم ، فهذا ليس مؤمنًا ولا موقّنا ، ولا متبعًا لمن أمره الله باتباعه ، بل هو كافر .

قال أبو محمد : وإذا كان قد يستدل دَهره كله من لا يوفقه الله تعالى للحق ، وقد يوفق من لا يستدل يقينًا لو علم أن أباه أو أمه أو ابنه أو امرأته وأهل الأرض يخالفونه فيه لاستحل دماءهم كلهم ، ولو خير بين أن يلقى فى النار وبين أن يفارق الإسلام لاختار أن يحرق بالنار ، على أن يقول مثل هذا ، قلنا فإذا هذا موجود فقد صح أن الاستدلال لا معنى له ، وإنما المدار على اليقين والعقد ، فقط وبالله تعالى التوفيق .

قال أبو محمد : وإنما يضطر إلى الاستدلال من نازعته نفسه إليه ، ولم يسكن قلبه إلى اعتقاده ما لم يعرف برهانه ، فهذا يلزمه طلب البرهان حينئذ ليقى نفسه نارًا وقودها الناس والحجارة ، فإن مات شاكًا قبل أن يصح عنده البرهان مات كافرًا مخلدًا فى النار أبدًا .

قال أبو محمد : ثم نرجع إلى ما كنا فيه هل المعارف باضطرار أم باكتساب ..؟ فنقول وبالله تعالى التوفيق : إن المعلومات قسم واحد وهو ما عقد عليه المرء قلبه وتَيقنه ثم هذا ينقسم قسمين أحدهما حق فى ذاته قد قام البرهان على صحته ، والثانى لم يقم على صحته برهان . وأما ما لم يتيقن المرء صحته فى ذاته فليس عالما به ولا له به علم ، وإنما هو ظان له وأما كلّ ما علمه المرء(١٨) ببرهان صحيح فهو مضطر إلى علمه به لأنه لا مجال للشك فيه عنده ، وهذه صفة الضرورة . وأما الاختيار فهو الذى إن شاء المرء فعله وإن شاء تركه .

قال أبو محمد : فعلمنا بحدوث العالم وأن له بكل ما فيه خالقًا واحدًا لم يزل يشبهه شىء من خلقه فى شىء من الأشياء ، والعلم بصحة نبوة محمد ﷺ وصحة كل مما أتى به ما نقله إلينا الصحابة رضى الله عنهم ، ونقله عنهم الكواف كافة بعد كافة ، حتى بلغ [الأمر إلينا وكان نقله

---

(١٨) فى (أ) : سقطت كلمة (المرء) .

تواترا حتى بلغ إلينا[١٩]] ونقله المتفق على عدالته عن مثله ، وهكذا حتى بلغ إلى رسول الله ﷺ ، فهو كله علم حق متيقن مقطوع على صحته عند الله تعالى ، لأن الأخذ بالظن فى شىء من الدّين لا يحلّ قال تعالى : « إن الظن لا يغنى من الحق شيئا[٢٠] » .

وقال رسول الله ﷺ « إيَّاكُمْ والظَّنَّ فإنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحديث[٢١] » .

وقال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون[٢٢] » .

فصح أن الدين محفوظ لما ضمن الله عز وجل حفظه ، فنحن على يقين من أنه لا يجوز أن يكون فيه شك ، وقد أمر الله تعالى بقبول خبر الواحد العدل ، ومن المحال أن يأمر عز وجل بأن نقول عليه ما لم يقل وهو قد حرَّم ذلك ، أو أن نقول عليه ما لا نعلم لأنه تعالى قد حرَّم ذلك بقوله : « وأَنْ تَقُولُوا عَلَى الله ما لا تَعْلَمُون[٢٣] » .

فكل ما أمرنا الله عز وجل بالقول به فنحن على يقين من أنه من الدّين وأن الله تعالى قد حماه من كل دَخيل ، وكذلك أخذنا بالزائِد من الاثنين المتعارضين ، ومن الخبرين الثابتين المتعارضين ، وقد علمنا صحة الحق فى فعلنا ذلك علم ضرورة متيقن .

ولا عجب أعجب ممن يقول إن خبر الواحد لا يوجب العلم ، وإنما هو غالب ظن ثم نقطع به ونقول إنه قد دخلت فى الدين دواخل لا تتميز من الحق ، وأنه لا سبيل إلى تمييز ما أمر الله تعالى به فى الدين مما شرعه الكذابون ، هذا أمر نعوذ بالله منه ومن الرضًا به .

قال أبو محمد : وأما ما أجمعت[٢٤] عليه الجماعات العظيمة من آرائهم مما لم يأت به نص عن الله عز وجل ولا عن رسوله ﷺ فهو باطل عند الله بيقين ، لأنه شرع فى الدين ما لم يأذن به الله تعالى وقال على الله تعالى ما لم يقله .

وبرهان ذلك : أنه قد يعارض ذلك قول آخر قالته جمَاعات مثل هذه ، والحق لا يعارض والبرهان لا يناقضه برهان آخر ، وقد تقصَّينا هذا فى كتابنا « المرسوم بكتاب الإحكام فى أصول الأحكام » فأغنى عن ترداده والحمد لله رب العالمين .

قال أبو محمد : فكل من كان من أهل الملل المخالفة فبلغته معجزات النبى ﷺ وقامت

---

(١٩) فى (أ) : سقط ما بين القوسين .
(٢٠) يونس : ٣٦
(٢١) سبق تخريجه ص ١١ .
(٢٢) الحجر : ٩
(٢٣) البقرة : ١٦٩
(٢٤) فى (أ) : (اجتمعت) .

عليه البراهين فى التوحيد فهو مضطر إلى الإقرار بالله تعالى وبنبوة محمد ﷺ ، وكذلك كل من قام على شيء مّا ، أى شيء كان عنده برهان ضرورى صحيح وفهمه فهو مضطر إلى التصديق به سواء كان من الملل أو من النحل أو من الفتيا[٢٥] أو غير ذلك ، وإنما أنكر الحق فى ذلك أحد ثلاثة : إما غافل معرض عما صح عنده من ذلك مشتغل عنه بطلب معاشه ، أو بالتزيد فى مال أو جاه أو صوت أو لذة ، أو عمل يظنه صلاحًا أو كسلًا[٢٦] أو إيثارًا للشغل مما يتبين له من ذلك عجزًا ، وضعف عقل وقلّة تمييز ، لفضل الإقرار بالحق أو مُسَوِّف نفسه بالنظر ، كحال كل طبقة من الطبقات الذين نشاهدهم فى كل مكان وكل زمان ، وإما مقلد لأسلافه أو لمن نشأ بينهم قد شغله حسن الظن بمن قلد أو استحسانه لما قلد فيه ، وغمر الهوى عقله عن التفكير فيما فهم من البرهان ، قد حال ما ذكرنا بينه وبين الرجوع إلى الحق وصرف الهوى ناظر قلبه عن التفكر فيما بُيِّن له من البرهان ونفر عنه وأوحشه منه فهو إذا سمع برهانًا ظاهرًا لا مدفع فيه عنده ظنه من الشيطان وغالب نفسه حتى يعرض عنه ، وقالته له نفسه لابّد أن هاهنا برهانًا يبطل به هذا البرهان الذى أسمع ، وإن كنت أنا لا أدريه وهل خفى هذا على جميع أهل ملتى وأهل نحلتى أو مذهبى أو على فلان وعلى فلان وفلان وفلان ولابد أنه قد كان عندهم ما يبطلون به هذا .

قال أبو محمد : وهذا عام فى أكثر من يظن أنه عالم ، وفى كل ملة وكل نحلة وكل مذهب وليس واحد من هاتين الطائفتين إلا والحجة قد لزمته وبهرته ، ولكنه غلب وساوس نفسه وحماقاتها على الحقائق اللائِحة له ونصر ظنه الفاسد على يقين قلبه الثابت ، وتلاعب الشيطان به وسخر منه فأوهمه لشهوته لما هو فيه أن هاهنا دليلًا يبطل به هذا البرهان وأنه لو كان فلان حيًّا أو حاضرًا لأبطل هذا البرهان .

وهذا أعظم ما يكون من السخافة لأنه تصديق[٢٧] لما لا يدرى ولا سمع به وتكذيب لما صح عنده ، وظهر إليه ونعوذ بالله من الخذلان .

والثالث منكر بلسانه ما قد تيقن صحته بقلبه إما استدامة لرياسة استدرار مكسبٍ أو طعما فى أحدهما ، مما لعله يتم له أو لا يتم ، ولو تم له لكان خاسرًا الصفقة فى ذلك ، أو آثر غُرُورا ذاهبا عن قريب على فوز الأبد ، أو يفعل ذلك خوف أذًىَ أو عصبية لمنٍ خالف ما قد قام البرهان عنده أو عداوة لقائِل ذلك القول الذى قام به عنده البرهان . وهذا كلُّه موجود فى جمهور الناس من

---

(٢٥) فى (أ) : سقط (أو من الفتيا)
(٢٦) فى (أ) : سقطت (كسلا) .
(٢٧) فى (أ) : سقط (لأنه تصديق) .

أهل كلِّ ملة وكل نحلة ، وأهل كلِّ رأى بل هو الغالب عليهم وهذا أمر يجدونه فى(٢٨) أنفسهم فهم يغالبونها .

قال أبو محمد : ويقال لمن قال ممن ينتمى إلى الإسلام إن المعارف ليست باضطرار وأن الكفار ليسوا مضطرين إلى معرفة الحق فى الربوبيه والنبوة ، أخبرونا عن معجزات الأنبياء عليهم السلام ، هل رفعت الشك جملة عن كل من شاهدها ، وحسمت عللها وفصَلت بين الحق والباطل فَصْلًا تامًا أم لا ؟.

فإن قالوا : نعم أقروا بأن كلِّ من شاهدها مضطر إلى المعرفة بأنها من عند الله تعالى حقٌّ شاهدٌ يُصدِّق من أتى بها ، ورجعوا إلى الحق الذى هو قولنا ولله الحمد .

وإن قالوا : لا . بل الشك باق فيها ويمكن أن تكون غير شاهد بأنهم محقون ، قطع بأن الأنبياء عليهم السلام لم يأتوا ببرهان ، وأن الشك فى أمرهم ، وأن حجة الله تعالى لم تقع على الكفار ولا لزمتهم قط له تعالى حجة ، وأن الأنبياء عليهم السلام إنما أتوا بشىء ربما قام فى الظن أنّه حق وربما لم يقم . وهذا كفر مجرد من كل(٢٩) من دان به أو قاله .

وهكذا نسألهم فى البراهين العقلية على إثبات(٣٠) التوحيد وفى الكواف الناقلة أعلام الأنبياء عليهم السلام ، حتى يقروا بالحق بأن حجج الله تعالى بكل ما ظهرت وبهرت ، واضطرت الكفار كلهم إلى تصديقها والمعرفة بأنها حق ، أو يقولوا إنه لم تقم لله حجة على أحد ولا تبين قط لأحد تعين صحة نبوة محمد ﷺ ، وإنما نحن فى الإقرار بذلك على ظن إلا أنه من الظنون أقوى وقد يمكن أن يكون بخلاف ذلك ومن قال بهذا فهو كفر مجرد محض شرك لا خفاء به ، ونعوذ بالله من الخذلان .

قال أبو محمد : ومن أنكر أن يكون الكفار وكل مبطل مضطرين إلى تصديق كل ما قام به برهان بعد بلوغه إليهم ، وقال إنما اضطر المرء إلى معرفته فلا سبيل له إلى إنكاره أريناه كذب قوله فى تكوين الأرض والأفلاك ، ومدار الشمس والقمر والنجوم ، وتناهى مسافة كل ذلك وأكثر الناس على إنكار هذا أو دفعه الحق فى ذلك ، وكذلك من دان بالقياس أو الرأى أو دليل الخطاب ، وسمع البراهين فى إبطالها فهو مضطر إلى معرفة بطلان ما هو عليه ، مكابر لعقله فى ذلك ، مغالط لنفسه ، مغالب ليقينه ، مغلب لظنونه .

---

(٢٨) فى (أ) : (من) .
(٢٩) سقطت (كل) فى (أ) .
(٣٠) فى (أ) : آيات .

قال أبو محمد : وعلم الملائكة عليهم السلام ، وعلم النبيين عليهم السلام بصحة ما جاءتهم به الملائكة ، وأوحى إليهم به ورأوه فى منامهم علم ضرورى كسائر ما أدركوه بحواسهم وأوائل عقولهم ، وكعلمهم بأن أربعة أكثر من اثنين ، وأن النار حارة ، والبقل أخضر وصوت الرعد ، وحلاوة العسل ، ولبن[٣١] الحليب ، وخشونة القنفذ ، وغير ذلك .

ولو لم يكن الأمر كذلك لكان الملائكة والنبيون شكاكًا فى أمرهم ، وهذا كفر ممن أجازه إلا أن الملائكة لا علم لهم بشىء إلا هكذا ، ولا ظن لهم أصلا لأنهم لا يخطئون ، ولا ركبوا من طبائع متخالفة كما ركب الإنسان . فإن قال قائل فإذًا العلم كلّه باضطرار ، والاضطرار فعل الله تعالى فى النفوس ، فكيف يؤجر الإنسان أو يعذب على فعل الله تعالى فيه ؟ قلنا : نعم . لا شىء فى العالم إلا خلق الله تعالى .

وقد صح البرهان بذلك على ماأوردنا فى كلامنا فى خلق الأفعال فى ديواننا هذا والحمد لله وما جاء قط نص ولا برهان عقل بالمنع من أن يعذبنا الله تعالى ويأجرنا على ما خلق فينا ، والله تعالى يفعل ما يشاء لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون .

قال أبو محمد : وكيف ينكر أهل الغفلة أن يكون قوم يخالفون ما هم إلى المعرفة به مضطرون وهم يشاهدون السوفسطائية الذين يبطلون الحقائق جملة ، وكما يعتقد النصارى وهم أمم لا يحصى عددهم إلا خالقهم ورازقهم ومضلهم ، لا إله إلا هو ، وفيهم علماء بعلوم كثيرة وملوك لهم التدابير الصائبة والسياسات المعجبة ، والآراء المحكمة والفطنة فى دقائق الأمور ، وبصر بغوامضها وهم مع ذلك يقولون إن واحدا ثلاثة وثلاثة واحد ، وإن أحد الثلاثة أب ، والثانى ابن ، والثالث روح ، وأن الأب هو الإبن وليس هو الابن والإنسان هو الإله وهو غير الإله ، وأن المسيح إلاه تام وإنسان تام وهو هو[٣٢] لا غيره ، وأن الأول الذى لم يزل هو المحدث الذى لم يكن ولا هو هو .

قال أبو محمد : وليس فى الجنون أكثر من هذا ، واليعقوبية منهم وهم مئات ألوف يعتقدون أن البارى تعالى عن كفرهم ضرب بالسياط واللطام ، وصلب ونُحِرَ ومات وسقى الحنظل ، وبقى العالم ثلاثة أيام بلا مدبر ، وكأصحاب الحُلول وغالية الرافضة الذين يعتقدون فى رجل جالس معهم كالحلاج وابن أبى العز أنه الله ، والإله عندهم قد يبول ويَسلح ، ويجوع فيأكل ، ويعطش فيشرب ، ويمرض فيسوقون إليه الطبيب ، ويقلع ضرسه إذا ضرب عليه ، ويتضرَّر إذا أصابه دُمَّل ويُجَامع ويحتجم ، ويقتصد وإنه الله الذى لم يزل ولا يزال خالق هذا العالم كله ورازقه ومحصيه ومدبره ومدبر الافلاك المميت المحيى العالم بما فى الصدور ويصبرون فى حسب هذا الاعتقاد على السجون والمطابق وضرب السياط ، وقطع الأيدى والأرجل ، والقتل والصلب وهتك الحريم ، وفيهم قضاة وكتاب وتجار

(٣١) فى (أ) : (وتتن الحلتيت) .
(٣٢) فى (أ) : وهو غيره .

وهم اليوم ألوف الألوف ، وكما تدعى طوائف من اليهود وطوائف من المسلمين أن ربهم تعالى جسد فى صورة الإنسان ، لحم ودم يمشى ويقعد .

وكالأشعرية الذين يقولون إن هاهنا أحوالًا لا مخلوقة ولا غير مخلوقة ، ولا معلومة ولا مجهولة ولا حق ولا باطل ولا معروفة ولا مجهولة[٣٣]، وأن النار ليست حارة والثلج ليس باردًا .

وكما يقول بعض الفقهاء وأتباعهم أن رجلًا واحدًا يكون ابن رجلين وابن امرأتين كل واحدة منهما أمه ، وهو ابنها بالولادة .

قال أبو محمد : أترى كل من ذكرنا لا تِشهد نفسه وحسه ولا يُقر عقله بأن كل هذا باطل ؟ بلى والذى خلقهم ولكن العوارض التى ذكرنا قبلُ سهلت عليهم هذا الاختلاط ، وكرهت عليهم الرجوع إلى الحق والإذعان له .

قال أبو محمد : وأما العناد فقد شاهدنا كل من رأيناه فى المناظرة فى الدين ، وفى المعاملات فى الدنيا ، أكثر من أن يحصى ممن يعلم الحق يقينا ويكابر على خلافه ، ونعوذ بالله من الخذلان ونسأله الهدى والعصمة .

قال أبو محمد : لا يُدرك الحقَّ من طريق البرهان إلا من صفا عقله ونفسه من الشواغل التى قدمنا ، ونظر من الأقوال كلها نظرًا واحدًا ، واستوت عنده جميع الأقوال ، ثم نظر فيها طالبًا لما شهدت بها البراهين الراجعة رجوعا صحيحا غير مموه ، لكن ضروريًا إلى مقدمات مأخوذة من أوائل العقل والحواس ، غير متسامح فى شىء من ذلك ، فهذا مضمون له بعون الله عز وجل الوقوف على الحقائق والخلاص من ظلمة الجهل ، وبالله تعالى التوفيق .

وأما ما نقله اثنان فصاعدًا نوقن أنهما لم يجتمعا ولا تسارا فأخبرا بخبر واحِد راجع إلى ما أدرك بالحواس من أى شىء كان ، فهو حق بلا شك ، مقطوع على عينه[٣٤] والنفس مضطرة إلى تصديقه ، وهذا حدُّ أقل الكافة وأولها من أى شىء[٣٥] كان ، فهو إذ لا يمكن ألبتة إيقاف اثنين فى توليد حديث واحد ، لا يختلفان فيه عن غير تواطؤ ، وأما إذا تواطأت الجماعة العظيمة فقد تجتمع على الكذب وقد شاهدنا جماعات يشكرون ولَاتهم وهم كاذبون إلا أن هذا لا يمكن أن يتفقوا على ظنّه أبدًا ، ومن أنكر ما تنقله الكافة لزمه أن لا يصدق أنه كان فى الدنيا أحد قبله لأنه لا يعرف كون الناس إلا بالخبر .

قال أبو محمد : وقد يضطر خبر الواحد فى بعض الأوقات إلى التصديق ، يعرف ذلك من تدبَّر أمور نفسه ، كمنذر بموت إنسان لدفنه ، وكرسالة من عند السلطان يأتى بها بريد ،

---

(٣٣) فى (أ) : سقطت (لا معروفة ولا مجهولة) .
(٣٤) فى (أ) : (على حينه) .
(٣٥) فى (أ) : سقط (من أى شىء كان فهو) .

وككتاب وارد من صديق بهدية وكمخبر يخبرك أن هذا ولد فلان ، وكمنذر لعرس عند فلان ، وكرسول من عند القاضى والحاكم ، وسائر ذلك من أخبار بأن هذا فلان بن فلان ، ومثل هذا كثير جدًا ، وهذا لا ينضبط بأكثر مما نسمع ، ومن راعى هذا المعنى لم يمض له يوم واحد قطعًا حتى نشاهد فى منزله وخارج منزله من خبر واحد ما نضطر إلى تصديقه ولابد كثيرًا جدًا .

وأما فى الشريعة فخبر الواحد الثقة موجب للعلم ، وبرهان تشريعى قد ذكرناه فى كتابنا فى الإحكام لأصول الأحكام ، وقد ادعى المخالفون أن ما اتفقت عليه أمتنا بآرائها فهى معصومة بخلاف سائر الأمم ، ولا برهان على هذا .

وقال النظام : إن خبر التواتر لا يضطر لأن كل واحدٍ منهم يجوز عليه الغلط والكذب ، وكذلك يجوز على جميعهم ، ومن المحال أن يجتمع ممن يجوز عليه الكذب وممن يجوز عليه الكذب ومن لا يجوز عليه الكذب ، ونظير ذلك بأعمى وأعمى وأعمى ، فلا يجوز أن يجتمع منهم مبصورن .

قال أبو محمد : وهذا تنظير فاسد ، لأن الأعمى ليس فيه شيء من صحة البصر ، وليس كذلك المخبرُون ، لأن كل واحد منهم كما يجوز عليه الكذب فكذلك يجوز عليه الصدق ، ويقع منه ، وقد علم بضرورة العقل أن اثنين فصاعدًا إذا فرق بينهما لم يمكن ألبتة منهما ان يتفقا على توليد خبر كاذب يتفقان فى لفظه ومعناه .

فصح أنهما إذا أخبرا بخبر فاتفقا فيه أنهما أخبرا عن علم صحيح موجود عندهما ، ومن أنكر هذا لزمه أن لا يصدق بشيء من البلاد الغائبة عنه ، ولا بالملوك السالفين ، ولا بالأنبياء وهذا خروج إلى الجنون بلا شك ، إلى مكابرة الحسّ ، وبالله تعالى التوفيق .

فإن قال قائل كيف اجزتم(٣٦) هاهنا إطلاق اسم الضرورة والاضطرار ، ومنعتم من ذلك فى أفعال الفاعلين عند ذكركم الاستطاعة ، وخلق الله تعالى أفعال العباد ، وكل ذلك عندكم خلق الله عز وجل فى عباده ؟

قلنا : إن الفرق بين الأمرين فى ذلك لائح ، وهو أن الفاعل متوهم منه ترك فعله لو اختار تركه وممكن منه ذلك ، وليس ممكنا منه اعتقاد خلاف ما تيقنه ، بأن يرفع عن نفسه تحقيق ما عرف أنه حق فلهذا أوقعنا هاهنا اسم الاضطرار ، ومنعنا من هنالك وبالله تعالى نتأيد .

---

(٣٦) فى (ح) : (أخبرتم) .

« الكلام على من قال بتكافؤ الأدلة »

قال أبو محمد : ذهب قوم إلى القول بتكافؤ الأدلة ، ومعنى هذا أنه لا يمكن نصر مذهب على مذهب ، ولا تغليب مقالة على مقالة ، حتى يلوح الحق من الباطل ظاهرًا بيّنا لا إشكال فيه ، بل دلائل كل مقالة فهى مكافئة لدلائل سائِر المقالات . وقالوا : كل ما ثبت بالجدل فإنه بالجدل ينقض .

وانقسم هؤلاء أقسامًا ثلاثة فيما أنتجه لهم هذا الأصل ؛ فطائفة قالت بتكافؤ الأدلة جملة فى كل ما اختلف فيه فلم تحقق البارى تعالى ولا أبطلته ، ولا أثبتت أزلية العالم ولا[1] حدوثه ولا أثبتت النبوة ولا أبطلتها ، وهكذا فى جميع الأديان والأهواء لم تثبت شيئًا من ذلك ولا أبطلته ، إلا أنهم قالوا : إننا نوقن أن الحق فى أحد هذه الأقوال بلا شك ، إلا أنه غير بين إلى أحد ألبتة ولا ظاهر ولا متميز أصلا .

قال أبو محمد : وكان إسماعيل بن يونس الأعور الطبيب اليهودى ، تدل أقواله ومناظراته دلالة صحيحة على أنه كان يذهب إلى هذا القول ، لاجتهاده فى نص هذه المقالة ، وإن كان غير مصرح بأنه يعتقدها .

وقالت طائفة أخرى بتكافؤ الأدلة فيما دون البارى عز وجل ، فأثبتت الخالق تعالى وقطعت بأنه حق خالق لكل ما دونه بيقين لا شك فيه ، ثم لم تُحقق النبوة ولا أبطلتها ، ولا حققت ملة[2] دون ملة ولا أبطلتها ، لكن قالت : إن فى هذه الأقوال قولا صحيحا بلا شك ، إلا أنه غير ظاهر إلى أحد ولا بيِّن ، ولا كلفه الله تعالى أحدًا ، وكان إسماعيل بن القداد الطبيب اليهودى يذهب إلى

---

(١) فى (أ) : سقطت (ولا أثبتت أزلية العالم ولا حدوثه) .
(٢) فى (أ) : (دين ملة) .

هذا القول يقينا ، وقد ناظرنا عليه مصرحا به وكان يقول إذا دعوناه إلى الإسلام وحسمنا شكوكه ونقضنا علله « الانتقال فى الملل تلاعب » .

قال أبو محمد : وقد ذكر لنا عن قوم من أهل النظر والرياسة فى العلم هذا القول ، إلا أننا لم يثبت ذلك عندنا عنهم .

وطائفة قالت بتكافؤ الأدلة فيما دون البارى عز وجل ودون النبوة فقطعت أن الله عز وجل حق ، وأنه خالق الخلق ، وأن النبوة حق ، وأن محمدا رسول الله عليه الصلاة والسلام حق ، ثم لم تُغَلِّب قولًا من أقوال أهل القبلة على قول ، بل قالوا إن منها قولًا هو الحق بلا شك ، إلا أنه غير بين إلى أحد ، ولا ظاهر . وأما الأقوال التى صاروا إليها فيما ثبتوا عليها منها فطائفة لزمت الحيرة ، وقالت لا ندرى ما نعتقد ، ولا يمكننا أخذ مقالة لم تصح عندنا دون غيرها ، فنكون مغالطين لأنفسنا مكابرين لعقولنا ، لكنا لا ننكر شيئا من ذلك ولا نثبته ، وجمهور هذه الطائفة مالت إلى اللذات وإمراح النفوس فى الشهوات كيف مالت إليه بطائعها .

وطائفة قالت على المرء فرض بموجب العقل ألا يكون سُدًى بل يلزمه ولابد أن يكون له دين يزجر به عن الظلم والقبائِح ، وقالوا من لا دين له فهو غير مأمون(٣) فى هذا العالم على الإفساد وقتل النفوس غيلة وجهرا ، وأخذ الأموال خيانة وغصبا ، والتعدى على الفروج تحيلا وعلانية وفى هذا هلاك العالم بأسره ، وفساد البنية ، وانحلال النظام ، وبطلان العلوم ، والفضائِل كلها التى تقتضى العلوم بلزومها ، وهذا هو الفساد الذى تُوجب العقول التحرر منه واجتنابه .

قالوا فمن لا دين له فواجب على كل من قدر على قتله أن يسارع إلى قتله وإراحة العالم منه وتعجيل استكفاف ضرره لأنه كالأفعى والعقرب ، أو أضر منهما ثم انقسم هؤلاء قسمين .

فطائفة قالت : فإذا الأمر كذلك فالواجب على الإنسان لزوم الدين الذى نشأ عليه أو ولد عليه ، لأنه هو الدين الذى تخيره الله له فى مبدأ خلقه ، ومبدأ نشأته بيقين ، وهو الذى أثبته الله عليه فلا يحل له الخروج عن ما رتبه الله تعالى فيه وابتداه عليه ، أى دين كان ، وهذا كان قول إسماعيل ابن القداد ، وكان يقول : من يخرج من دين إلى دين فهو وقاح متلاعب بالأديان عاص لله عز وجل ، المتعبد له بذلك الدين ، وكان يقول بالملة(٤) الكلية ، ومعنى ذلك ألا يبقى أحد دون دين يعتقده على ما ذكرنا آنفًا .

---

(٣) فى (أ) : (مأمور) .
(٤) فى (أ) : (المسألة) .

وقالت طائفة : لا عذر للمرء فى لزوم دين أبيه وجده أو سيده وجاره ، ولا حجة له فيه لكن الواجب على كل أحد ان يلزمه ما اجتمعت الديانات بأسرها والعقول بكليتها على صحته وتفضيله فلا يقتل أحد ولا يزنى ولا بلط ولا يبغى ولا يبغى به ، ولا يسعى فى إفساد حرمة أحد ، ولا يسرق ، ولا يغضب ، ولا يظلم ، ولا يجور ولا يجنى ولا يغش ولا ينم ، ولا يسفه ولا يضرب أحدا ولا يستطيل عليه ، ولكن يرحم الناس ، ويتصدق ، ويؤدى الامانة ، ويؤمن الناس شره ، ويعين المظلوم ويمنع منه .

فهذا هو الحق بلا شك لأنه المتفق عليه من الديانات كلها ، ويوقف عما اختلفوا فيه ليس علينا غير هذا لأنه لم يلح لنا الحق فى شيء منه دون غيره .

قال أبو محمد : فهذه أصولهم ومعاقدهم ، وأما احتجاجهم فى ذلك فهو أنهم قالوا وجدنا الديانات والآراء والمقالات كل طائفة تدعى أنها إنما اعتقدت ما اعتقدته عن دلائل(٥) وبراهين باهرة وكل طائفة منها تناظر الأخرى فتنتصف منها ، وربما غلبت هذه فى مجلس ثم غلبتها الأخرى فى مجلس آخر ، على حسب قوة نظر المناظر وقدرته على التبيان والتخيل ، والشغب ، فهم فى ذلك كالمتحاربين يكون الظفر سجالا بينهم .

قالوا فصح أنه ليس هاهنا قول ظاهر الغلبة ولو كان لما أشكل على أحد ، ولم يختلف الناس فى ذلك كما لم يختلفوا فيما أدركوه بحواسهم وبداهة عقولهم ، وكما لم يختلفوا فى الحساب وفى كل شيء عليه برهان لائِح .

قالوا : ومن المحال أن يبدو الحق إلى الناس فيعاندوه بلا معنى ، ويرضوا بالهلاك فى الدنيا والآخرة بلا سبب .

قالوا : فلما بطل هذا صح أن كل طائفة فإنما تتبع ما(٦) نشأت عليه ، وأما ما يخيل لأحدهم أنه الحق دون تثبت ولا يقين قالوا : هذا مشاهد من أهل كل ملة وإن كان فيها ما لا شك فى سخافته وبطلانه .

وقالوا أيضًا : إنا نرى الجماعة الكثيرة قد طلبوا علم الفلسفة وتبحروا فيها ووسموا أنفسهم بالوقوف على الحقائق وبالخروج عن جملة العامة ، وبأنهم قد أشرفوا على الصحيح بالبراهين وميزوه من الشغب والإقناع ، ونجد آخرين قد تمهروا فى علم الكلام وأفنوا فيه دهرهم ، ورسخوا فيه ، وفخروا بأنهم قد وقفوا على الدلائِل الصحاح وميزوها من الفاسدة ، وأنهم قد لاح لهم الفرق بين الحق

---

(٥) فى (أ) : (الأوائل) .
(٦) فى (أ) : (إماما) .

والباطل بالحجج والإنصاف ثم نجدهم كلهم يعنى جميع هاتين الطائفتين فلسفيهم وكلاميهم فى أديانهم التى يقرون أنها نجاتهم أو هلكتهم مختلفين كاختلاف العامة وأهل الجهل بل أشد اختلافًا .

فمن يهودى يموت على يهوديته ، ونصرانى يتهالك على نصرانيته وتثليثه ، ومجوسى يستميت على مجوسيته ، ومسلم يستقتل فى إسلامه ، ومنانى يستهلك فى مانويته ، ودهرى ينقطع فى دهريته ، فلو[7] استوى العامى المقلد من كل طائفة فى ذلك مع المتكلم الماهر المستدل بزعمه ثم نجد أهل هذه الأديان فى فرقهم أيضًا كذلك سواء سواء ، فإن كان يهوديا فإما ربانى يتقد غيظا على سائر فرق دينه ، وإما صابئى يلعن سائر فرق دينه ، وإما عيسوى يسخر من سائر فرق دينه . وإما سامرى يبرأ من سائر فرق دينه .

وإن كان نصرانيا فإما ملكى يتهالك غيظا على سائر فرق دينه ، وإما نسطورى يتقد أسفا على سائر فرق دينه ، وإما يعقوبى يسخط على سائر فرق دينه .

وإن كان مسلمًا فإما خارجى يستحل دماء سائر أهل ملته وإما معتزلى يكفر سائر فرق ملته ، وإما شيعى لا يتولى سائر فرق ملته ، وإما مرجئى لا يرضى عن سائر فرق ملته ، وإما سُنِّى ينافر سائر فرق ملته ، قد استوى فى ذلك العامى المقلد الجاهل والمتكلم بزعمه المستدل .

وكل امرىء من متكلمى الفرق التى ذكرنا يدّعى أنه إنما أخذ ما أخذ وترك ما ترك ببرهان واضح ، ثم هكذا نجدهم حتى فى الفتياء ، إما حنفى يجادل عن حنيفيته ، وإما مالكى يقاتل عن مالكيته ، وإما شافعى يناضل عن شافعيته ، وإما حنبلى يضارب عن حنبليته ، وإما ظاهرى يحارب عن ظاهريته ، وإما متحير يستدل ، فهنالك جاء التجاذب والتجاذب حتى لا يتفق اثنان منهم على مائة مسألة ، إلا فى الندرة وكل امرىء ممن ذكرنا يزرى على الآخرين ، وكلهم يدعى أنه قد أشرف على الحقيقة .

وهكذا القائلون بالدهر أيضًا متباينون متنابذون ، مختلفون فيما بينهم فمن موجب أن العالم لم يزل وأن لا فاعل له ، ومن مكذب له موجب أن العالم لم يزل وأن له فاعلا لم يزل ، ومن موجب أزلية الفاعل وأشياء أخر معه ، وأن سائر العالم محدث ، ومن موجب أزلية الفاعل ، وحدوث العالم ، ومبطل النبوات كلها ، كما اختلف سائر أهل النحل ولا فرق ، قالوا : فصح أن جميعهم

(٧) فى (أ) : (قد) .

إما متبع للذى نشأ عليه ، والنحلة التى درب[٨] عليها ، وإما متبع لهواه قد يخيل له أنه الحق فهم على ما ذكرنا دون تحقيق .

قالوا : فلو كان البرهان حقيقة لما اختلفوا فيه هذا الاختلاف ، ولبان على طول الأيام وكرور الأزمان ، ومرور الدهور ، وتداول الأجيال له ، وشدة البحث وكثرة ملاقاة الخصوم ومناظراتهم ، وإفنائهم الأوقات وتسويدهم القراطيس ، واستنفاد وسعهم وجهدهم أين الحق ، فيرتفع الإشكال بل الأمر واقف بحسبه أو متزيد فى الاختلاف ، وحدوث التجاذب والفِرَق .

قالوا وأيضًا : فإنا نرى المرء الفهم العالم النبيل ، المتفنن فى علوم الفلسفة والكلام والحجاج ، المستنفذ لعمره فى طلب الحقائق ، المؤثر للبحث عن البرهان على كل ما سواه من لذة أو مال أو جاه ، المستفرغ لقوته فى ذلك ، النافر عن التقليد يعتقد مقالة ما ويناظر عنها ، ويحاجى دونها ، ويدفع أمامها ، ويعادى من خالفها ، مجدًّا فى ذلك موقنًا نصرته وخطأ من خالفه منافر له مضللا أو مكفرًا .

فيبقى كذلك الدهر الطويل والأعوام الجمة ، ثم تبدو له بادية عنها فيَرجع أشد ما كان عداوة لما كان ينصر ، ولأهل تلك المقالة التى كان يدين بصحتها وينصرف يقاتل فى إبطالها ، ويناظر فى إفسادها ، ويعتقد من ضلالها وضلال أهلها ، كالذى كان يعتقد من صحتها ويعجب الآن من نفسه ، وربما عاد إلى ما كان عليه أو خرج إلى قول ثالث .

قالوا : فدل هذا على إفساد الأدلة وعلى تكافؤها جملة ، وأن كل دليل فهو هادم للآخر كلاهما يهدم صاحبه ، وقالوا أيضًا : لا يخلو من حقق شيئًا من هذه الديانات والمقالات من أن يكون صح له أو لم يصح له ، ولا سبيل إلى قسم ثالث . قالوا فإن كان لم يصح له بأكثر من دعواه أو من تقليده مدعيا فليس هو أولى من غيره بالصواب ، وإن كان صح له فلا يخلو من أن يكون صح له بالحواس أو ببعضها أو بضرورة النفس وبديهته ، أو صح له بدليل مَّا غير هذين ، ولا سبيل إلى قسم رابع فإن كان صح له بالحواس أو ببعضها أو بضرورة العقل وبديهته .

فيجب أن لا يختلف فى ذلك أحد كما لم يختلفوا فيما أدرك بالحواس وبداهة العقل ، من أن ثلاثة أكثر من اثنتين ، وأنه لا يكون المرء قاعدًا قائمًا معًا بالعقل ، فلم يبق إلا أن يقولوا إنه صح لنا بدليل غير الحواس ، فنسألهم عن ذلك الدليل بماذا صح عندكم ؟ أبالدعوى فلستم أولى من غيركم فى دعواه ، أم بالحواس وبديهة العقل فكيف خولفتم فيه وهذا لا يختلف فى مدركاته أحد ، أم بدليل غير ذلك .

---

(٨) فى (أ) : (ترك) .

وهكذا أبدا إلى ما لا نهاية له . قالوا وهذا لا مخلص لهم منه ، وقالوا : ونسألهم أيضًا عن علمهم بصحة ما هم عليه ، أيعلمون أنهم يعلمون ذلك أم لا ؟ فإن قالوا لا نعلم ذلك أحالوا وسقط قولهم ، وكفونا مؤنتهم لأنهم يقرون أنهم لا يعلمون أنهم يعلمون ما علموا وهذا هوس وإفساد لما يعتقدونه . وإن قالوا بل نعلم ذلك سألناهم أبعلم علموا ذلك أم بغير علم ؟

وهكذا أبدا وهذا يقتضى أن يكون للعلم علم ، ولعلم العلم علم إلى ما لا نهاية له وهذا عندهم محال .

قال أبو محمد : هذا كل ما موّهوا به ما نعلم لهم شغبا غير ما ذكرنا ، ولا لهم متعلق بسواه أصلًا ، بل قد زدنا لهم فيها رأينا لهم ، وتقصيناه لهم بغاية الجهد كما فعلنا بأهل كل مقالة .

قال أبو محمد : وكل هذا الذى موّهوا به منحل بيقين ومنقض بأبين برهان ، بلا كبير[٩] كلفة ولم نجد أحدًا من المتكلمين السالفين أورد بابًا خالصا فى النقض على هذه المقالة ، ونحن إن شاء الله ننقض كلَّ ما موّهوا به بالبراهين الواضحة وبالله تعالى التوفيق . وذلك بعد أن نبين فساد معاقد هذه الطوائف المذكورة إن شاء الله عزَّ وجل .

قال أبو محمد : فنقول وبالله تعالى نتأيد : أما الطائفة المتحيرة فقد شهدت على أنفسها بالجهل وكفت خصومها مئونتها فى ذلك ، وليس جهل من جهل حجة على علم من علم ، ولا من لم يتبين له الشيء غبارًا على من تبين له ، بل من علم فهو الحجة على من جهل ، هذا هو الذى لا يشك أحد فيه فى جميع العلوم والصناعات ، وكل معلوم يعلمه قوم ويجهله قوم ، ويعلمه آخرون ولا أحمق ممن يقول لما جهلت أنا أمر كذا ولم أعرفه علمت أن كل أحد جاهل به كجهلى وهذه صفة هؤلاء القوم نفسها ، ولو ساغ هذا لأحد لبطلت الحقائق وجميع المعارف ، وجميع الصناعات إذ لكل شيء منها من يجهله من الناس ، نعم ومن لا ينجح فيه ولا يفهمه ، وإن طلبه ، هذا أمر مشاهد بالحواس فهم قد أقروا بالجهل وندّعى نحن العلم بحقيقة ما اعترفوا بجهلهم به .

فالواجب عليهم أن ينظروا فى براهين المدعين للمعرفة بما جهلوه نظرا صحيحا متقصيًا بغير هوًى ، فلابد يقينًا من أن يلوح حقيقة قول المحقق[١٠] والمحق ، وبطلان قول المبطل ، فتزول عنهم الحيرة والجهل حينئذ فسقطت هذه المقالة بيقين والحمد لله رب العالمين .

وأما من قطع بأنه ليس هاهنا مذهب صحيح أصلًا فإن قوله لها هو[١١] الفساد بيقين

(٩) فى (أ) : (كثير) .
(١٠) فى (أ) : سقطت (المحقق) .
(١١) فى (أ) : (ظاهر الفساد) .

لا إشكال فيه لأنهم إذا أثبتوا حقيقة هذا(١٢) العالم بما فيه ، وحقيقة ما يدرك بالحواس وبأول العقل وبديهته ، ثم لم يصححوا حدوثه ولا أزليته ، ولا أبطلوا حدوثه وأزليته معا ، ولم يصححوا أن له خالقًا ولا أنه لا خالق له ، وأبطلوا كلا الأمرين ، وأبطلوا النبوة وأبطلوا إبطالها فقد خرجوا يقينا إلى المحال ، وإلى قبح قول السوفسطائية ، وفارقوا بدهية العقل وضرورته ، التى قد حققوها وصدقوا موجبها إذ لا خلاف بين أحد له مسكة عقل فى أن كلَّ ما لم يكن حقا فهو باطل ، وما لم يكن باطلا فإنه حق ، وإن اثنين قال أحدهما فى قضية واحدة فى حكم واحد نعم وقال الآخر لا ، فأحدهما صادق بلا شك والآخر كاذب بلا شك هذا يعلم بضرورة العقل وبديهته .

وأما قول قائل هذا حق باطل معًا من وجه واحد فى وقت واحد ، أو قول من قال لا حق ولا باطل فهو بيِّن باطل(١٣) معلوم بضرورة العقل وبديهته ، فواجب بإقرارهم أن من قال : إن العالم لم يزل وقال الآخر بل هو محدث أن أحدهما صادق بلا شك ، وكذلك من أثبت النبوة ومن نفاها فظهر بيقين وضرورة العقل(١٤) فساد هذه المقالة ، إلا أن يبطلوا الحقائق ويلحقوا بالسوفسطائية فيكلمون حينئذ بما تكلم به السوفسطائية ، مما قد ذكرنا قبل وبالله تعالى التوفيق .

وأما من مال إلى اللذات جملة فإنه إن كان من إحدى هاتين الطائفتين فقد بطل عقده وصح يقينا أنه على ضلالة وخطأ ، وباطل وفساد ، فى أصل معتقده الذى أداه إلى الإهمال(١٥) وإذا بطل أصل(١٦) شيء بيقين فبيقين قد بطل ما تولد منه ، وإن مال إلى أحد الأقوال الأخر فكلها مبطل للزوم اللذات وللإهمال ، فصح ضرورة بطلان هذه الطريقة وإن صار إلى تحقيق الدهرية ، كُلِّم بما يتكلم به الدهرية مما قد أوضحناه والحمد لله .

وأما من قال بالتزام المرء دين سلفه والدين الذى نشأ عليه فخطأ ، لا خفاء به ، لأننا نقول : لمن قال بوجوب ذلك ولزومه أخبرنا من أوجبه ومن ألزمه فالإيجاب والإلزام يقتضى فاعلا ضرورة ولابد منها فمن ألزم ما ذكرتم من أن يلزم المرء دين سلفه أو الدّين الذى نشأ عليه ، الله ألزم ذلك جميع عباده أم غير الله تعالى أوجب ذلك ؟ إما إنسان وإما عقل وإما دليل ؟ فإن قال قائل ما ألزمنا ذلك إلا مَنْ دون الله تعالى ، قيل له : إن مَنْ دون الله تعالى معصىٌّ مخالف مرفوض لا حق له ولا طاعة إلا من أوجب الله تعالى له طاعة(١٧) فيلزم طاعته لأن الله تعالى أوجبها لا لأنها واجبة

---

(١٢) فى (أ) : (وجود هذا العالم) .
(١٣) فى (أ) : سقطت (فهو بين باطل) .
(١٤) فى (أ) : (إلى الانهماك) .
(١٥) فى (أ) : بزيادة (يقينا) .
(١٦) فى (أ) : سقطت (أصل) .
(١٧) فى (أ) : سقطت (طاعة) .

بذاتها وليس من أوجب شيئًا دون الله تعالى بأولى من آخر أبطل ما أوجب هذا وأوجب بطلانه ، وفى هذا كفاية لمن عقل ، ولا ينقاد للزوم من دون الله تعالى إلا جاهل مغرور كالبهيمة تقاد فتنقاد ، ولا فرق ، وإن قال : إن العقل ألزم ذلك . قيل له إنك تدعى الباطل على العقل إذْ ادعيت عليه ما ليس فى بنيته ، لأن العقل لا يوجب شيئا ، وإنما العقل قوة تميز النفس بها الأشياء على ما هى عليه فقط ، ويعرف ما صح وجوبه مما أوجبة من تلزم طاعتبه ، مما لم يصح وجوبه مما لم يوجبه من تجب طاعته ، ليس فى العقل المراد به التمييز[١٨] شىء غير هذا أصلا .

وأيضًا : فإن قائل هذا مجاهر بالباطل ، لأنه لا يخلو أن يكون يزعم أن العقل أوجب ذلك ببديهته أو ببرهان راجع إلى البديهة من قرب أو من بعد ، فإن ادّعى أن العقل يوجب ذلك ببديهته كابر الحس لم ينتفع بهذا أيضًا ؛ لأنه لا يعجز عن التوقح بمثل هذه الدعوى أحد فى أى شىء شاء وإن ادّعى أنه أوجب ذلك ببرهان راجع إلى العقل كلف المجىء به ولا سبيل إليه أبدا ، فإن قال قائل[١٩] إن الله عز وجل أوجب ذلك سئل الدليل على صحة هذه الدعوى ، التى أضافها إلى البارى عز وجل .

وهذا لا سبيل له إليه لأن ما عند الله عز وجل من إلزام لا يعرف ألبتة إلا بوحى من عنده تعالى ، إلى رسول من خلقه يشهد له تعالى بالمعجزات ، وإما بما يضعه الله عز وجل فى العقول وليس فى شىء من هذين دليل على صحة دعوى هذا المدعى ، وأما احتجاجه بأنه هو الدين الذى اختاره الله عز وجل لكل أحد وأنشأه عليه فلا حجة له فى هذا ، لأننا لم نخالفه فى أن هذا دُرِّب على هذا الدين ، وخلقه الله تعالى مع من درَّبه عليه ، بل نقرّ بهذا كما نقرّ بأن الله خلقه فى مكان مّا فى صناعة[٢٠] مّا وعلى معاش مّا ، وعلى خَلْقٍ مًّا ، وليس فى ذلك دليل عند أحد من العالم على أنه لا يجوز له فراق ذلك الخلق إلى ما هو خير منه ، ولا على أنه يلزمه لزوم المكان الذى خلق فيه والصناعة التى نشأ عليها والقوت الذى كبر عليه ، بل لا يختلف اثنان فى أن له مفارقه ذلك المكان وتلك الصناعة وذلك المعاش إلى غيره ، وإن فرضًا عليه الزوال عن كل ذلك إذا كان مذمومًا إلى المحمود من كل ذلك .

وأيضًا فإن جميع الأديان التى أوجبها كلها هذا القائل وحقق جميعها فكل دين منها فيه إنكار غيره منها ، وأهل كل دين منها يكفر سائِر أهل تلك الأديان وكلهم يُكذب بعضهم بعضا ، وفى كل دين منها تحريم التزام غيره على كل أحد ، فلو كان كل دين منها لازما أن يعتقده من نشأ

---

(١٨) فى (أ) : (المتميز) .

(١٩) فى (أ) سقطت (قائل) .

(٢٠) فى (خ) : (فى ساعة) .

عليه لكان كل دين منها حقا ، وإذا كان كلّ دين منها حقًا وكل دين[٢١] منها يبطل سائِرها وكل ما أبطله الحق فهو باطل بلا شك ، فكل دين منها باطل بلا شك .

فوجب ضرورة على قول هذا الجاهل[٢٢] أن جميع الأديان باطل ، وأن جميعها حق فجميعها حق باطل معا ، فبطل هذا القول بيقين لا شك فيه والحمد لله رب العالمين .

وأما من قال إنى ألزم فعل الخير الذى اتّفقت الديانات والعقول على أنه فضل ، وأجتنب ما اتفقت الديانات والعقول على أنه قبيح ، فقول فاسد مموّه مضحك[٢٣].

أول ذلك أنه كذب وما اتّفقت الديانات ولا العقول على شيء من ذلك بل جميع الديانات إلا الأقل منها مجمعون على قتل من خالفهم وأخذ أموالهم ، وكل دين منها لا نحاشى دينا قائلٌ بأحكام هى عند سائِرها ظلم ، وأما المَّنانية : فإنها وإن لم تقل بالقتل فإنها تَقول بترك النكاح الذى هو مباح عند سائِر الديانات ويقولون بإباحة اللياطة ، والسحاق وسائِر الديانات محرّمة لذلك ، فما اتفقت الديانات على شيء أصلا ولا على التوحيد ولا على إبطاله ، لكن اتفقت الديانات على تخطئته وتكفيره والبراءة منه ، إذا لم يعتقد دينا مما بيناه ، فبطلب موافقة جميع الديانات حصل على مخالفة جميعها .

وهكذا فليكن السعى المضلّل ، وكذلك طبائع جميع الناس موثِرة لِلَّذَّاتِ كارهة لما يلتزمه أهل الشرائع والفلاسفة ، فبطل تعلقهم بشيء مجمع عليه ، ولم يحصل إلا على طمع خائب مخالفا لجميع الديانات ، غير متعلق بدليل لا عقليٌّ ولا سمعى . وقد قلنا إن العقول لا توجب شيئا ولا تقبحه ولا تحسنه ، وبرهان ذلك أن جميع أهل العقول إلا يسيرا فإنهم أصحاب شرائع وقد جاءت الشرائع بالقتل وأخذ المال ، وضرب الإنسان وذبح الحيوان ، فما قال قط أصحاب العقول إنما جاءت بخلاف ما فى العقول ولا ادّعى ذلك إلا أقل الناس ومن ليس عقله عيارًا على عقل غيره ، ولو كان ذلك واجبا فى العقول لوجده سائِر أهل العقول ، كما قالوا هم سواء سواء ، فصح أن دعواهم على العقول كاذبة فى باب التقبيح والتحسين جملة ، وهذا كسر[٢٤] عام لنفس أقوالهم والحمد لله رب العالمين .

ثم نذكر إن شاء الله عز وجل البراهين على إبطال حججهم الشغبية المموهة وبالله تعالى نتأيد .

---

(٢١) فى (أ) : سقط (وكل دين) .
(٢٢) فى (أ) : (القائل) .
(٢٣) فى (أ) : (مضمحل) .
(٢٤) فى (أ) : (أكسر) .

قال أبو محمد : أما احتجاجهم بأن قالوا وجدنا أهل الديانات والآراء والمقالات كل طائفة تناظر الأخرى فتنتصف منها وربما غلبت هذه فى مجلس ثم غلبتها الأخرى فى مجلس آخر على حسب قوة المناظر وقدرته على البيان والتحيل والشغب ، فهم فى ذلك كالمتحاربين يكون الظفر سجالا بينهم .

فصح أنه ليس هاهنا قول ظاهر الغلبة ، ولو كان ذلك لما أشكل على أحد ، ولا اختلفت الناس فيه كما لم يختلفوا فى ما أدركوا بحواسهم وبداية عقولهم ، كما لم يختلفوا فى الحساب ولا فى شيء عليه برهان لائح ، واللائح الحق على مرور الأزمان وكثرة البحث وطول المناظرات .

قالوا : ومن المحال أن يبدو الحق إلى الناس ظاهرا فيعاندوه بلا معنى ويرضوا بالهلاك فى الدنيا والآخرة بلا سبب ، قالوا : فلما بطل هذا صح أن كل طائفة تتبع إمامًا نشأت عليه وإمامًا تخيل لأحدهم أنه الحق دون تثبت ولا يقين ، قالوا وهذا مشاهد من كل أمة ونحلة وإن كان فيها ما لا يشك فى بطلانه وسخافته .

قال أبو محمد : هذه جمل نحن نبين كل عقدة منها ونوفيها حقها من البيان بتصحيح أو إفساد بما لا يخفى على أحد صحته وبالله تعالى التوفيق .

أما قولهم : إن كل طائفة من أهل الديانات والمقالات والآراء تناظر فتنتصف وربما غلبت هذه فى مجلس ثم غلبتها الأخرى فى مجلس آخر ، على قدر قوة المناظر وقدرته على البيان والتحَيل والشغب والتمويه ، فقول صحيح إلا أنه لا حجة لهم فيه على ما ادَّعوه من تكافؤ الأدلة أصلا ، لأن غلبة الوقت ليست حجة ولا يقنع بها عالم محقق ، وإن كانت له ولا يلتفت إليها وإن كانت عليه ، وإنما يحتج بها ويغضب منها أهل المخرقة والجُهَّال ، وأهل الصياح والتهويل ، والتشنيع ، القانعون بأن يقال غلب فلان فلانا ، وإن فلانا لنظار جدَّال ، ولا يُبالون بتحقيق حقيقة ولا بإبطال باطل .

فصح أن تغالب المتناظرين لا معنى له ولا يجب أن يعتد به ، لاسيما تجادل أهل زماننا الذين آمالهم إرب معدودة لا يتجاوزنها بكلمة ، وأما أن يغلب الصليب الرأس بكثرة الصياح والتوقح والتشنيع والجفاء ، وأما كثير الهذر قوى على أن يملأ المجلس كلامًا لا يتحصل منه معنى ، وأما الذى يعتقد أهل التحقيق الطالبون معرفة الأمور على ما هى عليه فهو أن يبحثوا فيما يطلبون معرفته عن كلِّ حجة احتج بها أهل فرقة فى ذلك الباب ، فإذا تقصَّوها[٢٥] ولم يبقوا منها شيئا تأموها كلها حجة حجة فميزوها الشغبى منها والإقناعى فاطرحوهما ، وفتشوا البراهين على حسب

---

(٢٥) فى (أ) : (نقضوها) بالضاد .

المقدمات التى بيناها فى كتابنا الموسوم : بالتقريب فى ماهية البرهان ، وتمييزه مما يظن أنه برهان. وليس ببرهان » وفى كتابنا هذا وفى كتابنا الموسوم « بالإحكام فى أصول الأحكام » فإن من سلك تلك الطريق التى ذكرنا وميز فى المبدأ ما يعرف بأول التمييز والحواس ثم ميَّز ما هو البرهان مما ليس برهانًا ، ثم لم يقبل إلا ما كان برهانًا راجعًا رجوعًا صحيحًا ضروريا ، إلى ما أدرك بالحواس أو ببديهة التمييز وضرورته ، فى كل مطلوب يطلبه ، فإن شارع الحق يلوح له واضحًا ممتازًا من كل باطل دون إشكال ، والحمد لله رب العالمين .

وأما من لم يفعل ما ذكرنا ولم يكن وكده إلا نصر المسألة الحاضرة فقط ، أو نصر مذهب قد ألفه قبل أن يقوده إلى اعتقاده برهان فلم يجعل غرضه إلا طلب أدلة ذلك المذهب فقط ، فبعيدٌ عن معرفة الحق من الباطل ، ومثل هؤلاء غرورًا هؤلاء المخاذيل فظنوا أن كل بحث ونظر فمجراهما المجرى الذى عهدوه ممن ذكرنا فضلُّوا ضلالًا بعيدا .

وأما قولهم : فصح أنه ليس هاهنا قول ظاهر الغلبة ولو كان ذلك لما أشكل على أحد ، ولما اختلف الناس فيه ، كما لم يختلفوا فيما أدركوه بحواسهم وبداية عقولهم ، وكما لم يختلفوا فى الحساب وفى كل ما عليه برهان لائح ، فقول أيضا مموه ، لأنه كله دعوى فاسدة بلا دليل ، وقد قلنا قبل فى إبطال هذه الأقوال كلها بالبرهان بمَا فيه كفاية ، وهذا لا يمكن فيه تفصيل كل برهان على كل مطلوب لكن نقول جملة إن من عرف البرهان وميَّزه وطلب الحقيقة غير مائِل بهوى ولا إلف ولا نفار ولا كسل ، فمضمون له تمييز الحق ، وهذا كمن سأل عن البرهان على إشكال أقليدس فإنه لا سبيل[٢٦] إلى جوابه عن جميعها بقول مجمل ، لكن يقال له سل عن شكلٍ شكلٍ تُخبر ببرهانه ، أو كمن سأل ما النحو ؟ وأراد أن يوقف على قوانينه جملة فإن هذا لا يمكن بأكثر من أن يقال له هو بيان حركات وحروف يتوصل[٢٧] باختلافها إلى معرفة مراد المخاطب باللغة العربية ، ثم لا يمكن توقيفه على حقيقة ذلك ولا إلى إثباته جملة إلا بالأخذ معه فى مسألة مسألة .

وهكذا فى هذا المكان الذى نحن فيه ، لا يمكن أن نبين جميع البرهان على كل مختلِف فيه بأكثر من أن يقال له سل عن مسألة مسألة نبين لك برهانها بحول الله تعالى وقوته .

ثم نقول لمن قال من هؤلاء إن هاهنا قولًا صحيحًا واحدًا لا شك فيه : أخبرونا من أين عرفت ذلك ؟ ولعل الأمر كما يقول من قال إن جميع الأقوال كلها باطل ، أو كما قال من قال إن جميع الأقوال كلها حق ، فإن قال : لا[٢٨]، لأنها لو كانت حقًا كلها لكان محالًا ممتنعًا ، لأن فيها

---

(٢٦) فى (أ) : لا إشكال فيه .

(٢٧) فى (أ) : (يتصل) .

(٢٨) فى (أ) : سقط الكلام من أول قوله (باطل إلى .. فإن قال : لا) .

إثبات الشيء وإبطاله معًا ، ولو كان جميعها باطلًا لكان كذلك أيضًا سواء سواء ، وهذا محال ممتنع لأن فيه أيضًا إثبات الشيء وإبطاله معًا ، وإذا ثبت إثبات الشيء بطل إبطاله بلا شك ، إذا بطل إثباته ثبت إبطاله بلا شك ، فإذ قد أبطل هذان القولان بيقين لم يبق بلا شك إلا أن فيه حقًا بعينه وباطلا بعينه ، قلنا له صدقت وإذ الأمر كما قلت فإن هذا العقل الذى عرفت به أن فى تلك الأقوال قولًا صحيحا بلا شك ، فيه تميز ذلك القول الصحيح بعينه ، مما ليس بصحيح ، لأن الصحيح من الأقوال يشهد له العقل والحواس ببراهين ترده إلى العقل والحواس ردًا صحيحا ، وأما الباطل فينقطع ويقف قبل أن يبلغ إلى العقل والحواس ، وهذا بيّن والحمد لله رب العالمين .

وأما من أبطل أن يكون فى الأقوال كلها قول صحيح فقد أخبرنا أنه مبطل للحقائق كلها متناقض ، لأنه يبطل الحق والباطل معا ، وبالله تعالى التوفيق .

أما قولهم : لو كان هاهنا قول صحيح لما أشكل على أحد ، ولا اختلف فيه ، كما لم يختلفوا فيما أدركوه بحواسهم ، ولا فى الحساب ، فإن هذا قول فاسد لأن إشكال الشيء على من أشكل عليه إنما معناه أنه يجهل حقيقة ذلك الشيء فقط ، وليس جهل من جهل حجة على من علم ، برهان هذا أنه ليس فى العالم شيء إلا ويجهله بعض الناس كالمجانين والأطفال ، ومن غمره الجهل والبلدة ثم يتزيد الناس فى الفهم فتفهم طائفة شيئًا لا تفهمه المجانين ، وتفهم طائفة أخرى ما لا يفهمه هؤلاء .

وهكذا إلى أرفع مراتب العلم فكل ما اختلف فيه فقد وقف على الحقيقة فيه من فهمه ، وإن كان خفى على غيره ، وهذا أمر مشاهد محسوس فى جميع العلوم وآفة ذلك ما قد ذكرنا قبل ، وهو إما قصور الفهم والبلادة وإما كسل عن تقصى البرهان ، وإما لإلف أو نفار بَعُدَ بصاحبهما عن الغاية المطلوبة ، أو تعدياها وهذه دواعى الاختلاف فى كل ما اختلف فيه ، فإذا ارتفعت الموانع لاح البرهان بيقين ، فبطل ما شغبوا به والحمد لله رب العالمين .

وأما قولهم كما لم يختلفوا فيما أدركوه بحواسهم وفى الحساب وفيما أدركوه ببداية عقولهم فقول غير مطرد ، والسبب فى انقطاع اطراده هو أنه ليس فى أكثر ما يدرك بالحواس وبداية العقول شيء يدعو إلى التنازع ، ولا إلى تقليد يتهالك فى نصره أو إبطاله ، وكذلك فى الحساب حتى إذا صرنا إلى ما فيه تقليد مما يدرك بالحواس أو بأوائل التمييز وجد فيه من التنازع والمكابرة والمدافعة وجحد الضرورات كالذى يوجد فيما سواه كمكابرة النصارى واستهلاكهم فى أن المسيح له طبيعتان ناسوتيّة ولا هوتيّة ، ثم منهم من يقول إن تلك الطبيعتين صارتا شيئًا واحدًا ، وصار اللاهوت ناسوتًا تامًّا محدثًا مخلوقًا ، وصار الناسوت إلاهًا تامًّا خالقًا غير مخلوق .

ومنهم من يقول امتزجا كامتزاج العرض بالجوهر ، ومنهم من يقول امتزاجا كامتزاج البطانة

والضهارة ، وهذا حمق ومحال يدرك فساده بأول العقل وضرورته ، وكما تهالكت المنانية على أن الفلك فى كل أفق من العالم لا يدور إلا كما يدور الرَّحى ، وهذا أمر يشاهد كذبه بالعيان ، كما تهالكت اليهود على أن النيل الذى يُحيط بأرض مصر وزويله ومعادن الذهب ، وأن الفرات المحيط بأرض الموصل مخرجهما جميعًا من عين واحدة فى المشرق ، وهذا كذب يدرك بالحواس وكما تهالكت المجوس على أن الولادة من إنسان ونهر وأن مدينة واقفة من بنيان بعض ملوكهم بين السماء والأرض ، وكتهالك جميع العامة على أن السماء مستوية كالصحيفة لا مقبية مكوّرة ، وأن الأرض كذلك أيضًا ، وأن الشمس تطلع على جميع الناس فى جميع الأرض فى ساعة واحدة وتغربُ عنهم كذلك وهذا معلوم كذبه بالعَيان ، وكتهالك الأشعرية وغيرهم ممّن يدعى العلم والتوفيق فيه إلى أن النار لا حر فيها ، وأن الثلج لا برد فيه ، وأن الزجاج والحصا لها طعم ورائحة ، ولأن الخمر لا يسكر ، وأن هاهنا أحوالًا لا معدومة ولا موجودة ، ولا هى حق ولا هى باطل ، ولا هى مخلوقة ولا غير مخلوقة ، ولا هى معلومة ولا هى مجهولة ، وهذا كله معلوم كذبه وبطلانه بالحواس وبأول العقل وضرورته ، وتخليط لا يفهمه أحد ولا يتشكل فى وهم أحد ، ولولا أننا شهدهنا أكثر من ذكرنا لما صدقنا أن من له مسكة عقل ينطق لسانه بهذا الجنون .

وكتهالك طوائف على أن اسمين يقعان على مسميين كل واحد من ذانك المسميين ، لا هو الآخر ولا هو غيره ، وكالسوفسطائية المنكرة للحقائق ، وأما الحساب فقد اختلف أهله فى أشياء من التعديل ، ومن قطع الكواكب ، وهل الحركة لها أو لأفلاكها ، وأما الذى لا يخلو وقت من وجوده فخطأ كبير من أهل الحساب فى جميع الأعداد الكثيرة حتى يختلفوا اختلافًا ظاهرًا حتى إذا حقق النظر يظهر الحق من الباطل ، وهذا نفس ما يعرض فى كل ما يدرك بالحواس فظهر بطلان تمويههم وتشبيههم جملة ، والحمد لله رب العالمين .

وصح ما أنكروه من أن كثيرا من الناس يغيبون عن اعتقاد ما شهدت له الحواس ، وينكرون أوائل العقول ، ويكابرون الضرورات إما بأنهم كسلوا عن طلب البراهين فقطعوا بظنونهم ، وإما لأنهم زلوا عن طريق البرهان وظنوا أنهم عليه ، وإما لأنهم ألفوا ما مَالت إليه أهواؤهم لإلفهم شيئًا ونفارهم عن آخر .

وأما قولهم : وللاح الحق على مرور الأزمان وكثرة البحث وطول المناظرات ، فيقال لهم وبالله تعالى التوفيق : نعم قد لاح الحق وبان(٢٩) الباطل وأن كُلّ طائفة تدعيه ، فإن من يظهر على الطريق التى وصفنا صح عنده المحق(٣٠) من المبطل ، وبالله تعالى التوفيق .

---

(٢٩) فى (أ) : (ظن الباطل) .
(٣٠) فى (أ) : (المحق المدّعى) .

وأما قولهم : ومن المحال أن يبدو الحق إلى الناس فيعاندوه بلا معنى ، ويرضوا بالهلاك فى الدنيا والآخرة بلا معنى فقول فاسد ، لأننا قد رأيناهم أتوا أشياء بدا الحق فيها إلى الناس فعانده كثير منهم ، وبذلوا مهجهم فيه ، وكأنهم ما شاهدوا الأمر الذى ملأ الأرض من المقاتلين الذين يعرفون بقلوبهم ويقرون بألسنتهم أنهم على باطل ، يقتلون ويعترفون بأنهم يتلفون(٣١) مهجهم ودماءهم ، وأموالهم وأديانهم ويوتمون أولادهم ويرمّلون نساءهم فى قتال عن سلطان غائِب عن ذلك القتال ، لا يرجون زيادة درهم ، ولا يخاف كلُّ امرىء منهم فى ذاته تقصيرًا به لو لم يقاتل . أوَ لَمْ يروا كثيرًا من الناس يأكلون أشياء يوقنون بأنهم يستضرون بها ، ويكثرون شرب الخمر وهم يقرون أنها قد أفسدت أمزجتهم ، وأنها تؤديهم إلى التلف ، وهم يقرون مع ذلك أنهم عاصّون لله تعالى ، وكم رأينا من الموقنين بخلود العاصى فى النار المحققين لذلك يقرُّ على نفسه أنه يفعل ما يخلّد به فى النار ، فإن قالوا : إن هؤلاء يستلذون ما يفعلون من ذلك قلنا لهم : إن استلذاذ من يدين بشىء مّا يُبَصِّرُه لما يدين به ، وتَعَصُّبه له أشد من استلذاذ الأكل والشرب لما يدرى أنه يتلفه من ذلك ، ثم نقول لهم : أخبرونا عن قولكم هذا إنه ليس هاهنا قول سطعت حجته ولو كان لما اختلف الناس فيه أحقٌّ هى هذه القضية قطعتم بها ، وهل قولكم هذا ظاهر الحجة متيقن الحقيقة أم لا ؟.

فإن قالوا : لا . أقرُّوا بأن قولهم لم تصح حجته ، ولا لاح برهانه وأنه ليس حقًّا ما قالوه . وإن قالوا بل هو حق قد لاحت حجته ، قلنا لهم فكيف خولفتم فى شىء لاحت حجته حتى صار أكثر أهل الأرض يعمون عمّا لا شك فيه عندكم وعن ما لاح الحق فيه ، حتى اعتقدوا فيكم الضّلال والكفر وإباحة الدم ، وهذا هو نفس ما أنكروا قد صرحوا أنه حق والحمد لله رب العالمين .

وأما احتجاجهم بانتقال من ينتقل من مذهب ، إلى مذهب وتهالكه فى إثباته ثم تهالكه فى إبطاله ورومهم أن ينشدوا بهذا جميع البراهين فليس كما ظنوا لأن كل منتقل من مذهب إلى مذهب فلا يخلوا ضرورة من أحد ثلاثة أوجه ، إما أن يكون انتقل من خطأ إلى خطأ ، أو من خطأ إلى صواب ، أو من صواب إلى خطأ ، وأى ذلك كان فإنما أتى فى الانتقالين الاثنين اللذين هما إلى الخطأ من أنه لم يطلب البرهان طلبًا صحيحًا ، بل عاجزا عنه بأحد الوجوه ، التى قدمنا قبل . وأما الانتقال إلى الصواب فإنه وقع عليه بجدٍّ صحيح وطلبٍ صحيح أو بجدٍّ وبحث .

وهذا يَعْرض فيما يدرك بالحواس كثيرا فيرى الإنسان شخصا من بعيد فيظنه فلانًا ، ويحلف عليه ويكابر ويجرد ثم يتبين له أنه ليس هو الذى ظن ، وقد يشم الإنسان رائحة يظنها من بعض

(٣١) فى (أ) : (يلغوا) .

الروائح ويقطع على ذلك ويحلف عليه مُجِدًّا ثم يتبين أنه ليس هو الذى ظن ، وهكذا فى الذوق أيضًا ، وقد يعرض هذا فى الحساب فقد يختلف[٣٢] الحاسبون فى جميع الأعداد الكثيرة فيقول أحدهم ان للمجتمع من هذه الأعداد كذا وكذا ، ويخالفه غيره فى ذلك حتى إذا بحثوا بحثًا صحيحًا صحَّ الأمر عندهم .

وقد يعرض هذا للإنسان فيما بين يديه ، يطلب الشيء من متاعه طلب تردد المرة بعد المرة فلا يجده ولا يقع عليه ، وهو بين يديه ونصب عينيه ، ثم يجده فى أقرب مكان من بصره[٣٣]، وقد يكتب الإنسان مستمليًا أو يقرأ فيصحف ويزيد وينقص وليس هذا بموجب ألَّا يصح شيء بإدراك الحواس أبدًا ، ولا ألَّا يصح وجود الإنسان شيئًا افتقده أبدًا ، ولا ألَّا يصح جميع الأعداد أبدًا ولا ألَّا يصح حرف مكتوب ولا كلمة مقروءة أبدا ، لإمكان وجود الخطأ فى بعض ذلك لكن التثبت الصحيح يليح الحق من الباطل .

وهكذا لكل شيء أخطأ فيه أحد من الناس .

لابد من برهان يليح الحقَّ فيه من الباطل ، ولا يظن جاهل أن هذه المعانى كلها حجة لمبطلى الحقائق بل هى برهان عليهم ، لائِح قاطع لأن كلَّ ما ذكرنا لا يختلف حس أحد فى أن كل ذلك إذا فتش تفتيشا صحيحًا فإنه يقع اليقين والضرورة بأن الوهم بها غير صحيح ، وأن الحق فيها ولابد ، فبطل تعلقهم بمن رجع عن[٣٤] مذهب إلى مذهب ، ولم يحصلوا إلا على أن قالوا : إنا نرى قوما يخطئون فقلنا لهم نعم ويُصيب آخرون .

فإقرارهم بوجود الخطأ موجب ضرورة أن ثَمَّ صوابًا لأن الخطأ هو مخالفة الصواب ، فلو لم يكن صوابٌ لم يكن خطأ ، ولو لم يكن برهان لم يكن شغب مخالف للبرهان .

ثم نعكس استدلالهم عليهم فنقول لهم وبالله تعالى نتأيد : فإذ قد وجدتم من يعتقد ما أنتم عليه ثم يرجع عنه فهلّا قلتم إن مذهبكم هكذا ، كالأقوال الأخر التى أبطلتموها من أجل هذا الظن الفاسد فى الحقيقة ، وهو فى ظنكم صحيح فهو لكم لأزم لأنكم صححتموه ولا يلزمنا لأننا لم[٣٥] لم نصححه ولا صححه برهان .

قال أبو محمد : وبهذا الذى قلنا يبطل ما اعترضوا به من اختلاف المدعين الفلسفة

---

(٣٢) فى (أ) : (يغلط) .
(٣٣) فى (أ) : (منه) .
(٣٤) فى (أ) : (من) .
(٣٥) فى (أ) : (لا) بدلًا من (لم) .

والمنتحلين للكلام فى مذاهبهم ، وما ذكروه من اختلاف المختارين أيضًا فى اختيارهم ، لأننا لم ندَّع أن طبائع الناس سليمة من الفساد ، لكننا نقول : إن الغالب على طبائِع الناس الفساد ، وإن المنصف لنفسه أولًا ثم لخصمه ثانيا ، الطالب للبرهان على حقيقة العارف به قليل[٣٦]، برهاننا على هذا ما وجدناه من اختلاف الناس ، واختلافُهم[٣٧] دليل على كثرة الخطأ منهم ، وقد أوضحنا أن وجود الخطأ يقتضى ضرورة وجود الصواب منهم ولابد ، وليس اختلافهم دليلا على أن لا حقيقة فى شيء من أقوالهم ، ولا على امتناع وجود السبيل إلى معرفة الحق . وبالله تعالى التوفيق .

وأما احتجاجهم بأن لا يخلو من حقَّق شيئًا من الديانات والمقالات والآراء من أن يكون صحَّ له بالحواس أو ببعضها ، أو ببديهة العقل وضرورته ، أو بدليل من الأدلة غير هذين ، وأنه لو صح بالحواس أو بالعقل لم يختلف فيه وإلزامهم فى الدليل مثل ذلك إلى آخر كلامهم ، فهذا كلّه مكرر قد مضى الكلام فيه ، وقد أريناهم أنه قد يختلف الناس فيما يدرك بالحواس وببديهة العقل كاختلافهم فى الشخص يرونه ويختلفون فيه ما هو ؟ وفى الصوت يسمعونه بينهم فيمَ هو ؟ ويختلفون فيه ، وكأقوال النصارى وغيرهم مما يعلم بضرورة العقل فساده .

ثم نقول لهم : إن أول المعارف هو ما أدرك بالحواس وببديهة العقل وضرورته ، ثم ينتج براهين راجعة من قرب أو من بعد إلى أول العقل أو إلى الحواس ، فما صححته هذه البراهين فهو حقٌّ ، وما لم تصححه هذه البراهين فهو غير صحيح ، ثم نعكس عليهم هذا السؤال بعينه فنقول لهم وبالله تعالى التوفيق : قولكم هذا بأى شيء علمتموه ؟ أبالعقل أو بالحواس أو بدليل عنهما ؟ فإن علمتموه بالحواس أو العقل فكيف خولفتم فيه ؟ وإن كنتم عرفتموه بدليل فذلك الدليل بم عرفتموه ؟ أبالحواس أم بالعقول أم بدليل آخر ؟.

وهكذا أبدا ، وكل سؤال أفسد حكم نفسه فهو فاسد ، وعلى أن هذا لهم لازم لأنهم صححوه ، ومن صحح شيئا لزمه ، ونحن لم نصحح هذا السؤال . فلا يلزمنا ، وقد أجبنا عنه بما دفعه عنَّا ، وأما هُمْ فلا مخلص لهم منه وبالله تعالى التوفيق .

وأما قولهم : نسألهم عن علمهم بم يدعون صحته أتعلمونه أم لا ؟ فإن قالوا : لا نعلمه بطل قولهم إذ أقروا أنهم لا يعلمونه ، وإن قالوا بل نعلمه سألناهم : أبعلم علمتم علمكم بذلك أم بغير علم ؟ وهكذا أبدًا فهذا أمر قد أحكمنا بيان فساده فى باب أفردناه فى ديواننا هذا على أصحاب معمَّر ، فى قولهم بالمعانى وعلى الأشعرية ، ومن وافقهم من المعتزلة ، فى قولهم بالأحوال ، وإنما كلامنا هذا مع من يقول بتكافؤ الأدلة .

---

(٣٦) فى (أ) : (فدليل) .
(٣٧) فى (أ) : بزيادة (كثيرًا) .

قال أبو محمد : وهذا السؤال نفسه مردود عليهم كما هو ونسألهم أتعلمون صحة مذهبكم هذا أم لا ؟ فإن قالوا لا . أقروا بأنهم لا يعلمون صحته ، وفى هذا إبطاله وأنه إنما هو ظن لا حقيقة ، وإن قالوا بل نعلمه سألناهم أبعلم تعلمونه أم بغير علم ؟

وهكذا أبدا إلا أن هذا السؤال لازم لهم لأنهم صححوه ، ومن صحَّحَ شيئا لزمه وأما نحن فلم نصححه فلا يلزمنا وقد أجبنا عنه فى بابه بأننا نعلم صحة علمنا ، بعلمنا ذلك بعينه لا بعلمٍ آخر ، ونعقل أن لنا عقلًا بعقلنا ذلك نفسه ، وإنما هو سؤال من يبطل الحقائق كلّها لا من يقول بتكافؤ الأدلة ، فبطل كل ما موَّهوا به . والحمد لله رب العالمين .

قال أبو محمد : ثم نقول لهم أنتم قد أثبتم الحقائق وفى الناس من يبطلها ومن يشك فيها وهم السوفسطائية وعلمتم أنهم مخطئون فى ذلك ببراهين صحاح ، فببراهين صحاح أيضًا صح ما أبطلتموه أو شككتم فيه ، من أن فى مذاهب الناس مذهبًا صحيحًا ظاهر الصحة ، فإذ سأل عنها أجيب بها فى مسألة مسألة .

قال أبو محمد : ويقال لمن قال لكل ذى ملة أو نحلة أو مذهب ، لعلك مخطىء وأنت تظن أنك مصيب ، لأن هذا ممكن فى كثير من الأقوال بلا شك ، أخبرنا أفى الناس من فسد دماغه ..؟ وهو يظن أنه صحيح الدماغ فإن أنكر ذلك كابر ، ودفع المشاهدات ، وإن قال هذا ممكن قيل له لعلك أنت الآن كذلك ، وأنت تظن أنك سالم الدماغ ، فإن قال : لا . لأن هاهنا براهين تصحح أنى سالم الذهن ، قيل له : هاهنا براهين تصحح الصحيح من الأقوال وتبينه من الفاسد ، فإن سأل عنها أجيب(٣٨) بها فى مسألة مسألة .

قال أبو محمد : فإذ قد بطل بيقين أن تكون جميع أقوال الناس صحيحة لأن فى هذا أن يكون الشىء باطلًا حقًا معًا ، لأن الأقوال كلها إنما هى نفى شىءٍ يُثبته آخر من الناس ، فلو كان كلا الأمرين باطلا لبطل النفى فى الشىء وإثباته معًا ، وإذا بطل إثباته صح نفيه ، وإذا بطل نفيه صح إثباته . فكان يلزم من هذا أيضًا أن يكون الشىء حقًّا باطلا معا فثبت بيقين أن فى الأقوال حقًا وباطلًا وإذ هذا لا شك فيه فبالضرورة يعرف أن بين الحق والباطل فرقًا موجودًا وذلك الفرق هو البرهان فمن عرف البرهان عرف الحق من الباطل وبالله تعالى التوفيق .

فإن قال قائل : فإنكم تحيلون على براهين تقولون إن ذكرها جملة لا يمكن ، وتأمرون بالجدِّ فى طلبها ، فما الفرق بينكم وبين دعاة الإسماعيلية والقرامطة الذين يحيلون على مثل هذا ؟ قلنا لهم : الفرق بيننا وبينهم برهانان واضحان أحدهما : أن القوم يأمرون باعتقاد أقوالهم وتصديقهم قبل أن

---

(٣٨) ف (أ) : (أجبت) .

تعرفوا براهينهم ، ونحن لا نفعل هذا ، بل ندعو إلى معرفة البراهين وتصحيحها قبل أن نُصدِّق فيما نقول ، والثانى أن القوم يكتمون أقوالهم وبراهينهم معا ولا يبيحون بها للسَّبر والنظر ، ونحن نهتف بأقوالنا وبراهيننا لكل واحد وندعو إلى سبرها وتفتيشها(٣٩) وأخذها إن صحت ، ورفضها إن لم تصح ، والحمد لله رب العالمين .

ولسنا نقول إننا لا نقدر أن نُحدَّ براهيننا بحد جامع مبيِّن لها بل نقدر على ذلك وهو البرهان المفرق بين الحق والباطل فى كل ما اختلف فيه أن نرجع رجوعًا صحيحًا متيقنا إلى الحواس أو إلى العقل من قرب أو من بعد ، رجوعًا صحيحًا لا يحتمل ، ولا يمكن فيه إلا ذلك العمل فهو برهان وهو حق متيقّن وإن لم يرجع كما ذكرنا إلى الحواس أو إلى أول العقل فليس برهانا ولا ينبغى أن نستدل(٤٠) به ، وإنما هو دعوى كاذبة وبالله تعالى التوفيق .

وبهذا سقط القياس والتقليد لأنه لا يقدر القائلون بهما على برهان فى تصحيحهما ، يرجع إلى الحواس أو إلى أول العقل رجوعًا متيقنًا .

قال أبو محمد : ونحن نقول قولًا كافيًا بعون الله تعالى وقوته : وهو أن كل ما اختلف فيه من غير الشريعة ومن تصحيح حدوث العالم وأن له مُحدِثا واحدا لم يزل ، ومن تصحيح النبوة ثم تصحيح نبوة محمد ﷺ ، فإن براهين كل ذلك راجعة رجوعًا صحيحًا ضروريًا إلى الحواس ، وضرورة العقل ، فما لم يكن هكذا فليس بشيء ، ولا هو برهانًا ، وإن كان ما اختلف فيه من الشريعة بعد صحة حملها فإن براهين كل ذلك راجعة إلى ما أخبر به رسول الله ﷺ عن الله(٤١) تعالى إذ هو المبعوث إلينا بالشريعة فما لم يكن هكذا فليس برهانًا ولا هو شيئًا وفى أول ديواننا هذا باب فى ماهية البراهين الموصلة إلى معرفة الحقيقة فى كل ما اختلف الناس فيه ، فإذا أضيف إلى هذا ارتفع الإشكال والحمد لله رب العالمين .

---

(٣٩) فى (أ) : وتقييسها .
(٤٠) فى (أ) : تشتغل .
(٤١) فى (أ) : سقط (عن الله تعالى) .

« الكلام فى الألوان »

قال أبو محمد : الأرض غبراء ، وفيها حمراء وفيها بيضاء وصفراء وخضراء وسوداء ، وموشاة والماء أبيض إلا أن يكتسب لونا بما استضافه إليه لفرط صفاته ، فيكتسب[1] لون إنائِه أو ما هو فيه ، وإنما قلنا إنه أبيض لبراهين ، أحدها : أنه إذا صب فى الهواء بهر[2] وظهر أبيض صافى البياض ، والثانى أنه إذا جمد فصار ثلجا أو بردًا ظهر أبيض شديد البياض ، وأما الهواء فلا لون له أصلا ، ولذلك لا يُرى لأنه لا يُرى إلا اللّون ، وقد زعم قوم أنه إنما لا يرى لا نطباقه على البصر وهذا فاسد جدًّا ، وبرهان ذلك أن المرء يغوص فى الماء الصافى ويفتح عينيه فيه فيرى الماء وهو منطبق على بصره لا حائل بينهما ، ولا يرى الهواء فى تلك الحال ، وإن استلقى على ظهره فى الماء وهذا أمر مشاهد ، وأما الذى يُرى عند دخول خط ضياء الشمس من كوة فإنما هو أن الأجسام تنحل منها أبدًا أجزاء صغار وهى التى تسمى الهباء فإذا انحصر خط ضياء الشمس وقع البصر على تلك الأجزاء الصغار وهى متكاثفه جدا ولونها الغبرة فهى التى تُرى لا ما سواها ، ومن تأمل هذا عرفه يقينا ، وأن البيوت مملوءة من ذلك الهباء[3] المنحل من الأرض والثياب والأبدان وسائِر الأجرام ، ولكن لدقتها لا ترى إلا إن انحصر خط الشمس فيُرى ما فى ذلك الانحصار منها فقط ، وأما النار فلا ترى أيضًا لأنه لا لون لها فى فلكها ، وأما المرئية عندنا فى الحطب والفتيلة وسائِر ما يحترق فإنما هى رطوبات ذلك المحترق تستحيل هواء فيه نارية فتكتسب ألوانا بمقدار ما تعطيها طبيعتها فتراها خضراء ولا زوردية وحمراء وبيضاء وصفراء وبالله تعالى التوفيق . وهذا يعرض للرطوبات المتولد منها دائِرة قوس قزح .

---

(١) فى (أ) : فيكتسى .
(٢) فى (أ) : (بهرق) .
(٣) فى (أ) : (الضياء) .

قال أبو محمد : أجمع جميع المتقدمين بعد التحقيق بالبرهان أنه لا ترى إلَّا الألوان ، وأن كل ما يرى فليس إلا لونا ، وحدُّوا بعد ذلك البياض بأنه لون يفرِّق البصر ، وحدُّوا السواد بأنه لون يجمع البصر .

قال أبو محمد : وهذا حدٌّ وقعت فيه مسامحة وإنما خرّجوه على قول العامة فى لون السواد ، ومعنى يجمع البصر أنه يقبضه فى داخل الناظر ويمنع من انتشاره ومن تشكل المرئيات ، وإذ هذا معنى القبض بلا شك فهو معنى منع البصر والإدراك وكفه ، ومن هذا سمِّى المكفوف مكفوفا فإذا السواد يمنع البصر من الانتشار ويقبضه عن الانبساط ، ويكفه عن الإدراك ، وهذا كله معنى واحد ، وإن اختلفت العبارات فى بيانه فالسواد بلا شك غير مرئى ، ولابد إذ لو رئى لم يقبض خط البصر إذ لا رؤية إلا بامتداد البصر ، فإذ هو غير مرئىٌّ فالسَّواد ليس لونًا إذ اللون مرئى ولابدّ ، وما لم ير فليس لونًا وهذا برهان عقلى ضرورى . وبرهان آخر حسىٌّ وهو أن الظلمة إذا أطبقت فلا فرق حينئذ بين المفتوح العينين ، السالم الناظرين ، وبين الأعمى المنطبق والمسدود العينين سدا كثيفا(٤) فإذ ذلك كذلك فالظلمة لا تُرى ، ومن الباطل الممتنع أن تكون ترى الظلمة ، وبالحس نعلم أن المنطبق العينين فيها بمنزلة واحدة من عدم الرؤية مع(٥) المفتوح العينين فيها ، والظلمة هى السواد نفيه فمن ادعى أنهما متغايران فقد كابر العيان وادعى ما لا يأتى عليه بدليل أبدًا .

ونحن نجد أنه لو فتح فى حائط بيت مغلق كوتان ثم جعل على إحداهما ستر أسود وتركت الأخرى مكشوفة لما فرّق الناظر من بُعَدٍ بينهما أصلًا ، ولو جعل على إحداهما سترًا أحمر أو أصفر أو أبيض لتبين ذلك للناظر يقينا من بعد أو قرب ، وهذا بيان أن السواد والظلمة سواء . وبرهان آخر هسى وهو أن خطوط البصر إذا استوت فلا بد من أن تقع على شىء ما لم يقف عليه مانع من تماديها ، ونحن نشاهد من بين يديه ظلمة أو هو فيها لا يقع بصره على حائط إن كان فى الظلمة وسواء كان فيها حائط مانع من تمادى خط البصر ، أو لم يكن فصح يقينًا أن الظلمة لا ترى بل هى مانعة من الرؤية ، والظلمة هى السواد والسواد هو الظلمة لم يختلف قط فى هذا اثنان لا بطبيعة ولا بشريعة ولا فى معنى اللغة ولا بالمشاهدة ، فقد صح أن السواد لا يرى أصلًا وأنه ليس لونًا .

قال أبو محمد : وإنما وقع الغلط على من ظن أن السواد يرى لأنه أحس بوقوع خطوط البصر على ما حوالى الشىء الأسود من سائِر الألوان فعلم بتوسط إدراكه ما حوالى الأسود أن بين تلك النهايات شيئًا خارجًا على تلك الألوان فقدَّر أنه يراه ، ومن هاهنا عظم غلط جماعة ادعوا

---

(٤) فى (أ) : (أو كفًا) .
(٥) فى (أ) : (ومع) .

بظنونهم من الجهة التى ذكرنا أنهم يرون الحركات والسكون فى الأجرام ، والأمر فى كل ذلك وفى الأسود واحد ولا فرق ، فإن قال قائل : إنه إن كان فى جسم الأسود زيادة ناتئة سوداء كسائر جسده رأيناها فلو لم تر لم نعلم بنتوء تلك الهيئة الناتئة له على سطح جسده . قيل له وبالله التوفيق : هذا أيضا وهم لأنه لما لم يمتد خط البصر عند قبض تلك الهيئة الناتئة له وامتدت سائر الخطوط إلى أبعد من تلك المسافة وعلمت النفس بذلك توهم من لم يحقق أن هذه رؤية ، وليست كذلك ، وتوهموا أيضًا أنهم يرون السواد إذا كان السواد ممازجًا لحمرة أو لغبرة أو لخضرة أو لصفرة أو لزرقه فإذا كان هذا هكذا فإن البصر لا يرى ما فى ذلك السطح من هذه الألوان على حسب قوتها وضعفها فقط فيتوهمون من ذلك أنهم رأوا السواد ، ويتوهمون أيضًا أنهم يرونه لأنهم قالوا : نحن نميز الأسود البراق البصيص واللمعان من الأسود الأكدر الغليظ .

قال أبو محمد : وهذا مكان ينبغى أن نتثبت فيه فنقول وبالله تعالى التوفيق : إن الأملاس هى استواء أجزاء السطح ، والخشونة هى تباين أجزاء السطح ، وقد نجد أملس لمَّاعا وأملس كِدرا فإذ ذلك كذلك فالبصيص واللمعان شىء آخر غير استواء أجزاء السطح وإذ هو كذلك وهو مرئىٌّ فالبصيص بلا شك لون آخر محمول فى الملون بالحمرة أو الصفرة أو سائر الألوان ، وفيما عرى من جميع الألوان سواء فإذا قلنا أسود لماع فإنما نريد أنه ليس فيه من الألوان إلا اللمعان فقط وهو لون صحيح ، وقد عرى من الحمرة ومن الصفرة ومن البياض والخضرة والزرقة ومما تولد من امتزاج هذه الألوان .

ولعل الكدرة أيضًا لون آخر مرئىٌّ كاللمعان ، وهى أيضًا غير سائر الألوان ، فهذا ما لا يوجد ما يمنع منه ، بل الدليل يثبت أن الكدرة أيضا لون وهو وقوع البصر عليها ، وهو لا يقع إلا على لون ومن أبى من هذا كلفناه أن يُحِدَّ لنا اللمعان والكدرة فإنه لا يقدر على شىء أصلًا غير ما قلنا . وبالله تعالى التوفيق .

فإن قال قائل : بل فإنا نرى الثوب الأسود ونستبين نسيج خيوطه ونتوء ما نتأ منها وانخفاض ما انخفض فلولا أنه يرى ما علم ذلك كله . فالجواب وبالله تعالى التوفيق : إننا قد علمنا أن خطوط البصر تخرج من الناظر ولها مساحة مّا وبعضها أطول من بعض بلا شك لأن الخطوط الخارجة من البر إلى السماء أطول من الخطوط الخارجة من البصر إلى الجليس لك بلا شك فلما خرجت خطوط البصر إلى الثوب المذكور انقطع تمادى بعضها فيما سامته وتمادى بعضها إلى أن انقطع فيما انخفض منه[٦] علمنا أن خطوط بصرنا تمادى بعضها أكثر من تمادى البعض فبالحس علمنا

(٦) فى (أ) : سقط الكلام من قوله (فيما سامته .. إلى انخفض منه) .

هذا لأن بصرنا وقع على لون أصلًا ، وأيضًا فإن النور هو اللون الذى طبعه بسط قوة الناظر واستخراج قوى البصر حتى إنه إذا وافق ناظرا ضعيف البنية بطبعه أو بعرض اجتلب جميعه واستلبه كله ، أو اقتطفه ، فعلى قدر قوة النور فى اللون المرئىّ وضعفه فيه يكون وقوع البصر عليه ، هذا أمر مشاهد بالعيان فكلما قل النور فى اللون كان وقوع البصر عليه أضعف وكانت الرؤية له أقل حتى إذا عدم النور جملة ولم يبق منه شىء فقد بطل بالضرورة أن يمتد خطوط البصر إليه ، أو أن يقع الناظر عليه ، إذا لا نور فيه ، ولا يختلف ذو حس فى العالم فى أن السواد المحض الخالص ليس فيه شىء من النور فإذ لا شك فى هذا أنه لا يُرى وبالله تعالى التوفيق .

وأيضًا فإن جيلا ذا لون مّا أو أرضا ذات لون مّا وفيهما غاران مظلمان لما شك كل ناظر إليهما فى أنه لا يرى إلا ما حول الغارين فقط وأنه لا يرى ما ضمه خط الغارين فإذ هذه كلها براهين ضرورية مشاهدة حسية عقلية ، فالبرهان لا يعارضه برهان أصلًا ، والبرهان لا يعارَض بالدعوى ولا بالظنون . والحمد لله رب العالمين .

وأما من كلام الله عز وجل فإنه تعالى يقول : « ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها[٧] » . وقوله تعالى : « يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا[٨] » .

فصح يقينا أن الظلمة مانعة من النظر ، والرؤية جملةً ، وهو السواد بلا شك فهو لا يرى . ولا خلاف فى أن البصر العليل يداوى بالثوب الأسود وبالقعود فى الظلمة وليس ذلك إلا لمنعه من امتداد بصره فيكل بامتداده . وبالله تعالى التوفيق .

فإن قيل : السواد غير الظلمة ، قلنا إننا نجد الأرمد الشديد الرمد حتى صار فى بيت مظلم شديد الظلمة والانطباق لا يدخله شىء من الضوء أمكنه فتح عينيه بحسب طاقاته ولم يألم النظر إليه ، ومتى جعلناه فى بيت مضىء وعلى وجهه وعينيه ثوب كثيف جدًا أسود أمكنه فتح عينيه حسب طاقته ، ولم يألم بالنظر إليه ، وكانت حاله من تغطية وجهه بذلك الثوب كحاله فى الظلمة التامة سواء سواء . وكذلك يعرض للصحيح البصر فى الحالتين المذكورتين ولا فرق .

ومتى جعلنا على بصر الأمرد ثوبًا أبيض ألم ألمًا شديدًا كألمه إذا نظر فى الضوء ولا فرق ، فإن جعلنا على وجهه ثوبًا أصْفر ألم دون ذلك وإن كان أحمر ألم دون ذلك ، فإن كان أخضر ألم

---

(٧) النور : ٤٠

(٨) البقرة : ٢٠

دون ذلك ، على قدر[٩] ما فى اللون من مُمَازجة البياض له . فصح أن السواد والظلام شىء واحد .

وقال بعض أصحابنا : السواد غير الظلمة وهو لا يُرى ، لأن الزنجى والغراب والثوب ليس شىء من ذلك أسود ، وكل ذلك يُرى ، ولون كل ما ذكرنا لون غير السواد إلا أنه سمى باسم السواد مجازًا .

وقال بعضهم : السواد اسم مشترك يقع على الظلمة ويقع على لون الزنجى ، والغراب والثوب فكل ظلام سواد وليس كل سواد ظلاما ، فإن عنيت بالسواد لون الزنجى والغراب والثوب فهو يرى وهو غير الظلمة وإن عنيت بالسواد الظلمة فهو لا يرى .

وقال بعضهم : الظلمة لا تُرى وليست سوادًا أصلًا ، والسواد شىء آخر غير الظلمة وهو لون يرى .

وقال بعضهم : الظلمة والسواد شىء واحد ، وكلاهما يُرى ، وأقروا بأن الأعمى والأكمه والمفقوء العينين والمطبق العينين يرى الظلمة .

---

(٩) فى (أ) : (قدرهما) .

« الكلام فى المتوالد والمتولد »

قال أبو محمد : الحيوان كله ينقسم أقسامًا ثلاثة ؛ متوالد ولابد ، ولا يتولد ولابد ، ومتولد ولابد ، لا يتوالد ، وقسم ثالث يتوالد ويتولد أيضًا ، فالمتولد المتوالد فكبنات وردان فإنها تتولد ، وقد رأيناها تتسافد ، وكالجُعلان فإنها تتولد وقد رأيناها تتسافد ، وكثير من الحيوان المتولد فى النبات ورأيناه يتسافد ، ومثل القمل فإنا قد شاهدناه يخرج من تحت الجلد عيانًا ويحدث فى الرؤوس وقد يتوالد ، ونحن نجد بعضه إذا قطع مملوءًا بيضا .

وأما المتولد الذى لا يتوالد فالحيوان المتولد فى أصول أشفار العينين ، وأصول شعر الشارب واللحية ، والصدر والعانة وهو ذو أرجل كثيرة لا يفارق موضعه ، وما علمناه يتوالد أصلًا ، ومثل الصفار المتولد فى البطن وشحمة الأرض ، وكل هذا لا نعلمه يَتوالد ألبتة . وقد شاهدنا ضفادع صغارًا تتولد من ليلتها فتصبح مناقع المياه منها مملوءة ، ومنها السلماندرية وهو حيوان كبير يشبه الجَراذين الصغار بطيئة الحركة وحيوانات كثيرة منها صغير مفرط الصغر يكاد لصغره لا يتجزأ مثلما رأيناه كثيرًا فى الدوى والدفاتر ، وهو سريع المشى جدًا ، ومنها السوس المتولد فى الباقلاء ، والدود المتولد فى الجراحات ، وفى الحمص والبلوط ، وفى التفاح وبين الحشيش وبين الصنوبر ، وفى الكنف وهى ذوات الأذناب ، والحبَاحِب المتولد فى الخضر وهو فى غاية الحسن ومنه ، ما يضىء بالليل كأنه شرارة نار ، والدود ذوات الأرجل الكثيرة ، والذرازيح ، وهذا كثير لا يحصيه إلا خالقه عز وجل .

ومنها الضفادع والحجاذب ، فقد صح عندنا يقينًا لا مجال للشك فيه أنها تتولد فى مناقع المياه دويبات صَغارًا ملسا شديدة السوادَ ذوات أذناب تسمى عندنا الرتنشات ، ثم صح عندنا كذلك أنها تكبر فتنقطع أذنابها وتتبدل ألوانها ، وتستحيل أشكالها ، وتعظم فتصير ضفادع ثم تزيد كبرًا واستحالة ألوان فتصير حجادب .

قال أبو محمد : قد رأيتها فى جميع تنقلها كما وصفنا ، وقد عرض علينا فى مناقع المياه خطوط ظاهرة ، قيل لنا : إنها بيض الضفادع ، وأما الذباب فقد شاهدناها عيانًا تتناكح ، والأنثى منها هى الكبار والذكور هى الصغار ، وشاهدنا البراغيث تتناكح أيضًا ، والكبار هى الإناث والذكور هى الصغار نشاهد ذلك بأن الأعلى هو الصغير أبدًا ، ونجد الأنثى مملوءة بيضًا إذا وضعت فتلقى بيضها فى الغبار وفى خلال أجزاء الثياب ثم يخرج .

قال أبو محمد : وقد رأينا ذبابًا صغارًا جدًا وذبابًا كبارًا مفرط الكبر وشاهدنا بأبصارنا الدود الطويل الذنب المتولد فى الكنف وذيول البقر والغنم يَستحيل فيصير فراشًا طيارًا مختلف الألوان بديع الخلقة من أبيض وأصفر فاقع وأخضر ولا زوردى منقط ، ولا ندرى كيف الحال فى العقارب والعناكب والرتيلات والبقوقات والدبر ، إلا أننا نرى أن دود الحرير متوالد يتسافد الذكور منها والإناث وتبيض ثم تموت ثم يحضن بيضها ، هذا ما لا خلاف فيه ، وما رأى أحد قط دود حرير يتوالد من غير بيضة ، وكذلك النمل فإنه يتوالد ، وقد رأينا بيضه ، والعرب تسميه المازن ، وكذلك النحل يتوالد ويوجد فى مواضع من بنائِه فى تضاعيف القبر الذى فيه العسل ، وكذلك الجراد والعرب تسمى بيضه الصُّرد .

قال أبو محمد : وما رأى أحد قط نحلا يتولد ولا نملا يتولد ولا جرادا يتولد إلا فى أكذوبات لا تصح .

وأما سائر الحيوان فمتولد ولابد من منى أو بيض فكل ذى أذن بارزة يَلد طائِرا كان كالحيات أو غير طائر كالخفاش وغيره وكل ما ليس له أذن بارزة فهو يبيض طائرًا كان أو غير طائر . كالحيات والجراذين والوزغ وغير ذلك .

قال أبو محمد : فطلبنا أن نحد حدّا يجمع ما يتولد دون ما يتوالد ، أو ما يتوالد دون ما يتولد ، فلم نجد إلا اننا رأينا كلّ ذى عظم وفقارات لا سبيل ألبتة إلى أن يوجد من غير تناكح كحيوان البحر الذى له العظم والفقارات ، ورأينا ما لا عظم له ولا فقار فمنه ما يتولد ولا يتوالد ، ومنه ما يتولد ويتوالد معا .

وكل ذلك خلق الله عز وجل ، يخلق ما شاء كما شاء لا إله إلا هو ، وليست القدرة فى الخلق فى خلق ما خلقه الله عز وجل حيوانًا ذا أربع أو ذا ريش من بيضة أو من منى بأعظم من القدرة فى خلقها من تراب دون توسط بيضة أو منى ، ولا البرهان على الصنعة والابتداء فى أحدها بأوضح منه فى الآخر ، بل كل ذلك برهان على ابتداء الخلقة ، وعلى عظيم القدرة من البارى لا إله إلا هو .

قال أبو محمد : وقد ادّعى قوم أنه يتولد فى الثلج حيوان ، ويتولد فى النار حيوان وهذا كذب وباطل ، وإنما قاسوه على تولد حيوان ما فى الأرض والماء ، والقياس باطل لأنه دعوى بلا برهان وما لا برهان له فليس بشىء ، وبالله تعالى التوفيق .

قال أبو محمد : وإذا حصل الأمر فالحيوان لا يتولد من الماء وحده ، ولا من الأرض وحدها ولكن مما يجتمع من الأرض والمَاء معا ، فتبارك الله أحسن الخالقين . لا معقب لحكمه ، لا إله غيره عزَّ وجل .

* * *

تم السفر الخامس بتمام جميع الديوان من الفصل فى الملل والآراء والنحل بحمد الله وعونه وشكره على حسن تأييده وعونه وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين . على يد العبد الفقير ، إلى رحمة ربه إلقدير . أحمد بن محمد بن سليمان غفر الله له لوالديه ولجميع المسلمين فى تاسع عشر شوال سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة . أحسن الله خاتمتها وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا .

فهرس الآيات القرآنية

رقم مسلسل	الآيـــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
٢٣	« إنّما يتقبّل الله من المتقين »	المائدة	٢٧	٢٩
٢٤	« ولو يؤاخِذُ الله الناسَ بظلمهم ما ترك عليها من دابة »	النحل	٦١	٣٠
٢٥	« ولا تقف ما ليس لك به علم »	الإسراء	٣٦	٣٠
٢٦	« وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هَيِّنًا وهُوَ عند الله عظيم »	النور	١٥	٣٠
٢٧	« ولا تكسبُ كلُّ نفسٍ إلاَّ عليها »	الأنعام	١٦٤	٣٠
٢٨	« ولا تزرُ وازِرةٌ وِزْرَ أُخرى »	الأنعام	١٦٤	٣٠
٢٩	« أجيبوا داعى الله »	الأحقاف	٣١	٣٠
٣٠	« فاقتلوا المشركين حيثُ وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم ، واقعدوا لهم كلَّ مَرْصَد »	التوبة	٥	٣٢
٣١	« ولكن رسولَ الله وخاتم النبيين »	الأحزاب	٤٠	٣٨
٣٢	« ولا تمش فى الأرضِ مرحًا »	الإسراء	٣٧	٣٩
٣٣	« .. ثانى اثنين إذْ هُما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن »	التوبة	٤٠	٣٩
٣٤	« كلُّ من عليها فانٍ ويبقى وجهُ ربِّك »	الرحمن	٢٧	٤٤
٣٥	« هَٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاس »	آل عمران	١٣٨	٤٤
٣٦	« وإنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاء ساقطًا »	الطور	٤٤	٤٥
٣٧	« وكان الله سميعًا بصيرًا »	النساء	١٣٤	٥٨
٣٨	« وكان الله عليمًا حكيما »	النساء	١٠٤	٥٨
٣٩	« وكُلُّ شىء عنده بمقدار »	الرعد	٨	٦٠
٤٠	« وأحصى كلَّ شىءٍ عددًا »	الجن	٢٨	٦٠
٤١	« خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا »	الملك	٢	٦٠
٤٢	« أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوى بنانه »	القيامة	٣	٦١
٤٣	« ومُبشرًا برسولٍ يأتى من بعدى اسمه أحمد »	الصف	٦	٦٥
٤٤	« عالم الغيب والشهادة »	التوبة	٩٤	٦٦
٤٥	« يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل »	الأعراف	١٥٧	٧٥
٤٦	« يعرفونه كما يعرفون أبناءهم »	البقرة	١٤٦	٧٦
٤٧	« فإنّهم لا يكذّبونك »	الأنعام	٣٣	٧٦
٤٨	« قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ، ولو جئنا بمثله مددًا »	الكهف	١٠٩	٨٠
٤٩	« ولو أنَّ ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله »	لقمان	٢٧	٨٠

رقم مسلسل	الآيـــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
٧٠	« إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم »	النساء	٣١	٨٩
٧١	« ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا »	المنافقون	٢	٨٩
٧٢	« ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر »	البقرة	٢١٧	٨٩
٧٣	« ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة ، كذلك كنتم من قبل فمنَّ الله عليكم »	النساء	٩٤	٨٩
٧٤	« ولا يرضى لعباده الكفر »	الزمر	٧	٩٠
٧٥	« لا يحب الفساد »	البقرة	٢٠٥	٩٠
٧٦	« اتَّبعُوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم »	محمد	٢٨	٩٠
٧٧	« إنَّ الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا »	فاطر	٤١	٩١
٧٨	« ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها »	البقرة	١٠٦	٩١
٧٩	« بدّلوا نعمة الله كفرًا ، وأحلّوا قومهم دار البوار ، جهنم يصلونها وبئس القرار »	إبراهيم	٢٨	٩٢
٨٠	« يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأنى فضلتكم على العالمين »	البقرة	٤٧	٩٢
٨١	« قتل الإنسان ما أكفره ، من أى شىءٍ خلقه ، من نطفة خلقه فقدّره ثم السبيل يسره . »	عبس	١٧ – ٢٤	٩٣
٨٢	« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة »	الأحزاب	٢١	٩٤
٨٣	« إنَّ كيد الشيطان كان ضعيفا »	النساء	٧٦	٩٤
٨٤	« ولا جناح عليكم فيما عرَّضتم به من خطبة النساء »	البقرة	٢٢٥	٩٤
٨٥	« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة »	الأحزاب	٢١	٩٥
٨٦	« وتمَّت كلمة ربك صِدْقا وعدلاً لا مبدّل لكلماته »	الأنعام	١١٥	١٠٠
٨٧	« وعلّم آدم الأسماء كلّها »	البقرة	٣١	١٠٠
٨٨	« إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون »	يس	٨٢	١٠٠
٨٩	« فإذا حبالهم وعصيُّهم يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى »	طه	٦٦	١٠٣
٩٠	« إنّما صنعوا كيد ساحرٍ ، ولا يفلح الساحر حيث أتى »	طه	٦٩	١٠٣
٩١	« سحروا أعين الناس واسترهبوهم ، وجاءوا بسحر عظيم »	الأعراف	١١٦	١٠٤
٩٢	« فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه »	البقرة	١٠٢	١٠٤
٩٣	« إنه لكبيركم الذى علمكم السحر »	طه	٧١	١٠٤
٩٤	« إنَّ هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها »	الأعراف	١٢٣	١٠٤
٩٥	« قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »	النمل	٦٤	١٠٥
٩٦	« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمننَّ بها ، قل إنما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون »	الأنعام	١٠٩	١٠٥

رقم مسلسل	الآيـــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
٩٧	« وما منعنا أن نرسل بالآيات إلاَّ أن كذَّب بها الأولون »	الإسراء	٥٩	١٠٥
٩٨	« ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكِّرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون »	الحجر	١٥	١٠٦
٩٩	« ادعونى أستجب لكم »	غافر	٦٠	١٠٨
١٠٠	« أجيب دعوة الداع إذا دعان »	البقرة	١٨٦	١٠٨
١٠١	« واعلموا أنكم غير معجزى الله »	التوبة	٢	١١٠
١٠٢	« فليس بمعجز فى الأرض »	الأحقاف	٣٢	١١٠
١٠٣	« والله على كل شىء قدير »	البقرة	٢٨٤	١١٠
١٠٤	« أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى »	الكهف	٥٠	١١١
١٠٥	« إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم »	الأعراف	٢٧	١١١
١٠٦	« إلا إبليس كان من الجن »	الكهف	٥٠	١١١
١٠٧	« والجانَّ خلقناه من قبل من نار السَّموم »	الحجر	٢٧	١١٢
١٠٨	« من شر الوسواس ، الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس »	الناس	٤	١١٢
١٠٩	« كالذى يتخبطه الشيطان من المس »	البقرة	٢٧٥	١١٣
١١٠	« ولا تقف ما ليس لك به علم »	الإسراء	٣٦	١١٣
١١١	« وما أرسلنا من قبلك إلاَّ رجالاً نوحى إليهم »	النحل	٤٣	١١٩
١١٢	« وأوحى ربك إلى النحل »	النحل	٦٨	١١٩
١١٣	« شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا »	الأنعام	١١٢	١١٩
١١٤	« وامرأته قائمة فضحكت ، فبشرناها بإسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، قالت : يا ويلتا أألد وأنا عجوز ، وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب ، قالوا أتعجبين من أمر الله ، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت »	هود	٧١ – ٧٣	١٢٠
١١٥	« إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلامًا زكيا »	مريم	١٩	١٢٠
١١٦	« أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح »	مريم	٥٨	١٢١
١١٧	« وأمه صدِّيقة »	المائدة	٧٥	١٢١
١١٨	« يوسف أيها الصّديق »	يوسف	٤٦	١٢١
١١٩	« تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض »	البقرة	٢٥٣	١٢١
١٢٠	« لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا »	الحديد	١٠	١٢٥

رقم مسلسل	الآيـــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
١٢١	« قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم إنى ملك إنْ أتبع إلا ما يوحى إلىَّ »	الأنعام	٥٠	١٢٦
١٢٢	« إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاعٍ ثِمَّ أمين »	التكوير	٢٠	١٢٦
١٢٣	« وما صاحبكم بمجنون »	التكوير	٢٢	١٢٦
١٢٤	« ولقد رآه بالأفق المبين »	التكوير	٢٣	١٢٦
١٢٥	« ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى إذ يغشى السِّدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى »	النجم	١٣ – ١٨	١٢٦
١٢٦	« جاعل الملائكة رسلاً »	فاطر	١	١٢٧
١٢٧	« الله يصطفى من الملائكة رسلاً ، ومن الناس »	الحج	٧٥	١٢٧
١٢٨	« أولئك الذين أنعم الله عليهم »			١٢٧
١٢٩	« ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك »	النساء	١٦٤	١٢٧
١٣٠	« إن الله اصطفى آدم ونوحًا ، وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين »	آل عمران	٣٤	١٢٨
١٣١	« كنتم خير أمة أخرجت للناس »	آل عمران	٥	١٢٨
١٣٢	« يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأنى فضلتكم على العالمين »	البقرة	٤٧	١٢٨
١٣٣	« الذين آمنوا وعملوا الصّالحات أولئك هم خير البرية »	البينة	٧	١٢٨
١٣٤	« ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدًا ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل »	يوسف	١٠٠	١٢٩
١٣٥	« إنى رأيت أحد عشر كوكبا ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين »	يوسف	٤	١٢٩
١٣٦	« تتلقّاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون »	الأنبياء	١٠٣	١٣٠
١٣٧	« والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم »	الرعد	٢٣	١٣٠
١٣٨	« والسّحاب المسخّر بين السماء والأرض »	البقرة	١٦٤	١٣١
١٣٩	« سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما »	الحاقه	٧	١٣١
١٤٠	« بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون »	الأنبياء	٢٧	١٣١
١٤١	« ويستغفرون لمن فى الأرض »	الشورى	٥	١٣١

رقم مسلسل	الآيــــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
١٦٣	« قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّامًا تدعو فله الأسماء الحسنى »	الإسراء	١١٠	١٤٢
١٦٤	« ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه »	الأنعام	١٢١	١٤٢
١٦٥	« ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق »	المؤمنون	١٧	١٤٨
١٦٦	« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون »	يس	٣٩ ، ٤٠	١٤٨
١٦٧	« والسماء ذات البروج »	البروج	١	١٤٨
١٦٨	« لتعلموا عدد السنين والحساب »	يونس	٥	١٤٨
١٦٩	« فأحيينا به الأرض بعد موتها »	فاطر	٩	١٤٩
١٧٠	« فأخرجنا به من كل الثمرات »	الأعراف	٥٧	١٤٩
١٧١	« فأنبتنا به جنَّاتٍ وحبَّ الحصيد »	ق	٩	١٤٩
١٧٢	« ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم »	الكهف	٥١	١٥١
١٧٣	« هذا خلق الله »	لقمان	١١	١٥١
١٧٤	« وخلق كلَّ شيءٍ فقدره تقديرًا »	الفرقان	٢	١٥١
١٧٥	« إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى »	الحج	١	١٥٥
١٧٦	« وقد خلقتك من قبلُ ولم تك شيئًا »	مريم	٩	١٥٦
١٧٧	« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا »	الدهر	١	١٥٦
١٧٨	« إنَّا كلَّ شيءٍ خلقناه بقدر »	القمر	٤٩	١٥٦
١٧٩	« أين شركائى »	النحل	٥٧	١٥٧
١٨٠	« ولو علم الله فيهم خيرًا لأسمعهم »	الأنفال	٢٣	١٥٨
١٨١	« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين »	آل عمران	١٤٢	١٦٣
١٨٢	« فماذا بعد الحق إلَّا الضلال »	يونس	٣٢	١٦٩
١٨٣	« ليُحق الحقَّ ويبطل الباطل »	الأنفال	٨	١٦٩
١٨٤	« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »	الزمر	٩	١٦٩
١٨٥	« وخلق كل شيء »	الفرقان	٢	١٦٩
١٨٦	« إنَّا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا . قالوا نعم »	الأعراف	٤٤ ، ٤٥	١٦٩

رقم مسلسل	الآيـــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
١٨٧	« وإذا خلا بعضهم إلى بعض »	البقرة	٧٦	١٧٠
١٨٨	« يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا »	الأنعام	١١٢	١٧٠
١٨٩	« فلأمه الثلث » « فلأمه السدس » « فلها النصف » « ولهن الربع » « فلهن الثمن » .	النساء	١١	١٧٠
١٩٠	« ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم ، تلك عَشَرة كاملة »	البقرة	١٩٦	١٧٠
١٩١	« ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم »	الأعراف	١١	١٧٣
١٩٢	« ثم أنشأناه خلقا آخر »	المؤمنون	١٤	١٧٤
١٩٣	« خلقا من بعد خلق »	الزمر	٦	١٧٤
١٩٤	« إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده »	فاطر	٤١	١٧٧
١٩٥	« فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج »	الحج	٥	١٨١
١٩٦	« تلفح وجوههم النار »	المؤمنون	١٠٤	١٨١
١٩٧	« وإن يستغيثوا يغاثوا بماءٍ كالمهل يشوى الوجوه »	الكهف	٢٩	١٨١
١٩٨	« ومن قتل مؤمنا خطأً فتحرير رقبة مؤمنة »	النساء	٩٢	١٨٢
١٩٩	« إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه »	فاطر	١٠	١٨٢
٢٠٠	« أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم »	آل عمران	١٤٤	١٨٢
٢٠١	« على شفا جرف هارٍ فانهار به »	التوبة	١٠٩	١٨٢
٢٠٢	« فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »	الأنفال	١٧	١٨٢
٢٠٣	« أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون »	الواقعه	٦٣	١٨٢
٢٠٤	« يا نار كونى بردًا وسلاما على إبراهيم »	الأنبياء	٦٩	١٨٦
٢٠٥	« قل نار جهنّم أشد حرًّا لو كانوا يفقهون »	التوبة	٨١	١٨٦
٢٠٦	« وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين »	المؤمنون	٢٠	١٨٦
٢٠٧	« ومن ثمرات النخيل تتخذون منه سكرًا ورزقا حسنا »	النحل	٦٧	١٩١
٢٠٨	« خلق الإنسان من صَلصال كالفخّار »	الرحمن	١٤	١٩١
٢٠٩	« فلينظر الإنسان ممَّ خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب »	الطارق	٥ – ٧	١٩١
٢١٠	« أيحسب الإنسان أن يترك سُدًى ، ألم يك نطفة من منىٍّ يمنى ثم كان علقة فخلق فسوَّى »	القيامة	٣٦ – ٣٨	١٩١

رقم مسلسل	الآيــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
٢١١	« إنَّ الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسَّه الشرُّ جزوعًا ، وإذا مسَّه الخير منوعا »	المعارج	١٩ ، ٢٠	١٩١
٢١٢	« ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرًا »	النساء	٨٢	١٩٢
٢١٣	« أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوبٌ يعقلون بها »	الحج	٤٦	١٩٩
٢١٤	« كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون »	النور	٦١	١٩٩
٢١٥	« أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلَّا كالأنعام بل هم أضل سبيلا »	الفرقان	٤٤	١٩٩
٢١٦	« ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون »	يونس	١٠٠	١٩٩
٢١٧	« وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوًا ولعبا ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون »	المائدة	٥٨	١٩٩
٢١٨	« إن شرًّا الدوابِّ عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون »	الأنفال	٥٥	١٩٩
٢١٩	« وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير »	الملك	١٠	٢٠٠
٢٢٠	« ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكةُ باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون »	الأنعام	٩٣	٢٠٢
٢٢١	« الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمّى »	الزمر	٤٢	٢٠٤
٢٢٢	« والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون »			٢٠٤
٢٢٣	« وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ؟ قالوا : بلى »	الأعراف	١٧٢	٢٠٤
٢٢٤	« كل نفس ذائقة الموت »	آل عمران	١٨٥	٢١٦
٢٢٥	« أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهوان »	الأنعام	٩٣	٢١٦
٢٢٦	« وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم »	البقرة	٢٨	٢١٦
٢٢٧	« وإنَّ الدَّار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون »	العنكبوت	٦٤	٢١٦
٢٢٨	« هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت »	يونس	٣٠	٢٢٠
٢٢٩	« اليوم تجزى كلُّ نفس بما كسبت لا ظلم اليوم »	غافر	١٧	٢٢٠
٢٣٠	« كل امرىءٍ بما كسب رهين »	الطور	٢١	٢٢٠
٢٣١	« إنَّ النفس لأمَّارة بالسوء »	يوسف	٥٣	٢٢٠
٢٣٢	« ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب »	غافر	٤٦	٢٢٠
٢٣٣	« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى »	الإسراء	٨٥	٢٢١
٢٣٤	« إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون »	النحل	٤٠	٢٢٥

رقم مسلسل	الآيــة	السورة	رقم الآية	الصفحة
٢٣٥	« إنَّ كيدكن عظيم »	يوسف	٢٨	٢٣٩
٢٣٦	« فصبر جميل »	يوسف	١٨	٢٣٩
٢٣٧	« أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا »	النحل	٧٨	٢٤١
٢٣٨	« إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان »	النجم	٢٣	٢٤٢
٢٣٩	« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا »	الحجرات	٩	٢٤٣
٢٤٠	« فإن تابوا ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين »	التوبة	١١	٢٤٣
٢٤١	« ولا تقف ما ليس لك به علم »	الإسراء	٣٦	٢٤٣
٢٤٢	« آمِنُوا بالله ورسوله »	النساء	١٣٦	٢٤٣
٢٤٣	« إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا »	النصر	١ ، ٢	٢٤٤
٢٤٤	« ومن يتعدَّ حدود الله فقد ظلم نفسه »	الطلاق	١	٢٤٥
٢٤٥	« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلّموا تسليما »	النساء	٦٥	٢٤٥
٢٤٦	« إنَّ الظنَّ لا يغنى من الحق شيئًا »	يونس	٣٦	٢٤٧
٢٤٧	« إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون »	الحجر	٩	٢٤٧
٢٤٨	« وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون »	البقرة	١٦٩	٢٤٧
٢٤٩	« ظلماتٌ بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها »	النور	٤٠	٢٧٤
٢٥٠	« يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا »	البقرة	٢٠	٢٧٤

فهـرس الأحاديـث النبويـة

مسلسل	الأحاديث	رقم الصفحة
٤٧	« إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله ، فإن أمسك عليك فأدركته قد قتل ولم يأكل منه فكل ، وإن وجدت مع كلبك كلبا غيره وقد قتل حيا فاذبحه وان أدركته فلا تأكل فإنك لا تدرى أيهما قتله ، وإن رميت بسهمك فاذكر اسم الله ، فإن غاب عنك يوما فلم تجد فيه إلّا أثر سهمك فكل إن شئت ، وإن وجدته غريقا فى الماء فلا تأكل »	١٤٣
٤٨	« إن لى أسماء ، أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يُحشر الناس على قدمىَّ ، وأنا العاقب الذى ليس بعده أحد »	١٤٣
٤٩	« تسمَّوا باسمى ، ولا تكتنُوا بكنيتى »	١٤٣
٥٠	قال رسول الله ﷺ : « إنى لأعلم إذا كنت عنّى راضية وإذا كنت علىَّ غضبى » قالت فقلت : « ومن أين تعرف ذلك ؟ قال : أمّا إذا كنت عنّى راضية فإنك تقولين : لا ورب محمد ، وإذا كنت غضبى ، قلت : لا ورب إبراهيم ، قالت : قلت : أجل والله يا رسول الله ، ما أهجر إلا اسمك »	١٤٣
٥١	« إن أحب أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » وأصدق الأسماء همام والحارث	١٤٣
٥٢	« أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأمّا من قال مُطِرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب »	١٤٨
٥٣	أخبر رسول الله ﷺ : أنه رأى عند سماء الدنيا ليلة أسرى به عن يمين آدم وعن يساره نسم بنيه ، فأهل السعادة عن يمينه ، وأهل الشقاء عن يساره عليه السلام »	٢٠٤
٥٤	إن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر فى الجنة	٢٢٠
٥٥	« أمرت أن أقاتل الناس حتّى يشهدوا أن لا إله إلّا الله ، وأنّى رسول الله ، ويؤمنوا بما أرسلت به »	٢٤٣
٥٦	« واما المنافق أو المرتاب فانه يقال له ما قولك فى هذا الرجل يعنى رسول الله ﷺ فيقول : لا أدرى سمعت الناس يقولون شيئا فقلته »	٢٤٦
٥٧	« إياكم والظن فإن الظن اكذب الحديث »	٢٤٧

فهرس الأماكن والبلدان

حرف الباء

حرف الجيم

حرف الخاء

حرف السين والشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين والغين

حرف الفاء والقاف

حرف الكاف

حرف الميم

حرف النون

حرف الياء

فهرس الفرق والملل والنحل

حرف الألف

حرف الباء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاء

حرف السين والشين

حرف الصاد

حرف العين والغين

حرف القاف والكاف

حرف الميم

حرف النون

حرف الياء

فهـرس الاعـلام

حرف الألف

حرف الباء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

الكنــى

الأبناء

فهـرس الأشـعار

صفحة

٨ وقال النابغة :

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم
من الجود والأحــلام غير عوازب ١١٦

٩ وقال النابغة :

كلينــى لهم يا أميمــة ناصب
وليــل أقاسيــه بطــىء الكــواكب ١١٦

١٠ قال الشاعر :

تقــول وقــد درأت لها وضينــى
أهــذا دينــه أبــدًا ودينــى ١١٧

١١ وقال الشاعر :

قد عود الطير عادات وثقن بها
فهــن يصحبنــه فى كل مرتحل ١١٧

١٢ وقال حميد بن ثور الهلالى :

سل الربع أنّى يمّمت أم سالم
وهــل عادة للربــع أن يتكلمــا ١١٧

١٣ قال لبيد :

تمنى ابنتــاى أن يعــيش أبــوهما
وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما
ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر ١٣٥

١٤ وقال أحمد بن حداد :

هيهات يا أخت آل بما غلطت
فــى الأســـم والمســـمــى
لو كان ذاك وقيــــل سم
مات إذن من يقـــول سما ١٤٤

١٥ قال أبو ساسان حصين بن المنذر :

وسميت غياظــاً ولست بغائــظ
عدواً ولكــن الصديــق تغيــظ ١٣٩

١٦ قال الشاعر :

لقــد تمخض فى قلبــى مودتها
كما يمخض فى إيــريجه اللبــن ١٨٨

فهرس الموضوعات